Readonly

في أروقة التاريخ (٣)..... محمد إلهامي

Readonly

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها





Kitab ismi:	Fi evrak tarih.
Yazar:	Muhammed İlhami.
baskı yılı:	2022
birinci baskı	
tüm baskı hakları mahfuzdur	

تركيا - إسطنبول

00905378167783

00902125146104

www.dar-alusool.com

info@dar-alusool.com

daralusool - usool2017

دار الأصول العلمية
AL-USOOL AL-ELMIYAH

Balabanağa Mah. Büyük Reşitpaşa Cad. 16B/15,

Fatih - İstanbul

Readonly

في أروقة التاريخ (٣)..... محمد إلهامي

الجزء الثالث



Readonly

إهداء

إلى زوجي.. آيات..

خلف كل كلمة أكتبها مجهود تبذله في توفير أسباب الكتابة..

فهي جديرة بأن يُهدى لها كل ما أكتب..

لكنها المرة الأولى التي أهدي إليها فيها كتابًا..

أدام الله عليكِ نعمَه، وأدام عليَّ نعمته بكِ..

محمد

* * *

Readonly

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	٤
المحتويات	٥
مقدمة	١٥
الباب الأول: في أروقة التاريخ المصري العثماني	٢١
الهوية والتاريخ	٢٣
صراع الهوية في ساحة التاريخ	٢٤
الصراع على الهوية في بلادنا الإسلامية	٢٦
المتحف: أداة الاستعمار في تشكيل التاريخ وفق الهوية المصنوعة	٢٨
الجامعة: آلة إنتاج التاريخ الجديد	٣١
الإعلام والثقافة: تكوين الهوية باللغة الشعبية	٣٦
شخصية العام: السلطان عبد الحميد الثاني	٣٨
الخاتمة	٤١
موجز تاريخ العلاقات المصرية – العثمانية والتركية	٤٣
الأتراك ومصر ما قبل العثمانيين	٤٥
أتراك يحكمون مصر	٤٦

Readonly

الموضوع	الصفحة

دولة المماليك ٥٠

العلاقات المصرية العثمانية..... ٥٢

الفتح العثماني لمصر ٥٣

مصر العثمانية..... ٥٦

الحملة الفرنسية ٦٠

حقبة الأسرة العلوية ٦٢

الاحتلال الإنجليزي لمصر ٦٨

العلاقات المصرية التركية ٧٤

ثلاثة أرباع قرن من اللا مبالاة ٧٥

عصر «العدالة والتنمية»: العودة إلى الشرق..... ٧٨

الثورة والانقلاب: ثورة وانقلاب في العلاقات التركية المصرية ٨٢

مستقبل العلاقات المصرية التركية ٨٧

أهمية مصر وتركيا في المنطقة ٨٨

توقعات غربية للعلاقات المصرية التركية ٩١

خاتمة ٩٤

صورة مصر في عهد السلطان سليمان القانوني ٩٥

الأحوال السياسية..... ٩٨

حقبة الاضطرابات ٩٨

حقبة الاستقرار ١٠٤

الأوضاع العسكرية ١١١

Readonly

الموضوع	الصفحة

النظام الإداري ١١٦

الأوضاع الاقتصادية ١٢٣

الخاتمة ١٣٢

أوقاف الولاة العثمانيين بالقاهرة: تاريخها وآثارها ١٣٥

تمهيد: الحكم العثماني لمصر وطبيعة الوقف ١٣٧

١. الحكم العثماني لمصر ١٣٧

٢. الآثار الاقتصادية لدخول مصر في السلطنة العثمانية ١٣٩

٣. الأوقاف الإسلامية بين السلطة والمجتمع ١٤١

تاريخ الأوقاف العثمانية في القاهرة ١٤٤

الولاة العثمانيون بمصر وأوقافهم ١٤٥

طبيعة ودوافع الأوقاف العثمانية بالقاهرة ١٥١

آثار الأوقاف العثمانية على مجتمع القاهرة ١٥٥

آثار عمرانية ١٥٦

آثار اقتصادية ١٥٩

آثار اجتماعية ١٦٢

الخاتمة ١٦٨

ملحق: مساحة أراض زراعية موقوفة على بعض منشآت القاهرة ١٧٠

سياسة محمد علي باشا تجاه أوقاف بيت المقدس ١٧١

سياسة محمد علي في الشام ١٧٢

الأوقاف كنقيض بين النظام الإسلامي والدولة الحديثة ١٧٥

Readonly

الموضوع	الصفحة

سياسة محمد علي تجاه الأوقاف الإسلامية ١٧٩

سياسة محمد علي تجاه الأوقاف اليهودية والمسيحية ١٨٦

الخاتمة ١٩١

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الثورة العرابية ١٩٣

تمهيد: دوافع العلاقة بين السلطان عبد الحميد والثورة العرابية ١٩٦

دعم عبد الحميد الثاني للثورة العرابية ١٩٩

١. المماطلة في إرسال قوات لدعم الخديوي ١٩٩

٢. بعثة نظامي ودورها ٢٠١

٣. العلاقات السرية بين عرابي والسلطان ٢٠٥

٤. بعثة درويش ودورها والتكريم العلني لعرابي ٢١٣

٥. المجهود الدبلوماسي ومؤتمر الآستانة ٢٣٣

منشور عصيان عرابي ٢٤٤

١. سياق صدور منشور العصيان ٢٤٤

٢. موقف عرابي وأثر منشور العصيان على واقع المعارك ٢٥٤

الخاتمة: محنة الشرعية مع الجواد الخاسر ٢٦١

معضلات التاريخ للسلطان عبد الحميد الثاني ٢٦٣

التاريخ يكتبه المنتصر ٢٦٤

التاريخ يكتبه الحاضر ٢٧١

التاريخ يكتبه إنسان ٢٧٦

كتاب: عبد الحميد الثاني في الذاكرة العربية ٢٨٣

Readonly

الموضوع	الصفحة

الباب الثاني: في أروقة الحركة الإسلامية..... ٢٨٩

حماس: أزمة الفكر السياسي تحت إكراه الواقع المعقد ٢٩١

حماس غزة: صورة مصغرة مكثفة لتحديات إنتاج تجربة إسلامية ٢٩٢

الجانب المحافظ من تجربة حماس..... ٣٠١

الجانب الثوري من تجربة حماس..... ٣١١

الخاتمة..... ٣١٧

تحديات المستقبل أمام الحركة الإسلامية..... ٣٢٠

نُذُرٌ من المستقبل ٣٢١

الحركة الإسلامية: أثقال الإخفاق! ٣٢٣

سؤال القضية المركزية..... ٣٢٥

سؤال الأداة المركزية ٣٢٩

مستقبل مصر بين النفوذ الخارجي والاستبداد الداخلي ٣٣٤

تأسيس النفوذ الأجنبي في مصر..... ٣٣٥

اتحاد الاحتلال الخارجي بالاستبداد الداخلي..... ٣٤٠

وظيفة الجيش المصري..... ٣٤٢

مستقبل مصر ٣٤٤

إسهام الشيخ يوسف القرضاوي في باب التاريخ ٣٤٩

مدرسة القرضاوي والتاريخ..... ٣٥١

عصر القرضاوي وقضاياه..... ٣٥٣

التاريخ في مشروع القرضاوي ٣٥٥

Readonly

الموضوع	الصفحة

منهج القرضاوي في التعرض للتاريخ ٣٦٠

دفاع القرضاوي عن التاريخ الإسلامي ٣٦٥

في وجه الغربيين..... ٣٦٥

في وجه العلمانيين والمتغربين..... ٣٦٦

في وجه شطط العلماء والدعاة..... ٣٦٩

القرضاوي والتاريخ المعاصر ٣٧٠

واقع الأمة ٣٧٠

تاريخ الإخوان المسلمين ٣٧٢

مذكرات القرضاوي ٣٧٣

القرضاوي وتراجم الرجال ٣٧٥

تراجم القرضاوي..... ٣٧٥

منهج القرضاوي في الترجمة ٣٧٨

ما يؤخذ على الشيخ ٣٨٢

قناة السويس كخط جيوسياسي استراتيجي لإسرائيل..... ٣٨٧

التشابه والارتباط بين قضيتي: إسرائيل وقناة السويس ٣٨٨

١. العمق التاريخي ٣٨٩

٢. الإرادة الاستعمارية..... ٣٩١

٣. التنفيذ الأجنبي عبر الحكومات التابعة ٣٩٣

آثار حفر قناة السويس على المنطقة قبل إنشاء إسرائيل ٣٩٥

قناة السويس كمركز للشبكة الاستعمارية..... ٣٩٦

Readonly

الموضوع	الصفحة

أخطار وأضرار قناة السويس على مصر..... ٣٩٨

قناة السويس كخط جيو سياسي ـ استراتيجي لإسرائيل..... ٤٠١

حرب ١٩٥٦: قناة السويس كتهديد خلفي للقوات المصرية..... ٤٠٢

حرب ١٩٦٧: قناة السويس كحدود متقدمة لإسرائيل ٤٠٣

حرب ١٩٧٣: قناة السويس كعائق منيع للقوات المصرية ٤٠٤

اتفاقية السلام: قناة السويس كخط «سلام» فاصل ٤٠٦

الخطة الدائمة: زيادة التفريعات ٤٠٦

الخاتمة: الحلول المطروحة لملف قناة السويس ٤٠٩

١. التوعية ٤١٠

٢. التنمية..... ٤١١

٣. إزالة القناة..... ٤١٢

الباب الثالث: في أروقة الأحداث (مقالات) ٤١٥

في مسألة الليرة التركية، بعض أمور غائبة..... ٤١٧

معركة ملاذ كرد..... ٤٢٩

مقدمة ٤٢٩

معركة لا بد منها ٤٣٠

ما قبل المعركة..... ٤٣٢

المعركة..... ٤٣٤

نتائج المعركة..... ٤٣٦

ملاذ كرد في الذاكرة المعاصرة..... ٤٣٨

Readonly

الموضوع	الصفحة

جناية الأنظمة العلمانية على الأوقاف الإسلامية..... ٤٤٠

فكرة الأوقاف وآثارها ٤٤٠

التطور الغربي إلى الدولة المركزية ٤٤١

حين جاءت «العلمانية» و«الدولة المركزية» إلينا..... ٤٤٤

الأوقاف تهديد للعلمانية والتبعية الغربية ٤٤٨

الفروسية الإسلامية..... ٤٥٠

صناعة مناعة المجتمع ٤٥٧

زينب زوجة الأمراء..... ٤٦٢

سنن الانتقال من الذل إلى المجد ٤٦٨

بعض ما فقهه هنتنجتون..... ٤٧٥

فشل وانحسار العلمانية ظاهرة عالمية..... ٤٧٨

فرض التغريب على مجتمعات لا تقبله يصنع «البلدان الممزقة»..... ٤٧٩

ضرورة العودة إلى الهوية والمحلية لصناعة إنجاز..... ٤٨١

التحول الديمقراطي يتصادم مع التغريب ٤٨٥

صناعة مجتمع الجسد الواحد..... ٤٨٧

القرار الأول: بناء المسجد ٤٩٠

القرار الثاني: الإخاء بين المهاجرين والأنصار..... ٤٩١

القرار الثالث: إصدار وثيقة المدينة..... ٤٩٢

القرار الرابع: إنشاء السوق ٤٩٣

دروس منسية من فتح دمشق ٤٩٨

Readonly

الموضوع	الصفحة

١. موجز قصة الفتح ٤٩٨
٢. السلطة والدين: صراع الدنيا والآخرة ٥٠٠
٣. العواصم السياسية قبل الدينية ٥٠١
٤. المخابرات والفتح ٥٠٢
في ذكرى وفاة جلال كشك ٥٠٤
موجز قصة النكبة الفلسطينية ٥١٠
مات «هيكل»: نكبة الأمة العربية ٥٢١
ما الفارق بين الفتح الإسلامي والاحتلال الغربي ٥٣٢
من مغالطات التغريبيين في «الحرية بين الإسلام والغرب» ٥٣٧
(١) التعميم والتخصيص ٥٣٧
(٢) اللحظة والتاريخ ٥٣٨
(٣) النظرية والواقع ٥٤٠
خاتمة ٥٤٣

* * *

Readonly

Readonly

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله..

أحمد الله تعالى حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فهذا هو الجزء الثالث من سلسلة «في أروقة التاريخ» التي أجمع فيها بعض ما كتبته من دراسات وبحوث ومقالات، ألقيت في مؤتمرات علمية أو نُشرت في مشروعات بحثية أوسع، أو كُتِبَت في ظروف مختلفة، والغرض ـ كما ذكرتُ وأكرر ـ هو أن هذه الكتابات كانت ستضيع لو لم تُجْمَع، كما نعرف بالتجربة من ضياع كثير من الكتابات القيمة لكثير من الأدباء والعلماء والمفكرين إلا أن يرزقهم الله بباحث معجب فيجتهد في جمع ما كتبوا مما تناثر في الصحف والمجلات والمؤتمرات. ولما كنتُ أعرف من نفسي أني أصغر وأحقر من أن يجتهد أحد لجمع ما أكتب، كما أعرف من نفسي أني قد أحتاج إلى حسنة واحدة أنتفع بها بعد موتي، فإني أحاول عبر هذه السلسلة أن أجمع ما تناثر مما أكتب فلعل شيئًا منه ينفعني بحسنةٍ أنا لا ريب محتاجٌ إليها.

وعندما أتصور هذه الغاية أعرف أن الخطر الأكبر الذي قد يهددها هو ما يخالط هذه الكتابة من أغراض الدنيا والنفس، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وهو أغنى الشركاء عن الشرك، فذلك هو اختبار الإخلاص، وهو اختبار صعب عسير، يجد منه المرء عنتًا كبيرًا في تغريدة محدودة الحروف، يتلبسها من الأغراض حب المدح وأن يقال: حكيم أو ذكي أو مُفْحِم، فكيف إن كان كتابة طويلة؟ ثم كيف إن

Readonly

هي كانت في مؤتمر أو كانت ضمن عمل بحثي أوسع؟.. هنا يتلبس هذا العمل شهوة حب الظهور والشهرة ومنافسة الأقرن ونحو ذلك، وتلك مزالق لا ينجو منها إلا من عصمه الله.

على أنَّي أحسبُ أنَّي أضمن من كل ذلك شيئًا واحدًا، أنه لم تحركني لكتابة حرف رغبة مسبقة في إرضاء أحد أو نفاقه أو الثناء عليه، بل سائر ما كتبتُ ولله الحمد كان مبدأ أمري فيه إرادة الحق والنصح للمسلمين، وقد مرَّت علي لحظات تهددني فيها مرضٌ حتى ظننت أني قد قاربت مفارقة الحياة فسألت نفسي: ترى ما الذي أندم الآن على كتابته وأنا مقبل على الله؟ ففتشتُ في رأسي فلم أجد شيئًا ندمت على كتابته! فسائر ما كتبته ولله الحمد والفضل هو ما أنا عليه الآن، وحتى الذي تبين أني أخطأت فيه الصواب إنما كان هو ما أدين الله به في وقته بحسب ما وصل إليه علمي. فكان هذا الخاطر مما طمأنني في هذه اللحظة.

لكن أعود للقول: لئن لم يحركني شيء إلى الكتابة نفسها إلا إرادة الحق والنصح للمسلمين، فإني لا أضمن أن هذا القدر من التجرد بقي قائمًا وأنا أكتب، أو وأنا ألقيه في مؤتمر، أو حين نشرته، تحت كل حرف يكمن اختبار الكاتب في باب الإخلاص، إذ يخيل إليه عند الجملة يستحسنها ماذا قد يكون وقعها على القارئ أو السامع، أو عند الفكرة يبتكرها ماذا قد يُقال في الثناء عليه وعلى ذكائه، أو عند صياغة بليغة ماذا قد تؤثر في أصحاب الذوق الأدبي.. وأمور أخرى يعرفها الكاتب من نفسه، كلها يجعل اختبار الإخلاص امتحانًا عسيرًا!

على أن ثمة فائدة لا تزال تتطور وتنضج ولا بد من الإشارة إليها في صدر الحديث عن التاريخ وقضاياه، إن التاريخ لا يُفهم إلا في ضوء تصورٍ كبير أو فلسفة

Readonly

تُفَسِّره، وسيظل فهمنا لتاريخنا الإسلامي ولبقية تاريخ البشر مخدوشًا ما لم يتشرب قارئ التاريخ المسلم التصور القرآني للحياة. تلك الفائدة تتأكد عندي مع كل سطر في كل كتاب أقرؤه. سيتحول التاريخ إلى مادة غير مفهومة أو غير قابلة للاستفادة منها إذا لم تكن قراءته في ضوء فلسفة، ثم سيتحول إلى مادة مُضِلَّة ومشوشة وكثيرة الخلط إذا كانت فلسفة قراءته وضعية أرضية على نحو الفلسفات الكثيرة التي تحاول تفسير التاريخ. وحدها القراءة القرآنية هي القادرة على تحويل تاريخنا الذي نقرؤه إلى استفادة حية.

ومن نافلة القول أنَّ الناس متفاوتون في فهم القرآن وفي فهم التاريخ، ثم في فهم التاريخ في ضوء القرآن، وأن هذا ينتج بالضرورة طيفًا واسعًا من التحليل التاريخي. ومع هذا، فإن هذا الطيف الواسع هو أفضل كثيرًا كثيرًا من متاهات القراءات التاريخية الناتجة عن قراءته في ضوء العديد من الفلسفات المتضاربة. بل الصراع في بلادنا المسلمة هو في جانب أصيل منه صراع التفسير والمفهوم والقراءة للواقع وللتاريخ، ولئن انتصرت علينا وسائل أعدائنا وأدواتهم وتحكمت فينا تفسيراتهم ومفاهيمهم وفلسفاتهم، فنحن لا محالة صائرون إلى أن نكون جزءًا منهم.

وفي واقعنا الآن فإن هذا التأثر بالثقافة الغربية الغالبة قد بلغ حدًّا كارثيًّا، وصلت معه الأمور إلى أن بعض قادة الحركات «الإسلامية» قد صاروا يُنتجون خطابًا «إسلاميًّا» متساوقًا مع الحداثة الغربية، وهذه حالة معروفة في خطاب الجماعات المهزومة التي تنتج تأويلًا جديدًا لعقيدتها متمازجًا مع أفكار الذي غلب عليها. ولهذا يشتعل الجدل المحموم حول تفسير القرآن وحول ثبوت السنة وحجيتها وحول أصول الفقه وحول اللغة.. فأي كسر في باب من هذه الأربعة هو كسر في صلابة ورسوخ الفكرة الإسلامية. ولهذا فإن النعمة العظمى على هذه الأمة أن الله

Readonly

قد حفظ كتابه وعصمه، فصار نصه مغلقًا أمام التحريف والتبديل، ولهذا اقتصرت محاولات الأعداء والذين استجابوا لهم على العبث بالمعاني بالتأويل والتماس المتشابه وضرب القرآن بعضه ببعض، ولولا ذلك لوجدتَ معركة على القرآن تشبه المعركة الدائرة على السنة: ثبوتها وحجيتها والمسالك الفاسدة في التعامل معها.

والمقصود الذي يهمنا الآن أن قراءة وفهم تاريخنا وتاريخ الإنسان لن يتسنى على وجهه الصحيح إذا لم تكن لنا الهداية القرآنية، ولقد كان تعليم التاريخ في صدر هذه الأمة وخير قرونها جاريًا على هذا المنهج، فكما ورد عن غير واحد من الصحابة والتابعين قولهم: «كُنَّا نعلم أولادنا مغازي النبي ﷺ كما نعلمهم السورة من القرآن». وحيث إننا بعدنا كثيرًا عن فهم القرآن من حيث عجمة الألسنة وتباعد العهد، فإن هذا يضع على المؤرخين المسلمين والباحثين في التاريخ مهمة ثقيلة أتصورها في ثلاث مراحل.

الأولى: في بيان هدايات القرآن وطرائق عرضه للتاريخ وأسلوبه في استخلاص الدروس والعبر منها، إذ لم تزل الدراسات في هذا الباب قليلة من حيث العدد، ثم هي بحاجة إلى مزيد تطوير وإنضاج وعمق.

والثانية: إنتاج الدراسات التاريخية المتنوعة والمعمقة الجارية على هدايات القرآن في العرض والفهم والتفسير.

والثالثة: تحويل هذا الإنتاج إلى مواد معروضة مسموعة ومرئية صالحة للصغار والكبار ومن ليسوا من أهل القراءة والبحث.

وليست السطور القادمة في هذا الكتاب مندرجة ضمن هذا المنهج المُتَصَوَّر، بل هي على الحقيقة في مرحلة قبله، إننا لا نزال نحاول استكشاف التاريخ والوقائع ولا نزال معها نجاهد الرواية السائدة التي هي مناقضة للهداية القرآنية، إنما هي رواية

Readonly

الغالب الذي أنتج قراءاته وتفسيراته لتاريخ بلادنا حتى قرأنا بعيون قومية ووطنية ومادية، والتبست في هذه القراءات مصالح السياسة والثقافة ومراكز قوى إنتاج الخطاب، فنحن لا زلنا نجاهد في إعادة تثبيت الخطوة الأولى من الثوابت التي تدور عليها قراءة التاريخ، فنحتاج أن نثبت ـ مثلًا ـ أن العثمانيين لم يكونوا محتلين للبلاد العربية، لأن مفهوم الاحتلال بالصيغة التي نفهمها الآن لم يكن موجودًا في ذلك الوقت أساسًا، ثم ما يستتبع هذا من رفع الأخطاء التاريخية التي عاشت زمانًا طويلًا حتى تعششت وصارت أشبه بالحقائق، كقولهم إن عهد العثمانيين كان ظلامًا مخيمًا وليلًا طويلًا على البلاد العربية، أو كالقول بأن عصر محمد علي كان عصر تأسيس عربي جديد، أو هو عصر البناء الجديد للقوة العربية أو المصرية.. إلخ!

نحن لا نزال نقاوم الرواية السائدة التي غلبت لقوة الذي أنتجها لا لكونها حقيقة تاريخية.. والتماس الهداية القرآنية هو أول وأهم وسائل فهمنا وعدة مقاومتنا، ثم لا يزال الطريق طويلًا وعسيرًا، والله المستعان.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل، وأن ينفعنا بما نقول وبما نكتب وبما نقرأ وبما نسمع، وأن يجبر بفضله كسرنا، ويتم بجوده نقصنا، ويتغمد برحمته تقصيرنا، وأن يتقبله على ما فيه فإنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

محمد إلهامي

إسطنبول

ديسمبر ٢٠١٨م

***

Readonly

Readonly

الباب الأول
في أروقة التاريخ المصري العثماني

الهوية والتاريخ

موجز تاريخ العلاقات المصرية ـ العثمانية والتركية

صورة مصر في عصر السلطان سليمان القانوني

أوقاف الولاة العثمانيين بالقاهرة: تاريخها وآثارها

سياسة محمد علي باشا تجاه أوقاف بيت المقدس

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الثورة العرابية

معضلات التاريخ للسلطان عبد الحميد الثاني

* * *

Readonly

Readonly



الهوية والتاريخ

* أُعِدَّت هذه الورقة لصالح

التقرير الإستراتيجي السنوي (٢٠١٨)

لمركز البيان للبحوث والدراسات ـ الرياض

كان باتريك بوكانان مستشارًا لثلاثة رؤساء أمريكيين، وكاد يكون مرشحًا لرئاسة أمريكا عن الحزب الجمهوري مرتين في الأعوام (١٩٩٢ ـ ١٩٩٦م)، ثم ترشح للرئاسة عن حزب «الإصلاح» عام (٢٠٠٠م)، ورغم شهرته الطاغية بين صفوف الحزب الجمهوري إلا أن اسمه لم يعرف بقدر ما ارتبط بكتابه «موت الغرب» الذي كان واحدًا من أوسع الكتب مبيعًا بعد صدوره، وذلك أنه يناقش المشكلات التي تواجه الغرب وتهدد بموته، في هذا الكتاب لوعة وحسرة ونقاش متوتر للمشكلات التي تهدد الحضارة الغربية، والتي تنحصر في شيخوخة السكان وقلة عددهم في مقابل تكاثر غير الغربيين وهجراتهم المتزايدة إلى الغرب، وكيف أن شيخوخة السكان راجعة إلى الثقافة «المسمومة» والأفكار «المسرطنة» التي تبيح ـ تحت عنوان الحرية ـ الإجهاض واللواط والعزوف عن الزواج والإنجاب وتحارب المسيحية.

ما يهمنا من هذا الآن هو ذلك الفصل الذي كتبه بعنوان «الحرب على الماضي»، ففيه يشُن هجومًا عنيفًا ضد من يتحدث عن جرائم الرجل الأبيض وتاريخه في المجازر والمذابح، ويقول بأن هذه «الحرب على الماضي» هي المسؤولة عن إنتاج

Readonly

أجيال لا تؤمن بنفسها ولا تنتمي إلى حضارتها، ولا بأس لديه في طمس كل هذا تجنبًا لتفكك أمريكا. لم يحاول الرجل أن يكون غامضًا أو متواريًا، لقد كان صريحًا للغاية في أنَّ التاريخ الذي يكتبه المؤرخون الناقدون في أمريكا يشيطن الشخصيات التي لطالما كانت أبطالًا لامعةً في الذاكرة الأمريكية، وهذا ـ كما يقول ـ خطرٌ مؤذنٌ بانهيار الشعب الأمريكي وتحلل مشاعره الوطنية، وكان طوال الفصل يحوم حول المعنى القائل: «الخطوة الأولى في تصفية أي شعب هي أن تمسح ذاكرته، دمِّر كتبه، وثقافته وتاريخه. ثم اجعل شخصًا ما يكتب كتبًا جديدة، واصنع ثقافة جديدة، واخترع تاريخًا جديدًا»[١].

هـا هـو السياسـي الأمريكي ينزعج مـن كتابة تاريـخ حقيقي، يقوم بـه مؤرخون أمريـكان، ليسـوا مدفوعين من قِبَل دولـة أخرى ولا هم متأثرين بثقافـة غالبة عليهم، ولا يتعرضـون لمحنـة احتـلال أو منافسـة حضاريـة أخـرى، إلا أنـه منزعـج مـن أن نشـر هـذا التاريخ الحقيقي سـيدمِّر الهويـة التي بُنِيَت علـى الأمجاد التـي تتهدد الآن بأنها زائفة!

صراع الهوية في ساحة التاريخ

لعل أفضل تعريف للتاريخ هو أنه «ما يحتاج الناس إلى تذكره من أحداث الماضي»[٢]، وهذا بطبيعة الحال لو أننا نتحدث عن تاريخ حيٍّ فاعلٍ في حياة الناس لا عن مفهوم أكاديمي لا تغادر ثمرته وآثاره قاعات الدرس. سيبدو التعريف واضحًا

---

(١) باتريك بوكانان، **موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب**، ترجمة: محمد محمود التوبة، ط١ (الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٥م)، ص٢٨٥ وما بعدها.

(٢) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩م**، ترجمة: كريم عزقول، (بيروت: دار النهار)، ص١٩.

Readonly

مفهومًا وبسيطًا إذا حددنا من هم أولئك «الناس»، عندئذ سنحدد بالتبعية ما الذي يحتاجون إلى تذكره، وهنا ستنشأ مسألة «الهوية»، فإذا انقسم أولئك الناس حول الهوية فإنهم ينقسمون في النظر إلى سائر الأمور، ومن بينها: التاريخ.

إن «الخلاف حول تفسير التاريخ ليس ترفًا فكريًّا، ولا ظاهرة أكاديمية، بل هو في الحقيقة خلاف حول تفسير الحاضر واختيارات المستقبل»[1]، وهذا هو خلاف الهوية حين يتخذ التاريخَ ساحةً له، إذ كل هوية لها رؤيتها وتفسيرها للتاريخ الذي ينسجم مع سلوكها في الواقع ويرسم طموحها في المستقبل.

ولذلك، ففي الأمم التي تعيش صراعًا على الهوية، يشتد الخلاف حول الأحداث والشخصيات المؤثرة في تأسيس الهويات أو في الدفاع عنها. فبعد خمسة قرون لا يزال الجدل مشتدًا حول ما إن كان الحكم العثماني للبلاد العربية احتلالًا؟ وما إن كان الغزو الغربي هو بداية خروجنا من التخلف والظلام؟ وإذا أردنا ضرب المثال على شخصيات مؤسسة أو فارقة، سنجد أنه في مصر يشتد الصراع الثقافي حول شخصيات: عمرو بن العاص، صلاح الدين الأيوبي، محمد علي باشا، جمال عبد الناصر. وفي تركيا يشتد الصراع الثقافي حول شخصيات: السلطان عبد الحميد الثاني، مصطفى كمال أتاتورك، عدنان مندريس. وفي الجزيرة العربية والشام يشتد الصراع الثقافي حول: محمد بن عبد الوهاب، عبد العزيز آل سعود، الشريف حسين بن علي.. وهكذا!

ليست الخلافات حول هذه الشخصيات وغيرها مجرد خلافات أكاديمية بين مؤرخين في قاعات الدرس، وإنما هي خلافات بين توجهات واتجاهات حية فاعلة

---

(١) محمد جلال كشك، **ودخلت الخيل الأزهر**، ط٣ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٠م)، ص٩.

Readonly

في الواقع، تمتلك كلٌّ منها رؤية عامة لهويتها وماضيها وطموحاتها وتحاول كلٌّ منها نشر نفسها وفرض هيمنتها أو الدفاع عن وجودها، وحيث كان الصراع صراع هوية فهو تعبير عن امتلاك كل طرف قوة حقيقية في المجتمع.

الصراع على الهوية في بلادنا الإسلامية

تتمثل الصورة العامة في بلادنا المسلمة في الصراع بين هويتين: الإسلامية والغربية، الإسلامية التي تتمتع بعمق اجتماعي ضارب في أعماق الشعوب والغربية التي تمتلك قوة السلطة وأدواتها، صراع حضاري بين غالب ومغلوب، غالبٍ يريد إخراج الأمة من نفسها وهويتها لتلتحق به وتكون على وِفْقِهِ ومِثالِه، ومغلوبٌ يدافع عن بقائه ويمارس الرفض بما استطاع من يد ولسان وقلب لحركة استلاب هويته، وهو صراع تلخصه الآية الكريمة ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وفي إطار هذا الصراع يُعاد نقاش سائر ما كان ثابتًا مستقرًا من الأفكار والمعاني، فيثار السؤال: هل كان هذا الذي جرى قبل أربعة عشر قرنًا فتحًا إسلاميًّا أم احتلالًا عربيًّا؟ ويثار معه السؤال المقابل: هل كان الذي جرى قبل نحو قرنين احتلالًا غربيًّا أم هو بداية عصر التنوير والحضارة الذي أخرجنا من ظلمات العصور الوسطى؟

إن توصيف حدث ما على أنه فتح أو احتلال إنما هو فرع عن الهوية التي تفسر التاريخ، وهذا بغضّ النظر عن السياسة التي سلكها الحاكمون في هذه الفترة، ذلك أن وجود الظلم أو سوء الإدارة أو غير ذلك من المساوئ لا يؤدي إلى الوصف بالاحتلال، ولا العكس أيضًا يؤدي إلى العكس: أي أن وجود الإدارة المحترفة والكفاءة التنفيذية لا يؤدي أيضًا إلى الوصف بالفتح أو الترحيب بالغزاة، إنما يتعلق الأمر في الأصل

Readonly

بتعريف الأمة لنفسها وللقاهر عليها، فقد توجد الإدارة المحترفة التي تعبر عن منظومة احتلالية بشعة تعمل بكفاءة لتصفية موارد البلد في خدمة العاصمة الاحتلالية، وقد يوجد الظلم والعسف في الحكم المحلي الداخلي، فلا يرتفع بهذا وصف الاحتلال عن الإدارة الأولى ولا يلحق وصف الاحتلال بالإدارة الثانية.

إن المؤرخ الموالي للاحتلال والمؤمن بحضارته سيسعد بلحظة الاحتلال وإدارته مهما رافقها من ظلم ودموية وسيعتبر أنَّ هذا كله من ضرورات الانتقال الحضاري ومن تكاليف الدخول إلى مرحلة التنوير والرقي، وهو نفسه يستبشع مرحلة ما قبل الاحتلال مهما أبدى حُكَّامُها بسالة وتضحية في الدفاع عن البلاد باعتبارها المرحلة المظلمة المتخلفة التي يدافع أصحابها عن مصالحهم المرتبطة بالتخلف في مواجهة النور والحضارة القادم على يد المحتل. ومن هنا فإن الحوادث التاريخية ذاتها تتلون وتصطبغ بالهوية والانحياز الحضاري المهيمن على كاتبها والتي تملي عليه تفسيرها.

نعم.. التاريخ ليس سائلًا إلى هذا الحد الذي يمكن فيه تلوين كل شيء بالمعنى ونقيضه، فالتاريخ يحمل من الحقائق الصلبة والوقائع الثابتة ما يستعصي على الاستجابة والتطويع لصالح الأهواء المختلفة والمتضاربة، ويمكن لتلك الحقائق والوقائع أن تشكل عثرة كبرى تتكسر عليها المقولات الكاذبة والأهواء الضالة وإكراهات الثقافة الغالبة. لكن المقصود هنا أن الخلاف في الهوية هو خلاف أصلي رئيسي كبير يُنتج التفسيرات المتعددة لنفس الحدث التاريخي الواحد!

وحيث لم يكن بإمكان أحد من البشر تغيير التاريخ الذي وقع وكان وانقضى، فإن الصراع الواقعي في عالم البشر هو صراع التفسير والتوصيف والتأويل والتزوير وإنتاج المعاني، ومن هنا فإن الغالب يبذل وسعه في تشكيل التاريخ وفق الهوية التي

Readonly

يسعي لترسيخها وتكوينها، وكلما توفرت القدرة على التحكم في مصادر التعليم والإعلام والثقافة كلما كانت رواية الغالب أقوى وأشهر وأغلب. وذلك هو موجز قصة الاستعمار في بلادنا الإسلامية، وإليك بعض وسائله:

المتحف: أداة الاستعمار في تشكيل التاريخ وفق الهوية المصنوعة

في نظريته الشهيرة «الجماعات المتخيلة» يتحدث عالم الاجتماع الشهير بندكت أندرسون عن أن هذه الهويات التي تشكلت في العالم الحديث ليست سوى هويات «مُتَخَيَّلة»، ذلك أنها غير مستمدة من أي حقيقة طبيعية كالدين واللغة والعرق، وإنما هي مصنوعة بأدوات السلطة، والمختصر الموجز لنظريته يفيد بأن السلطة التي امتلكت وسائل مثل الإعلام والجهاز الإداري تمكنت بهذا من أن تصنع هوية للذين تحكمهم، فهي قد صنعت الحدود التي تفصل بين الناس فيكون من بداخل هذه الحدود مواطنًا ورعية لها، تقدم له خطابًا إعلاميًّا يُرَسِّخ هذه الهوية عبر وسيلة الإعلام (منذ الطباعة وحتى التليفزيون) وعبر الإحصاء وعبر المتحف.

ما يهمنا في سياقنا الآن: الإعلام والمتحف، وسنبدأ بالمتحف؛ لأنه الوسيلة التي تعاملت حصرًا مع التاريخ، ومن هنا فلقد كان المتحف هو صورة التاريخ الذي تطالعه الأمة لنفسها، فهل كان المتحف مجرد مخزن أو صورة محايدة للآثار التاريخية؟ يجيب بندكت أندرسون بالنفي، ويقرر أن المتحف إنما كان وسيلة أنشأها الاستعمار الغربي في البلاد المستعمرة، ومن خلالها حدَّد هوية هذه الأمة المستعمرة، يقول: «الآثار التي أعيد بناؤها غالبًا ما كانت تُحاط بمروج خضراء حسنة

Readonly

التنسيق وتوضع لها لوحات شارحة هنا وهناك، مشفوعة بالتواريخ.. وبتحويلها إلى متحف على هذا النحو، فإنَّ هذه الآثار كان يُعاد تحديد موقعها بوصفها عُدّة دولة كولونيالية علمانية وزينتها»[1].

لقد نشأت المتاحف في بلادنا في ظل الاستعمار الغربي الحديث، وأكثر الآثار التي استخرجت من أراضينا إنما كانت على يد الفرق الاستكشافية الأجنبية، وكان لها اهتمام خاص بتواريخ ما قبل الإسلام: كالفراعنة في مصر والآشوريين والبابليين في العراق والفينيقيين في الشام، ومن ثَمَّ أعيد تشكيل الهوية التي تجعل المسلمين أممًا مستقلةً على ذات النمط الذي كان قديمًا قبل الإسلام، نمط الحضارات السابقة التي تجعل المصريين أمة مستقلة عن العراقيين عن الشاميين عن المغاربة، وكل أمة من هذه الأمم لها تاريخ يمتد حتى أولئك الأقوام، والمتحف هو الدليل القائم الشاهد على هذا.

في مصر مثلًا أنشئت عدد من المتاحف، جُمِعت الآثار الإسلامية في «المتحف الإسلامي» (١٩٠٣م)، وجُمِعت الآثار القبطية في «المتحف القبطي» (١٩١٠م)، وجُمِعت الآثار الفرعونية في «المتحف.. المتحف المصري» (١٩٠٢م)، تأمَّل! لم يُسمَّ متحف الآثار الفرعونية بـ «المتحف الفرعوني»، بل سُمِّي «المتحف المصري».. كذلك لم يُسَمَّ «المتحف الإسلامي» بـ «المتحف المصري» رغم أن معظم آثاره مصرية وُجِدت في مصر. هذه التسميات هي التي تصنع «الهوية»، وتبين كيف نظر الذين بنوا هذه المتاحف إلى أنفسهم وكيف عرَّفوا هويتهم! وقد أنشئت جميع هذه المتاحف في زمن الاحتلال الإنجليزي لمصر، وكان أولها إنشاءً:

---

(١) بندكت أندرسون، **الجماعات المتخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها**، ترجمة: ثائر أبو ديب، ط١ (بيروت: شركة قدمس للنشر والتوزيع، سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٩م)، ص١٧١.

Readonly

المتحف «الفرعوني ـ المصري»، وقد كان صاحب فكرته فرنسيًّا، وهو أوجوست ماريت الذي كان رئيس مصلحة الآثار المصرية، واقترح فكرة إنشائه منذ (١٨٥٨م) وكانت مصر وقتها قد دخلت عمليًّا في النفوذ الغربي.

وقد نقل محمد المويلحي، الأديب المصري المعاصِر لهذه الفترة، أثر هذه المتاحف في تكوين جيلٍ جديد يستبدل الهوية المصرية بالهوية الإسلامية، عبر حوار بين ابن وأبيه في متحف الجيزة بينما هما يتأملان التماثيل والآثار المجموعة، جاء فيه:

«الابن: أَشَهِدْتَ مشاهد عزنا ورأيت معاهد فخرنا؟ وعلمت كيف كان مقدار مجدنا؟ وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا؟ لله درهم ما كان أرقاهم في الفكر وأبدعهم في العمل! ولو أنَّ نوابغ الأمم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة، ونزلوا إلى ميدان المناضلة والمناظرة، لما سبق المصري منهم سابق، ولا تعلق بأثره لاحق، ولكان له من بينهم الكعب الأعلى، والقدح المعلى..

الأب: لا أجد في نفسي شيئًا مما تشعرون به في هذا الباب، وما أراه من هذه الأحجار والتماثيل لا يساوي في نظري إلا أنقاض بيوت عفت، أو طلول درست، وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل إنها أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ، كان التعلق بها والتمجيد لها مما يغضب الخالق ولا يرضي المخلوق، وأما قولك: إن فيها منتهى فخرنا ومجدنا؛ لأنها من صنع آبائنا وأجدادنا، وإن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية، فإنه إثم ونكر أستعيد بالله منه ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام، أهل الدين والإسلام، لا نفاخر إلا بمفاخرهم، ولا ننتسب لغير أصلهم،

Readonly

وأما من جهة الصنعة في كل ما أراه هنا، فإن صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار، ويتفننون في تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث والطين أتقن صنعًا من هذه المُحَجَّبَة في القصور المصونة في البلور»[1].

هكذا يتبين الأمر: لم يكن المتحف مجرد وسيلة محايدة ولا هو مجرد مخزن علمي لتراث الأمة، بل كان وسيلة مصبوغة بأغراض وأهداف الغرب الاستعماري المهيمن، وأداة من أدواته لتشكيل التاريخ وفق الهوية المصنوعة.

الجامعة: آلة إنتاج التاريخ الجديد

لم يكن الاهتمام بآثار الفراعنة شعورًا للمصريين ولا رغبة منهم بل هي رغبة واهتمام الأجانب المحتلين ومن اتبعوهم من المتغربين، وقد أورد المويلحي في رائعته «حديث عيسى بن هشام» في ذات الحوار المشار إليه آنفًا أنه: «إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة عند الغربيين، فإنما هي كما تقول لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ، وزد على ذلك حبهم للاقتناء وولوعهم بالاختصاص بالنادر، ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم، وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثارًا تفوق في القدم مثلها من بقية المتاحف، ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدًا واحدًا لما استفادوا منها شيئًا، ولا أفادوك عنها شيئًا، ولما وجدوا لها قيمة تُذكر سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين، ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة الهيروغليف، أعني لغة

---

(١) محمد المويلحي، **حديث عيسى بن هشام**، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، د. ت)، ص٤٢١ وما بعدها.

Readonly

آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها من الأمم الغربية، والله أعلم بمقدار علمه بها»[١].

يروي طه حسين في مذكراته أنه حين كان طالبًا في الأزهر لم يكن يعرف شيئًا عن تاريخ الفراعنة، فتاه عليه ابن خالته الذي يدرس في دار العلوم[٢] هذه الأمور، لكن طه حسين ما لبث أن التحق بالجامعة المصرية وهناك وجد فوق تاريخ الفراعنة تدريس اللغات السامية، فعاد إلى ابن خالته فتاه عليهم بما عرفه في الجامعة عن السريانية والعبرية والهيروغليفة[٣].

كان طه حسين نموذجًا لجيل الاحتلال، ففي حياته كانت تغرب شمس الأزهر وتشرق شمس الجامعة، تغرب شمس الأمة الإسلامية وتشرق شمس القومية والوطنية، تغرب شمس الشيخ المعمم وتشرق شمس الأفندي المطربش، وإن سيرته التي كتبها لا تبخل علينا بوصف عمق هذا التحول، لكن الذي يهمنا هنا الآن هو مسألة الجامعة التي صارت أداة التعليم في الدولة المستعمرة، وهي الوسيلة التي قضت عمليًا على التعليم التقليدي المستمر منذ العصور الإسلامية.

كان المستشرقون الأجانب هم رواد التدريس في الجامعة، وكان المستشرقون

---

(١) محمد المويلحي، **حديث عيسى بن هشام**، (القاهرة: المكتبة الأزهرية، د. ت)، ص٤٢٤، ٤٢٥.

(٢) وهي إحدى المؤسسات التعليمية التي سُلِخَت من الأزهر وزاحمته، في إطار «تطوير» التعليم وتدريس المواد العصرية مع العلوم الشرعية، ثم تبعتها مدرسة القضاء الشرعي التي سلخت أيضا من الأزهر لتخريج القضاة الشرعيين، ثم ألغيت مدرسة القضاء الشرعي فيما بعد ولكن ظلت كلية دار العلوم والتحقت بالجامعة، ونستطيع أن نعتبرها مرحلة وسيطة بين التعليم الديني الذي يمثله الأزهر والتعليم العلماني الذي تمثله الجامعة.

(٣) طه حسين، **الأيام**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م)، ٣/ ٣٣، ٣٤.

Readonly

يدرسون العلوم الإسلامية أيضًا، فرأى فيها طلاب الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي لونًا آخر من التعليم، فوقع في أنفسهم موقع الإعجاب والتعظيم، يقول أحمد أمين: «فأعجبني من دروسها محاضرات يلقيها الأستاذ نللينو في تاريخ الفلك عند العرب، ومحاضرات في الفلسفة الإسلامية يلقيها الأستاذ سانتلانا، ومحاضرات في الجغرافيا العربية يلقيها الأستاذ جويدي، وكنت أحضر هذه المحاضرات لمامًا في غير انتظام ولا التزام، لثقل العبء علي بمدرسة القضاء. ولكن على كل حال رأيت لونًا من ألوان التعليم لم أعرفه: استقصاء في البحث، وعمق في الدروس، وصبر على الرجوع إلى المراجع المختلفة، ومقارنة بين ما يقوله العرب ويقوله الإفرنج، واستنتاج هادئ ورزين من كل ذلك»[١].

ويقول طه حسين عن نفسه: «لم يكد صاحبنا يتصل بالجامعة حتى رثت الأسباب بينه وبين الأزهر، فأصبح لا يمنحه من الوقت إلا أقصره، ولا يعطيه من الجهد إلا أيسره»، ولم يتوقف الأمر عند الأزهر كمعهد علمي بل صار نفورًا من الأزهر كمعهد ديني أيضًا، هكذا وصف درسه الأول في الجامعة وآثاره: «كان غريبًا كل الغرابة، جديدًا كل الجدة، مَلَك على الفتى عقله كله وقلبه كله، فشُغِل عن صاحبيه وشُغِل عمن كان حوله من الطلاب، وما كان أكثرهم!.. لم ينم الفتى من ليلته تلك، وسمع المؤذن يدعو إلى صلاة الفجر فلم ينهض من فراشه، وإنما تثاقل وتثاقل، ولم يخرج من غرفته إلا حين ارتفع الضحى»[٢].

ثمة اهتمام أنشأته الجامعة بتواريخ الشرق القديم واللغات الشرقية القديمة،

---

(١) أحمد أمين، **حياتي**، (القاهرة: كلمات عربية، دت)، ص٨٤.

(٢) طه حسين، **الأيام**، ٣/ ٦ وما بعدها.

Readonly

فضلًا عن المنهج الجديد في العلم، وهو المنهج الغربي بطبيعة الحال، والمنهج الغربي نفسه إنما هو نتاج بيئته، والبيئة الغربية منذ عصر العلمانية لا تعترف بالإله ولا بالمصدر الرباني للمعرفة كما أنها تتشكل ضمن هويات قومية تأسست منذ صلح وستفاليا. فبينما يبدأ المنهج الإسلامي في التعليم بفهم نصوص الوحي وتعظيمها والسعي في فهم العالم والأشياء من منظورها يبدأ المنهج الغربي في التعليم باستبعاد الإله والمقدس واكتشاف العالم والأشياء ضمن النظريات والفلسفات الوضعية. وبينما يصنف المنهج الإسلامي الناس إلى أمم بحسب معتقداتها يصنف المنهج الغربي الناس إلى أقوام بحسب أعراقها. في الرؤية الإسلامية: يمكن للإنسان في الغرب أن يكون من الأمة الإسلامية بمجرد نطقه للشهادتين وليس ذلك للعربي إن اختار دينًا آخر، وفي الرؤية الغربية: الشرقي شرقي والغربي غربي ولا يمكن لأحدهما أن يكون من قوم الآخر ولو اجتهد فإنما جرى التصنيف بأصل الخلقة والتي لا فكاك لأحد منها.

كان الأمير أحمد فؤاد ـ الملك فؤاد فيما بعد ـ أول رئيس للجامعة المصرية، وبدأت آلة التعليم الجامعي تُخرج ما عُرف فيما بعد بالمدرسة التاريخية المصرية، وهي المدرسة التي كان من أعمدتها كثير من غير المصريين[1]، وهذا بذاته دليل على أن دعوى المصرية لم تكن خالصة وإنما الحقيقة هي دعوى العلمانية، فسائر أولئك إنما كانوا على مذهب السلطة الإنجليزية وشرطها. وحين يصير فؤاد ملكًا فإنه سيكلف لجنة لكتابة تاريخ مصري وسيطلق مسابقات لكتابة التاريخ المصري،

---

(١) مثل: سليم النقاش وجرجي زيدان وإلياس الأيوبي ونعيم شقور وداود بركات وغيرهم من النصارى الشوام، فضلًا عن المستشرقين.

Readonly

وهكذا عملت آلة السلطة التعليمية على تكوين مدرسة مصرية الهوية تنزعها من هويتها الإسلامية[١].

وقد نشأ في هذا الجيل الذي تربى في ظل الاحتلال من كان أكثر اندفاعًا في الانسلاخ عن الرابطة الإسلامية ليستبدل بها الرابطة الوطنية، مثل أحمد لطفي السيد الذي يُلَقَّب في مصر بـ «أستاذ الجيل»، فقد اقترح على الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر (وذلك سنة ١٩١٢م) أن تنفصل مصر عن الدولة العثمانية وأن تتخذ لها علمًا غير علم الخلافة ويعلن الخديوي ملكًا مستقلًا ويدعم الإنجليز هذا الاستقلال بالاعتراف به المفاجأة هنا أن الخديوي قبل الفكرة مسرورًا ولكن الذي رفضها كان اللورد كتشنر المندوب السامي البريطاني، والذي قال: «لقد بسطنا يدنا لتركيا، فبصقت عليها، وولت وجهها شطر ألمانيا، ولو أنها كانت قبلت مودتنا لتغير

---

(١) للتوسع والتفصيل في المؤرخين وتراجمهم ومدارسهم وآثارهم، انظر: جمال الدين الشيال، **التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر**، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، دت)، ص٤٠ وما بعدها؛ أنتوني جورمان، **المؤرخون والدولة والسياسة في مصر القرن العشرين: حول تشكيل هوية الأمة**، ترجمة: محمد شعبان عزاز، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م)، ص٤٧ وما بعدها؛ باراك سلموني، **الوعي التاريخي بالمواطنة الحديثة: التعليم المصري ودروس التاريخ خلال الحكم الملكي الدستوري**، ضمن: آرثر جولد شميدت وإيمي جونسن وباراك سالموني، **رؤية جديدة لمصر: ١٩١٩ ـ ١٩٥٢**، ترجمة: عايدة الباجوري، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٣م)، ص٢٣٣ وما بعدها؛ أحمد زكريا الشلق، **من الحوليات إلى التاريخ العلمي: نهضة الكتابة التاريخية في مصر**، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠١١م). وما يهمنا على وجه التحديد من تراجمهم: روافدهم الثقافية ضمن البعثات العلمية إلى أوروبا أو التتلمذ على مستشرقين، ثم مواقعهم الوظيفية ضمن جهاز الدولة. ثم يهمنا من عناوين وموضوعات مؤلفاتهم تركيزها على معنى «الهوية المصرية».

Readonly

الموقف كثيرًا، ومع هذا فإني لا أجد الوقت مناسبًا لقبول فكرتك»[١]. كان أحمد لطفي السيد في وقت لاحق رئيس الجامعة المصرية!

الإعلام والثقافة: تكوين الهوية باللغة الشعبية

يتمثل الفارق الرئيسي بين الحداثة وما قبل الحداثة في القدرات الضخمة التي توفرت للسلطة للتحكم في الشعوب، كان التطور العلمي يوسِّع الفارق بين السلطة والمجتمع ويضيف في رصيد السلطة قدرات أخرى لم يتمتع بها حاكم قديم، وما يهمنا في هذا السياق هو قدرة السلطة على التحكم في التعليم والإعلام، وفي إنتاج وتعميم الخطاب العام ومراقبة وإقصاء أي خطاب آخر.

وحيث كانت الجامعة وسيلة السلطة الجديدة في غرس هويتها، فلم تكن الجامعة مجرد منافس «حديث» للتعليم التقليدي، بل كانت صوت السلطة وسوطها أيضًا، ويمكن ضرب المثال هنا بأستاذ جامعي كان تعبيرًا عن هذا المثال.. ذلك هو جرجي زيدان.

لم يكن مصريًا وإنما هو من نصارى الشام، لكن مصر تحت الاحتلال الإنجليزي كانت معقلًا للمعارضة النصرانية والقومية للدولة العثمانية التي كانت ممثل الهوية الإسلامية والجامعة الإسلامية، فكثر فيها نصارى الشام الذين رأى فيهم الاحتلال الإنجليزي أقلية دينية وقومية فأكثروا من استعمالهم لضمان الولاء لهم، فكانوا عند حسن ظن الاحتلال، وكثرت النخبة النصرانية الشامية في سائر المواقع الإدارية والعلمية المصرية. وقد تبوأ جرجي زيدان منصبه في الجامعة المصرية فكان أول أستاذ غير مسلم يدرس التاريخ الإسلامي في مصر.

---

(١) أحمد لطفي السيد، **قصة حياتي**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٣م)، ص٨١.

Readonly

لكن زيدان لم يكن مجرد أستاذ جامعي كغيره من المستشرقين الذين تولّوا صناعة عقول الجيل الجديد، لقد كان فوق ذلك صاحب ومؤسس دار الهلال الصحفية، التي نشأت في (١٨٩٢م)، وعنها صدرت مجلة الهلال وغيرها من الإصدارات، ولم يكن زيدان يكتب بحوثًا فحسب كغيره من أساتذة الجامعة، بل لقد كتب العديد من الروايات والأعمال الأدبية.

لقد أعجب حسين توفيق، وهو من تلاميذ الشيخ اللغوي حسن المرصفي ودرس في ألمانيا، بطريقة المستشرق الألماني كارل بروكلمان في تأليف «تاريخ الأدب العربي»، فاستلهمها في كتابه «تاريخ أدب اللغة العربية»، ثم أطلقت الجامعة المصرية مسابقة لتأليف كتاب في هذا المجال فألف جرجي زيدان «تاريخ أدب العرب» في أربعة مجلدات، وبالتزامن معه ألف مصطفى صادق الرافعي «تاريخ آداب العرب» في ثلاثة مجلدات. إلى هنا والمعركة علمية بحتة، لكن الأمر على الحقيقة لم يكن هكذا، فلقد انطلق زيدان مدفوعًا بقوة السلطة وأموالها ليكون زعيم الحالة الثقافية في وقته، فإن كتابه يُدرس على طلاب الجامعة، ثم كان يعمم على نطاق واسع في الصحافة مثل مجلة زيدان الشهرية «الهلال»، ثم إنه لما ألف رواياته التي يتناول فيها تاريخ الإسلام صارت توزع كهدايا مجانية مع أعداد مجلة الهلال للمشتركين فيها، وكانت «الهلال» أوسع دوريات الشرق الأوسط انتشارًا في زمنها[١].

كانت تلك الطريقة هي طريقة التغلغل الاستعماري الذي لم يكن مجرد منتصر

---

(١) انظر: تيموثي ميتشل، **استعمار مصر**، ترجمة: بشير السباعي وأحمد حسان، (القاهرة: مدارات، القاهرة، ٢٠١٣م)، ص٢٧٢؛ وانظر: مصطفى صادق الرافعي، **تاريخ آداب العرب**، (المنصورة: دار الإيمان، د ت)، ص٦ وما بعدها.

Readonly

تكتسب أفكاره قوتها من مجرد انتصاره ولا كان انتصاره يُلهم المغلوبين استلهام تجربته، لا.. لم يكن هذا فحسب، لقد امتلك الاستعمار الآن السيطرة على «أدوات» و«وسائل» و«منافذ» إنتاج المعرفة، وذلك «من خلال المراجع السياسية، معلمي المدارس، والجامعات، والصحف، والروايات، والمجلات»[١]. في مثل تلك البيئة تكون الهجرة إلى ثقافة المنتصر هجرة طوعية عند البعض، واضطرارية عند البعض الآخر. ذلك أن الخروج على منظومة الثقافة الغالبة ليس مجرد اختيار ثقافي، بل هو خروج عن منظومة سلطوية حاكمة، منظومة تتحكم في الرواتب والتوظيف والبعثات والمركز الاجتماعي والمكانة العلمية.

في مثل هذه الأوضاع لا يستغرب أن يخرج مفكر وسياسي مصري بارز مثل محمد حسين هيكل، ليكتب بوضوح هذه العبارة الصارخة الكاشفة عن هوية جديدة تترسخ في مصر: «من حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن الفراعنة جميعًا، وأن يربطوا حاضرهم وماضيهم رباطًا ظاهرًا لكل عين، وإنهم إذًا ليضيفون إلى قوتهم قوة، وليضاعفون من مجدهم أضعافًا، وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعًا ولها تذوقًا»[٢].

شخصية العام: السلطان عبد الحميد الثاني

جرى في سائر العالم الإسلامي مثل ما جرى في مصر مما عرضنا له، كانت البلاد الإسلامية ساحة ضغط للمحتل المستعمر، وكانت سلطة الاستعمار وما بعد

---

(١) تيموثي ميتشيل، **استعمار مصر**، ص٢٧٣.

(٢) مجلة السياسة الأسبوعية بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٩٢٦م، نقلا عن: محمد محمد حسين، **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، ٢/ ١٤٩.

Readonly

الاستعمار متسلحة بإمكانيات الحداثة تحاول تبديل هوية الأمة وإلحاقها بالغالب المتفوق. ولا يزال الصراع مستمرًا حتى الآن! وقد نشبت معركة دبلوماسية قصيرة بين تركيا والإمارات، حين غرَّد وزير خارجيتها مُعَرِّضًا بفخر الدين باشا حاكم المدينة المنورة، وهو ما ردَّ عليه الرئيس التركي بعنف، لم يكن الأمر في حقيقته إلا صراع هوية يستخدم التاريخ في معركة حاضرة وبتوجهات مختلفة حول المستقبل.

في تركيا نفسها لا يزال صراع الهوية مستمرًا، ولقد كان عام (٢٠١٨م) هو عام السلطان عبد الحميد الثاني في تركيا، فعبد الحميد الثاني هو آخر الخلفاء الفعليين في الدولة العثمانية، فعليه وعلى تاريخه ينشب صراع التفسير والتقييم، وهذا صراع يتجاوز حدود تركيا ويمس الصراع الإسلامي العلماني في الأمة كلها، فأقيم في عموم تركيا عشرات المؤتمرات عن السلطان عبد الحميد الثاني فضلًا عن عدد غير محصور من البرامج والندوات والوثائقيات والدراسات والمقالات الصحافية.

يمثل عبد الحميد نموذج الخليفة المخلص لأمته والذي حاول الدفاع عنها ما استطاع، وسائر أنصار الخلافة والرابطة الإسلامية ووحدة الأمة ينفون عنه أو يبررون له أو حتى يغفرون له سائر ما يُتَّهم به: بداية من الضعف ونهاية بالاستبداد، فهو الخليفة المظلوم المخلوع من عرشه على يد العناصر العسكرية الموالية للغرب والعلمانية. بينما يحمل عليه خصوم الخلافة والرابطة الإسلامية والهويات القومية والوطنية حملة قاسية ويسعون لتجريده من أي فضيلة[1] وإلباسه أي رذيلة بداية من الضعف ونهاية بالاستبداد.

---

(١) حتى موقفه المشهور المشرف من فلسطين، وجد من القوميين العرب من يكتب في تجريده منه كما فعلت فدوى نصيرات في دراستها «دور السلطان عبد الحميد الثاني في تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين»، والصادر عن معقل القوميين العرب «مركز دراسات الوحدة العربية».

Readonly

والمعركة حول عبد الحميد الثاني هي في ذاتها معركة ضد مصطفى كمال أتاتورك، وهذا أمر يفهمه الطرفان وإن منعت بعض الظروف من التصريح به، فمصطفى كمال هو نقيض عبد الحميد، وهو مؤسس الجمهورية على أنقاض الخلافة، ومؤسس الهوية القومية التركية على أنقاض الهوية الإسلامية، وكل رفع من شأن عبد الحميد الثاني هو خصم من شأن مصطفى كمال، والعكس صحيح.

وحين بدأ أتاتورك في تأسيس هويته، سعى لكتابة تاريخ جديد لتركيا وعُهِد بالأمر لابنته بالتبني عفت عنان والتي كانت تلميذة في جنيف للمؤرخ الأنثروبولوجي يوجين بيتارد صاحب نظرية أن التاريخ هو صراع الأجناس العليا مع الأجناس الدنيا، فصدر عنها تاريخ عنصري يرى الترك جنسًا أعلى موجود منذ قديم الزمان في منطقة الأناضول وله لغة عليا قديمة أخذت منها سائر اللغات، وصارت المهمة تنقية اللغة مما دخلها من العربية والفارسية[1].

والآن تسعى السلطة الحالية إلى العودة نحو الهوية الإسلامية، وواحد من أهم وسائلها في ذلك إعادة إحياء هذا التاريخ.

---

(١) كرم أوكتم، **تركيا: الأمة الغاضبة**، ترجمة: مصطفى مجدي الجمال (القاهرة: سطور، ٢٠١٢م)، ص٧٦ وما بعدها؛

Rabasa, Larrabee, **The rise of political Islam in Turkey**, (Santa Monica, RAND, 2008), p. 33; Şerif Mardin, **Religion and Secularism in turkey**, in Albert Hourani [et al.] "**The Modern Middle East**" (Berkly and Los Angeles, University of California Press,1993), p. 366.

Readonly

الخاتمة

يتحدث أسد رستم المؤرخ اللبناني المسيحي المعروف عن الأزمة بين المؤرخين والفلاسفة، ذلك أنَّ الفلاسفة يُشيِّدون التصور العام للحياة دون أن يكون لهم من العدة التاريخية ما يدعم نتائجهم، إلا أنهم مع هذا يسردون التاريخ ويفسرونه بما يدعم تصورهم هذا مما يستثير المؤرخين، يقول: «ولا يزال رجال الفلسفة حتى يومنا هذا يتذرعون بالتاريخ لتأييد نظرياتهم دون تبصر فيما يقرأون أو تروٍّ في الاستنتاج. وما أكثر الفلاسفة الذين يجهلون التاريخ، ولا يكلفون أنفسهم مشقة الاستشارة، فيجعلون التاريخ ينطق بما ليس فيه»[1].

ومن هنا فإن من مفاخرنا ـ نحن المسلمين ـ وجود العلوم الهائلة التي محَّصت الحوادث التاريخية وفهرست الرجال والطبقات ووضعتهم في أماكنهم من الجرح والتعديل، حتى استقامت لنا مصادر التشريع، وتكونت الهوية الإسلامية بأصح وأوثق وأضبط وأرسخ ما تكونت به هوية أمة. ومن مفاخرنا كذلك أن هويتنا هذه هوية إنسانية عامة مفتوحة لكل الناس، ولحظتها التاريخية التأسيسية هي لحظة خلق آدم أبي البشر جميعًا، فالمسلمون لا يرون أنفسهم أبناء لحظة تاريخية أرضية صنعها بشر أو أبناء هوية أرضية حكمت بها الجغرافيا أو التاريخ، ولذلك فإن رسولنا إنما بعث رحمة للعالمين.

وإن كان من توصيات نقدمها للساحة العلمية في هذا الموضوع فإن أهمها يتخلص في:

١. ضرورة ترسيخ الهوية الإسلامية وتعظيم مصادرها الأولى: القرآن والسنة،

---

(١) أسد رستم، **مصطلح التاريخ**، ط١ (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٢م)، ص١٠.

Readonly

فهي التي تشكل الحاسة والمعايير الحاكمة لفهم وتفسير التاريخ، وتقف حائط صد أمام التأويلات المتلونة والمصبوغة بالثقافة الغالبة.

٢. ضرورة انتباه المؤرخين والباحثين في حقل التاريخ إلى آثار الثقافة الغالبة في المظاهر التي تبدو حيادية وموضوعية ومتجردة، وضرورة عملهم على تصحيح ومقاومة هذه الآثار الكامنة.

٣. ضرورة كتابة التاريخ الإسلامي، لا سيما الحديث المعاصر، برؤية إسلامية تتخلص من آثار الهيمنة الغربية وقيمها الظاهرة والكامنة، من خلال البحث العلمي أولًا ثم من خلال المواد الفنية المصورة والمسموعة والمرئية، ولا سيما ما كان موجهًا إلى الأطفال والناشئة.

٤. ضرورة انتباه السياسيين والمسؤولين وصناع القرار في البلاد الإسلامية وانتباه رجال المال والأعمال إلى خطورة العبث في التاريخ الإسلامي الذي سيترتب عليه إشعال صراعات ومعارك كبرى، وسيترتب عليه مزيد تمزيق للأمة المسلمة الواحدة، ومن ثَمَّ فإن الواجب عليهم تجنيد الطاقات العلمية والمالية لتصحيح الوضع وتحفيز العلماء والباحثين على تعزيز الهوية الإسلامية عبر تصحيح العبث في التاريخ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

Readonly



موجز تاريخ العلاقات المصرية العثمانية والتركية

الماضي ـ الحاضر ـ المستقبل

* أُلْقِيَ هذا البحث في مؤتمر «الإسلام في إفريقيا: العلاقات مع الدولة العثمانية»، والذي عقده وقف دراسات العلوم الإسلامية بالتعاون مع جامعة إسطنبول مدنية، في إسطنبول بتاريخ ٢٢، ٢٣ إبريل ٢٠١٧م

بين مصر وتركيا علاقة عميقة حكم بها الجغرافيا والتاريخ، ولذا فهي علاقة بعيدة الجذور متعددة الفصول؛ فمن حيث الجغرافيا فإن موقعي مصر والأناضول على ساحل البحر المتوسط جعل كلًّا منهما محتاجًا إلى الآخر وساعيًا لمدّ سلطانه إليه، ولقد كانت مصر قبل دخول الإسلام إليها من أملاك الإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية. وأما من حيث التاريخ فقد نشأت العلاقة بين الأتراك ومصر من قبل أن يدخل الأتراك إلى الأناضول في أواخر العصر العباسي.

فلما صار الأتراك هم شعب الأناضول وأسياد القسطنطينية وأزالوا الإمبراطورية البيزنطية، فهنا التقت الجغرافيا بالتاريخ، وصارت مصر بعد ذلك بقليل من ولايات

Readonly

الدولة العثمانية، وهي العلاقة التي لم تنته إلا بفعل الاحتلال الأجنبي، بينما ظل الشعبان تظللهما أخوة الإسلام ويتوقان إلى إضافة قوة مصر إلى قوة تركيا، ولا يكاد يخرج مشروع يناقش نهضة المسلمين إلا ويتطلع بتلقائية إلى ارتباط القوتين الكبريين في المنطقة: مصر وتركيا.

تسرد هذه الورقة[1] موجزًا لتاريخ العلاقات المصرية التركية، وذلك من خلال أربعة محاور:

١ ـ الأتراك ومصر قبل العثمانيين.

٢ ـ الحكم العثماني لمصر.

٣ ـ العلاقات المصرية التركية.

٤ ـ مستقبل العلاقات المصرية التركية.

(١) ألقيت الورقة في مؤتمر «الإسلام في إفريقيا» المنعقد في إسطنبول، بتاريخ ٢٢، ٢٣ إبريل ٢٠١٧م.

Readonly

الأتراك ومصر ما قبل العثمانيين

فتح المسلمون مصر عام ٢٠ من الهجرة (٦٤١م)، في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بجيش قوامه ثمانية آلاف تحت قيادة عمرو بن العاص[١] الذي قال في مصر: «ولاية جامعة تعدل الخلافة»[٢]، فرفع الاضطهاد البيزنطي عن أهله من الأقباط وأحسن إليهم، وساس مصر خير سياسة حتى آتت أكلها وأخرجت ثمارها، ودخلت مصر في الإسلام دخولًا كاملًا، واستقبلت الإسلام واعتنقته ونسيت حتى لغاتها السابقة عليه، ولم تعد تعرف لها لسانًا إلا اللسان العربي، وهي نتائج لم يستطعها سائر من غزوا مصر من الفرس والإغريق والرومان[٣]. ثم كانت منطلق فتوح الإسلام غربًا وجنوبًا في إفريقيا السمراء والبيضاء، وكان واليها هو المشرف على فتوح بلاد المغرب وبلاد السودان.

وبهذا تحققت أهداف المسلمين من فتحها: عسكريًّا بقطع طريق عودة الروم إلى الشام، وأمنيًّا بترحيب شعبها بالفاتحين ومؤازرتهم على الرومان والخضوع لحكمهم، واقتصاديًّا بأن صارت وفرتها الاقتصادية تصب لصالح الخزانة الإسلامية لا الخزانة الرومية. ثم سرعان ما صارت مصر لطبيعة إشرافها على الفتوح من العواصم العلمية الإسلامية وقد نزل إليها واستقر بها عدد كبير من الصحابة والتابعين، فكان موقعها الجغرافي في الوسط بين الشرق والغرب مما جعلها محط

---

(١) أفضل كتاب رأيته يحقق الدخول التاريخي لمصر ويضبط تواريخ الأيام ويقارن بين الروايات هو: أحمد عادل كمال، **الفتح الإسلامي لمصر**، ط١ (القاهرة: الشركة الدولية للطباعة، ٢٠٠٣)، ص١٨٥ وما بعدها.

(٢) ابن الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، حققه وقدم له: د. علي عمر محمد، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م)، ص٢٢٠.

(٣) جوستاف لوبون، **حضارة العرب**، ترجمة: عادل زعيتر، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠)، ص١٣٥، ص٦٠٥.

Readonly

رحال الفاتحين والدعاة والعلماء والحجاج في رحلاتهم ذهابًا وعودة.

وقد استقر أمر مصر تحت ولاية الأمويين، وكان يتولى أمرها في العموم رجال الصدر الأول من الأسرة الأموية وكبار القادة، وفي مصر قُتل مروان بن محمد آخر حكام الأمويين، فكانت مصر في حكم العباسيين على ذات النمط الأموي: ولاية واسعة الرزق تمد الخلافة بخيراتها، ونادرة التمردات والمنازعات كذلك.

أتراك يحكمون مصر

وقبيل نهاية العصر العباسي الأول كانت الخلافة العباسية تجري تعديلًا خطيرًا وفارقًا في سياستها، إذ دعتها عدد من الأسباب إلى الاعتماد على العنصر التركي في مهمات العسكر والحرب بديلًا عن العنصر الفارسي الذي مثَّل قاعدة الدولة منذ نشأت[1]، فبزغ نجمهم في عهد المعتصم حيث صار بعضهم مشرفًا على ولايات، فمن هؤلاء من صارت إليه أمور مصر يولي عليها الولاة وهو في عاصمة الخلافة، فأولهم[2] هو أبو جعفر أشناس القائد العسكري التركي للمعتصم بالله، وقد ظل مشرفًا على مصر أحد عشر عامًا (٢١٩ ـ ٢٣٠هـ ـ ٨٣٤ ـ ٨٤٤م)، ثم خلفه القائد

---

(١) محمد إلهامي، **رحلة الخلافة العباسية**، ط١ (القاهرة: مؤسسة اقرأ، ٢٠١٣)، ١/ ٥٥٦ وما بعدها.

(٢) تذكر بعض المصادر أن أول والٍ تركي على مصر هو أبو صالح يحيى بن داود الشهير بابن ممدود، والذي تولاها (ذي الحجة ١٦٢هـ ـ المحرم ١٦٤هـ) في خلافة المهدي، إلا أنه لم يكن ضمن السياق الذي أوردنا من نفوذ القادة الترك، فابن ممدود كان في ظل قوة الخلافة العباسية، وقد كان من أهل خراسان (نيسابور تحديدًا) ولذلك ينسبه بعض المؤرخين إلى الفرس لا الترك، لكن أباه كان تركيًا. ولهذا لم نضعه في سياق الأتراك ممن كانت لهم الولاية على مصر.

انظر: المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨)، ٢/ ١٠٧؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٣٠) ٢/ ٤٤، ٤٥.

Readonly

العسكري التركي أيتاخ لخمس سنوات (٢٣٠ ـ ٢٣٥هـ ـ ٨٤٥ ـ ٨٥٠م)، ثم انقطع الإشراف على ولاية مصر عن القادة الأتراك وتولاها محمد المنتصر الذي كان ولي عهد المتوكل على الله، وكانت للمتوكل سياسة لتحجيم نفوذ العسكر الأتراك في بلاط الخلافة، إلا أنه لم يستطع، فتولى الإشراف على ولاية مصر في عهده أكبر قادته الأتراك الفتح بن خاقان لخمس سنوات (٢٤٢ ـ ٢٤٧هـ ـ ٨٥٧ ـ ٨٦١م)، فجعل والي مصر المباشر عليها يزيد بن عبد الله بن دينار التركي، ثم أخاه مزاحم بن خاقان، ورغم مقتل الفتح بن خاقان في بداية عهد الخليفة المنتصر إلا أن ولاية أخيه على مصر استمرت، ثم تولاها بعده ابنه أحمد بن مزاحم حتى جمادى الآخرة ٢٥٤هـ (يونيو ٨٦٨م)[١].

ثم عصفت الاضطرابات بالخلافة العباسية في قلبها للصراع الذي احتدم بين الخلفاء وبين القادة العسكر الأتراك، وكان من آثار ذلك أن عُهِد بالإشراف على ديار الشام ومصر والشمال الإفريقي إلى قائد تركي يدعي يرجوخ، فأرسل هذا واليًا مباشرًا على مصر هو قائد عسكري تركي آخر حقق شهرة بالغة، وهو أحمد بن طولون الذي استغل مناخ الضعف والاضطرابات في قلب الخلافة فأسس في مصر دولة مستقلة هي «الدولة الطولونية» مع الإقرار بالشرعية والولاء للخلافة العباسية. لم يكن ابن طولون بحاجة إلا إلى تكوين جيش مستقل وتنظيم الإدارة والموارد المالية، وساعدته الوفرة المالية في ولاية مصر على تدعيم جيشه وتحقيق الكفاية له ولجنده، وبنى

---

(١) انظر في الولاة على مصر إلى ما قبل الطولونيين:

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، **كتاب الولاة وكتاب القضاة**، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ص١٥٢ وما بعدها؛ إدوارد زمباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، أخرجه: زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٠)، ص٤١، ٤٢.

Readonly

أسطولًا قويًا ومدَّ سلطانه إلى الشام وتولت الدولة الطولونية عبء الجهاد الإسلامي في الحدود البيزنطية فترة ضعف الخلافة، ومات ابن طولون ودولته قوية مكينة، ثم توارثها أبناؤه من بعده حتى بلغ عمر الدولة الطولونية نحو نصف قرن (٢٤٥ ـ ٢٩٢هـ = ٨٦٨ ـ ٩٠٥م)، وكانت من فترات القوة في التاريخ المصري.

ثم عادت ولاية مصر إلى النفوذ المباشر للخلافة العباسية التي صارت تبعث إليها بالولاة، وكان من أولئك الولاة قادة أتراك، إذ كانت الخلافة العباسية في ذلك الوقت تحت النفوذ العسكري التركي، ثم لم يمض ربع قرن منذ نهاية الدولة الطولونية إلا وتأسست دولة مستقلة جديدة يتزعمها قائد تركي جديد هو محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية التي استمر بقاؤها في مصر أزيد قليلًا من ثلث القرن (٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ = ٩٣٥ ـ ٩٦٩م)، وقد حكمت الشام أيضًا، وكانت لها مجهودات قوية في صد التوسع العبيدي الفاطمي الذي تأسست له في إفريقية (تونس) دولة وخلافة مناقضة ومحاربة للخلافة العباسية. وبُعيد وفاة آخر الإخشيديين استطاع العبيديون تسديد أقوى ضربة للخلافة العباسية بانتزاع مصر من خلافتهم وضمها إليهم، بل ونقل بلاطهم إليها وبناء عاصمتهم الجديدة فيها.. القاهرة!

حكم العبيديون في مصر لقرنين من الزمان، ومدُّوا سلطانهم إلى الشام والحجاز في عهود قوتهم، وقد استعملوا أيضًا الأتراك كجنود ضمن صفوفهم، فمثَّل الأتراك عنصرًا ضمن النخبة الحاكمة في هذه الدولة، منذ عهد العزيز بالله الذي اعتمد على الديلم والأتراك، وكذلك في عهد الحاكم بأمر الله الذي اعتمد في البداية على الكتاميين ثم انحرف عنهم إلى الأتراك والسودانيين، وواصل ابنه الظاهر بأمر الله ذات السياسة، ثم بلغ الاعتماد على الأتراك العسكريين ذروته في عهد المستنصر بالله وهو أطول الحكام عمرًا إذ قضى في السلطنة أكثر من ستين

Readonly

سنة، وهكذا مثل الأتراك فرقة قوية ضمن صفوف القوة الضاربة العبيدية ودخلوا في منافسة مع الجند السوداني وانتصروا عليهم فيها بمعاونة من الجند المغاربة، وبلغوا أحيانًا حد محاصرة قصر الخليفة الحاكم بأمر الله اعتراضًا على قرار أو مطالبة بتسليم عدو، وكان قائدهم في هذا عربي هو ناصر الدولة بن حمدان التغلبي الذي لما انقلب عليهم انقلبوا عليه وقاتلوه وجرت فصول طويلة، لكن الذي يهمنا هو أن الأتراك كانوا حاضرين كقسم أساسي وكبير ضمن جيش الدولة العبيدية التي شهد عصرها مجيء الحملات الصليبية التي انتزعت منها أملاكها في الشام[1].

أسفرت فصول الحملات الصليبية عن سباق محموم بين الزنكيين الذين استطاعوا انتزاع السيطرة على شمال العراق والشام، وهم سلالة تركية زعيمها عماد الدين زنكي بن آق سنقر، وبين الصليبيين المسيطرين على الشام، على السيطرة على مصر، واستطاع نور الدين بن زنكي أن يسبق إلى مصر عبر قادته العسكريين الأيوبيين، وهم من الأكراد، فاستطاعوا بعد وقت إسقاط الخلافة العبيدية (الفاطمية) وإعادة الوحدة بين الشام ومصر تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية.

لكن ما يلبث أن يموت نور الدين ولا يزال ولده صغيرًا فتحدث اضطرابات في عموم الشام، فيسارع صلاح الدين الأيوبي إلى إعادة الوحدة بين الشام ومصر، ولكن تحت السيطرة الأيوبية هذه المرة، ويكون هذا هو بداية الدولة الأيوبية التي استمرت نحو ٩٠ سنة في مصر (٥٦٤ ـ ٦٥٠هـ = ١١٦٩ ـ ١٢٥٢م)، وفيها كان الاستكثار الواسع من المماليك المقاتلين، وكان العنصر التركي هو الأقوى بين

---

(١) للمزيد عن الأتراك في الدولة العبيدية الفاطمية، انظر:

د. محمد جمال الدين سرور، **تاريخ الدولة الفاطمية**، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٤)، ص٩٤ وما بعدها؛ د. أيمن فؤاد سيد، **الدولة الفاطمية في مصر: تفسير جديد**، ط١ (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٢)، ص٢٨٠ وما بعدها.

Readonly

هؤلاء الذين لم يلبثوا حتى صاروا القوة الضاربة الوحيدة للدولة، فتغلبوا على البيت الأيوبي نفسه وأسسوا لأنفسهم دولة المماليك.

دولة المماليك

استولى على حكم مصر المماليك، وهم المقاتلون العسكريون الذين اشتهروا بإيقافهم الزحف المغولي الكبير في عين جالوت، وتنقسم فترتهم التي استمرت في مصر والشام لثلاثة قرون (٦٤٨ ـ ٩٢٢هـ = ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) إلى حقبتين متمايزتيْن استغرق كل منهما قرنًا ونصف القرن تقريبًا، هما: المماليك البحرية وهم في العموم أتراك، والمماليك البرجية وهم بالعموم جراكسة[١].

وفي عصر المماليك كانت مصر في عصرها الإسلامي الذهبي حيث انتقلت إليها الخلافة بعد سقوطها على يد المغول في بغداد، وكانت سيطرتها على سواحل الشام ومصر فضلًا عن الحجاز واليمن تجعلها مزدهرة اقتصاديًّا ومهيمنة على المدن الثلاثة المقدسة فضلًا عن قوتها الحربية المنيعة واستطاعتها تطهير ساحل الشام من الصليبيين. لقد كان المماليك يحكمون مصر والشام والحجاز، وأجزاءً واسعة من ليبيا ونصف السودان، وأحيانًا اليمن، وأحيانًا جزءًا من شمال العراق، بل وفي آخر عصورهم حكموا قبرص وكادوا يحكمون جزيرة رودس في البحر المتوسط، ولقد وصفها الجغرافي المؤرخ ابن فضل الله العمري بأنها «عمود الإسلام وفسطاط الدين»، إذ «هي مملكة كبيرة، وأموالها كثيرة، وقاعدة الملك بها قلعة الجبل (قلعة صلاح الدين)، ثم دمشق وهي من أجل ممالك الأرض لما حوت من الجهات

---

(١) انظر قائمة بسلاطين المماليك في:

زمباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة**، مرجع سابق، ص١٦٢ وما بعدها؛ كليفورد بوزورث، **السلالات الإسلامية الحاكمة**، ترجمة: عمرو الملاح، ط١ (أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ٢٠١٣م)، ص١١١ وما بعدها.

Readonly

المعظمة، والأرض المقدسة، والجهات والمساجد التي هي على التقوى مؤسسة، بها المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها وقبور الأنبياء صلوات الله عليهم والطور والنيل والفرات»[١].

لقد تولى المماليك حكم البلاد وهي تعاني تهديد الصليبيين والمغول، والبحر المتوسط بأيدي الصليبيين، ثم تركوها وهم سادة البحر المتوسط وأصحاب أقوى أسطول بحري في شرقه يستمد قوته من موانئ طرابلس ودمياط والإسكندرية، وكانت جيوشهم أحسن الجيوش وأقواها، بل وصف المؤرخ العباسي الصفدي سلطان مصر المملوكي بأنه «أكبر الملوك قدرًا، وأعظمهم منزلة، وجميع ملوك البرّ والبحر يخافونه، ويهادونه، ويهادنونه، لحسن جيشه وقوّتهم وخيولهم وعَددهم وعِددهم، ولا سيما في زماننا هذا، فإنهم أحسن أجناد الدنيا، وعسكره وموكبه أفخر العساكر والمواكب»[٢]، وقد تفاجأ ابن خلدون عندما وصل القاهرة بما رآه فيها، رغم أنه كان وزيرًا قبل ذلك في المغرب والأندلس، وسجَّل ذلك بقوله: «فرأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومَدْرَج الذرّ من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوِّه، وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه.. تزخر بالنعم، ومازلنا نتحدث بهذا البلد وبُعْدِ مداه في العمران واتساع الأحوال، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجِّهم وتاجرهم في الحديث عنه، سألت صاحبنا كبير الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقري فقلت له:

---

(١) ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ط١ (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ)، ٣/ ٢٨، ٤١٥.

(٢) العباسي الصفدي، **نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك**، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، ط١ (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٣م)، ص٣٣.

Readonly

كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام»[١].

على أن دولتهم دالت وضعفت فيما بعد، ثم ورثهم العثمانيون في حكم الشام ومصر.

ومن نافلة القول في هذا الموضع أن مسألة العرق وتعريف هذا بأنه تركي أو جركسي أو كردي أو قبطي (مصري) لم تكن أمرًا حاكمًا في ذلك الزمان، بل عمل أولئك جميعًا نصرةً للإسلام وخدمة له في ظل خلافة عباسية عربية لا تستمد شرفها ولا نفوذها من العرق العربي بقدر ما تستمده من الإسلام لكون الخلفاء من آل البيت النبوي.

العلاقات المصرية العثمانية

حكم العثمانيون مصر رسميًّا لأربعة قرون، منذ دخول السلطان سليم الأول (١٥١٧م) وحتى إعلان الاستقلال المصري (١٩٢٢م)، فيما عدا ثلاث سنوات سيطرت فيها الحملة الفرنسية على مصر واعتبرتها جزءًا من المملكة الفرنسية، لكن الواقع أن فترة الحكم العثماني لمصر هي أقل من هذا بكثير، ذلك أن العثمانيين في مصر لم يلبثوا أن ضعفت قبضتهم وصار الحكم فعليًّا للمماليك الذين لم يعلنوا خلع السلطان العثماني لكنهم كانوا المتصرفين بالحكم والإدارة، ثم فترة الحكم العلوي الذي أسسه محمد علي باشا وامتد في أبنائه حيث كانوا مستقلين عن السلطنة العثمانية في إدارة مصر، ثم فترة الاحتلال الإنجليزي لمصر في الخمس الأخير من القرن التاسع عشر والذي استمر حتى نهاية الدولة العثمانية.

وبهذا نستطيع القول بأن التبعية المباشرة بين مصر والسلطنة العثمانية لا يمكنها

---

(١) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، تحقيق: خليل شحادة، ط ٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م) ٧/ ٤٥٢.

Readonly

في أقصى التقديرات أن تتجاوز قرنًا من بين القرون الأربعة التي كانت فيها تستظل بالتبعية الاسمية للسلطنة العثمانية.

الفتح العثماني لمصر

تفاعلت العديد من العوامل والأسباب التي أدت في النهاية إلى الاصطدام بين المماليك في مصر والشام وبين العثمانيين، وهو ما انتهى إلى الدخول العثماني لمصر، وضمها إليهم.

لقد تلقت السلطنة المملوكية ضربة اقتصادية كبيرة باكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، فانقطع بهذا المورد الاقتصادي الكبير الذي عاشت عليه دولة المماليك جراء سيطرتها على التجارة بين الشرق والغرب، ثم ما لبث أن تحول هذا إلى ضربة عسكرية قاتلة بوصول البرتغاليين إلى البحر الأحمر وخليج عدن فيما عجزت السلطنة المملوكية عن هزيمة البرتغاليين، بل هُزمت أمامهم بحريًا، وكانت هزيمة غير متوقعة في مكان لم تكن تتوقع الخطر منه[1]، ثم ما لبث أن تحولت الضربتان الاقتصادية والعسكرية إلى ضربة هائلة دينيًا، بعجز السلطنة المملوكية عن صد الغارات البرتغالية على سواحل البحر الأحمر، أي أن البرتغاليين صاروا

---

(١) بل إن عبارة مؤرخ دولة المماليك ابن إياس تدل على أن المماليك لم يعرفوا كيف استطاع أن ينتقل الصليبيون من مهاجمتهم في الشمال إلى أن صاروا في الجنوب، وتدل عبارته على جهل بالجغرافيا كذلك. يقول في تفسير وصول الفرنج إلى بلاد الهند: «وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السدّ الذي صنعه الإسكندر بن فلبس الرومي، وكان هذا نقبًا في جبل بين بحر الصين وبحر الروم فلا زال الفرنج يعبثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز».

ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، باعتناء: باول كاله ومحمد مصطفى وموريتس سوبرنهايم، نشريات جمعية المستشرقين الألمانية، (إستانبول، مطبعة الدولة، ١٩٣١م)، ٤/ ١٠٩.

Readonly

يهددون الحرمين الشريفين، ويتوقع أن حملة صليبية كبيرة قد تنجح في مهاجمة مكة والمدينة ونبش قبر النبي ﷺ.

دفعت هذه الأوضاع إلى نوع تحالف وتعاون بين العثمانيين والمماليك، وكان العثمانيون قد ظهروا كقوة كبرى سيطرت على الأناضول وأجزاء من أوروبا وفتحت القسطنطينية، وأعلنت ولاءها ـ الرسمي الاسمي للخلافة العباسية التي كانت عاصمتها القاهرة ـ فجرت رسائل وسفارات بين العثمانيين تتركز حول دفع هذا الخطر المشترك ـ دينيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا[1] ـ وأمدَّ العثمانيون المماليك بأخشاب لدعم صناعة السفن وبالحديد والبارود، وكان السفير في عدة مرات هو كمال ريس القائد البحري العثماني الشهير وصاحب الجهاد المشهور في البحر المتوسط. كذلك فقد تحالف العثمانيون والمماليك في معركة بحرية قبالة الإسكندرية ضد فرسان القديس يوحنا (١٥١٠م)، وكانت انتصارات العثمانيين في أوروبا تقام لها الحفلات بالقاهرة.

لكن ثمة عوامل أخرى جزئية ما لبثت أن تجمعت حتى انفجرت فقلبت العلاقات رأسًا على عقب، ذلك أن السلطنة المملوكية في عهد الأشرف قايتباي أجارت جمّ (أخا السلطان بايزيد الذي نازعه على السلطنة فهُزِم أمامه) وأكرمت وفادته مما أضر بالعلاقات العثمانية المملوكية، إذ لم يكن بايزيد ليسمح بوجود تهديد خطير كهذا، فوقعت معارك متعددة بين المماليك والعثمانيين في عهد بايزيد الثاني والأشرف قايتباي عند منطقة أدنة وطرسوس، وكانت الحروب سجالًا حتى

---

(١) أما الخطر الديني فواضح، وهو كون أولئك مسلمين ضد نصارى يهددون الحرمين الشريفين، وأما الخطر السياسي فلأن البرتغاليين كانوا أعداء العثمانيين من جهة ما قامت به الدولة العثمانية من إنقاذ الأندلسيين بعد سقوط الأندلس ودفاعها عن السواحل الشمالية الإفريقية ضد غزوات الإسبان والبرتغاليين، وأما الخطر الاقتصادي فلأن العثمانيين يتضررون كذلك جراء تبديل طريق التجارة الطبيعي الواصل بين الشرق والغرب بانتقاله إلى طريق رأس الرجاء الصالح.

Readonly

انتهى الأمر بمعاهدة صلح حصل بها العثمانيون على المدينتين مقابل السلام. إلا أن هذا السلام لم يصمد طويلًا إذ إن السلطان المملوكي قنصوه الغوري دخل على خط الصراع بين كركود وأخيه السلطان سليم، فاستقبل كركود منهزمًا، وأكرم وفادته ودعمه بسفن حربية لمواصلة المعركة مع أخيه، ولعله كان يؤمل بهذا علاقة متينة بالقوة العثمانية إلا أن رهانه كان خاطئًا إذ فشل كركود وهُزِم وقُتِل، وبفشله تفجرت العلاقات العثمانية المملوكية.

في تلك الأثناء كانت الدولة الصفوية تتأسس وتنهض وتتمدد على يد الشاه إسماعيل، ومثلما دعم قايتباي كركود بن بايزيد ضد سليم دعم إسماعيل أحمد بن بايزيد ضد أخيه سليم، ولما انتصر سليمٌ عليهما كان أمامه أن يصد توغلات وخطر الصفويين، فطلب إسماعيل التحالف مع قنصوه الغوري فاستجاب له (وكان هذا هو الرهان الثاني الخاطئ)، إلا أن سليمًا استطاع اجتياح الدولة الصفوية حتى دخل عاصمتها تبريز وأوقع بهم هزيمة هائلة في جالديران[1]، وفي أثناء هذا كله بدت العداوة بين العثمانيين والمماليك إذ أغلق سليم تجارة الرقيق في تلك المنطقة التي تمثل المدد البشري للمماليك وفرسانهم وهو عصب نظام الحكم المملوكي المعتمد على الاستكثار من المماليك، ومن جهته حبس قنصوه الغوري وفدًا وهدايا قادمة من الهند إلى سليم، كذلك فقد حرض الغوري تابعه علاء الدين في ولاية

---

(١) عن الصراع الصفوي العثماني انظر:

وجيه كوثراني، **السلطان والفقيه: جدلية الدين والسياسة في تجربتين تاريخيتين العثمانية والصفوية القاجارية**، ط٤ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، إبريل ٢٠١٥م)، ص٧١ وما بعدها؛ أكمل الدين إحسان أوغلي (إشراف)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ١/ ٣٠ وما بعدها، ٦٤ وما بعدها.

Readonly

«دولة ذي الغادر» الشمالية على حرب العثمانيين بينما هم في القتال مع الصفويين، فلما تمَّ النصر لسليم حطَّم ولاية ذي الغادر، ثم استعد لحرب قنصوه الغوري، ولم تفلح محاولات الأخير لتوقيع صلح.

وهكذا صار وضع الغوري في غاية الحرج، قد هُزِم حلفاؤه وخابت رهاناته، وفي ظل الأزمة الاقتصادية والضعف العسكري الذي يعجزه عن دفع الغارات الصليبية عن البحر المتوسط والأحمر، لم يكن أمامه إلا حشد سائر قواته للدفاع الأخير عن مملكته، فخرج إلى مقاتلة السلطان سليم الذي استعد من جهته لتحطيم السلطنة المملوكية كما فعل بالصفوية، ودارت معركة هائلة عند مرج دابق تفوق فيها العثمانيون بسلاح المدافع وبانحياز أمير حلب خاير بك وقائد ميسرة المماليك إلى العثمانيين، فتشتت جيش المماليك وهُزِم هزيمة شاملة وفُقِد السلطان الغوري، وانفتحت الشام أمام العثمانيين. وفي مصر حاول طومان باي الذي تولى بعد هزيمة الغوري أن يلملم جيشًا لمواجهة العثمانيين، إلا أنه تلقى هزيمة قاسية عند الريدانية (٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧م)، ثم أُسِر ثم شُنِق على باب زويلة في القاهرة، وهكذا صارت مصر جزءًا من السلطنة العثمانية.

مصر العثمانية

لا تزال الصورة التقليدية السائدة في الأوساط العلمية المصرية ترى في فترة الحكم العثماني لمصر فترة سلبية، إلا أن العقود الأخيرة شهدت كثيرًا من المحاولات الجادة لتصحيح هذه الصورة، فلقد صدرت العديد من الدراسات الوثائقية التي استفادت من فتح الأرشيف العثماني، وظهر عدد من المتخصصين في التاريخ العثماني، كما أن رواد دراسة الدولة العثمانية الذين كانوا في البداية شذوذًا في الحالة العلمية تعددت دراساتهم وصار لهم تلاميذ واستطاعوا تأسيس

Readonly

حالةٍ عملية تواصل طريقتهم، كذلك فإن الدراسات الاستشراقية نفسها قد شهدت ظهور عدد من الباحثين الذين تناولوا الدولة العثمانية بعمق مثل ألبرت حوراني وأندريه ريمون ونيللي حنا وبيتر جران وغيرهم، ثم إن ترجمة العديد من المؤلفات التركية عن الفترة العثمانية إلى العربية ساهم كذلك في تقديم صورة أفضل عنها.

لم ينقض على الفتح العثماني لمصر سوى ثلاث سنوات حتى كان السلطان سليم قد توفي، ثم خلفه في العرش ابنه الشاب سليمان، الذي استطاع إنهاء محاولات التمرد على الحكم العثماني في مصر والشام، واستطاع إعادة وترسيخ الأمن، وكان لصدره الأعظم إبراهيم باشا زيارة إلى القاهرة رتب فيها أحوال مصر وأمورها، وهي الزيارة التي مدحها المؤرخون المصريون ويعتبرونها بداية للفترة الطيبة من الحكم العثماني والتي وصفها الجبرتي بقوله: «كانوا في صدر دولتهم من خير من تقلد أمور الأمة بعد الخلفاء المهديين، وأشد من ذبّ عن الدين، وأعظم من جاهد في المشركين. فلذلك اتسعت ممالكهم بما فتحه الله على أيديهم وأيدي نوابهم، وملكوا أحسن المعمور من الأرض، ودانت لهم الممالك في الطول والعرض. هذا مع عدم إغفالهم الأمر وحفظ النواحي والثغور وإقامة الشعائر الإسلامية والسنن المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم، وهابتهم الملوك وانقاد لهم الممالك والمملوك»[1].

كانت مصر إضافة عظمى للدولة العثمانية، سياسيًّا واقتصاديًّا، وذلك أن اتساع

---

(١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق: شموئيل موريه، ط١ (القدس: الجامعة العبرية، ٢٠١٣م)، ١/ ٢٢.

Readonly

الدولة العثمانية لتشمل مصر التي كانت عاصمة الخلافة العباسية، والحجاز التي تحوي الحرمين الشريفين، والشام التي تحوي المسجد الأقصى وتشتهر بازدهارها التجاري، كل هذا كان إعلانًا بتحول الدولة العثمانية إلى القوة الإسلامية العظمى، وهو ذاته ما يضيف إلى أعبائها قدرًا هائلًا إذ إنها انفتحت بتلك الإضافة على كل القسم الشرقي من البحر المتوسط، وعلى البحر الأحمر كله، وما استتبع هذا من تولي عبء صد الهجمات الأوروبية في مناطق البحر الأحمر وخليج عدن وخليج عمان والخليج العربي.

أبقى العثمانيون في الجملة على أساليب الإدارة في مصر، وتحول ولاء المماليك إلى العثمانيين الذين تمتعوا بالقوة في صدر دولتهم، وسار شأن العلم والتجارة سيرًا حسنًا في البلاد، وكانت السلطة العثمانية تحكم الجماهير عبر الوسطاء الطبيعيين، فالملتزم هو حلقة الوصل بينها وبين الفلاحين، وشيخ الطائفة حلقة الوصل بينها وبين طائفته، فهي تحصل الأموال عن طريقهم وهم يتولون عنها إدارة التفاصيل والشؤون اليومية، ويجد المرء صعوبة بالغة إن لم يكن منضويًا تحت طائفة يخضع لنظامها ويتمتع بحمايتها.

وكان علماء الأزهر وشيوخه ملجأ الناس في تلك الفترة، وهم المعبرون عنهم في وجه السلطة، فإذا وقعت الشكوى أو التنازع كان مشايخ الأزهر في صدارة المشهد، فكانت لهم مكانة اجتماعية رفيعة، فينعم عليهم السلاطين ويزورهم الولاة ولربما حضروا بعض دروسهم بل نُقِل عن الوالي العثماني علي باشا حكيم أنه قبل يد أبي السرور البكري.

ومع مرور الوقت ضعف سلاطين الدولة العثمانية، فكان من آثار هذا أن قوي

Readonly

سلطان المماليك في مصر حتى صاروا هم الحكام الفعليين، وصاروا يديرون شأن البلاد على الحقيقة، بل حصلت محاولات قوية للاستقلال عن السلطنة العثمانية تمامًا، وأقواها مطلقا هي محاولة المملوكي علي بك الكبير الذي استطاع القبض على السلطة في مصر بقوة وكفاءة ومهارة، مع شدة وعنف ودموية كذلك حتى حقق الأمن والاستقرار واستتب له أمر البلد، ومنع الولاة العثمانيين من الورود إلى مصر، ثم تطلع إلى انتزاع الشام والحجاز كما فعل المماليك في صدر دولتهم قبل ثلاثة قرون، ووصل في مخططه التوسعي أن استعان بالروس على الدولة العثمانية، ثم جاءته الهزيمة من خلفه، إذ انقلب عليه المماليك في مصر، فانتهت محاولته بالفشل، وقُتِل في نفس السنة التي توفي فيها السلطان العثماني مصطفى الثالث (١١٧١هـ ـ ١٧٥٧م)[١].

وكانت الحامية العثمانية تابعة لنفوذ المماليك، بل صار الوالي العثماني لا حول له ولا قوة، ويمكن للجبرتي وهو المؤرخ المعاصر لتلك الفترة أن يكتب ببساطة مثل هذه العبارة: «سنة ثمان وثمانين ومئة وألف [ـ ١٧٧٤م]، استهلت ووالي مصر [العثماني] خليل باشا محجور عليه، ليس له في الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق، والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبي الذهب والأمراء واعيان الدولة مماليكه وإشرافاته، والوقت في هدوء وسكون وأمن، والأحكام في الجملة مرضية، والأسعار رخية، وفي الناس بقية، وستائر الحياء عليهم مرخية»[٢].

---

(١) انظر مختصر سيرته عند: الجبرتي، **عجائب الآثار**، ١/ ٤٤٥ وما بعدها. وهذا هو موضع ترجمة الجبرتي له في سنة موته، أما وقائع صعوده وحروبه ففي السنين السابقة على هذا الموضع.

(٢) الجبرتي، **عجائب الآثار**، ١/ ٤٥٢.

Readonly

ولا يملك الوالي العثمانية إذا نشبت بعض الصراعات بين زعماء المماليك إلا أن ينضم إلى أحد الفريقين، ويملك كلا الفريقين أن يعزله بلا سبب ولا يملك أن يدفع عن نفسه شيئًا، وربما استغرب الوالي وهم يعزلونه فيسأل بدهشة أو بحزن «وأي شيء ذنبي حتى أعزل»[١]، والعثمانيون من جانبهم كانوا يبتلعون هذا الإجراء فيرسلون إلى مصر بوالٍ جديد مكان الوالي المعزول دون أن يملك الجديد من أمره شيئًا، وهكذا كانت مصر مملوكية على الحقيقة وإن كانت تابعة للعثمانيين بالاسم فحسب، حتى جاءت الحملة الفرنسية.

الحملة الفرنسية

كان نزول الفرنسيين إلى مصر واستطاعتهم تدمير الجيش المملوكي ودخول القاهرة صدمة مروعة للمسلمين في سائر الشرق، حتى وصف الجبرتي هذا بأنه «اختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع»[٢]، وذلك أنه كان أول احتلال لعاصمة في قلب العالم الإسلامي وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل في تاريخ القاهرة منذ أنشأها العبيديون (الفاطميون)، ولا حتى في زمن الحروب الصليبية، كذلك فإن هذا الاحتلال كان دليلًا على ما وصلت إليه السلطنة العثمانية من الضعف، إذ صار حتى حلفاؤها (الفرنسيون) يطمعون في اقتطاع أقاليمها الواقعة في قلب الدولة العلية. ولم يكتف الفرنسيون بأخذ مصر، بل تطلعوا لما بعدها من أرض الشام فنفذوا حملة عسكرية قوية على الشام، استولوا بها على العديد من المدن.

لكن هذا التقدم الفرنسي لم يكن مؤثرًا على العثمانيين فحسب، وإن كانوا

---

(١) الجبرتي، **عجائب الآثار**، ٢/ ٢٦.

(٢) الجبرتي، **عجائب الآثار**، ٣/ ١.

Readonly

المتضرر الأول، وإنما أثر كذلك على مصالح بريطانيا المنافسة الاستعمارية، وكذلك على التوازن العالمي الذي يمسُّ المصالح الروسية كذلك، لهذا كله تكون تحالف عثماني إنجليزي روسي ضد فرنسا، وعجز الفرنسيون عن دخول عكا التي هي عاصمة إقليم الشام لاستبسال واليها أحمد باشا الجزار ودعم الأسطول الإنجليزي للمدينة، ثم اضطربت شؤون فرنسا فاضطر نابليون قائد الحملة أن يعود إلى فرنسا ويتخلى عن الشام، وبهذا التحالف خرج الفرنسيون من مصر وعادت مرة أخرى إلى حكم الدولة العثمانية.

خرج الفرنسيون بعد ثلاث سنوات من مصر (١٨٩٧ ـ ١٨٠١)، بعد فصول مطولة من مقاومة مصرية باسلة وثورتين كبريين، ومئات الآلاف من الشهداء والجرحى، وتبلغ بعض التقديرات حد أن مصر فقدت ثلث سكانها في فصول المذابح والمقاومة والثورات، وذلك أن الفرنسيين كانوا إذا عجزوا عن صد المقاومة يفجرون البارود في السفن فتحترق القرى والسواحل، كما كانوا يصبون نيران المدافع على المناطق الثائرة فتتحول إلى ركام، وهو أمر يشبه الآن القصف بالقنبلة الذرية، إذ كانت طبيعة المدينة الإسلامية أنها ضيقة متعرجة مزدحمة تتقارب فيها المساكن، وكان قصف مثل هذه المدينة الحافلة بالسكان يعني مذابح جماعية كبيرة. وبهذا الانسحاب فشلت خطط الفرنسيين في علمنة وإقامة دولة حديثة في مصر رغم المجهودات الهائلة التي بذلوها في السنوات الثلاث لتحطيم البنية الاجتماعية والسياسية في مصر، وهو الأمر الذي سينجح فيه فيما بعد جندي جاء في الجيش العثماني الذي دخل مصر، ذلك هو محمد علي.

Readonly

حقبة الأسرة العلوية

حين هُزمت الحملة الفرنسية وخرجت مصر فكر الفرنسيون في العودة من الباب الخلفي، فأرسل نابليون إلى القنصل الفرنسي في مصر الكونت ما تييه دي ليسبس (١٨٠٣م) تعليمات بأن يبحث في قادة القوات العثمانية في مصر عن أفضل من يمكنه إقامة علاقات وثيقة معه، ثم يُخطر باسمه سيبستياني (السفير الفرنسي في القسطنطينية) ليضغط السفير على السلطان العثماني بتعيينه واليًا على مصر، وبهذا يكون حاكم مصر رجل فرنسا وممثل مصالحها! وقد قام القنصل بمهمته خير قيام، فاختار بعد الفحص والاختبار ذلك القائد الواعد: محمد علي، «وارتبط معه بعرى صداقة متينة، وأوصى به سيبستياني خيرًا»، ثم تدافعت الأحداث المضطربة في مصر ـ والحافلة باغتيالات وخيانات وصناعة فوضى ـ حتى صار اسم محمد علي مطلب الجميع في مصر، ورفعه علماء مصر وأعيانها لمنصب الولاية، وأرسلوا بذلك إلى السلطان العثماني، وهناك بدأ دور السفير الفرنسي الذي ضغط بهذا الاتجاه حتى أقرت السلطنة العثمانية ولايته[١]، ولم تكن تدري أن قسمًا عظيمًا من نكبتها سيأتي على يد هذا الرجل!

تشير مصادر أخرى إلى أن الروس، منذ ذلك الوقت، كانوا يرون محمد علي عميلًا للفرنسيين[٢]، والواقع أن فترة حكم محمد علي شهدت ترسيخًا واسعًا للنفوذ

---

(١) إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل**، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م). ١/ ٣٢٨ وما بعدها.

(2) Eric J. zürcher, **Turkey: A modern History**, third edition (London & New York: I. B. Tauris, 2004), p. 37.

Readonly

الأجنبي في مصر والشام، وتمكينًا لا هوادة فيه لليهود والنصارى[١].

برزت موهبة محمد علي منذ السنوات الأولى لحكمه في مصر، واستطاع أن يكون ذراع الدولة العثمانية في القضاء على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية، فبعد عدد من الهزائم استطاع ابنه إبراهيم باشا أن يدمر «الدرعية» عاصمة الوهابيين ويقضي على الدولة السعودية، وأمدّ الدولة العثمانية بجيش يحارب معها في المورة (اليونان)، وبينما كان يتطلع هو بهذه المساعدات إلى أن يكون الرجل القوي في الدولة العثمانية كان العثمانيون لا يريدونه أكثر من ذراع قوية، وكانت الحاشية في إسطنبول على خلاف مع محمد علي، فما لبث أن تحرك محمد علي خارج مصر، فشن حملات على السودان لتكوين جيش خاص به من السودان، ثم لم ينجح في هذا فبدأ في تجنيد المصريين إجباريًّا، وهي الخطوة التي لاقت مقاومة عنيفة من المصريين إلا أنه استطاع تحطيم هذه المقاومة وإجبارهم عليها، واستكثر محمد علي في حاشيته من الفرنسيين فكان منهم رجال الدولة، كما استكثر من اليهود والنصارى في بلاطه، ثم تطلع إلى ضم الشام لحكمه، فشن حملة عسكرية كبرى سيطر بها على الشام وهزم جيوش الدولة العثمانية مرارًا، واستطاع جيشه التوغل في الأناضول وكان في سيره هذا قريبًا من احتلال القسطنطينية نفسها، وعندئذ بدا أنه قد خرج عن طوره وصارت حركته تهدد ذات التوازن العالمي بين الروس والإنجليز والفرنسيين، فتحرك كل أولئك على خلاف أغراضهم وأهدافهم لإيقاف هذا التوسع الخطير، وانتهى هذا كله باتفاقية كوتاهية التي احتفظ محمد علي بها بمصر والشام، وشرعن استقلاليته العملية في حكم مصر، وبعد عشر سنوات من

---

(١) للمزيد والتفصيل انظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ: الجزء الأول**، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٧)، ص١١٧ وما بعدها.

Readonly

حكمه للشام وقعت حرب أخرى بينه وبين العثمانيين إثر الخلاف على السيطرة على مضايق جبال طوروس ـ العازل الطبيعي بين الشام والأناضول ـ وفيها استطاع محمد علي أن ينتصر مرة أخرى على الجيش العثماني، ولم تصل أنباء الهزيمة إلى إسطنبول إلا وكان السلطان محمود الثاني قد توفي، وتولى السلطنة ابنه الشاب الصغير عبد المجيد، ثم زاد من سوء الأحوال أن قائد الأسطول العثماني انحاز إلى محمد علي بأسطوله، فتهدد لمرة أخرى هذا التوازن الدولي الذي يهدد مصالح العديد من القوى الدولية فاجتمع حلفهم على إعادة محمد علي إلى الشام إلا فرنسا فإنها دعمت محمد علي وشجعت بقاءه وحرضته على مواجهة الحلف، فذهبت الأمور إلى الحرب ثم تخلت فرنسا عن حليفها فتعرض لهزيمة قاسية في الشام أمام الأسطول الإنجليزي ثم انتقم منه أهل الشام الذين ذاقوا الويلات في السنوات العشر التي حكمهم فيها فعاد الجيش إلى مصر ممزقًا في أسوأ حال، وأقرت اتفاقية لندن (١٨٤٠م) بقاء مصر في حكم محمد علي وأن تكون وراثية في نسله.

مثلت اتفاقية لندن بداية غروب شمس محمد علي، الذي عاش بعدها ثماني سنوات ثم أصابه الاختلال العقلي فعزل عن منصبه وتولاه ابنه وقائد جيوشه إبراهيم باشا، لكنه لم يقض شهورًا حتى مات (نوفمبر ١٨٤٨م)، ولكن هذه الفترة شهدت انقلابًا هائلًا في المجتمع المصري، وتحطيم بنيته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية، وإنشاء دولة على النمط الغربي الحديث، ولكن الذي يهمنا في سياق هذه الدراسة هو أن فترة محمد علي شهدت الاستقلال والانخلاع المصري الكامل عن الدولة العثمانية حتى في النظم والقوانين والسياسة الخارجية، ولم تكن الرابطة بينهما إلا مجرد التبعية الاسمية فحسب، وهذه التبعية تختلف عن تلك التبعية الاسمية التي كانت في زمن المماليك، ذلك أن السلطة

Readonly

المملوكية كانت تستقل بالقرار السياسي وحده بينما ظلت البنية المجتمعية والثقافية والاقتصادية تحتفظ بطبيعتها، بينما دولة محمد علي صارت قطعة مختلفة ومخالفة للدولة العثمانية، وقد نجح محمد علي في تأسيس التغريب بقوة لا تقاس سرعة ولا عمقًا بما كان يجري في الدولة العثمانية.

تولى بعد إبراهيم باشا ابن أخيه عباس حلمي بن طوسون، وطوسون هو أكبر أبناء محمد علي، وكانت الاتفاقية تقضي بأن يرث العرش الأرشد من أسرة محمد علي، وكان عباس على خلاف جده وعمه، غير محب للأجانب، وسعى في هدم النفوذ الأجنبي الواسع الذي أسساه، إلا أنه لم يقض أربع سنوات حتى اغتيل في قصره، وهو الاغتيال الذي تحوم حوله الشبهات، إذ بموته اتسع الطريق أمام ربيب الفرنسيين سعيد باشا.

كان سعيد باشا أول حاكم لمصر يُربَّى تربية أجنبية، فهو أول حاكم يُربَّى في حجر الفرنسيين، وينشأ على محبتهم، فقد تولى تربيته فريدنند دي ليسبس الذي جاء كنائب للقنصل الفرنسي في الإسكندرية، وسعيد باشا هو نقطة تحول في التاريخ المصري الحديث، فقد استدرجه الأجانب لنكبتين من أكبر نكبات التاريخ المصري، هما: القروض الأجنبية، وقناة السويس! إذ لم يستطع أحد قبله أن يقنع حاكمًا مصريًّا، مهما كان ظالمًا أو فاسدًا، بضرورة فتح قناة بين البحر الأحمر والبحر المتوسط، وظل هذا الأمر مرفوضًا بإصرار طوال التاريخ المصري، حتى جاء ديليسبس وخدع صغيره الذي صار حاكم مصر، فانتزع منه أضخم عملية نصب في التاريخ: امتياز قناة السويس! كما لم يُعرف قبله حاكم مصري مدَّ يده إلى الأجنبي للاقتراض منه بالربا الفاحش، وكانت القناة والقروض هما الباب الواسع

Readonly

الذي انفتح للأجانب في مصر[١]. وأضاف إلى ذلك سعيه في تدمير التعليم الوطني وإغلاق المدارس وتخفيض عدد الطلاب ونفي الأساتذة في نفس الوقت الذي دعم فيه بسخاء المدارس الأجنبية[٢]، بل ودعم سائر المؤسسات الأجنبية حتى التنصيرية التي أسست فروعها في مصر منذ زمن سعيد باشا[٣]، بل وصفه مؤرخ الإرسالة الأمريكية بأنه «راعي الإرسالية التنصيرية الأمريكية»[٤].

ولما مات سعيد بعد عشر سنوات في السلطة (١٨٥٣ ـ ١٨٦٣م)، كانت حادثة أخرى مشبوهة قد أزاحت من طريق الحكم الأمير أحمد رفعت ليكون التالي هو إسماعيل باشا بن إبراهيم بن محمد علي، وكان إسماعيل ممن تربى في فرنسا، إذ ولد في ذروة قوة جده (١٨٣٠) وأرسل إلى النمسا في الرابعة عشرة من عمره، ثم كان ضمن بعثة التلاميذ المصريين في فرنسا، وهناك أتقن الفرنسية وتمكن منه عشق باريس، فكان فرنسي الروح والهوى والميول، وكان مشروعه حين تولى الحكم أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، وهو ما عمل عليه في الستة عشر عامًا التي

---

(١) للتفصيل والمزيد انظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ: الجزء الأول**، ص٢٤٩ وما بعدها.

(٢) إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا**، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦)، ١/ ١٨٣ وما بعدها؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧)، ١/ ٤٨، ٤٩؛ جاك كرابس جونيور، **كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر: دراسة في التحول الوطني**، ترجمة وتعليق: د. عبد الوهاب بكر، سلسلة الألف كتاب الثاني ١١٨ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣)، ص١٣٠.

(٣) د. خالد محمد نعيم، **الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر: دراسة وثائقية**، (القاهرة: كتاب المختار، بدون تاريخ) ص٤٤ وما بعدها.

(4) Andrew Watson, **The American Mission in Egypt: 1854 to 1896**, seconed edition (Pittsburgh: united Presbyterian, 1904), p. 333.

Readonly

حكم فيها مصر، وكان أخطر ما أسفرت عنه هذه الأعوام أن قروضه المالية الهائلة بالربا الفاحش والتي أنفقها في القصور والزخارف والحفلات والرشاوى قد جلبت التدخل الأجنبي الذي وصل إلى وجود وزيرين في الحكومة المصرية (إنجليزي للمالية وفرنسي للأشغال) وكانا القوة النافذة في أروقة الحكم، وهو ما أفضى في النهاية إلى تأزم كبير كاد أن يتطور إلى ثورة، فاجتمع على عزله أطراف على اختلاف أغراضها: المصريون الذين ضجوا من الأزمات المتتالية والنفوذ الأجنبي المتغلل، والسلطان العثماني (وكان في هذا الوقت عبد الحميد الثاني الذي كان يحاول مقاومة النفوذ الأجنبي في إمبراطوريته الواسعة وكانت مصر جوهرتها ومركز الثقل الأجنبي فيها)، والأجانب أنفسهم الذين قدَّروا أن بقاءه قد يطوِّر الأزمة إلى ثورة حقيقية تهدد النفوذ الأجنبي، وهكذا خُلِع إسماعيل (يوليو ١٨٧٩م) ليتولى مكانه ابنه الخديوي توفيق.

كان أسوأ ما أسفرت عنه حقبتا سعيد وإسماعيل هو ذلك الانخلاع التام ـ إلا من الرابطة الاسمية ـ من الدولة العثمانية، ثم ذلك الدخول التام في التبعية الأجنبية على سائر المستويات، المالية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والقانونية، حتى لقد شهدت مصر نمطًا قانونيًا غريبًا وغير مسبوق يجعل الأجانب قادرين على استصفاء كل الموارد إلى جيوبهم، وذلك من خلال المحاكم القنصلية ثم المحاكم المختلطة والتي كانت تستطيع الحجز على أموال الخديوي نفسه، وعن طريقها كان الفقير في أوروبا يهاجر إلى مصر فيصبح في عدة أعوام من الأثرياء بما استطاع اقتطاعه من أموال المصريين بقوة النفوذ والقضاء الأجنبي[1].

---

(١) انظر في الوضع القانوني لمصر في هذه الفترة: عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ٢/ ٢٦٤ وما بعدها.

Readonly

امتص عزل إسماعيل بعضًا من الثورة الشعبية المصرية التي كادت تتشكل، إلا أن سياسة توفيق التي عملت على تعقب ومطاردة رموز الثورة بداية من جمال الدين الأفغاني الذي نُفي من مصر (أغسطس ١٨٧٩م) بعد شهر واحد من عزل إسماعيل، مما أيقظ الثورة مرة أخرى، وكان زعيمها جندي مصري هو أحمد عرابي متواصلًا مع السلطان عبد الحميد الذي دعمه في هذه الثورة وأراد أن ينهي حكم الأسرة العلوية، ومن ورائها النفوذ الأجنبي، وبذل جهودًا مضنية لمنع التدخل الأجنبي في مصر على خلفية هذه الحركة العرابية، إلا أن أوروبا لم تكن لتفرط فيما تحقق لها من النفوذ الأجنبي، فنزلت القوات الإنجليزية إلى مصر، واستطاعت هزيمة عرابي وإخماد حركته، وتخلى عبد الحميد عن عرابي في اللحظة الأخيرة ليتمكن من أن يكون في صف من يقررون مصير مصر[١].

وبنزول الإنجليز لمصر يكتمل الانفصال بين مصر والدولة العثمانية، وتذهب آخر شعرة يمكن تقويتها بينهما، ولا يبقى إلا تلك التبعية الاسمية التي لا قيمة لها على الإطلاق.

الاحتلال الإنجليزي لمصر

بدهائهم المعروف نزل الإنجليز إلى مصر بدعوى حماية عرش الخديوي، حتى إنهم حاكموا عرابي بتهمة عصيان أمر الخديوي، ولم يعلنوا أن مصر تحت السلطة

---

(١) انظر: محمد إلهامي، **محنة الشرعية مع الجواد الخاسر**، تركيا بوست، بتاريخ ٢١ يوليو ٢٠١٥.
وانظر لمزيد من التفصيل:
محمود الخفيف، **أحمد عرابي: الزعيم المفترى عليه**، ط١ (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢). ص٢٠٩ وما بعدها؛ أحمد عرابي، **مذكرات الزعيم أحمد عرابي**، دراسة وتحقيق د. عبد المنعم الجميعي، ط (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م). ٢/ ٧٠٣.

Readonly

الإنجليزية، غير أنهم واصلوا تغريب مصر وإنشاءها على نحو يحطم البقية الباقية من جذورها الإسلامية ونظامها التقليدي وبنيتها الاجتماعية والثقافية والتعليمية.

ويمكن أن نؤرخ بلحظة الاحتلال الإنجليزي للانفصال التام بين مصر والدولة العثمانية، رغم أن بريطانيا لم تعلن الحماية على مصر إلا في عام ١٩١٤ في إطار الحرب العالمية الأولى والتي تواجهت فيها الإمبراطوريتان العثمانية والإنجليزية.

كانت مصر تحت الاحتلال الإنجليزي واحدة من المراكز التي تحتضن معارضي الدولة العثمانية من نصارى الشام ومن أعضاء جمعية تركيا الفتاة وأعضاء الاتحاد والترقي، مثلها مثل باريس ولندن وجنيف، وصارت تصدر الكتب والصحف المناوئة للسلطان العثماني في القاهرة[١]، لا سيما والسلطان العثماني عبد الحميد الثاني ـ الذي عايش نصيب الأسد من زمن احتلال الإنجليز لمصر ـ كان يرفع شعار الجامعة الإسلامية ويتمسك بهذه التبعية الاسمية الرابطة بين مصر والدولة العثمانية، فكان تحويل الإنجليز للقاهرة كمركز معارضة له جزءًا من الحرب الباردة بينهما.

ومع هذا فقد كانت المقاومة المصرية للاحتلال الإنجليزي تتمسك بالدولة العثمانية وسيادتها الاسمية على مصر وتتطلع إلى اليوم الذي يزول فيه الاحتلال ليعاد انعقاد هذه الصلة، وتحفل أدبيات الكفاح الوطني بهذه المعاني، ويؤكد عليها رموز الوطنية المصري كمصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش ومحمد رشيد رضا وغيرهم[٢]، ولفترة طويلة كان أشهر تأريخ للدولة العثمانية هو تاريخ

---

(١) سيار الجميل، **العثمنة الجديدة: القطيعة في التاريخ الموازي بين العرب والأتراك**، ط١ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، أغسطس ٢٠١٥)، ص١٤٢ وما بعدها.

(٢) انظر على سبيل المثال: جمال الدين الأفغاني، **الآثار الكاملة للسيد جمال الدين الأفغاني**، جمع وتحقيق: سيد هادي خسروشاهي، ط١ (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٢)، ٦/ ٢٣٣؛ =

Readonly

محمد فريد الرجل الثاني في الحزب الوطني ثم زعيمه وهو كتاب ناطق بحب الرجل للدولة العثمانية، ولقد عبر الشيخ محمد رشيد رضا عن العلاقة بين مصر والدولة العثمانية بقوله: «ارتباط مصر بالدولة العلية كارتباط الروح بالجسد»[١].

وبلغت ذروة التعبير عن هذا التمسك بالعلاقة المصرية العثمانية في موقف مصطفى كامل والحزب الوطني من مسألة طابا (١٩٠٦م)، وذلك أن السلطان عبد الحميد أراد أن يستعيد مواقعه في مصر عبر استرداد الأراضي التي كانت تتبع الإدارة المصرية في شرق خليج العقبة وساحل البحر الأحمر، بما في ذلك منطقة طابا والعقبة وبعض المواقع التابعة لسيناء، فاشتعلت أزمة بين الإنجليز ـ وتابعيهم في الحكومة المصرية ـ من جهة وبين عبد الحميد والسلطنة العثمانية، فوقف مصطفى كامل والحزب الوطني إلى جانب الدولة العثمانية، وسلَّم لها بحقها الأصيل في سيناء، وهو موقف لا يُعجب بطبيعة الحال دُعاة الوطنية، وكانت الصحف الوطنية ـ خصوصًا اللواء والظاهر والأمة ـ على نفس هذا الخط مما أزعج للغاية الإنجليز فقرروا إحياء قانون المطبوعات الذي يتيح لهم إغلاق هذه الصحف[٢].

= محمد عبده، **الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام محمد عبده**، تحقيق: د. محمد عمارة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م)، ١/ ٨٦٤؛ مصطفى كامل، **أوراق مصطفى كامل**، تحقيق: د. يواقيم رزق مرقص، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦)، ١/ ٢٥٤؛ مصطفى كامل، **مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعًا: سيرته وأعماله من خطب وأحاديث ورسائل سياسية وعمرانية**، ط١ (القاهرة: مطبعة اللواء، ١٩٠٨)، ٦/ ١٠ وما بعدها، ص١٨٥ وما بعدها؛ ومحمد فريد، **تاريخ الدولة العلية**، تحقيق: د. إحسان حقي، (بيروت: دار النفائس، ١٩٨١)، ص١٩، وفي هذه المراجع مادة غزيرة أخرى.

(١) محمد رشيد رضا، **مجلة المنار**، ١/ ٤٤١.

(٢) هذا الموقف وحده دليل يضرب الصورة المزيفة التي قدمها مؤرخو المدرسة الوطنية عن مصطفى =

Readonly

وعلى الجبهة التركية حدث تطور فارق بالانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني (١٩٠٩)، إذ بهذا تكون قد انتهت سياسة «الجامعة الإسلامية» لحساب الفكرة القومية العلمانية، ولم يعد يشغل الساسة في تركيا مسألة مصر أو الاحتلال الإنجليزي لها، بل صاروا يفرطون في البلاد الأخرى مثل ليبيا التي احتلها الإيطاليون (١٩١١م)، فعندما نزل الإيطاليون أعلنت تركيا استقلال ليبيا وهو ما يعني عمليًّا تسليمها لهم وعدم التفكير في الدفاع عنها، وكانت الأراضي والبلاد لا تزال تُقْتَطَع من جسد الدولة العثمانية في الشمال والغرب الأوروبي، وصارت قضية كالقضية المصرية لا يمكن أن تخطر على بال فضلًا عن أن تكون استعادتها قضية ذات أهمية.

وفي هذه الأثناء كان الاحتلال الإنجليزي يعيد ترسيخ أوضاعه في مصر بعد عبور أزمة طابا وأزمة دنشواي، فدبر لتحجيم الصحافة والعمل الأهلي، وبلغ التوتر ذروته باغتيال بطرس غالي ـ رئيس الوزراء المصري المسيحي التابع للاحتلال الإنجليزي ـ على يد شاب من الحزب الوطني، مما استدعى عملًا أمنيًا كبيرًا استطاع إجهاض نذر الثورة باستعمال وسائل السجن والنفي للرموز الوطنية كمحمد فريد وعبد العزيز جاويش وغيرهم، مما عاد بالضعف على تنظيم الحزب الوطني[1].

= كامل باعتباره «وطني» بالمعنى المنعزل والمقابل لانتمائه الإسلامي الأممي. وانظر دراسة موسعة عن مسألة طابا عند:

د. يونان لبيب رزق، **أزمة العقبة المعروفة بحادثة طابة ١٩٠٦**، المجلة التاريخية المصرية، (القاهرة: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٩٦)، ١٣/ ٢٤٧ وما بعدها.

(١) لمزيد عن كفاح الحزب الوطني المسلح ضد الاحتلال الإنجليزي، انظر: د. عصام ضياء الدين السيد، **الحزب الوطني والنضال السري: ١٩٠٧ ـ ١٩١٥**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧).

Readonly

وحين نشبت الحرب العالمية الأولى شهدت العلاقة العثمانية المصرية فصلًا جديدًا، فلقد كان الجيش المصري الذي صنعه الإنجليز يمثل ذراعًا حربية في خدمة الإنجليز ضد الدولة العثمانية، فقاتل الجيش المصري في قناة السويس ضد العثمانيين، كذلك فقد أعلنت بريطانيا الحماية على مصر، وعزلت الخديوي عباس حلمي الثاني وجاءت بحسين كامل فجعلته «سلطانًا» في إطار الانفصال النهائي عن الدولة العثمانية بقطع هذه التبعية الاسمية، ولم يمر هذا مرور الكرام بل حاولت الحركات الوطنية اغتيال عباس حلمي ثم السلطان حسين كامل، وبذلت الدعاية البريطانية مجهودًا كبيرًا لمحاولة تحييد المصريين في هذه الحرب «لعلم بريطانيا العظمى بما للسلطان (العثماني) بصفته الدينية من الاحترام والاعتبار عند مسلمي القطر المصري»، وحتى بيان إعلان الحماية ذكر في طياته أن «تاريخ مصر السابق يدل في الواقع على إخلاص المسلمين المصريين للخلافة»[١].

خرجت تركيا مهزومة من الحرب العالمية الأولى، وقسِّمت أملاكها في الشام، وظلت في انهيارها المتوالي حتى أجبرت على توقيع اتفاقية سيفر (١٩٢٠)، ومن المشهور الذي يغنينا عن إيراده الحديث عن تعلق عواطف المصريين بالدولة العثمانية وحزنهم الهائل لهزيمتها، لا سيما على يد الدولة التي تحتلهم منذ ما يقارب الأربعين عامًا، ثم متابعتهم بشغف وأمل كبير لظهور مصطفى كمال وما حققه من انتصارات قادته إلى معاهدة لوزان (١٩٢٣م)، ثم انهيار آمالهم دفعة واحدة عند إلغاء الخلافة (١٩٢٤)[٢].

---

(١) عبد الرحمن الرافعي، **ثورة ١٩١٩: تاريخ مصر القومي من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١**، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧)، ص٣٠ وما بعدها.

(٢) أنشد أحمد شوقي في مدح مصطفى كمال بعد اتفاقية لوزان يقول: =

Readonly

وعلى الجهة المصرية أخذت الحركة السياسية تتطلع إلى إنهاء الاحتلال تعلقًا بوعود الرئيس الأمريكي ويلسن الذي دخل الحرب على مبدأ منح الشعوب حق تقرير مصيرها، فنبتت فكرة تشكيل وفد مصري للمطالبة بالاستقلال في رأس الأمير عمر طوسون (وهو حفيد سعيد باشا بن محمد علي) وكان معروفًا بميوله الإسلامية وعلاقته الطيبة بالعثمانيين، فعرض هذه الفكرة في مجلس فيه سعد زغلول[1]، فتشكل وفد زيارة القنصل الأمريكي في مصر لتسهيل حضور مؤتمر الصلح إلا أن القنصل فاجأهم بأنه من غير الممكن أن يطرح المصريون قضيتهم بنفسهم، فإما أن يتفاهموا مع الإنجليز أو يجعلوا قضيتهم بيد الدولة العثمانية على اعتبار أن مصر، من الوجهة القانونية وقبل إعلان الحماية البريطانية، إنما كانت تابعةً لها، وهكذا استبعد سعد زغلول ومن معه الأميرَ عمر طوسون من الوفد لما بينه وبين الإنجليز من العداوة، وذهبوا باتجاه التفاهم مع الإنجليز، ثم إن الميول الإسلامية العثمانية للأمير تتناقض مع الميول العلمانية لسعد وصحبه. وبذلك صعد سعد على فكرة لم يكن صاحبها[2].

= الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدِّد خالد العرب
صلح عزيز على حرب مظفرة فالسيف في غمده والحق في النُّصُب

ثم أنشد هو نفسه عند إعلان إلغاء الخلافة يقول:

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم موشية بمواهب الفتاح
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ونضوا عن الأعطاف خير وشاح

(١) وكان وقتها عضوًا باللجنة التشريعية التي حلها الإنجليز عند نشوب الحرب العالمية، وكان من النخبة المصرية المرتبطة بالإنجليز فقد تولى وزارتين في حكومات تابعة للإنجليز، وهو صهر واحد من أخلص رجالهم لهم: مصطفى فهمي باشا.

(٢) انظر: د. عبد العظيم رمضان، **تطور الحركة الوطنية في مصر ١٩١٨ ـ ١٩٣٦: الجزء الأول**، ط٣ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨)، ص٨٢ وما بعدها.

Readonly

وبهذا الصعود لسعد ورفاقه والاستبعاد للأمير طوسون تكون النخبة السياسية المصرية قد سارت هي الأخرى في طريق قطع الصلة نهائيًّا مع تركيا، ثم اشتعلت ثورة ١٩١٩ عن غير قصد ولا تدبير من سعد، إلا أنه تزعمها ثم أدخلها في متاهات التفاوض، فانتهت إلى نتائج مخيبة للآمال: استقلال شكلي (١٩٢٢)، ودستور يعطي صلاحيات واسعة للملك (١٩٢٣)، وحكومة يسيطر عليها حزب الوفد الذي يتزعمه سعد. وما يهمنا في هذا كله أن هذا الاستقلال كان هو الانقطاع التام والنهائي بين مصر والدولة العثمانية.

العلاقات المصرية التركية

منذ الاستقلال المصري (١٩٢٢) وتأسيس الجمهورية التركية (١٩٢٤) وحتى هذه اللحظة يمكن أن نرصد في مسار العلاقات المصرية التركية أربع مراحل متمايزة:

الأولى: هي مرحلة طويلة من القطيعة واللامبالاة المتبادلة مع عداء مكتوم، وتبدأ من ذلك التاريخ وحتى وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة في تركيا.

والثانية: هي مرحلة المحاولة التركية لمد جسور العلاقات مع مصر فيما لم تحفل الأخيرة تحت نظام حسني مبارك بمبادلة هذه المحاولات.

والثالثة: هي مرحلة ثورات الربيع العربي التي أفضت إلى وصول محمد مرسي إلى السلطة في مصر، فشهدت تلك المرحلة ثورة في العلاقات بين مصر وتركيا.

والرابعة: هي مرحلة الانقلاب العسكري الذي افتتح عهدًا من العداوة المتبادلة الظاهرة بين البلدين.

Readonly

ثلاثة أرباع قرن من اللا مبالاة

لم تكن القضايا التي تشغل الساسة في مصر أو تركيا تلتقي مع الآخر، ففي مصر حقبة ليبرالية تستمر ثلاثين عامًا (١٩٢٢ ـ ١٩٥٢) وقضيتها الأساسية هي التحرر من الاحتلال الإنجليزي والحفاظ على وحدة وادي النيل في مصر والسودان، ثم دخلت على الخط مشكلة إسرائيل. وكان بعض الساسة وكثير من المفكرين لا يُخفي إعجابه بمصطفى كمال أتاتورك باعتباره صانع تركيا الحديثة الذي يأخذها إلى طريق المدنية والتقدم باتباعه للغرب، وكان هذا طبيعيًّا في ظل تكون نخبة سياسية وثقافية علمانية في مصر بعد مئة وثلاثين عامًا من الجهود التي بدأت في عهد محمد علي ولا تزال مستمرة في عهد الاحتلال الإنجليزي. وفي تركيا كانت القضية الأساسية «صناعة الجمهورية» القومية العلمانية، وجرّها إلى الغرب، مع اعتماد سياسة انعزالية تخلع يدها من كل إرث الدولة العثمانية، واعتماد فكر قومي يُعظِّم من شأن القومية التركية ويحتقر شأن القوميات المغايرة بما فيها العرب، وحيث لم تكن ثمة حدود مشتركة بين البلدين فلم يكن ثمة تداخل في قضايا الأمن أو القوميات أو العلاقات الاقتصادية ذات الأهمية.

ثم طغى على المشهد المصري حقبة القومية العربية التي أسس لها الانقلاب العسكري الذي قاده جمال عبد الناصر، وبرغم ما بين الرجلين عبد الناصر وأتاتورك من وجوه الشبه، إلا أن القومية العربية ردَّت بأعنف ما يمكنها على القومية التركية وغطَّت على ما سوى ذلك، لا سيما وأن تركيا أنشأت علاقات مع إسرائيل التي كانت قضية مركزية في الوجدان العربي، كذلك فإن دخول تركيا ضمن الناتو ومؤسسات أوروبية كان يثير عداء في جبهة ترفع شعار التحرر من الإمبريالية الغربية، ثم تعلن عدم الانحياز، ثم تقع ضمن نفوذ المعسكر السوفيتي.

Readonly

كانت مصر وتركيا بلدين رئيسيين من حيث الثقل والجغرافي في معسكري الحرب الباردة، لقد كانت تركيا واقعة في كبد الاتحاد السوفيتي وأخطر منطقة نفوذ أوروبي متقدم ضد المعسكر الشيوعي[١]، كذلك كانت مصر أهم بلد عربي قادر على أن يقود تصفية الاستعمار القديم (الأنجلو فرنسي)، وقد بدأ سياسته أمريكيًّا ولكنه اضطر بعد فصول متعددة إلى أن يصير ضمن النفوذ السوفيتي[٢].

ولا يمنع هذا الخط العام من وجود محاولات للتخفيف أو إنشاء العلاقات، إلا أنها حوادث طفيفة مثل تخفيض تركيا لتمثيلها الدبلوماسي مع إسرائيل عند وقوع العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦م)، وكان ذلك في عهد عدنان مندريس، غير أن هذا التغير لم يلبث أن انتكس مرة أخرى حين توترت العلاقات السورية التركية فاندفعت سوريا للوحدة مع مصر، وأعلنت المملكة العربية المتحدة، وفي ظل قومية عربية صاخبة وحدود تركية سورية ملتهبة حركت تركيا قواتها إلى الحدود السورية، وكادت تكون حربًا (١٩٥٨م).

ومع الانقلاب العسكري على مندريس (١٩٦٠) وإعدامه (١٩٦١) ثم تدهور الأحوال في مصر مع الهزائم المتتالية أمام إسرائيل لم يفكر طرف منهما في إعادة إنشاء العلاقة من جديد رغم أن الفرص كانت تسمح بذلك، فمن جهة مصر فإنها قد ابتعدت عن المعسكر الشيوعي ودخلت في المعسكر الأمريكي وأنشأت علاقات مع إسرائيل وخسرت علاقاتها مع العرب (وكل ذلك في عهد السادات)، ومن

---

(١) للمزيد، انظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ: الجزء الأول**، ص٤١٩ وما بعدها؛ محمد إلهامي، **تركيا: جذور الصراعات التاريخية**، المعهد المصري للدراسات السياسية والإستراتيجية، بتاريخ ٢٧ إبريل ٢٠١٧.

(٢) للمزيد انظر: محمد جلال كشك، **ثورة يوليو الأمريكية**، ط٣ (القاهرة: المكتبة الثقافية، ١٩٩٢).

Readonly

جهة تركيا كان ظهور النفط في البلاد العربية وبدء معاهدات سلام مع إسرائيل في مصر والأردن مما يسمح باستعادة العلاقات، وفي كلا البلدين كان صعود التيارات الإسلامية وبزوغ نجمها مما يمهد لهذا، وأغلب الظن أن المشكلات الداخلية لكلا الطرفين كان يمنع من التفكير في علاقة كهذه، إذ قضى السادات عقد السبعينات يحاول الوصول إلى معاهدة سلام ومعالجة الوضع الداخلي والإقليمي، فيما كان عقد السبعينات مضطربًا على سليمان ديميريل مع قوة اليسار التركي ومعارك الشوارع والطلاب وهو ما خُتِم في النهاية بانقلاب عسكري في تركيا واغتيال للسادات في نفس العام (١٩٨١م).

منذ الثمانينات وحتى نهاية الألفية كان حسني مبارك في مصر شخصية عادية، وهو أقرب إلى الموظف التقليدي منه إلى الزعيم والسياسي، ولذا فإنَّ مواهبه المحدودة وفقره في الرؤى لم يكن يؤهله للتفكير في إنشاء علاقات مع تركيا. وكانت تركيا في ذلك الوقت حافلة بالمعارك السياسية والحكومات الائتلافية التي لا تلبث تتشكل حتى تنهار مما يمنع التفكير في إستراتيجيات إنشاء العلاقة، وكانت فترة الاستقرار التي شهدتها تركيا في عهد تورجت أوزال ـ وهو السياسي المتميز صاحب الرؤية الإستراتيجية ـ والذي امتد من نهاية الثمانينات إلى أوائل التسعينات تشهد ارتباكًا عالميًّا بسقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفيتي، مما خلق احتياجات عاجلة وتحديات كبرى أمام تركيا لم يكن ممكنًا معها أن تلتفت إلى إنشاء علاقة مع مصر. فانهيار الاتحاد السوفيتي سبب فراغًا واسعًا في مناطق النفوذ الطبيعية لتركيا في البلقان وآسيا الوسطى مما وضع ملفات عاجلة لاستثمار هذا الوضع ومواجهة تحدياته، كذلك فإن انهيار الاتحاد السوفيتي جعل أوروبا تقلب ظهر المجن لتركيا وتعاملها بإهمال كأن مهمتها التي قامت بها طوال الحرب الباردة قد انتهت ولم يعد

Readonly

لهم بها حاجة. ثمَّ ما إن حصل هذا السقوط حتى اندفعت أمريكا لتحتل العراق في حرب الخليج الثانية، وهي الحرب التي وقف فيها أوزال إلى جانب الأمريكان لأن مصلحته في الصراع مع العسكر التركي اقتضت هذا، وهو ما نجح بالفعل فاستقال رئيس الأركان التركي في سابقة تاريخية بعد مواجهة علنية مع أوزال[١].

إلا أن أوزال مات فجأة (١٩٩٣م) في حادثة يرجح البعض أنها اغتيال بالسُّمّ، وعادت تركيا إلى عصر الحكومات الائتلافية قصيرة العمر، وفي الأشهر المعدودة التي تولى فيها نجم الدين أربكان الحكومة حاول الاقتراب من مصر ضمن مشروعه لتحالف الدول الإسلامية الثماني: تركيا، باكستان، بنجلاديش، إندونيسيا، ماليزيا، نيجيريا، مصر. وكما يبدو فإن مصر هي الدولة العربية الوحيدة ضمن هذا الحلف، وكان هذا المشروع يحمل أبعادًا كبيرة وخطيرة في تغير الموقف والموقع التركي، ولم يقدر له البدء لقصر الفترة التي قضاها أربكان قبل أن يطيح به انقلاب عسكري ناعم عام (١٩٩٧م).

عصر «العدالة والتنمية»: العودة إلى الشرق

جاء حزب العدالة والتنمية بسياسات جديدة، ومكَّنه تشكيله المنفرد بالحكومة من تجنب فخّ الحكومات الائتلافية، وكانت العودة إلى الشرق وفتح آفاق للعلاقات التركية العربية والإسلامية من أبرز التحولات التي شهدتها السياسة التركية الخارجية.

قضى الحزب خمس سنوات قبل أن ينجح في تنفيذ زيارة لحسني مبارك

---

(١) كرم أوكتم، **تركيا: الأمة الغاضبة**، ترجمة: مصطفى مجدي الجمال، (القاهرة: سطور، ٢٠١٢)، ص١٣٦ وما بعدها.

Readonly

إلى أنقرة (٢٠٠٧)، والتي شهدت «إقامة حوار وشراكة إستراتيجيين يركزان على التعاون في مجال الطاقة والأمن الإقليمي»[١]، وقد بلغ عدد الاتفاقيات الموقعة بين مصر وتركيا ١٤ اتفاقية تجارية[٢]، لكن العلاقة لم تتطور قط إلى تعاون سياسي، لقد كان توسع الدور التركي في الشرق الأوسط يثير مخاوف السياسة المصرية التي احتكرت عددًا من الملفات، كما كانت الجذور الإسلامية لحزب العدالة والتنمية مما لا يبتلعه نظام حسني مبارك الذي قضى فترة التسعينات في ضربهم وتحجيم أنشطتهم، وهي السياسة التي بدأها مطلع التسعينات بعد الفوز التاريخي للإسلاميين في الجزائر والذي أجهضه انقلاب عسكري، لقد مثَّل الإخوان منافسًا سياسيًّا لمبارك في العقد الأول من الألفية الجديدة، فقد شكلوا المعارضة الأقوى التي تحقق نتائج قوية في انتخابات البرلمان رغم ما يشوبها من تزوير. إلا أن الملف الأخطر الذي شكل أزمة مكتومة بين تركيا ومصر هو ملف القضية الفلسطينية التي شهدت تطورًا جديدًا بفوز هائل لحركة حماس في الانتخابات (٢٠٠٦) ثم سيطرتها على قطاع غزة المتاخم لمصر (٢٠٠٧)، وهو ما استدعى حصارًا مصريًا إسرائيليًا لغزة منذ ٢٠٠٦، وسبب انقسامًا فلسطينيًا بين السلطة الفلسطينية التي تسيطر عليها حركة فتح وبين حركة حماس.

كان هذا الملف المتخم المتطور الذي لا بد أن يتعامل معه أي سياسي في الشرق الأوسط ضمن أنشطة السياسة التركية، وكانت تركيا حريصة في تنشيط

---

(١) ميشال نوفل، **عودة تركيا إلى الشرق: الاتجاهات الجديدة للسياسة التركية**، ط١ (بيروت: الدار العربية للعلوم ـ ناشرون، ٢٠١٠)، ص١٠٣.

(٢) انظر قائمة بالاتفاقيات بين تركيا ومصر في: منير الحمش، **وجهة نظر عربية في واقع العلاقات الاقتصادية التركية العربية**، ضمن: محمد نور الدين (تقديم)، **العرب وتركيا**، مرجع سابق، ص٢٣٧.

Readonly

دورها في الشرق الأوسط أن تفعل ذلك على سبيل مدِّ يد المساعدة والودّ، مع التأكيد التام على أنها ليست بديلًا لأحد ولا تحاول مزاحمة أحد في مساحات نفوذه، ومن هذا المنطلق كان الانفتاح التركي على حركة حماس ـ وكانت وقتئذ تتخذ مقرها في دمشق ـ مصحوبًا بتأكيدات متكررة على أن هذا دعم ومساندة للمجهود المصري وللجامعة العربية في ملف المصالحة الفلسطينية أو ملف تثبيت الهدنة في قطاع غزة، ومن بين التصريحات المعبرة عن هذه السياسة تصريح أردوغان القائل: «مصر كما تعرفون هي الوسيط بين السلطة الفلسطينية وحماس ونحن لا ننوي أن نقع في الخطأ من خلال الدخول كوسيط بديل، لكن إذا ما طلبت منا مصر أو الجامعة العربية المساعدة فنحن جاهزون لذلك، تركيا لا تسعى وراء السمعة أو التباهي من خلال لعب دور سياسي في المنطقة، وإنما نسعى من أجل المساعدة في حل المشاكل»[(١)].

لقد حرصت تركيا أن تكون وسيطًا وجسرًا بين معسكري «الاعتدال» و«الممانعة»[(٢)] في ذلك الوقت[(٣)]، ويفخر داود أوغلو بأن تركيا كانت الدولة الوحيدة التي حضرت قمتي الدوحة وشرم الشيخ لمناقشة الأوضاع في غزة إبان حرب ٢٠٠٨ حيث كانت الأولى معبرة عن معسكر «الممانعة» والثانية عن معسكر

---

(١) برنامج ما وراء الخبر، الجزيرة، بتاريخ ١ يناير ٢٠٠٩م.

(٢) في ذلك الوقت كانت الخريطة السياسية العربية تنقسم إلى معسكر «الاعتدال» و«الممانعة»، فالأول هو الأقرب للتوجه الأمريكي وتقوده السعودية ومصر والأردن والإمارات، والثاني هو المضاد للتوجه الأمريكي وتقوده إيران وسوريا وقطر ويضم حزب الله وحركة حماس. فلما جاءت الثورات انقلبت الخريطة السياسية لتسفر عن تحالفات وأوضاع جديدة.

(٣) ميشال نوفل، **عودة تركيا إلى الشرق**، مرجع سابق، ص١٠٥.

Readonly

«الاعتدال»، وهذا دليل على أن «الدول التي شاركت في قمة شرم الشيخ لم تر تركيا في مصاف الدول الراديكالية، والدول التي شاركت في قمة قطر لم تعامل تركيا باعتبارها امتدادًا لمجموعة الدول التي تتصدرها مصر»[١].

وقد نجح الأتراك إلى حد كبير وصار «يُلاحظ أنه عندما يحل رسميون أتراك في دول تعاني أزمات شديدة مثل لبنان أو أفغانستان أو باكستان فإن كل الأطراف يبدون تلهفًا للتعامل معهم. وما من دولة مثل تركيا في الشرق الأوسط وعلى نطاق العالم العربي الإسلامي تُفتح لها الأبواب ويُرحب بها في طهران والرياض والقاهرة ودمشق وموسكو والقدس»[٢].

لكن الواقع أن سياسة وتصريحات ومواقف أردوغان القوية (مثل: مواجهته مع شيمون بيريز في مؤتمر دافوس وإرساله السفينة «مافي مرمرة» وإجباره إسرائيل على الاعتذار لمعاملة السفير التركي بانتقاص) كانت تثمر بطبيعة الحال تعاطفًا شعبيًا عربيًا وإسلاميًا وهو ما يثمر بتلقائية حرجًا سياسيًّا للأنظمة العربية ـ ومثقفيها العلمانيين[٣] ـ التي تتخوف من صعود زعيم في المنطقة يهدد الوضع

---

(١) أحمد داود أوغلو، **العمق الإستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية**، ترجمة: محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل، ط٢ (الدوحة ـ بيروت: مركز الجزيرة للدراسات ـ الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١١)، ص٦٢٦، ٦٢٧.

(٢) ميشال نوفل، **عودة تركيا إلى الشرق**، مرجع سابق، ص٩٩.

(٣) انظر مثلاً تناقض المؤرخ سيار الجميل، وهو قومي علماني، في التعليق على توسيع تركيا علاقتها مع حماس ودخولها على خط الملف الفلسطيني، فهو مرة يراه «ليس محاولة لاستعادة مكانتها العثمانية القديمة، بقدر ما هو تعبير عن نجاح قدرتها وإخصاب خصوصيتها ومعادلة توازنها بين الشرق والغرب، أو بين التراث والمعاصرة، أو بين العلمانية والإسلام»، ثم هو في نفس الكتاب =

Readonly

الذي يبدو أن الجميع قد استكان إليه. وقد عُقِد في الإمارات اجتماع حضرته تسع دول عربية (٣ فبراير ٢٠٠٩م) يدعو إلى توافق عربي يضع حدًّا للتدخلات «غير العربية» وكان المقصود بها على وجه التحديد: تركيا وإيران إذ كان يجمع بينهما دعم حركة حماس، بينما انحاز النظام الرسمي العربي للسلطة الفلسطينية برئاسة محمود عباس. ويعترف داود أوغلو أن حركة تركيا وإن حرصت تمامًا على تبديد المخاوف إلا أنها تسببت في حساسيات «ورأت تركيا أن من المناسب اللجوء إلى القنوات الدبلوماسية من أجل إزالة هذه الحساسيات»[(١)].

لذلك كانت السياسة المصرية تجاه تركيا ظاهرها اللامبالاة وباطنها التخوف والتوجس والحذر.

الثورة والانقلاب: ثورة وانقلاب في العلاقات التركية المصرية

ثم شهدت العلاقات المصرية التركية ثورة كبرى بالتزامن مع انفجار الثورة المصرية في يناير ٢٠١١م حيث أقدمت تركيا في وقت مبكر من الأيام الأولى على دعم موجة الاحتجاجات والمظاهرات، ووجه أردوغان خطابًا شهيرًا لحسني مبارك في الأيام الأولى للثورة المصرية يطالبه بالاستماع لرغبة شعبه، وأن أحدًا ليس مخلدًا في الدنيا، بل لا بد سينزل إلى القبر بما يجعل التمسك بالسلطة ضد رغبة الشعب عملًا غير عاقل ولا أخلاقيًّا، وتوجه إلى العسكريين ألا يسيلوا قطرة

= وبعد ثلاثين صفحة فحسب يراه «رؤية قاصرة انتهت ثمارها بالتدخل في شؤون الآخرين.. فجرَّتْ سياسته (أحمد داود أوغلو) على نفسها سخطًا داخليًا وخارجيًا، إذ بدا واضحًا في الأيام اللاحقة أن فشلًا ذريعًا سيلاقيه بعد أن جعل «العثمنة الجديدة» حصانًا خاسرًا في ميدان الشرق الأوسط».

انظر: سيار الجميل، **العثمنة الجديدة**، مرجع سابق، ص٢١٣، ٢٤٤.

(١) أحمد داود أوغلو، **العمق الإستراتيجي**، ص٦٢٧.

Readonly

دم مصرية، وأكد على أن الديمقراطية لا تأتي بالراديكالية ولا تأتي بالفوضى[١].

كان هذا موقفًا مبكرًا يعلن انحياز تركيا إلى صف الثورة المصرية، ثم تأكد هذا بزيارة الرئيس التركي حينذاك عبد الله جول كأول رئيس يزور مصر بعد شهر من تنحي مبارك، وفيها التقى بالمشير حسين طنطاوي (رئيس المجلس العسكري الحاكم في الفترة الانتقالية)، وتركز حديثه على دعم الاقتصاد المصري ليعبر المرحلة الانتقالية من خلال دعم السياحة، وكذلك على دور تركيا في تقديم المساعدات الإنسانية للمصريين العائدين من ليبيا، وأعقب ذلك قبل نهاية العام الزيارة الشهيرة لأردوغان بصحبة ٢٠٨ رجال أعمال أتراك، ولقاؤه طنطاوي وعصام شرف وشيخ الأزهر، وسط ترحيب شعبي كبير، وتوقيع ٢٠ اتفاقية مع تطلعات لنمو التبادل التجاري من ٣ إلى ٥ مليارات دولار، وكذلك مضاعفة الاستثمارات التركية في مصر، وعلى مستوى التعاون العسكري استبدلت تركيا بإسرائيل مصر للمشاركة في مناورات «بحر صداقة» في أكتوبر ٢٠١٢.

وهكذا كانت تركيا، في ظل حزب العدالة والتنمية، أول وأقوى من حاول استثمار الثورة وإنشاء علاقات قوية مع مصر ودعم اقتصادها في وقت حرج، قبل أن تسفر الانتخابات عن أية نتيجة، فلما أسفرت الفترة الانتقالية عن انتخابات رئاسية فاز فيها محمد مرسي مرشح جماعة الإخوان المسلمين، وجد كل منهما في الآخر سنده الأقوى وأمله المنشود.

كان وصول محمد مرسي يفتح الطريق واسعًا أمام تركيا لتكوين خريطة

---

(١) رابط فيديو لملخص من خطاب أردوغان..

https://www.youtube.com/watch?v-oSKmtLJnxuw.

Readonly

جديدة في الشرق الأوسط، فتركيا ستمثل مع مصر ثقلًا إقليميًا غير مسبوق منذ مئة عام على الأقل، وكان مرسي أشد احتياجًا لأردوغان بكثير، فلقد كان نموذج أردوغان ملهمًا لقطاعات من الحركة الإسلامية في العالم العربي، ولا نبعد إن قلنا إنه النموذج المطلوب الذي أحبت حركة الإخوان المسلمين أن تراه منذ أن طلَّقت سبيل المواجهة مع الأنظمة الحاكمة واعتمدت سبيل الإصلاح، فهي منذ ذلك الحين تتشوق لتجربة تثبت لها أن الإصلاح ممكن من خلال الدخول في العملية السياسية وحدها، كذلك فإن مرسي لم يكن يجد له حليفًا في أجواء إقليمية معادية للثورات، فكيف إذا كان الحليف في قوة تركيا وأهميتها، لذلك لم يمض شهران على توليه الحكم إلا وكان مرسي مدعوًا لحضور المؤتمر الرابع لحزب العدالة والتنمية (سبتمبر ٢٠١٢)، وحظي هناك بترحيب كبير، كما شهدت تلك الفترة سقفًا مرتفعًا في الموقف التركي المصري من الحرب الإسرائيلية على غزة (نوفمبر ٢٠١٢)، مما دعا تسيبي ليفني ـ وزيرة الخارجية السابقة ـ أن تصرح فيما بعد بما معناه: أردوغان ومرسي يجب أن يدفعا الثمن[١]، واستمرت في دأب المحاولات التركية المصرية لإنشاء مشاريع اقتصادية ضخمة، منها مدينة صناعية تركية على الأرض المصرية، فضلًا عن التعاون بل والتطابق في المواقف السياسية.

إلا أن الأحلام العريضة انهارت فجأة تحت وقع صدمة الانقلاب العسكري الذي نفذه عبد الفتاح السيسي وزير الدفاع المصري (٣ يوليو ٢٠١٧)، وفي اللحظات الأولى حصل خلاف في تركيا بين الرئيس عبد الله جل ورئيس الوزراء رجيب طيب أردوغان، فقد أرسل جُل تهنئة بروتوكولية إلى عبد الفتاح السيسي، فصرَّح أردوغان أنه لا يوافق على مثل هذه الرسالة، وكان طبيعيًا أن تنتصر سياسة

(١) محاضرة بتاريخ ١٧ نوفمبر ٢٠١٢، في معهد دراسات الأمن القومي في إسرائيل.

Readonly

أردوغان الذي اتخذ موقفًا صلبًا وقويًا ضد الانقلاب العسكري في مصر.

التقت عدد من الأسباب التي تفسر الموقف التركي، فهو بداية انقلاب على حليف لتركيا عُقِد على بقائه طموحات إستراتيجية كبيرة سياسية واقتصادية، والسياسية أهم من الاقتصادية، إذ لا يخفى على أحد أنه انقلاب نفذه المعسكر المعادي لأردوغان في منطقة الشرق الأوسط بداية من إسرائيل ومرورًا بالإمارات والسعودية، كذلك ترضى عنه إيران التي أزعجها موقف محمد مرسي من الثورة السورية ولم تجد فيه الحليف الذي كانت تظن أن يكون، وكان نجاح هذا الانقلاب يعني أن نهج الانقلابات العسكرية يُشَرْعَن من جديد ويحظى بقبول دولي لتغيير الأنظمة التي جاءت عبر الانتخابات الديمقراطية، وهو ما يعني أن الحلقة التالية قد تكون في تركيا نفسها، كذلك فإن الساسة المدنيين الأتراك لا سيما ذوي الجذور الإسلامية لديهم حساسية خاصة من مسألة الانقلابات العسكرية في بلد عرفت بأنها بلد انقلاب عسكري كل عشر سنين.

لكل هذا كان الموقف التركي حادًّا وصلبًا تجاه الانقلاب العسكري في مصر، ووفرت تركيا للمعارض المصرية التي لجأت إليها قنوات فضائية تهاجم الانقلاب العسكري وسياسته، واستضافت المؤتمرات والفعاليات السياسية لهم. إلا أنه بدا مع مرور الوقت أن المعارضة المصرية عاجزة عن إدارة معركتها مع النظام في مصر، وأن كل يوم يزيد في رسوخ نظام الانقلاب وضعف جبهة المعارضة، فانعكس هذا على مستوى التصلب التركي الذي كان سقفه مرتفعًا للغاية ويطالب بإعادة مرسي للرئاسة ورفض الانقلاب العسكري وآثاره، ثم أخذ في التراجع.

عند نهاية ٢٠١٤ توفي الملك السعودي عبد الله بن عبد العزيز، وهو أهم شخصية عربية وكان له النصيب الأوفر في تمويل الانقلاب العسكري والحرص

Readonly

عليه، وبدا كأن خليفته الملك سلمان بن عبد العزيز يتخذ نهجًا مغايرًا لنهج سلفه، وضمن هذا التغيير تلك المحاولة لمدّ العلاقات مع تركيا، وكانت تركيا تتشوف لمثل هذا التغير إذ بزوال مرسي وتأزم الثورة السورية والتباعد المستمر في المواقف التركية الأمريكية كانت تركيا تعاني سياسة العزلة، وكان الملف المصري أحد الملفات العالقة بين الجانبين، فالسعودية لم تشهد تغيرًا يصل بها إلى حدٍّ التفكير في مراجعة سياستها إزاء مصر[1]، ولهذا بدأ الموقف التركي يتغير تدريجيًا فيتراجع عن اشتراط عودة مرسي إلى اشتراط الإفراج عن مرسي من السجن قبل فتح علاقة مع مصر، ثم إلى اشتراط إسقاط حكم الإعدام عن مرسي، وبدأ التلويح بإمكانية استمرار العلاقات الاقتصادية أو حتى العلاقات على المستوى الوزاري لكن أردوغان لا يمكنه أن يقابل السيسي مطلقًا.

إلا أن سياسة الملك سلمان لم تستمر على هذا النهج، بل ظهر ثمة تحول خطير وهو محاولته تأمين العرش السعودي ليتولاه ابنه محمد بن سلمان، وهي

---

(١) يمثل الإخوان المسلمين، وخصوصًا في عهد الرئيس مرسي، تحديًا خطيرًا للنظام السعودي، ذلك أن الإخوان يهددون زعامتها السنية وشرعيتها الدينية التي بُني عليها النظام الحاكم في السعودية، كما يهددون النظام الملكي بتقديم نموذج ديمقراطي إسلامي يمارس فيه الشعب حقوقه في اختيار ومراقبة ونقد السلطة الحاكمة وهو ما يتناقض مع الصيغة الملكية الاستبدادية لنظام الحكم السعودي، ومع الطبيعة الفوقية الأبوية التي تنتهجها الأسرة الحاكمة إزاء الشعب. كما أن نجاح ثورة شعبية في خلع نظام حكم وتثبت آخر ونجاح هذا النظام الإسلامي يفتح آفاق الآمال لدى الجماهير في تكراره في السعودية وغيرها من ممالك الخليج، ثم إن هذا النظام المخلوع في مصر ـ نظام حسني مبارك ـ هو نظام حليف للسعودية، وزواله يهدد أوراقًا كانت في حوزتها. كل هذا لم يكن الإخوان يقدرونه حق قدره ولا يتصورونه حق التصور مما جعل سياستهم إزاء السعودية وتصورهم لمواقفها فاشلًا بامتياز.

Readonly

خطوة تحدث للمرة الأولى منذ تأسيس الدولة السعودية الثالثة على يد الوالد عبد العزيز آل سعود، وكان المسار الذي اتخذته السعودية عمومًا هو فتح العلاقات مع إسرائيل وتوثيق العلاقات مع الإمارات، فعاد تموضع السعودية في الخريطة الإقليمية ليكون ضد السياسة التركية، وتتحدث العديد من المصادر التي لا يمكن توثيقها بشكل مؤكد في الوقت الحالي حول مشاركة سعودية فعالة في محاولة الانقلاب العسكري الذي جرى في تركيا (١٥ يوليو ٢٠١٦).

على الجبهة المصرية كان النظام العسكري يشن الحملات السياسية والإعلامية والدبلوماسية العنيفة تجاه تركيا، وخصصت العديد من مقدراتها ومجهودها لتشويه وإعاقة السياسة التركية، وتحركت المؤسسات المصرية بالتوافق التام مع إسرائيل والإمارات في تحطيم النفوذ التركي وإثارة المشكلات، وعقدت مصر اتفاقيات مع قبرص واليونان لترسيم الحدود البحرية، وهي اتفاقية تضيع على مصر وتركيا معًا حقولًا نفطية في منطقة شرق المتوسط، ودخلت مصر على خط التواصل مع حزب العمال الكردستاني الذي يخوض حربًا ضد تركيا، وكان سلوك الإعلام والسياسة المصرية عشية محاولة الانقلاب العسكري في تركيا في غاية الفجاجة والشماتة، ورُصِد وجود فتح الله كولن ـ الذي تتهمه تركيا بقيادة محاولة الانقلاب العسكري ـ في القاهرة، وأعلنت الصحف المصرية أن القاهرة تعرض توفير اللجوء السياسي له.

وهكذا يبدو أن المسافة بين مصر وتركيا لا تزال بعيدة.

مستقبل العلاقات المصرية التركية

لا ريب أن التحليل المبني على أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة وتملك قرارها سيختلف جذريًّا عن التحليل المبني على أنها دولة خاضعة للهيمنة الأمريكية

Readonly

الإسرائيلية، ولذا يتحدث المحللون السياسيون في العموم انطلاقًا من الفرض الأول بينما يتحدث الثوريون في العموم انطلاقًا من الفرض الثاني. وحيث نحن الآن في حضرة جمع من المؤرخين فينبغي أن تكون الصورة أوسع من أفق المحلل السياسي الذي ينصب اهتمامه على المدى القريب أو المتوسط بحد أقصى وفي أحيان نادرة.

أهمية مصر وتركيا في المنطقة

عبر التاريخ لم توجد دولة قوية في مصر أو في الأناضول لم تحاول مد نفوذها إلى الضفة الأخرى، وقد حدث هذا في عالم لم تكن فيه حقول نفط تُكتَشَف في المتوسط أو أنابيب غاز تمتد بين ضفتيه أو شبكات كهرباء تنسج حوله أو ترسيم دولي لحدود مائية يؤثر بقوة على الموارد الاقتصادية.

وطوال فترة الاستعمار ثم ما بعده لم يجر تفكير المصلحين في مشروع نهضة إلا وكانت مصر وتركيا من أعمدته الأساسية، بما لهما من موقع جغرافي مهم وثقل تاريخي ثقافي عميق ومخزون بشري وافر، وهو المشروع الذي لم يُكتب له الحياة ولا حتى التفكير الجاد فيه إلا في اللحظة الخاطفة التي كانت فيها مصر تحت رئيس حقيقي منتخب من شعبها، وهو الرئيس محمد مرسي، بينما سائر ما قبل هذا وما بعده منذ لحظة الاستعمار الأولى وحتى لحظة كتابة هذه السطور لم يشهد محاولة جادة يتبادل فيها الطرفان الرغبة في إقامة تكتل لخدمة المصالح المتبادلة ولتعزيز مكانتهما في المنطقة والعالم.

وتبدو المعضلة واضحة في أن كلا البلدين طوال حقبة الاستعمار وما بعده إنما كانتا واقعتين تحت السيطرة العملية للأجانب أو لطبقة حاكمة لا تمثل الشعب ولا تعبر عنه، ولئن كان هذا الوضع قد تغير في تركيا مع مجيء حزب العدالة

Readonly

والتنمية وترسخ سلطته لا سيما بعد محاولة الانقلاب العسكري الفاشلة (١٥ يوليو ٢٠١٦م)، فالمؤسف أن الوضع في مصر لم يتغير، ولا تزال مصر عمليًّا تحت الهيمنة الأمريكية والإسرائيلية. وطالما استمر الوضع على هذا فلن يمكن بناء علاقات طبيعية أو صحية بين مصر وتركيا.

إذا افترضنا استقلال القرار المصري فيمكننا أن نرى خريطة جديدة في ميزان القوى، ذلك أن شروط الحليف أو الشريك الإستراتيجي[1] متوفرة تمامًا بين مصر وتركيا:

١. فمن ناحية الوفرة البشرية تمتلك مصر وتركيا وحدهما نحو مئتي مليون من السكان، وعامة أولئك السكان ممن يحظون بقدر من التعليم والثقافة، فضلًا عن النسبة الكبيرة من العقول المهاجرة التي ساهمت في نهضة الجامعات الأوروبية والأمريكية.

---

(١) وضع بعض الباحثين شروطًا ينبغي تحققها فيمن يكون «شريكًا إستراتيجيًا»، وهي تدور حول:

(١) امتلاك قدرات اقتصادية وعسكرية ونفوذ سياسيٌّ وثقافيٌّ يجعل الشراكة معه مفضية إلى تحقيق الأهداف الإستراتيجية المطلوبة.

(٢) وجود الرغبة المتبادلة النابعة عن مصالح متبادلة في هذه الشراكة.

(٣) الاشتراك في مجمل القيم والتوجهات السياسية بين البلدين بحيث لا يتناقض مشروعاهما إستراتيجيًا.

(٤) وجود نوع من الاتفاق العام بين الشعبين على هذا التعاون كي لا تضطرب هذه الشراكة بالتغيرات السياسية.

انظر: محمد السيد سليم، **الأدوار التركية الجديدة في الوطن العربي: البديل والنموذج الإستراتيجي**، ضمن: محمد نور الدين (تقديم)، **العرب وتركيا: تحديات الحاضر ورهانات المستقبل**، ط٢ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، مارس ٢٠١٥)، ص٤٦٦، ٤٦٧.

Readonly

٢. وهما أقوى دولتين في شرق المتوسط ما يعني سيطرتهما التامة على شرق البحر المتوسط وموارده الغنية، وهما معًا يسيطران على مضايق البسفور والدردنيل وقناة السويس بما يعني سيطرتهما على نشاط التبادل التجاري بين الشمال والشرق، وعلى قسم كبير من التبادل التجاري بين الشرق والغرب، ولهما معًا نفوذ في أربعة بحار: البحر الأسود، بحر إيجه، البحر المتوسط، البحر الأحمر.

٣. ولكل من البلدين نفوذ ثقافي ثقيل في العالم الإسلامي، فلمصر تأثير سياسي وثقافي كبير في المنطقة العربية وفي إفريقيا، ولتركيا تأثير سياسي وثقافي كبير في مناطق وسط آسيا والقوقاز والبلقان، أي أن مجموع تأثير البلدين يبلغ أن يكون نصف العالم الإسلامي تقريبًا.

ثم إن ثمة مزايا مفقودة في بلد يمكن أن توجد في الأخرى، فلئن افتقدت تركيا العمق الإستراتيجي فإن مصر تتمتع بعمق إستراتيجي واسع في إفريقيا وفي المنطقة العربية، ولا تكاد مصر تتحسب لأي نوع من الخطر إلا من جهة إسرائيل فحسب، بينما ظهرها في الجنوب والغرب آمن ومتصل بريًّا. كذلك لا تزال الموارد الاقتصادية المصرية وافرة ويمكنها أن تمد النمو التركي بمزيد من المواد الخام وإمكانيات الاستثمار الممتازة. وعلى الجانب الآخر فإنَّ مصر تحتاج إلى أن تكون مواردها واستثماراتها بأيدٍ أمينة لا تنظر إليها بمنطق الاحتلال والهيمنة والاستنزاف، بل بمنطق الأخوة والتعاون والمصالح المتبادلة، وهي تحتاج إلى الاستفادة من التقدم التقني وأساليب النمو الاقتصادي في تركيا لإدارة مواردها المادية والبشرية.

كذلك فإن التحالف المصري التركي سياسيًّا واقتصاديًّا سيكون بمثابة كتلة قوية تجذب إليها بلدانًا أخرى، وسيكون في طليعة أولئك المتداعين إلى هذا

Readonly

الحلف الدول العربية التي تعاني نوعًا من الضعف، فالخليج العربي يعاني من تهديد أمني وقلق جيوسياسي خطير، بينما هو يتمتع بإمكانيات اقتصادية وافرة، واليمن مثلًا تعاني من تهديد اقتصادي بينما تتمتع بموقع جيوسياسي خطير ومؤثر، والسودان تعاني من ضعف اقتصادي، بينما تملك موارد مادية وبشرية وموقعًا ممتازًا، وهذا فضلًا عن دول المغرب العربي، ثم ما وراء هذا القلب العربي من دول العالم الإسلامي في إفريقيا وآسيا وأوروبا.

إن مجرد تصور قيام حلف قوي بين مصر وتركيا يساوي تهديدًا كاملًا للهيمنة الغربية في المنطقة، وبداية إحياء للقوة الإسلامية التي تتمتع بسائر المميزات المؤهلة لإمبراطورية قوية، ولكنها تفتقد إلى الإرادة. ولهذا يبدو أن قيام هذا التحالف يمثل خطًّا أحمر للسياسة الدولية.

توقعات غربية للعلاقات المصرية التركية

يعاني العالم الإسلامي من غياب الدراسات المستقبلية، وهو عرض ضمن أعراض كثيرة للمرض الأصلي المتوطن فيه: تحالف الاحتلال مع الاستبداد. وفي ظل هذه الحالة لا يبدو ثمة شيء متاح في باب المستقبليات إلا ما يصدر عن مراكز البحث الغربية.

وفي سياق حديثنا عن العلاقات المصرية التركية يبدو كتاب «المئة عام القادمة» الذي أصدره جورج فريدمان واحدًا من أهم الكتب التي تناولت مستقبل العالم، وخاضت في موضوع مستقبل تركيا. ومؤلفه هو مدير مؤسسة ستراتفور (توقعات إستراتيجية[1])، وهي واحدة من أهم المؤسسات الأمريكية في مجال

(1) STRATFOR: Strategic Forestation.

Readonly

تقديم الاستشارات، وقد صدر هذا الكتاب عام (٢٠٠٩م) أي قبل نشوب الثورات العربية، ومع هذا فله توقعات مثيرة مثل النزول الروسي إلى الشرق الأوسط في منتصف العقد الثاني للقرن الحادي والعشرين، وهو ما تحقق فعلًا.

وما يهمنا من الكتاب أن فريدمان يتوقع استمرار التمزق في العالم العربي، ويتوقع أن الأتراك هم من سيستفيدون واقعيًا من هذا التمزق، وأنه سيكون سببًا لصعود القوة التركية في المنطقة، حيث ستجد تركيا نفسها قائدة للعالم الإسلامي، وعندئذ ستضطر تركيا مع الاضطرابات التي يتوقع أن تحدث في مصر أن تنزل قواتها للسيطرة على قناة السويس، ذلك أن مصر لا يُتَوَقَّع أن يكون لها أي دور في القرن القادم بل ستظل في موقع التبعية لغيرها كما كانت في القرن الماضي، لكن في القرن الجديد لن تكون الهيمنة على مصر أمريكية أو روسية فحسب، بل قد تكون تركية. كذلك يتوقع فريدمان أن الأتراك سيعودون لقيادة العالم الإسلامي وسيبدأ تمددهم الحقيقي بعد فشل الروس في استعادة دور الاتحاد السوفيتي، وسيكون الأتراك من مكافحي عودة هذا الدور الروسي، ثم إنها سترث ما كان تحت النفوذ الروسي فتكثّف وجودها العسكري في آسيا الوسطى، وتتوغل في القوقاز لضمان أمنها القومي من خلال قوات عسكرية متقدمة، وستتولى توسيع تجارتها في أنحاء المنطقة، كما ستغلق المضايق في وجه الروس لتأمين نفوذها في البلقان. عند هذا الحد ستكون تركيا عمليًا قائدة العالم الإسلامي، كما يرى فريدمان، وعندئذ ستبذل كل طاقتها من خلال قوتها الناعمة في تحسين صورتها لما عساه يكون نفورًا عربيًا من القيادة التركية للمسلمين لما ترسّب لديهم من حكم الدولة العثمانية، وفي هذا السياق ستقدم تركيا نفسها للعرب باعتبارها زعيمة لتحالف إسلامي لمواجهة الهيمنة الأمريكية.

Readonly

يتوقع فريدمان أن أمريكا لن تعارض هـذا التمدد بـل ستطمئن لـه باعتبار تركيا حليفًا موثوقًا به، كما أنَّ النفوذ التركي فـي الخليج العربي (الفارسي) هو أفضل لها من السيطرة الإيرانية، لكن استمرار التمدد التركي فـي مصر والجزيرة العربية والخليج والمحيط الهندي سيجعل التقاءها مـؤكّدًا باليابان التي ستبزغ هي الأخرى بقوة اقتصادية كبرى ناتجة عن استثمار أزمات الصين وروسيا، إذ ستستفيد من أزماتهما في العمالة وفي وفرة المواد الأولية التي تحتاجها. وحينئذ سيشكّل التحالف التركي الياباني قوة خطيرة تصطدم بالقوة الأمريكية والتي ستتحرك لمحاصرة اليابان من خلال دعم الصينيين والكوريين، ومحاصرة الأتراك من خلال دعم البولنديين والكتلة الشرقية وإثارة «القومية العربية» مرة أخرى. لكن المزية المتوفرة هنا للأمريكان هي أنهم قد استطاعوا التفوق بفارق كبير في برامج الفضاء مما سيجعلهم قادرين على مراقبة ومعاقبة تركيا واليابان من خلال منشآت الفضاء التي ستحتوي حينها على منصات إطلاق صواريخ موجهة. وعندئذ يظهر الصدام بين القوتين: الأمريكية وحلفائها من جهة، واليابان وتركيا من جهة أخرى مما سيتسبب في حرب عالمية ثالثة تنتصر فيها أمريكا لأن القرن القادم هو قرن أمريكي[1].

ليس يهمنا الآن التعليق على هذه التوقعات، وإنما نقدمها باعتبارها شيئًا مما يدور في أروقة الأجهزة الغربية عن التوقعات المستقبلية.

---

(1) See: George Friedman, **The Next 100 Years: A Forecast for the 21st Century**, (New York, Double day, 2009), pp. 66, 70, 79 – 82, 138, 144 – 148, 152, 155 – 160, 163 – 175, 184 – 188, 197 – 199, 202 – 205, 210 – 214.

Readonly

وكانت مؤسسة ستراتفور قد أصدرت تقريرًا في ٢٠١٥ بعنوان «ملامح العقد القادم» يكرر التأكيد على توسع وتمدد الدور التركي في المنطقة العربية خلال هذه العشرية واستمرار التحالف بينها وبين الأمريكان في مواجهة الإيرانيين والروس، وأنها ستكون أحرص على استقرار الأمن في المنطقة من الإيرانيين، وذلك أن مشروع الأتراك في التوسع سياسي واقتصادي بينما مشروع الإيرانيين عسكري، ثم إن الاضطراب يمس الأتراك مباشرة في مناطقهم الجنوبية بينما لا يمس الإيرانيين مباشرة حيث يفصل بينها وبين هذه الاضطرابات حزام شيعي في العراق. ويغيب عن التقرير ذكر مصر ما يعني بوضوح استمرارها في موقع التبعية[1].

ولمرة أخرى نكرر أننا نورد هذه الأمور كتوقعات غربية، ولسنا نقول بصحتها أو بخطئها الآن، إذ ليس هذا مجال تقييمها.

خاتمة

بهذا العرض الموجز نكون قد ألقينا نظرة عامة على العلاقات المصرية ـ العثمانية والتركية منذ أول انعقادها في صدر التاريخ الإسلامي وحتى اللحظة الراهنة، مع ما مرت به من فصول وتقلبات وتغيرات جغرافية وتاريخية عديدة، ثم ألقينا نظرة على توقعات مستقبلية ناقشت العلاقات المصرية التركية.

* * *

(1) Stratfore, **Decade Forecast: 2015 - 2025**, 3 Feb. 2016.

Readonly



صورة مصر في عهد السلطان سليمان القانوني

* أُلْقي هذا البحث في مؤتمر «السلطان سليمان القانوني»

المنعقد بجامعة أولوداغ في محافظة بورصة (تركيا)

بتاريخ ١٥ فبراير ٢٠١٨م

لم تنقض ثلاث سنوات على التوسع الهائل للدولة العثمانية إلا ومات صاحبه: السلطان سليم الأول، وورث الدولةَ العظيمةَ منه ابنه الشاب السلطان سليمان القانوني. وبهذا كان سليمان هو أول سلطان عثماني يتولى مسؤولية العالم الإسلامي بعد أن صارت بلاد الشام والعراق والحرمين تحت سلطانه.

بمصر تضاعفت الأعباء والمسؤوليات كما تضاعفت الموارد المالية والبشرية للسلطنة، فمن خلال مصر صار ثغر السويس هو القاعدة العسكرية المتقدمة لإدارة الصراع البحري مع البرتغاليين في البحر الأحمر والخليج العربي وخليج عدن والمحيط الهندي، ومن خلال مصر استطاعت السلطنة العثمانية أن تضيف إلى مواردها خراج مصر الثري، ومن هنا كانت أحوال مصر وطريقة إدارتها مؤثرة في مسؤوليات السلطنة وخزانتها بقوة. وهذا هو ما أحسنه السلطان سليمان القانوني ومن بعده أخذ الحال تدريجيًا في الانحدار.

ظل الرأي القائل بأن الحكم العثماني لمصر كان احتلالًا لمصر هو الرأي

Readonly

السائد في الأوساط العلمية المصرية، لعديد من الأسباب من أهمها أن السلطة التي تلت العثمانيين في مصر والعالم العربي كانت ضد العثمانيين، فهي إما سلطة احتلال أجنبي أو سلطة قومية أو وطنية، وكلها احتاج إلى تعديل الرواية التاريخية لتجعل من نفسها إنقاذًا من الحكم العثماني البغيض. ومع أنَّ هذا الرأي بدأ يتفكك تحت ضربات البحث العلمي الرصين في العقود الأخيرة إلَّا أنه عاد وبقوة في السنوات الأخيرة مع توتر العلاقات بين تركيا والأنظمة العربية الحاكمة، وتعدُّ كل دراسة تاريخية عن الولايات العربية في الفترة المبكرة من الحكم العثماني هي بوجه ما جزءًا من هذا الصراع السياسي المعاصر، كما أنها جزء من الصراع الحضاري الممتد بين الهوية الإسلامية الجامعة والهوية القطرية القومية السائدة منذ خضعت أمتنا للحضارة الغربية وثقافتها الغالبة ونظامها السياسي المهيمن على الواقع.

وفي هذا الباب يبدو الحديث عن مصر في فترة السلطان سليمان القانوني حديثًا في واحدة من أهم اللحظات الحرجة في مسألة «الاحتلال» العثماني، ذلك أنها الفترة التي كانت فيها القوة العثمانية في الذروة العسكرية والحضارية، أي أنها التعبير الأنسب عن القدرة العثمانية على فرض «احتلالها» إن صح أن العلاقة بينها وبين مصر كانت احتلالًا، فأما حيث ثبت من خلال الدراسات الخطأ الكامل لهذه الفرضية فإن مصر في عصر سليمان تمثل دليلًا إضافيًّا لدى المؤمنين بأن الحكم العثماني إنما كان استمرارًا للحضارة الإسلامية على يد سلالة أخرى كسائر السلالات التي حكمت مصر وبقية الولايات الإسلامية دون أن يعني هذا أنها احتلال، ومصر نفسها حكمها من قبل: العرب والترك والكرد والشركس وغيرهم، ولم يُنظر إليهم على أنهم احتلال إلا عند الذين يرون الفتح الإسلامي كله احتلالًا.

وهاهنا نقطة فارقة في مناقشة موضوع الاحتلال، فالواقع أن توصيف فترة

Readonly

ما على أنه احتلال أو فتح إنما هو فرع عن مسألة الهوية نفسها، وبغض النظر عن السياسة التي سلكها الحاكمون في هذه الفترة، ذلك أن وجود الظلم أو سوء الإدارة أو غير ذلك من المساوئ لا يؤدي إلى الوصف بالاحتلال، ولا العكس أيضًا يؤدي إلى العكس: أي أن وجود الإدارة المحترفة والنظام يؤدي إلى الوصف بالفتح أو الترحيب بالغزاة، إنما يتعلق الأمر في الأصل بتعريف الأمة لنفسها وللقاهر عليها، فقد توجد الإدارة المحترفة التي تعبر عن منظومة احتلالية بشعة تعمل بكفاءة لتصفية موارد البلد في خدمة العاصمة الاحتلالية، وقد يوجد الظلم والعسف في الحكم المحلي الداخلي، فلا يرتفع بهذا وصف الاحتلال عن الإدارة الأولى ولا يلحق وصف الاحتلال بالإدارة الثانية. كذلك فإن المؤرخ الموالي للاحتلال والمؤمن بحضارته سيسعد بلحظة الاحتلال وإدارته مهما رافقها من ظلم ودموية، ويعتبر أن هذا كله من ضرورات الانتقال الحضاري ومن تكاليف الدخول إلى مرحلة التنوير والرقي، وهو نفسه يستبشع مرحلة ما قبل الاحتلال مهما أبدى حُكَّامُها بسالة وتضحية في الدفاع عن البلاد باعتبارها المرحلة المظلمة المتخلفة التي يدافع أصحابها عن مصالحهم المرتبطة بالتخلف في مواجهة النور والحضارة القادم على يد المحتل. ومن هنا فإن الحوادث التاريخية ذاتها تتلون وتصطبغ بالهوية والانحياز الحضاري المهيمن على كاتبها والتي تملي عليه تفسيرها.

إلا أن التاريخ ليس سائلًا إلى هذا الحد، فالتاريخ يحمل من الحقائق الصلبة والوقائع الثابتة ما يستعصي على الاستجابة والتطويع لصالح الأهواء المختلفة والمتضاربة، ويمكن لتلك الحقائق والوقائع أن تشكل عثرة كبرى تتكسر عليها المقولات الكاذبة والأهواء الضالة وإكراهات الثقافة الغالبة، التي هي في حالتنا الثقافة الغربية.

Readonly

ومن هذه الحقائق والوقائع ما كان من تاريخ مصر في عصر السلطان سليمان القانوني، إذ هو في جملته مما تتكسر عليه مقولات «الاحتلال» العثماني ومقولات «التخلف» المصري في الحقبة العثمانية، وهي النتيجة التي توصلت إليها الدراسات الوثائقية بما في ذلك دراسات العديد من المستشرقين الذين لا يمكن اتهامهم بالدفاع عن الدولة العثمانية، بل بعضهم معروف صراحة بأنه من خصومها. ويمكن ببساطة مقارنة الإجراءات التي اتخذتها الإدارة العثمانية في مصر بالإجراءات التي اتخذتها الإدارة الفرنسية ثم الإنجليزية في مصر فيظهر بوضوح الفارق بين «الاحتلال الأجنبي» وبين فترة الحكم العثماني، كما يمكن كذلك مقارنة رد الفعل المصري تجاه كل من هذه ليظهر بجلاء أن المصريين لم يعتبروا حكم العثمانيين احتلالًا أجنبيًا ينشئ كفاحًا وجهادًا للتحرر منه.

تحاول هذه الورقة تقديم صورة موجزة مكثفة عن أحوال مصر في عهد السلطان سليمان القانوني، فتلقي نظرة عامة على الأحوال السياسية والعسكرية والإدارية والاقتصادية.

الأحوال السياسية

يمكن تقسيم الأحوال السياسية في مصر زمن السلطان سليمان إلى فترتين متمايزتين:

حقبة الاضطرابات

بينما يحاصر سليمان القانوني جزيرة رودس ويفتح ما حولها من الجزر إذ وصله خبر وفاة خاير بك، والي مصر المملوكي الذي كان حاكمًا لحلب وكان قد

Readonly

انحاز إلى جيش السلطان سليم الأول لدى فتحه الشام، فنَصَّبَه واليًا على مصر[١]، فأرسل من فوره مصطفى باشا «من قيادة رودس العليا»[٢] ليكون واليًا عليها مع عشر سفن عثمانية، وهنا تحققت المخاوف المملوكية أو بالأحرى: انهار الأمل المملوكي، وذلك أن تولية خاير بك، وهو مملوكي شركسي، أوحى بأن العثمانيين قد يجعلون ولاية مصر في عهدة المماليك كما كانت من قبلهم، فلما جاء مصطفى باشا ثَبَتَ لهم أن قرار الولاية صار شأنًا سلطانيًا عثمانيًا، ويمكن أن تكون ولاية مصر لرجل من رجال الدولة العثمانية، وليست مقيدة بعرف أو تقليد تجعله منحصرًا في المماليك، فأدى هذا إلى تمرد مملوكي قاده ثلاثة من رجال خاير بك، وهم المرشحون لخلافته كما أمَّلوا، فعزموا على قتل الباشا العثماني أثناء عقده الديوان وتحديد ساعة للهجوم على القوات العثمانية وهي بالأسواق قبل أن تنحاز وتتعسكر، لكن أحدهم أفشى هذا السر ففسد التدبير وأُعْدِم اثنان على مرأى ومسمع من الناس، لكن واحدًا من الأعيان المتمالئين مع هذا المخطط استطاع أن يواصل التمرد، فأعلن الثورة وجمع حوله خمسة أو عشرة آلاف مملوكي ومن انحاز إليهم من البدو. وعلى جهة أخرى أعلن الاستقلالَ مملوكيٌّ آخر كان كاشفًا لمديرية الغربية من مركز «المحلة الكبرى»، وحاول الحصول على تأييد الشعب بإعلانه إسقاط

---

(١) ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق: محمد مصطفى، ط٢ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ٥/ ٤٨٥؛ **تاريخ بجوي إبراهيم أفندي: التاريخ السياسي والعسكري للدولة العثمانية**، ترجمة وتقديم: ناصر عبد الرحيم حسين، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥م)، ١/ ١١٧.

(٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ٥/ ٤٩٠؛ د. فريدون أمجان، **سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين: حقائق في ضوء المصادر**، ترجمة: د. جمال فاروق وأحمد كمال، ط١ (القاهرة: دار النيل، ٢٠١٤م)، ص٦٥.

Readonly

خراج عام ونصف العام، وقد نجح في هذا، وانتشرت حالة الاضطراب في مصر، وكثر الهرج، ووقع الكثير من حالات القتل، وصار مركز العثمانيين في مصر حرجًا، وأيقن مصطفى باشا أن المواجهة العسكرية مع هؤلاء في حكم المستحيل، فعمل على استمالة الأعيان ورؤساء القبائل، وتعهد لهم بما شاؤوا وبما استطاع من عهود في مقابل الولاء والطاعة، ففرغت كثير من الأمداد البشرية والمالية من المتمردين، فجَهَّزَ لهم قوة مسلحة فيها ثلاثة أو أربعة آلاف من الإنكشارية المسلحين بالبنادق حققت النصر النهائي عليهم (أوائل شعبان ٩٢٩هـ ـ ١٥ يونيو ١٥٢٣م)[١].

أعيد مصطفى باشا إلى إسطنبول بعد قضائه على التمرد لرغبة زوجته وهي أخت السلطان[٢]، وكان ديِّنًا محبًا للعلماء حسن السيرة طيب العشرة[٣]، وعُيِّنَ مكانه كوزلجه قاسم باشا الذي لم يلبث إلا فترة قصيرة اختلف المؤرخون في تقديرها، وكان يحب العمران وإليه يُنسب حي قاسم باشا في إسطنبول[٤]، ثم عُيِّنَ مكانه أحمد باشا (الوزير الثاني)، والملاحظ هنا أن السلطان سليمان فضَّل إرسال

---

(١) **تاريخ بجوي**، ١/ ١١٧، ١١٨؛ سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني في القرن ١٦: دراسة وثائقية في النظم الإدارية والقضائية والمالية والعسكرية**، ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧م)، ص١١٢ وما بعدها؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٦٧، ٦٨.

(٢) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٦٩.

(٣) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية**، تحقيق: د. ليلى الصباغ، ط١ (دمشق: دار البشائر، ١٩٩٥م)، ص١٣٩.

(٤) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٤١؛ زمباور، **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، أخرجه: د. زكي محمد حسن وآخرون، (بيروت: دار الرائد العربي، ١٩٨٠م)، ص٢٥٠.

Readonly

وزرائه المقربين إلى مصر كإداريين بسبب موقعها الحساس، وذلك ما تدل عليه التعيينات الثلاثة بعد خاير بك[١].

كان أحمد باشا طموحًا، فسعى منذ توليه إلى تمهيد الأمور لنفسه بغية الاستقلال بمصر، تلك التي تراود كل الطامحين بإمكانية الاستقلال بما تتوفر عليها من خيرات وموارد، فضلًا عما انطوى عليه أحمد باشا من أغراض شخصية[٢]. فبدأ في كسب ولاء المماليك الشراكسة وتقليص صلاحيات رجال الدولة العثمانيين، وسعى في تغيير بعض القوانين وتبديلها، فلما وصلت تلك الأنباء إلى القسطنطينية أوعز السلطان سليمان إلى قره موسى، أحد رجال الدولة العثمانية في مصر، أن يتولاها وأن يقبض على أحمد باشا ليرسله إلى العاصمة. غير أن أحمد باشا كان يقظًا فألقى القبض على حامل الأمر السلطاني فقتله وقتل معه قره موسى، وأعلن

---

(١) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٦٩.

(٢) بدا لأحمد باشا أن طريقه إلى الصدارة العظمى مفتوحًا بعد تولية مصطفى باشا (الوزير الثاني) ولاية مصر، فعمل على إسقاط الوزير الأول وهو الصدر الأعظيم بيري باشا، فاتهمه بأمور استوجبت فتح محاكمة ترأسها قاضي عسكر، واستطاع أحمد باشا أن يستميل قاضي عسكر فحكم على بيري بما استوجب عزله من الصدارة العظمى، وهكذا ذهب الوزير الثاني والأول وكانت العادة تقضي بأن يصير هو الصدر الأعظم، لكن سليمان عين إبراهيم باشا، وكان رئيس موظفي القصر، في هذا المنصب. فتغيرت خطة أحمد باشا نحو أن يستقل بطرف من المملكة ووقع اختياره على مصر، فسعى في أن يتولاها وهو الأمر الذي تلاقي مع أغراض الحاشية كي يتخلصوا من وجوده، ولعل سليمان أراد أن يحل مشكلة المنافسة بين أحمد باشا وإبراهيم باشا، فوافق على طلبه، وهكذا تمَّ لأحمد باشا ما أراد.

انظر: **تاريخ بجوي**، ١/ ١١٩، ١٢٠؛ سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني**، ص١١٧؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٦٥ وما بعدها.

Readonly

العصيان فسَكَّ النقود باسمه وقطع الخطبة للعثمانيين وأمر أن يُخطب له، وأرسل إلى الصليبيين للتحالف معهم وعرض إعطاءهم جزيرة ردوس إن عاونوه، وقاتل الإنكشارية وقتل منهم طائفة كثيرة. ثم ظَلَمَ وعَسَفَ وحَبَسَ وصادَرَ أموالًا، فاضطربت عليه الرجال واستطاع أميران أمر بحبسهما أن يهربا من السجن، ونصبا راية السلطنة مع العساكر، وهجموا عليه إذ هو في الحمام، ففر من سطح إلى سطح حتى التجأ إلى شيخ من مشايخ العرب بالشرقية، فطورد حتى قُتِل، وبهذا انتهى تمرد أحمد باشا سريعًا، وعادت مصر إلى ولاء العثمانيين[١].

عين كوزلجه قاسم باشا مرة أخرى (٩٣٠هـ ـ ١٥٢٤م)، ثم رأى السلطان سليمان أن يرسل بصهره ورجله الأثير الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى مصر ضمن فريق من رجال الدولة الإداريين، فوصلوا إلى مصر (٨ جمادى الآخرة ٩٣٠هـ ـ ٢ إبريل ١٥٢٤م)، ومنحه «سلطات واسعة، وكلفه بوضع القوانين العثمانية في مصر، وإصلاح الإدارة الفاسدة وتطويرها»[٢]، وهي الزيارة المشهورة التي رُفِعَتْ بها المظالم وضُبِطَتْ بها الأحوال وأُرْسِيَتْ بها القوانين العثمانية في مصر[٣]، فقد أعاد إبراهيم النظر في قوانين الإدارة أيام المماليك وكيف جرى العمل بها في عهد

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٤٠؛ الإسحاقي، **أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول**، (القاهرة: ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٧م) ص١٥٠؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب**، تحقيق: محمد الششتاوي، ط١ (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م)، ص١٠٩؛ **تاريخ بجوي**، ١/ ١١٩، ١٢٠؛ سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني**، ص١١٧ وما بعدها؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٧١ وما بعدها.

(٢) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٧٥.

(٣) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٤١ وما بعدها.

Readonly

قايتباي وقنصوه الغوري وخاير بك، فألف من بينها القانون العثماني الذي صَدَّق عليه السلطان سليمان[١]، «وكان هذا التنظيم العام لإدارة مصر يجمع ـ كما في باقي الولايات العثمانية ـ بين عناصر مقتبسة من التنظيم المملوكي القديم، ومن المؤسسات العثمانية الخالصة»[٢]، وبهذا «نَظَّم قانون نامه سليمان (١٥٢٤) في هذه الفترة المبادئ الأساسية التي سيرتكز عليها التنظيم السياسي لمصر لنحو ثلاثة قرون»[٣].

كذلك فقد أدخل إبراهيم تعديلات على الأوضاع العسكرية، وأطلق سراح المساجين المُعْسِرين وسَدَّدَ ديونهم من الخزانة، وبنى بُرْجَيْن إزاء قلعة القاهرة وعَمَّر مسجد عمرو بن العاص من ماله الخاص وحدَّد ما تدفعه مصر سنويًا إلى إسطنبول من فائض خراجها بثمانية أحمال ذهب (ثمانين ألف أوقية) وأمر بتجديد القناة الواصلة بين النيل والبحر الأحمر لربط تجارة البحرين إلا أن المشروع لم ينفذ[٤]، وقَتَل الأمير عمر بن علي (زعيم قبائل هوارة بالصعيد)، والأمير أحمد بن بقر (زعيم العربان بالشرقية) لما بلغه عنهما من ظلم الرعية كما يذكر بعض

---

(١) **تاريخ بجوي**، ١/ ١٢٤؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٧٦ وما بعدها. وانظر تحليلاً موجزًا لهذا القانون عند: سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني**، ص١٢٩ وما بعدها.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة: تاريخ حاضرة**، ترجمة: لطيف فرج، ط١ (القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٤م)، ص١٧٥.

(٣) أندريه ريمون، **الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر: الجزء الأول**، ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم وباتسي جمال الدين، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٥م)، ص٧٧.

(٤) سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني**، ص١٢٧ وما بعدها؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٧٨ وما بعدها.

Readonly

المؤرخين[١] أو لعصيانهما ومعاونتهما لحركات التمرد[٢]، ومنذ تلك اللحظة نعمت مصر بانقضاء الاضطرابات لثلثي قرن فيما بعد، منذ (٩٣٠هـ ـ ١٥٢٣م) وحتى (٩٩٧هـ ـ ١٥٨٨م)[٣].

حقبة الاستقرار

عاد إبراهيم باشا إلى العاصمة وعُهِدَ إلى سليمان الخادم أمير أمراء الشام بولاية مصر، وظلَّ فيها عشر سنوات[٤]، فنجح في توطيد الأمن، وأولى اهتمامًا كبيرًا بضبط الأمور، فأعاد تعيين المساحة لضبط الأقاليم، كما اهتم كثيرًا بالفعاليات التجارية في البحر الأحمر ومع الهند[٥]، وانبسط به أهل مصر في ولايته الأولى، فكانت مصر «في زمانه عروسًا تُجَلَّى ومحاسن ملاحتها كالنهار إذا تحلى، وكانت قاهرة كاسمها.. والناس بعد في خير ونعيم وعيشة راضية ومقام كريم»[٦].

ثم اسْتُدْعِيَ سليمان الخادم للمشاركة في حملة بغداد فصارت ولاية مصر إلى خسرو باشا، الذي أرسل خراج مصر اثنى عشر حملًا بدلًا من ثمانية أحمال، ظانًّا أنه سيكون دليلًا لدى السلطان على حسن تدبيره، لكن السلطان عزله واستدعاه

---

(١) ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١٠٩، ١١٠.

(٢) سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني**، ص١٢٦.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر: القاهرة في القرن السادس عشر**، (القاهرة: دار الوثائق والكتب القومية، ٢٠١٠م)، ص١٢٤.

(٤) **تاريخ بجوي**، ١/ ٢٦٣.

(٥) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٤٦؛ الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٠؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٢٢٨.

(٦) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٥٦، ١٥٧.

Readonly

معتقدًا أنه لا بد من أن تكون تلك الزيادة ناتجة عن قهر وظلم للرعية، وقد حاول خسرو أن يبرئ نفسه من تلك التهمة، وقال بأنه إنما تجنب الإسراف وأحسن التدبير لكن السلطان لم يقتنع ورفض دخول المال الزائد إلى الخزينة، فأُنْفِقَ في أبواب الخير[١]، ولم تزد مدة ولايته عن السنة، ومع هذا فقد شهدت له نشاطًا عمرانيًّا حيث عمَّر جزءًا من سوق الصاغة، وأنشأ صهريجًا بين القصرين، وأنشأ مكتبًا يتبنى تعليم الأيتام وإطعامهم، كما «حصَّن القرافتين المرضيتين، وعمَّر بهما الدروب الجدد»، وكان ينشط فيراقب ويتحسس الأمور بنفسه، ويجالس الناس فلا يشعرون إلا أنه واحد منهم، وكانت مصر في أيامه في غاية الأمن من اللصوص والقُطَّاع، وامتدحه وترحم عليه مؤرخ مصر في زمنه ابن أبي السرور البكري ووصفه بأنه «حسن الشكل مليح الفعل»[٢].

وبعد انتهاء الحملة تولى سليمان الخادم منصب الوزارة في الآستانة ثم أعيد مرة أخرى إلى مصر «وذلك من أجل أن ينهي المهمة التي بدأها وذلك قبل مرور عامين»[٣]، وكانت ولايته هذه المرة سنة ونصف السنة، وعُرِفَ سليمان الخادم بكثرة العمارة في مصر وأشهر آثاره جامعه المعروف بجامع سارية الجبل في القلعة، وهو أول جامع يشيد على الطراز العثماني، كما عمَّر تكية وجامع السليمانية في منطقة بولاق وبجواره وكائل وأسواق وربوع وغير ذلك، وجعل عليه وقفًا كبيرًا، وعمَّر

---

(١) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٧٩.

(٢) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٥٨، ١٥٩. وقد أضافت المحققة د. ليلى الصباغ لترجمة خسرو باشا إضافات من «عيون الأخبار ونزهة الأبصار»، وهو كتاب آخر لابن أبي السرور البكري. وانظر: الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٠.

(٣) **تاريخ بجوي**، ١/ ٢٦٣.

Readonly

تكية بقوصون[١]، وبنى قبة خضراء على قبر الشيخ سعود المجذوب بشارع سوق السلاح عند حارة النصارى[٢]، كما أنشأ مَعَاصِر للسكر ووكالتين لتجارة الكتان[٣].

ثم تولاها داود باشا لنحو اثني عشر عامًا، بداية من (٩٤٥هـ)، «وكان رجلًا حليمًا، باذلًا كريمًا، محبًا للعلماء.. وكان محبًا لمطالعة الكتب العربية، وجمع منها شيئًا كثيرًا، لأن غالب كتبة مصر كانوا يكتبون له مع كثرة شرائه لها أيضًا، وكان محبًّا للفضلاء، الأئمة النبلاء، سوق العلم عنده رابح، وبالاشتغال إلى الترهات غير طامح. وإحسانه واصل إلى علماء مصر، والرخاء في زمنه موجود، والجور والظلم في دولته مفقود، والرعايا في دولته في الرفاهية وتسهيل الأرزاق من غير مشقة، فعليه الرحمة والرضوان مع توالي الزمان»[٤]، وأنشأ عددًا من الوكالات لتجارة وتخزين الحبوب[٥]، وبنى في ولايته مدرسة عظيمة محكمة البناء بسويقة اللاله ووقف لها أوقافًا[٦]، وجدَّد مسجد الطباخ بتوصية من السلطان سليمان بمنطقة باب

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٥٧، ١٥٩؛ الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٠؛ محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني**، مراجعة: د. صالح سعداوي، ط١ (إسطنبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٣م)، ١/ ٥٥ وما بعدها.

(٢) علي مبارك، **الخطط التوفيقية، لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، ط١ (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣٠٦هـ)، ٦/ ٣٢؛ محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**، ١/ ٣٩.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٧٦.

(٤) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٠ وما بعدها.

(٥) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٧٦.

(٦) الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠.

Readonly

اللوق[١]، ونقل بعض المؤرخين أنه تعقب المفسدين بالقتل فعمَّ الأمن زمان ولايته، وظل في الولاية إلى أن توفي في القاهرة (٩٥٦هـ) وأوصى أن يدفن إلى جوار إمام مصر الليث بن سعد[٢].

ثم صارت ولاية مصر إلى علي باشا السمين (ويسمى أيضًا: علي باشا الوزير)، وكان حاكمًا عادلًا صالحًا محبًّا للعلماء والفقراء محسنا لهم، وكان ذا رأي ثاقب وفكر صائب، ولم يحصل في أيامه سوء لأحد، وقد عُرِف بالعمران، إذ رمم وبنى عدة مبان في القاهرة كمقام السيدة زينب ومبان أخرى بفوة ووكالة عظيمة برشيد، وجدد قلعة العريش[٣]، وكان قدوة حسنة لغيره من الأمراء الذين شيدوا الجوامع، وكان «محبوبًا، مكرمًا عند المصريين بمنزلة الأب»[٤]، وقد قضى علي باشا في مصر أربع سنوات ونصف ثم استُدْعِي إلى الآستانة ليشغل منصب الصدر الأعظم.

ثم تولاها محمد باشا (٩٦١هـ) فكان على عكس سلفه محبًّا للخلاعة، يخرج وبيده طنبور إلى الخليج أيام عُلُوِّ النيل، فيعزف ويغني لا يبالي بأثر هذا على الناس ولا على صورته، قضى في مصر ثلاث سنوات فكرهه الناس وتكررت منه الشكاوى، وزاد البلاء بأن وقع في زمنه غلاء عظيم وشَحَّتْ المحاصيل، فلما وصلت قبائحه إلى السلطان سليمان عزله ثم قتله خنقًا (٩٦٣هـ)[٥].

---

(١) محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**، ص٥٣، ٥٤.

(٢) ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١١.

(٣) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٣، ١٦٤؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١١، ١١٢.

(٤) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، تحقيق: د. محمد حرب، (القاهرة: كتاب الهلال، يناير ١٩٩٤م)، ص١٢١، ١٢٢.

(٥) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٥، ١٦٦؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٢.

Readonly

ثم تولى إسكندر باشا فحكم ثلاث سنوات وأشهر، وكان من أهل الخير والصلاح والفقه والدين، وأحبه الناس محبة عظيمة، وزاد النيل في ولايته فقلت الأسعار، وهو صاحب الوقف الشهير المعروف بوقف إسكندر باشا ـ ومنه: المدرسة والسبيل والتكية ـ والمنشآت الكثيرة[١]، التي ساهمت في عمران المنطقة الواقعة بين باب زويلة وباب الخلق[٢].

ثم تولى (٩٦٦هـ) علي باشا الخادم الذي قضى فيها ستة عشر شهرًا، وكان من أهل الدين والخير والصلاح، عادلًا محبًّا للعلماء والفضلاء كثير الإحسان لهم، لا يعرف الكذب والرشوة، ولما مات لم يكن لديه إلا سبعة دنانير، وخمسة عشر قطعة من الملبس[٣].

ثم تولى مصطفى باشا شاهين (مصطفى الثاني) (٩٦٧هـ) فقضى في الولاية ثلاث سنوات وأربعة أشهر، «فجعل الرشوة شعاره والظلم دثاره مع عدم إنصافه للرعية»، ومع ذلك فإنه كان من أصحاب العمارة حيث عمَّر الرُّبْع الذي بمصر القديمة، وجعله وقفًا على أعمال خير، ولما وصلت أخبار ظلمه وجوره عزله السلطان سليمان عن مصر[٤].

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٧، ١٦٨؛ الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥١؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٢، ١١٣.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص٢١٠.

(٣) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٨؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٣.

(٤) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٧٠، ١٧١. وترجح المحققة أن المنطقة المذكورة هي عطفة السادات التي في شارع درب الجماميز بمنطقة السيدة زينب؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٣.

Readonly

ثم خلفه علي باشا الصوفي (٩٧١هـ) فقضى في ولاية مصر سنتين وثلاثة أشهر، وكان من قبلها حاكمًا في بغداد، وبدأت في عهده مسألة التلاعب بالعملة التي ستستمر أَمَدًا يُعانَى منها في مصر، حيث نقص وزن العملة وانخفضت قيمتها إما لأنه سَكَّ من المئة درهم فضة مئتين وثمانين قطعة بدلًا من مئتين وخمسين، أو لأنه خلط بالمئة درهم الفضية ثلاث دراهم من النحاس. وفي عهده أيضًا زادت الجرائم وكثر اللصوص، حتى كان من الحوادث المشهورة غارةٌ نفذها بعض المفسدين وصلوا بها إلى الجامع الأبيض (في أرض الطبالة بمنطقة باب الشعرية)، فأقام سورًا بين القنطرة المعروفة بقنطرة الحاجب حتى الجامع الأبيض لتجنب تكرار الإغارة[١].

ثم تولى الأمر محمود باشا (شوال ٩٧٣هـ)، وهو الوالي الأخير لمصر في عهد السلطان سليمان، فبدأ ولايته بالقتل، فقتل عددًا من الوجهاء لأسباب لم تنقل المصادر التاريخية تفاصيل عنها، فقد قتل الأمير محمد بن عمر متولي الصعيد خنقًا، مع أن هذا الأخير هرع إليه بالهدايا والتحف الفاخرة عند أول ولايته، بما قد يشير إلى عداوة سابقة أراد تجنب شرها مع تغير مراكز القوى. كذلك قتل القاضي محمد العبادي وكان كاتبًا للروزنامة والجزية[٢]، وكان من أعيان مصر ومن أهل الجاه فيها، وذلك لعداوة سابقة بينهما نشأت حين كان محمود باشا في مصر متجهًا إلى اليمن كوالٍ عليها فأهمل محمد العبادي شأنه واحتقره، ثم لما وصل إلى مصر ولاية لم يكن في جملة مستقبليه ولا أهدى إليه شيئًا. كذلك قتل مُنَجِّمًا مغربيًّا كان

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٧١ وما بعدها؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٤.

(٢) الروزنامة: سجل النفقات والإيرادات اليومي. والجوالي: الجزية.

Readonly

قد أعلن أن محمود باشا لن يتولى ولاية مصر أبدًا. وقتل كثيرًا آخرين في أول أيام ولايته. ولما مات أمير الحج إبراهيم الدفتردار أظهر الشماتة وصادر أمواله فمنها ما باعه بثمن بخس ومنها ما أنفقه في الهدايا على رجال الدولة العثمانية وحاشيتها في الآستانة يرجو بذلك الزيادة في المناصب والترقيات. وكان له هيبة وسطوة وموكب فخم ومائدة حافلة يؤكل عليها في أواني الذهب والفضة ويرتدي الثياب الفاخرة. وقبل أن يكمل عشرين شهرًا في الولاية تَرَصَّدَ له مجهول فاغتاله بطلقة بندقية واحدة أصابته إصابة قاتلة أثناء سيره في موكبه، ولم يُعْثَر له على أثر، فوجد الجنود اثنين من الفلاحين بقرب الموقع فقُتِلا به[١].

وبهذا انتهى عهد السلطان سليمان القانوني، ولم تكمل فترة الاضطراب السياسي فيها إلا أقل من عامين بينما عمت مصر حالة من الاستقرار، فقد «عرفت مصر حوالي ستين عامًا من الهدوء النسبي لم يحدث فيها ما يستحق الذكر، لأن الإدارة كانت تحتفظ بكثير من سمات النظام القديم، وكان المماليك لا يزالون يلعبون دورًا مهما بين الطبقة الحاكمة. واستطاع الولاة القضاء على آخر فرق المماليك التي هربت أمام الجيوش الغازية واستوطنت مصر العليا [الصعيد]، كما أنهم قضوا على شوكة البدو الذين أفادوا من انهيار النظام القديم واستولوا على مناطق مزروعة وشاسعة بوادي النيل»[٢].

ومما يلاحظ من أسماء الولاة أن منصب والي مصر كان من أرفع المناصب الإدارية في الدولة العثمانية، فقد تولاه من كانوا من كبار الوزراء، أو صار الذين

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٧٤ وما بعدها؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٤، ١١٥.

(٢) أندريه ريمون، **الحرفيون والتجار**، ص٧٩، ٨٠.

Readonly

تولوه من كبار الوزراء فيما بعد، وقد حدث غير مرة أن ينتقل والي مصر إلى منصب الصدر الأعظم مباشرة.

الأوضاع العسكرية

مع اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أمكن للأساطيل الغربية، وتحديدًا: البرتغالية والإسبانية، الدوران حول قارة إفريقيا والانتقال من الشرق إلى الغرب دون المرور على قلب العالم الإسلامي وممالكه القوية، ومن ثَمَّ وجدت الأساطيل الأوروبية ممالك ضعيفة وغير مسلحة بقوة مكافئة على طول السواحل الإفريقية ثم السواحل الجنوبية لآسيا، وهنا بدأت أفكار غزو الجزيرة العربية والدخول إلى البحر الأحمر لمهاجمة مكة والمدينة تحقيقًا للحلم الصليبي القديم: هدم الكعبة ونبش قبر النبي ﷺ.

فوجئت الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وشرقها وفي جنوبي آسيا بهذه الأساطيل القوية، وعجز الأسطول المملوكي عن الدفاع الفعال عن سواحل البحر الأحمر الجنوبية، وهو العبء الذي أضيف إلى الدولة العثمانية التي ورثت دولة المماليك.

من هنا كان لا بد من شحن مصر بالجند العثمانية، فبلغ عدد الفرق العسكرية في مصر زمن السلطان سليمان عشرين ألف جندي في سبع فرق، وربما يزيد أو ينقص بحسب الحاجة، وتتمتع فرقة الإنكشارية بوضع خاص، ولقائدها نفوذ على بقية قادة الفرق، ولم تكن رواتب الإنكشارية أعلى من غيرهم لكنهم تفوقوا بالعدد والنفوذ والدخول العائدة من استثمار «الالتزام» ومن تعيين إسطنبول لقائدهم[1].

---

(١) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، ص١١٥، ١١٦؛ أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٧٨.

Readonly

وعمل السلطان سليم من البداية على إسكان القوات مجتمعة في المنطقة المحيطة بالقلعة، وأوضح قانون نامه «بأن ذلك لضمان مراقبة تلك القوات وإحكام السيطرة عليها ومنع أذاها عن المدينة»[١]، ومنذ عهد سليم تولت فرقة الإنكشارية حماية أبواب القاهرة وأسوارها وقلعتها (أقرب إلى معنى فرقة الحرس الجمهوري بالمصطلح المعاصر)، بينما تولت فرقة الاسباهية مهمة تأمين مدينة القاهرة[٢].

كذلك تَحَتَّمَ على الدولة العثمانية بناء أسطول قوي في السويس للتصدي لنفوذ البرتغاليين، وكان سليمان يعتبر أمور الحرمين متعلقة بأمن مصر، وشرعت الدولة العثمانية بعد ضم مصر في الانفتاح تدريجيًّا على البحر الأحمر والمحيط الهندي، واستطاع العثمانيون إفشال مخططات البرتغاليين الذين سعوا بشتى الطرق لتأسيس مراكز تجارية ذات أهمية في البحر الأحمر[٣]. وأولى السلطان سليمان اهتمامًا خاصًّا بالسويس ودمياط والإسكندرية لكونها الثغور البحرية المصرية التي تمثل مداخل إلى مصر مثلما هي مراكز دعم وإسناد متقدمة للأسطول العثماني، فكان أمر تعيين قيادتها وإرسال حاميتها يصدر عن السلطان مباشرة، وتجدد في كل سنة، ولا يعد قباطينهم من رجال الإدارة المصرية إلا بمعنى إقامتهم فيها ومخصصاتهم المالية منها[٤]. ومن ثم فقد «أسس الصدر الأعظم إبراهيم باشا أثناء تواجده في مصر قاعدة بحرية مركزها السويس (١٥٢٥م). وقد كانت هذه الخطوة

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٦. وهي تنقل عن: **قانون نامه مصر الذي أصدره السلطان القانوني لحكم مصر**، ترجمة د. أحمد فؤاد متولي، (القاهرة: د ت)، ص٧٣، م٣٢.

(٢) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٣٥.

(٣) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص ص٧١ وما بعدها، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٤) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، ص١١٧، ١١٨.

Readonly

أولى الخطوات الهامة التي أقدمت عليها الإدارة العثمانية لإثبات قوتها في المنطقة، وإكساب موانئ البحر المتوسط حيويتها بالتجارة القادمة من الشرق من جديد. وفي تلك الأثناء عين إبراهيم باشا والي الشام سليمان باشا الخادم واليًا على مصر»[١]، وكان سليمان الخادم عظيم الهمة والشجاعة ومدبرًا حكيمًا، وبلغت قواته الخاصة ألف خادم من ذوي الكفاءة والتدريب المتميز[٢].

بدأ إنشاء السفن في السويس برسالة من السلطان سليمان إلى القائد البحري خير الدين بربروسا (٩٣٧هـ = ١٥٣٠ ـ ١٥٣١م) يطلب إرسال مستلزمات بناء السفن على عشرين سفينة إلى السويس لا سيما المدافع، وكان سليمان باشا الخادم في مصر على أهبة الاستعداد لاستقبالها، فبلغت الحصيلة الأولى من هذه المستلزمات ٧٦ قطعة بحرية في ميناء السويس بعضها من نوع «قادرغة» وبعضها الآخر من نوع «بارجة» و«ماوونة» وفرقاطة وكانت هذه هي بذرة القاعدة البحرية لقناة السويس[٣].

وفي الفترة الثانية لولاية سليمان باشا الخادم كانت الاضطرابات في الهند قد وصلت إلى أن يخسر بهادر شاه سلطان ولاية كوجارات بعض بلاده أمام غريمه السلطان باير أوغلو همايون، فأرسل نساءه وخزينته مع وزيره إلى الحرمين، وأرسل سفيرًا إلى السلطان سليمان يطلب معونته (٩٤٣هـ = ١٥٣٦ ـ ١٥٣٧م)، ثم ازداد الوضع صعوبة عليه حين جاء البرتغاليون فاستولوا على أهم موانيه «ديو»، ثم قُتِل بهادر شاه، وبهذا انتقلت خزينته التي كانت في الحرمين إلى العاصمة العثمانية

---

(١) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٢٢٧.

(٢) **تاريخ بجوي**، ١/ ٢٦٣.

(٣) **تاريخ بجوي**، ١/ ٢٦٣، ٢٦٤؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٢٢٨.

Readonly

بإشراف سليمان الخادم لعدم معرفة ورثته[١]، ثم شرع سليمان الخادم في جمع الجيش من مصر والشام وتجهيز الأسطول لملاقاة البرتغاليين أمام السواحل الهندية، فتم له ذلك وتحرك من ميناء السويس (١٥ المحرم ٩٤٥هـ ـ ١٣ يونيو ١٥٣٨م) بثمانين قطعة بحرية، فأخضع عدن لسلطان العثمانيين، ولكنه ارتكب خطأً قاتلًا سيدفع ثمنه في حملته تلك وهو قتله عامر بن داود حاكم عدن، فقد كان سليمان الخادم «سَفَّاكًا للدماء»[٢]، وبعض المصادر تذكر أنه طرده لأنه اتهمه بموالاة البرتغاليين[٣]، ثم انطلق إلى ديو حيث شرع في تحطيم القوات البرتغالية وما أقاموه من حصون، ولم يجد تعاونًا من السلطان محمود الذي خلف بهادر شاه، إذ خاف من مصير حاكم عدن، فتصالح مع البرتغاليين وامتنع عن إمداد الأسطول العثماني بحاجته من الغذاء، وسرَّب رسالة لتقع بيد العثمانيين تخبر بقدوم أسطول برتغالي كبير مما اضطرهم إلى الانسحاب السريع بعدما حققوه من انتصارات حتى لقد تركوا مدافعهم على الشاطئ، لتنتهي الحملة بانتصار مؤقت غير مكتمل، ويراها بعض المؤرخين[٤] حملة بلا فائدة ولا نتيجة، فيما يراها آخرون قد حققت نتائج مهمة وإن لم تدرك الغاية[٥]، ثم عاد إلى اليمن فرَسَّخَ خضوعها للعثمانيين ثم حجَّ وعاد إلى مصر، ومنها إلى العاصمة ليتولى منصب الصدارة العظمى[٦].

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٤٦ وما بعدها، **تاريخ بجوي**، ١/ ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٤٩.

(٣) إسماعيل سرهنك، **حقائق الأخبار عن دول البحار**، ط١ (بولاق، المطبعة الأميرية، ١٣١٢ه)، ٢/ ٤٠.

(٤) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٥٧.

(٥) إسماعيل سرهنك، **حقائق الأخبار**، ٢/ ٤٠.

(٦) **تاريخ بجوي**، ١/ ٢٦٥ وما بعدها؛ وانظر: فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٢٢٩ وما بعدها.

Readonly

وفي هذه الأثناء «حصن العثمانيون منافذ مصر الواقعة على البحر الأحمر: إقليم الحبشة (حبش) الذي نظمه أوزدمير Özdemir فاتح الحبشة»[١]، حيث انتزع عددًا من القلاع، وبسط نفوذه على منطقة سواكن، فبدأت حلقة جديدة من الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على المشرق، إذ صار العثمانيون يسيطرون على ضفتي البحر الأحمر ما عدا المناطق الخاضعة لمملكة الحبشة[٢].

استمرت المعارك العثمانية البرتغالية في خليج عدن، التي ما إن خرجت عن سلطان العثمانيين حتى خرج إليها أسطول من مصر بقيادة بيري ريس واستطاع استعادتها (١٥٤٩م) ودارت اشتباكات عثمانية برتغالية على السيادة في الخليج العربي[٣]، وفي سنة (٩٦١هـ) وجَّه السلطان سليمان رئيس الأسطول بيري ريس إلى فتح جزيرة هرمز لتكون موقعًا عسكريًّا متميزًا للقوة البحرية العثمانية، فهي مركز متوسط بين بلاد العراق والهند واليمن، وبهذا تكون مركزًا متقدمًا في الصراع البحري مع البرتغاليين، وقد انطلق بيري ريس من السويس بالأسطول ذي الثلاثين سفينة إلى هرمز، إلا أنه لم يستطع أن يحقق المطلوب وتحطمت بعض سفن الأسطول في مأساة عسكرية، فصدر أمر السلطان سليمان بإعدامه فأعدم في مصر في واحدة من الحوادث المأساوية لأحد أبطال الدولة العثمانية[٤]. وأما بقية سفن الأسطول فقد

---

(١) أندريه ريمون، **الحرفيون والتجار**، ص٧٩، ٨٠.

(٢) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٢٣٢، ٢٣٣.

(٣) محمد إلهامي ومحمد شعبان أيوب، **بيري ريس: أمير الحرب والبحر**، ط١ (القاهرة: دار القمري، ٢٠١٤م)، ص٨٦ وما بعدها.

(٤) **تاريخ بجوي**، ١/ ٣٩٣، ٣٩٤؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٣٣٦ وما بعدها؛ محمد إلهامي ومحمد شعبان أيوب، **بيري ريس**، ص٩٧ وما بعدها.

Readonly

عُهِد بها إلى قيادة البحرية العثمانية الموجودة بالسويس، وبالتحديد إلى علي قبودان ليتولى مسؤولية سحبها إلى السويس مرة أخرى، وبعد حروب ومغامرات وأهوال استطاع علي قبودان إنقاذ أغلب سفن الأسطول وباعها إلى السلطان أحمد سلطان كوجرات، وهذا كان أفضل المتاح حينها، ولهذا كافأ السلطان سليمان علي قبودان ورجاله في قيادة الترسانة بالسويس على إنجازهم وحسن تصرفهم[١].

النظام الإداري

رغم حرصه على ألا يغير النظام الجاري في مصر، فقد عمل السلطان سليم منذ البداية على أن يُكوِّن فيها نظامًا تتعدد فيه مراكز القوى لكي يضمن ألا ينفرد بولاية مصر أحد فيخامره الاستقلال بها، فتكون النظام الإداري من ثلاثة قوى، هي:

١. الباشا ممثل الدولة، ويقيم بقلعة صلاح الدين. وقد وضع سليمٌ خاير بك في هذا المنصب وهو المملوكي الذي كان أميرًا لحلب، فكان اختياره فيه نوع مراعاة وتهدئة للمماليك وحفاظ على العوائد المتبعة الجارية في مصر، وهو دليل على «بُعْد نظر سليم وحصافته؛ لأنه لم يكن من الصواب تطبيق الإدارة العثمانية في مصر التي يصعب إمكانية مراقبتها والسيطرة عليها بسبب كونها فتحت حديثًا وبعدها عن المركز العثماني»[٢].

٢. القوات العسكرية العثمانية التي تكونت من سبعة أوجاقات (فِرق) لضمان أمن الولاية وجمع الخراج، وهي تتبع قائدًا عثمانيًّا مقيمًا بالقلعة. وهي بمثابة ذراع الدولة القوية في مصر وممثلة نفوذها فيها.

---

(١) **تاريخ بجوي**، ١/ ٤٠٦ وما بعدها؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص ٣٩٠ وما بعدها.

(٢) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٦٦.

Readonly

٣. الأمـراء المماليـك مـن بقايـا الدولـة المملوكية، إذ اسـتعان بهـم في حكم المناطـق المصرية التي تقسـمت إلى ١٢ سـنجقية (مديريـة)، يعين الديـوانُ الأميرَ على السـنجق[١].

ويتكون الديوان الذي يُسَيِّر الأمور من الباشا ومعه قادة الفرق العسكرية الست التي مع كل واحدٍ منها الكخيا[٢] والدفتردار[٣] والخزنة دار[٤] والروزنامجي[٥]، فلا يُقضى أمر بغير مشورتهم، ولهم أن يعترضوا على ما يقرره، ولهم أن يرفعوا الخلاف معه ليفصل فيه السلطان بالعاصمة، ومن صلاحيتهم أن يطالبوا بعزله كذلك[٦].

بقدر ما قد يُعَقِّد هذا النظام اتخاذ القرار وسرعته وينشئ التحزبات داخل البلاط، بقدر ما أراح السلطنة من أعباء ذوي الطموح الذين قد يخامرهم الاستقلال بمصر. وقد بدت فائدة هذا النظام في تمردات المماليك بعد وفاة خاير بك، فحتى تمرد أحمد باشا الذي استفاد من بقاء قوة المماليك الذين مثلوا منافسة محلية

---

(١) عمر الإسكندري وسليم حسن، **تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر**، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م)، ص٦٠.

(٢) الكخيا: النائب أو القائم بالأعمال. سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، (الرياض: مكتبة الملك فهد، ٢٠٠٠م)، ص١٨٨.

(٣) الدفتردار: من يتولى الأمور المالية. سهيل صابان، **المعجم الموسوعي**، ص١١٤.

(٤) خزينة دار: من يتولى المحافظة على الخزانة. حسين مجيب المصري، **معجم الدولة العثمانية**، (القاهرة: الدار الثقافية، ٢٠٠٤م)، ص٥٢.

(٥) روزنامه جي: من يتولى الدفتر الذي تقيد فيه الأعمال. حسين مجيب المصري، **معجم الدولة العثمانية**، ص٦٦.

(٦) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، ص١١٠ وما بعدها؛ عمر الإسكندري وسليم حسن، **تاريخ مصر**، ص٦١.

Readonly

قوية[١]، لم يستطع استقطاب الجنود الإنكشارية الموجودين في القاهرة[٢]، ويمكن القول بأن إجراءات سليم كانت تهدف إلى الاحتفاظ بمصر داخل السيادة العثمانية، لكنها لم تجعل من مصر ولاية عثمانية، أي أنه رسَّخ النظام الأمني والعسكري، ثم لم تمهله الأيام لإنشاء نظام إداري واقتصادي وقانوني في مصر يربطها بنظام الدولة العثمانية، وهو ما سيقوم به ابنه السلطان سليمان.

ولما تولى السلطان سليمان، اتضح نظامه الإداري بتعيين مصطفى باشا خلفًا لخاير بك، وبهذا خرج منصب الباشا من يد المماليك، ولكنه أبقى التوازن بين الأطراف، فأنشأ في مصر الديوان الكبير الذي يضم إلى أعضاء الديوان: أمير الحج وقاضي وأعيان المشايخ والأشراف والمفتون الأربعة والأئمة الأربعة والعلماء، ووظيفة الديوان الكبير: إدارة ما ليس تتعلق إدارته بالباب العالي من الأمور العامة، وهو ينعقد بدعوة من الباشا. وأما الديوان الصغير فهو ينعقد يوميًا ويتكون من: الباشا والكخيا والدفتردار والروزنامجيه، ونائب من كل فرقة عسكرية والآغا وكبار ضباط وجاق المتفرقة (وهو نخبة الحرس السلطاني)، ووظيفة هذا الديوان متابعة الشؤون اليومية والإدارات الثانوية[٣].

كان الدفتردار يُعيَّن من قبل إسطنبول ليدير الشؤون المالية، ما يجعل له استقلالية تجاه الوالي. كذلك كانت صلاحيات القاضي تشمل الإشراف على أعمال الوالي، وله أن يكاتب إسطنبول مباشرة بما يراه من انحرافات. ومثله الآغا

---

(١) سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني**، ص١٢٥.

(٢) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٧١.

(٣) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، ص١١٤، ١١٥؛ أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٧٦، ١٧٧.

Readonly

الذي يقود فرقة الإنكشارية حيث كان يُعَيَّن من إسطنبول[١].

وقد زاد السلطان سليمان من دمج القوة المملوكية بالنظام الإداري في مصر، فقد أنشأ وجاقًا (فرقة عسكرية) سابعة من المماليك فعرفت بوجاق الشراكسة، وأعطى المماليك الذين أقامهم السلطان سليم في الإدارات حق الترقي إلى رتبة الباشوية، وأضاف اثنا عشر منصبًا يُختار له من بين الأمراء المماليك، وهم: الكخيا (نائب الباشا)، وقيادة الثغور البحرية الثلاثة: السويس والإسكندرية ودمياط وهو منصب «القبطان»، والدفتردار وأمير الحج وأمير الخزانة وشيخ البلد وحكمداريو خمس مديريات: جرجا والبحيرة والمنوفية والغربية والشرقية. وبهذا صار من أعضاء الديوان أمراء مماليك مثل الكخيا والدفتردار وأمير الحج وأمير الخزانة، فالكخيا نائب الباشا، والدفتردار مسؤول الضبط المالي والحسابات والسجلات، وأمير الحج يحمل الهدايا والصدقات من السلطة إلى الحرمين وهو مسؤول عن قافلة الحج، وأمير الخزانة يحمل خراج مصر إلى العاصمة. وكان قرار تعيين الباشا وقباطين السويس ودمياط والإسكندرية يأتي من العاصمة، ويُستدعون إليها نهاية كل سنة ويعتبر هؤلاء الأربعة تابعين رأسًا للسلطان لا للحكومة المصرية. كذلك كانت مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم في عهدة كُشَّاف من المماليك لهم نفس نفوذ البكوات، ولدى كل منهم في مديريته ديوان يتكون من رجال الإدارة وممثلي الفرقة العسكرية التي تتبعها المديرية[٢].

وقد انتظم شأن القضاء حتى لقد كان في القاهرة وحدها أربعة وعشرون محكمة إبان القرن السادس عشر، فضلًا عن محاكم الضواحي التابعة لها، وقسمت القاهرة

---

(١) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٧٦.

(٢) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، ص١١٦، ١١٧؛ أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٧٨.

Readonly

إلى ٣٢ دركًا، والدرك هو المنطقة الأمنية الذي يشمل ثمانية خطط في القاهرة وضواحيها[١]، وقد كان يتعهد مقدمو الأدراك بحفظ الأمن ورد المسروقات أو دفع قيمتها عند تعذر استرجاعها، كما انتشرت دوريات العسس بالمدينة، وكانت تلك الدوريات تغير من طريقها في كل ليلة، كما أنَّ الشرطة قَيَّدَتْ «النشالين» كطائفة غير أخلاقية في دفتر، فكانت إذا وقعت حادثة تمكنوا من استدعاء المشتبه فيهم، وقد انعكس هذا كله على انخفاض معدل جرائم السرقة، وعلى تضاؤل معدل جرائم القتل، كما رصدتها دراسة وثائقية للجرائم في تلك الفترة[٢].

وعلى سبيل آخر، عمد العثمانيون إلى القضاء على الفئات المثيرة للمشكلات بإدماجهم في النظام الإداري، فمن ذلك أن العربان الذين كانوا يمثلون خطرًا ويكررون الإغارات على نواحي القاهرة مُنِحوا بعض الأراضي ليتحولوا من حال الإغارة إلى حال التوطن، وأعطوا أيضًا بعض مناصب الخفارة ليقوموا هم بواجب حفظ الأمن[٣].

لقد كان الباشا العثماني هو المسؤول الأول عن أمن القاهرة، وتتأثر الحالة الأمنية بقوة شخصيته أو ضعفها، ويعاونه في هذه المهمة آغا الإنكشارية الذي يمثل السلطة العليا للشرطة ويتمتع بصلاحيات واسعة وهو بمثابة صاحب المدينة، وتمثل فرقته «الإنكشارية» قلب قوات حفظ النظام بمسؤوليتها عن حماية قلعة القاهرة

---

(١) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٧٧؛ هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٣٣، ٣٦، ٣٩.

(٢) مايكل ونتر، **المجتمع المصري تحت الحكم العثماني**، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م)، ص٣٣٥؛ هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٤٤، ١٥٠.

(٣) كمال حامد مغيث، **مصر في العصر العثماني ١٥١٧ ـ ١٧٩٨: المجتمع والتعليم**، ط١ (القاهرة: مركز الدراسات والمعلومات القانونية، ١٩٩٧م)، ص٣٦؛ هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٤٠.

Readonly

وأبوابها وأسوارها، ويأتي تحت آغا الإنكشارية ولاة المناطق الثلاثة: القاهرة، مصر القديمة، بولاق، وهم «الصوباشية»[١]. وأما أمن الأقاليم فكانت الإدارة المركزية تهتم بأمن النيل والطرق حوله من خلال صوباشية (رؤساء الجند) الذين يستعينون بجنود وخفراء من المدن والقرى يمدهم بهم كشافها وحكامها[٢].

وبالعموم فإنه «يلاحظ أن السياسة العليا للدولة العثمانية كانت تتجنب قدر الإمكان إحداث تغييرات جذرية في حياة سكان الأقاليم المفتوحة، فكانت السلطات العثمانية تُبقي على الأنظمة التي تجدها، والتي ألفها هؤلاء السكان ما لم تكن هذه الأنظمة تتعارض مع السيادة العثمانية»[٣]، فلقد «كان هدف السلطانين سليم الأول وسليمان في تنظيم الأقاليم العربية إبقاء الحالة التي كانت عليها عند فتحها، والمحافظة على سيادة السلطنة العثمانية فيها. وقد بقي هذان الهدفان المتواضعان للسلطان الفاتح والسلطان القانوني يشكلان مثلًا عليًا لخلفائهما الأضعف شأنًا. كان أهم ما يميز الإدارة العثمانية المحافظة، وكانت كل مؤسسات الحكومة موجهة للحفاظ على الوضع الراهن. وبما أن قوانين السلطانين كانت تعد تجسيدًا للحصافة السياسية في أعلى درجاتها، فلم يكن هناك داع للتحسين باستثناء القضاء على بعض المفاسد اللاحقة»[٤].

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٩٣، ٩٤.

(٢) كمال حامد مغيث، **مصر في العصر العثماني**، ص٣٧.

(٣) عبد العزيز الشناوي، **دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني**، ضمن: **أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة: مارس-إبريل ١٩٦٩م**، (القاهرة: دار الكتب، ١٩٧١م)، ٢/ ٦٧٥.

(٤) هاملتون جب وهارولد بوين، **المجتمع الإسلامي والغرب: دراسة حول تأثير الحضارة الغربية في الثقافة الإسلامية بالشرق الأدنى**، ترجمة ودراسة: أحمد آيبش، (أبو ظبي: دار الكتب الوطنية، ٢٠١٢م)، ١/ ٢٨٧.

Readonly

ومما يستفاد من هذا النظام الإداري نفي ما يشاع من أن العثمانيين اعتمدوا سياسة التتريك في الولايات العربية، فلقد كان نشاط الحكومة محدودًا لم يتجاوز بضعة قطاعات كالقضاء، وجمع الضرائب، والأمن، وتطهير الترع، والإشراف على قافلة الحج المصري، وما تتطلبه من إعداد الكسوة الشريفة، وإرسال الصرة وهي الأموال السائلة والعينية المرصودة على الحرمين الشريفين وأشراف الحجاز وفقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة، وتتضح هذه الحقيقة من دراسة أوجه الإنفاق الحكومي في مصر إبان الحكم العثماني، فاستمر المصريون يحيون الحياة التي ألفوها قبل العثمانيين، ومضوا يستخدمون اللغة العربية في أحاديثهم ومجتمعاتهم وثقافتهم، وإنما اقتصر أمر اللغة التركية على الدواوين الرسمية التي تستقبل وتدير الشؤون الحكومية، والتي كانت قليلة العدد إلى حد بعيد، كذلك لم يتدخل العثمانيون في شؤون الأزهر ولم يحاولوا فرض اللغة التركية فيه، كما لم تنشئ السلطات العثمانية معاهد أو مدارس لتعليم اللغة التركية ونشرها، حتى لما جاءت الحملة الفرنسية وجد نابليون أن المصريين لا يتكلمون التركية[١].

ويمكن القول إجمالًا بأنه رغم التحديات التي واجهت الدولة العثمانية في الفترة التي تلت فتح البلاد العربية «فقد قام الإطار الإداري العثماني بدور مفيد جدًّا في الولايات العربية حتى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر»[٢].

---

(١) عبد العزيز الشناوي، **دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي**، ٢/ ٦٧٢ وما بعدها، ٦٧٨، ٦٧٩. باختصار وتصرف.

(٢) جين هاثاواي وكارل ك. بربير، **البلاد العربية في ظل الحكم العثماني ١٥١٦ ـ ١٨٠٠**، ترجمة: محمد شعبان صوان، ط١ (الجزائر ـ بيروت: دار ابن النديم ـ دار الروافد، ٢٠١٨م)، ص٩٨.

Readonly

الأوضاع الاقتصادية

بالرغم من شهرة الرأي القائل بأن الحقبة العثمانية في مصر كانت بداية الخراب العام في مصر، إلا أن الدراسات الوثائقية والمعمقة تكشف عن نقيض هذا الرأي، وهي دراسات كتبها أحيانًا مستشرقون لا يمكن اتهامهم بالميل إلى الدولة العثمانية، فهذا المؤرخ والمستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول يقول: «على الرغم من أن هذه المدينة (القاهرة) قد وقعت فريسة تحت سنابك خيول الفاتحين (العثمانيين)، استمرت حياتها الخاصة قوية تتمثل في تجارتها النامية وسعادتها الاجتماعية وثقافتها الأدبية»[١]، ويعضد قوله قول المؤرخ والمستشرق الفرنسي أندريه ريمون «لم يكن لتغير وضع مصر من مركز للإمبراطورية إلى مجرد ولاية سوى نتائج محدودة على الموارد المالية لأعضاء الطبقة المهيمنة محليًّا، وعلى قدراتهم بأن يظلوا قائمين بدور الرعاة في المجال المعماري»[٢].

وأقل ما يمكن قوله في هذا السبيل أن مصر إن لم تزدهر فإنها لم تتدهور كما يقول المؤرخ المصري المتخصص في عمارة القاهرة وتاريخها أيمن فؤاد سيد: «في العموم لم تتدهور القاهرة إطلاقا خلال القرون الثلاثة للهيمنة العثمانية»[٣].

كان من أوائل ما فعله السلطان سليمان في مصر أن أرسل مَسَّاحين لمسح

---

(١) ستانلي لين بول، **سيرة القاهرة**، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وآخران، ط٢ (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د. ت)، ص٢١٦.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٧٩.

(٣) د. أيمن فؤاد سيد، **القاهرة: خططها وتطورها العمراني**، ط١ (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥م)، ص٣٣٢.

Readonly

الأرض وتحديد خراجها[١]، وأرسل في مطلع عهد الاضطراب التي تلا وفاة خاير بك مبعوثه درويش جلبي ليختبر سير النظام الإداري في مصر فكان من أهم ما فعله ضبط الأملاك والأموال الوقفية، [٢] وكان النظام الاقتصادي وقتها هو نظام الإقطاع أو الالتزام، حيث يُعهد بالأرض لملتزم يؤدي عنها الخراج، وكان الفلاحون يتمتعون بنصيبهم من الأرض ويورثونها لأعقابهم لكن دون حق التصرف فيها، وهم يؤدون الخراج للملتزم، فإن مات فلاح ولا وريث له كانت الأرض للملتزم يعهد بها لمن يشاء، وإن لم يدفع الملتزم أُخِذت منه الأرض[٣]. وفي أوائل عهده وقعت أزمة بمصر ارتفعت فيها الأسعار، فأصدر مرسومًا (٩٢٨هـ ـ ١٥٢١م) إلى والي مصر خاير بك بالنظر في أحوال الرعية والاهتمام بأمر تسعير البضائع من القمح وغيره، وفُتِحَت الشُّوَن السلطانية ليوزع ما بها على الطحانين لضمان توفير الغلال والخبز بالأسواق وخفض أثمانها، وتولى المحتسب إصدار قائمة أسعار للمواد الغذائية بالاتفاق مع شيوخ المهن والطوائف، ثم يراقب الالتزام بها في جولات التفتيش

---

(١) تورد بعض المصادر أن السلطان سليم العثماني حين دخل مصر وأمر بمسح أراضيها وجد نحو ٤٠٪ منها موقوفة، انظر: الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٤٣، بل وأوردت مصادر أخرى أن الموقوف كان ثلثي الأرض وأن بعض الوزراء استكثر هذا وحرَّض السلطان على ضمها للخزينة فرفض واحتد وقال: «خيرات فَعَلَها من قَبْلَنا لا نحب أن يكون نَقْضُها من قِبَلِنا»، ووقع مثل هذا مع السلطان سليمان القانوني. انظر: عيسى السفتي، **عطية الرحمن في صحة الأرصاد للجوامك والأطيان**، مخطوطة بالمكتبة الأزهرية، خاص (٣٧٢) عام (٤٩٥٧٢)، لوحة ٢٠، ص٣٨. والغرض من الإتيان بهذا هنا أن نؤكد على أن هذا السلوك في التعامل مع الموارد المالية لا يتفق مع سلوك احتلال أجنبي بحال!

(٢) سيد محمد السيد، **مصر في العصر العثماني**، ص١١٦.

(٣) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، ص١١٨، ١١٩.

Readonly

على الأسواق وإنزال العقوبات بالمخالفين من التجار[١].

لقد كان دخول مصر في الدولة العثمانية مما أتاح لها عددًا من الفرص الجديدة في نموها الاقتصادي والتجاري، فبالرغم من كون مصر مركزًا تجاريًّا دوليًّا في سائر الأوقات وتحتل موقعًا حيويًّا في التبادل التجاري بين الشرق والغرب، إلا أن انضواءها هذا «تحت لواء الدولة العثمانية المترامية الأطراف، مما وفر لها وشجعها على إقامة علاقات تجارية قوية مع المراكز التجارية في حوض البحر المتوسط، وبخاصة مع إسطنبول، وتزايد نشاط مصر التجاري في تلك الفترة مع التوسع في تجارة البن، والتي أصبحت بضاعة تجوب أنحاء العالم، وتدار بواسطة تجار القاهرة. كان هؤلاء التجار يمدون أجزاء عديدة من الدولة العثمانية وأوروبا بكميات كبيرة من البن، وزاحم البن البهارات وكاد أن يأخذ مكانتها كأغلى سلعة يتداولها التجار»[٢].

في تلك الفترة «كانت الإمبراطورية العثمانية تمثل أكبر كيان سياسي حول البحر المتوسط منذ الإمبراطورية الرومانية. وقد عاونت على نمو التجارة التي استفادت منها القاهرة كثيرًا بسبب موقعها عند ملتقى قارتين وعلى البحر المتوسط المفتوح على أوروبا. وظلت القاهرة نقطة عبور رئيسية للتجارة الشرقية، كما أنها لم تتأثر إلا تدريجيًّا وجزئيًّا، باكتشاف الأوروبيين للطريق البحري المتجه إلى الهند. واحتلت القاهرة أيضًا مركزًا محوريًّا في التجارة العثمانية الداخلية التي ساعد على

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٣٢، ١٣٣.

(٢) نيللي حنا، **مصر العثمانية والتحولات العالمية: ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠**، ترجمة: مجدي جرجس، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م)، ص٢٧، ٢٨؛ وانظر: مايكل ونتر، **المجتمع المصري**، ص٣٣١.

Readonly

رواجها حرية تنقل الممتلكات والأشخاص وعدم وجود حدود. وأخيرًا ساهم توسع الإمبراطورية إلى أقصى حدود العالم العربي ـ باستثناء المغرب ـ وجهود الأسرة الحاكمة وممثليها المحليين، في تنمية الحج للأماكن المقدسة، الأمر الذي استفادت منه القاهرة ودمشق كثيرًا؛ إذ كانت موقعين لتجمع قوافل الحج، ويمكن الاستدلال على نهضة القاهرة الهائلة من نمو المناطق التجارية الرئيسية حول القصبة (التي ازدادت مساحتها من ٣٨ إلى ٥٥ هكتارًا [حوالي ١٢٦ فدانًا]) ومن تضاعف عدد الوكائل (ذكر المقريزي ٥٨ وكالة في زمانه، ووصلت إلى ٣٦٠ وكالة في العصر العثماني)»[١].

لقد استفاد التجار داخليًا من شيوع الأمن بفضل الإدارة العثمانية، وخارجيًا بفضل توحد القاهرة مع إسطنبول والسيطرة الخالصة للعثمانيين على البحر المتوسط والأحمر وإلى حد ما حتى سواحل الهند بما في ذلك خليج عدن وخليج العرب، هذا فضلًا عن الموقع الجغرافي والثقافي للقاهرة التي كانت عاصمة الخلافة ثم صارت المدينة الثانية في الإمبراطورية العثمانية الواسعة، فكانت مكتظة بالقوافل المتعددة، وكانت عقود الشركات تشمل اليمن والشام والحجاز والهند وإسطنبول والمغرب وإفريقيا، ووصلت قيمة بعضها إلى ١٢٣٥٠٠ نصف، وبرزت مجموعة من الأسر التجارية العريقة من أبرزها: أبو طاقية والرويعي والذهبي والجمّال والشجاعي[٢]. ولم نعثر على حدث تاريخي مهم لفئة التجار في فترة السلطان سليمان القانوني، مما يدل على استتباب أحوالهم.

---

(١) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٩٥.

(٢) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٨٠، ١٨١.

Readonly

وقد عَمِلَتْ منشآتُ الولاة الصناعية والتجارية، التي كانت في غالبها أوقافًا[١]، على أن تَرِدَ إلى القاهرة العديد من البضائع التي لاقت رواجًا اقتصاديًّا كالكتان والأرز والحبوب والجلود والسكر بدلًا من البضائع الكمالية التي كانت تفد إلى مصر القديمة، واتسع نشاط بولاق الواقعة على النيل والتي صارت ميناءً رئيسيًّا للتبادل التجاري بين القاهرة ومدن البحر المتوسط لا سيما إسطنبول، فقد شيَّد ولاة القاهرة العثمانيون سلسلة من الوكالات التجارية التي أنعشت واستفادت من انتعاش هذا الخط التجاري أيضًا[٢].

أثمرت هذه الحركة نشاطًا واسعًا على كافة الحرف التي كانت تنتظم في طوائف شملت عموم المجتمع، وقد كان شيخ الطائفة هو حلقة الوصل بين طائفته وبين الطبقة الحاكمة، وكانت كل طائفة تشتمل على مراتب يأتي على أولها: النقيب ثم المعلمون ثم الصنايعية ثم المبتدئون، وتكونت في الطوائف تقاليد عامة حاكمة نزلت منزلة القانون والعرف والعادة بحيث يمثل خرقها انتهاكًا لقيم المهنة، وهي تقاليد يمتزج فيها التنظيم المالي والإداري بالروح الأخلاقية الفردية والاجتماعية، داخل الطائفة وخارجها، وقد تمكنت الطائفة بهذا التكتل أن تعبر عن مصالحها وتدافع عنها، وقد تتخذ قرارًا بالإضراب عن العمل[٣]، وذلك ما جعل تقاليدها

---

(١) قدمت ورقة بحثية عن «أوقاف الإدارة العثمانية في القاهرة: تاريخها وآثارها (٩٢٣ ـ ٩٧٤هـ ـ ١٥١٧ ـ ١٥٦٦م)» إلى مؤتمر الأوقاف الأول المنعقد بجامعة إسطنبول صباح الدين زعيم ١٤، ١٥ يوليو ٢٠١٨م، وتنشر قريبًا إن شاء الله تعالى، وفيها تتبعت تاريخ إنشاء هذه الأوقاف على يد الولاة العثمانيين وآثارها في نصف القرن الأول للحكم العثماني لمصر، وكانت النتيجة الواضحة أنه لا يمكن أن يعد هذا سلوكًا احتلاليًّا بحال.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص٢٤٤.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٨١ وما بعدها؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، **طوائف** =

Readonly

الأخلاقية فعالة أيضًا حيث كان انتهاك أحد لها يؤدي إلى طرده من الطائفة، وهو ما يعود عليه بالضرر والخسارة الدنيوية، حيث يفتقد الحماية ويفتقد ما يمكن أن نسميه الآن بالمظلة القانونية لعمله ونشاطه.

من جانبها، وفَّرت الإدارة العثمانية في سياستها جَوًّا من الأمان لكل من البائع والمشتري، فقد ألزمت البائعين ألا يشتروا شيئًا ممن لم يعرف عنهم البيع كالعبد والأمة والغلام والمملوك ونحوهم، وأن يكون بيع مثل هذا بضمان الكفيل، فإن حصل مثل هذا فيكتب اسم البائع واسم الكفيل عند كاتب السوق، كذلك حرصت الإدارة على الاهتمام بحال التجار والحرفيين، فكانت سرعان ما تستجيب لشكواهم ضد رجال الإدارة إن حاولوا تحصيل ما فوق المفروض عليهم من الرسوم، وذلك بتسجيل القدر المطلوب في الدفاتر التي تمثل مرجعًا حين التنازع والشكوى[١]. وكانت الأوقاف الكبرى التي أنشأها الولاة العثمانيون تخضع لإشراف وتدقيق قانوني على يد القضاء[٢]. وكان المحتسب هو الجهة الرئيسية التي تنظم الأسواق وتراقب الأوزان والمكاييل وأسعار الأغذية، وهو يتصل في عمله بالشرطة والصحة والبلدية، وبالقضاء أيضًا، وهو يقوم في عمله وفق النصوص كتب الحسبة التي ترشده وتمنع أن يكون عمله مزاجيًا تحكميًا[٣].

= **الحرف ودورها الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع المصري في العصر العثماني (١٥١٧ ـ ١٧٩٨م)**، ضمن: عبادة كحيلة (محرر)، **المجتمع المصري في العصرين المملوكي والعثماني**، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧م)، ص٢٢٤ وما بعدها.

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٣٧، ١٣٨.

(٢) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م)، ص٨٤.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٩٥، ٩٦؛ جين هاثاواي وكارل ك. بربير، **البلاد العربية**، ص٢٢٠، ٢٢١.

Readonly

وانعكس النشاط التجاري على التوسع العمراني، فلقد شهدت القاهرة في العصر العثماني نشاطًا تجاريًا وحرفيًا واسعًا تضاعفت معه المنشآت والأماكن المخصصة للأنشطة الاقتصادية كالخانات والوكالات والأسواق، وكان من آثار هذا تحولُ سكن الأمراء والطبقة الحاكمة إلى مناطق بعيدة عن الزحام والضوضاء، مما ساهم في تعمير المنطقة المحيطة لبركة الفيل جنوبي القاهرة وبالقرب من الخليج، وتدل حركة العمران وبناء المساجد في منطقة جنوب غربي القاهرة على أن هذا القسم من المدينة شهد عمارته بداية العصر العثماني[١]. وبالنسبة إلى العمارة فإننا نستطيع اليوم أن نعدَّ خمسة عشر أثرًا عمرانيًا كبيرًا باقيًا في القاهرة من زمن السلطان سليمان القانوني، كما يظهر في رصد الآثار الإسلامية في القاهرة العثمانية، أبرزها: مسجد سليمان باشا (سارية الجبل)، وجامع السليمانية ببولاق، والمدرسة السليمانية، ومسجد داود باشا، وجامع إسكندر باشا[٢].

كانت «القاهرة كلها تقريبًا مأهولة وعامرة بالمعالم من مساجد ودور وقصور ووكالات، كما أن الأحياء الجنوبية والغربية التي لم تكن مشغولة تمامًا بالسكان أو قليلة العمران في العصر المملوكي، أضحت تضم منذ هذا التاريخ تجمعًا سكانيًّا ضخمًا»[٣]، وكانت الظاهرة الأهم «لهذا التطور في المنطقة الواقعة فيما وراء باب زويلة هي الأعمال المعمارية الكبيرة التي شيدها إسكندر باشا في نواحي باب الخلق: ففي هذه المنطقة قام الباشا خلال الفترة (١٥٥٦ ـ ١٥٥٩) بتشييد جامع كبير وتكية وسبيل، كما شيد واشترى ٢٧ حانوتًا ومبنيين للإيجار ومطبخ سكر

---

(١) أيمن فؤاد سيد، **القاهرة**، ص٣٣٦، ٣٣٧.

(٢) محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني**، ١/ ١٣ ـ ٨١.

(٣) د. أيمن فؤاد سيد، **القاهرة**، ص٣٣٤.

Readonly

(وأوقفها) من أجل تمويل منشآته الدينية، وقد أسفرت هذه المنشآت عن إعادة تشكيل هذه المنطقة إلى مسافة ٥٠٠ متر من باب زويلة»[١]. وكانت أوقاف الولاة العثمانيين واسعةً حتى كان بعضها أكبر من أوقاف السلاطين، وقد تنوعت بين الريف والحضر والوجه القبلي والبحري[٢].

لقد كان لاتجاه الولاة العثمانيين إلى تشييد العمائر التابعة لأوقافهم خارج القاهرة الفاطمية أثره في التوسع العمراني خارجها، وتنوعت منشآتهم بين الخدمية كالمدارس والكتاتيب والأسبلة والتكايا والجوامع، والتجارية كالوكالات والحوانيت، وهو الأمر الذي تأثر به الناس حيث نشطت الحركة العمرانية التي راعت أن تكون في مناطق تسمح بالتوسع فيما بعد، وتضاعفت أعداد الحمامات بالقاهرة ثلاث مرات من منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السادس عشر، وزادت المنشآت التجارية ثلاثة أضعاف أيضًا، وزادت المدارس بنسبة الثلث[٣].

ومن أهم ما ينبغي إيراده هنا أن النشاط العمراني العثماني تعامل باحترام مع العمران المملوكي بل طَوَّرَه أحيانًا بإلحاق أوقاف جديدة بأوقاف المماليك الموجودة أصلًا[٤]، كذلك فإنَّ بعض الموارد التي أوقفت على المنشآت في مصر

---

(١) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٩٧.

(٢) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢١٧.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر: القاهرة في القرن السادس عشر**، ص٦٤، ٦٧. وضمن عينة عشوائية من المباني توصلت الباحثة د. هدى جابر إلى أن انخفاض نسبة المدارس قابله ارتفاع لنسبة الزوايا والكتاتيب ـ وهي منشآت تعليمية أيضًا ـ وعزت ذلك إلى أن الزوايا والكتاتيب كانت معفاة من الضرائب، انظر ص٧٧.

(٤) جين هاثاواي وكارل ك. بربير، **البلاد العربية**، ص٢١٥.

Readonly

كانت في الحجاز أو إسطنبول، كما في أوقاف خاير بك وسليمان باشا[١]. أي أن مصر كانت تستفيد من أملاك أولئك الولاة التي هي خارجها، وهذا بحد ذاته أهم ما يَرُدُّ على فكرة الاحتلال العثماني وأنه أراد استصفاء مصر لحساب المركز في الآستانة، كما يرد على مسألة الشعور القومي في العصر العثماني.

ورصد الباحثون من خلال الوثائق اتساع مناطق العمران والتناقص المستمر للمناطق الخربة، وكان الحل المعتاد أن تعرض تلك الخرائب للبيع أو التأجير، فتحول العديد منها إلى منشآت صناعية كمصانع السكر أو قاعات الحياكة، وإذا رُفِعَتْ شكوى من الأهالي إلى المحكمة لتضررهم من منطقة خربة استجيب لشكواهم بعرض المنطقة للبيع أو الاستبدال إن كانت جارية بوقف، أو تأجيرها لفترة قد تصل إلى ستين عامًا بشرط تعميرها، وقد كان لانتشار العمارة آثار أمنية حيث عمل التوسع العمراني وزيادة السكان على تقليل وإعاقة الغارات التي كانت تشنها قبائل العربان على ضواحي القاهرة، فعمارة الخرائب كانت تقطع مسالك اللصوص وتقضي على أوكارهم[٢].

ومن أبرز الشواهد على اتساع القاهرة دهشة الرحالة الزائرين لها من هذا الاتساع سواء أكانوا من الأتراك كمصطفى عليا وأوليا جلبي، أو كانوا مغاربة أو كانوا من الأوروبيين[٣]، واختلفت تقديراتهم في المقارنة بينها وبين باريس، هل

---

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر العثمانية**، ص١٣٢.

(٢) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٦٢، ١٢٧.

(٣) مايكل ونتر، **المجتمع المصري**، ص٣٣٣.

Readonly

تساويها[١]، أم أنها ثلاثة أضعافها[٢] أم أنها خمسة أضعافها[٣] أم أنها سبعة أضعافها[٤].

الخاتمة

في القرن السادس عشر ازداد عدد سكان مصر بمعدل الثلث نتيجة استتباب الأمن والازدهار العام للدولة العثمانية[٥]. وفيما عدا الباشا الذي كان كالضيف المرسل في مهمة بعينها، شهدت الأيام مزيدًا من الانفتاح والتمازج بين رجال الإدارة والعسكريين وبين المجتمع المصري، حيث شارك أولئك في النشاط الاقتصادي الذي شهدته القاهرة في العصر العثماني، ومن ثم شاركوا في وجوه التعامل من مشاركات واقتراض وممارسة للحرف المختلفة، بل لقد سجلت الوثائق أن زيجات العسكر بلغت نسبة ١١,٧٪ من مجمل الزيجات في ذلك الوقت، وبلغت نسبة تزاوجهم مع أهل البلد ٨,٥٪، أي بما يقارب أن كل عشر

---

(١) أفوقاي الأندلسي، **رحلة أفوقاي الأندلسي**، تحرير: د. محمد رزوق، ط١ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م)، ص٥٢.

(٢) محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، ١٢٨، (الكويت: المجلس الأعلى للثقافة والآداب والفنون، أغسطس ١٩٨٨م)، ص١٨١. (وهو ينقل عن: الرحالة الفرنسي جيهان تود).

(٣) أحمد عادل كمال، **أطلس تاريخ القاهرة**، (القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٤م)، ص١٢٦. (وهو ينقل عن نشرة إنجليزية مطبوعة مع خريطة للقاهرة رسمت عام ٩٧٢هـ ـ ١٥٧٤م).

(٤) أولج فولكف، **القاهرة: مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة: أحمد صليحة، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م)، ص٩٦.

(٥) ألبرت حوراني، **تاريخ الشعوب العربية**، ترجمة: أسعد صقر، ط١ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧م)، ص٢٦٩؛ مايكل ونتر، **المجتمع المصري**، ص٣٣١، ٣٣٢؛ هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٦٤، ٦٥؛ جين هاثاواي وكارل ك. بربير، **البلاد العربية**، ص٢١٤.

Readonly

زيجات للعثمانيين كانت واحدة منها مع أهل البلد، كذلك فإن المصريين قد ازداد التحاقهم بالأوجاقات (الفرق) العسكرية، وإن تكن السلطة قد سعت في منع هذا طبقًا لتصور أمني لا انطلاقًا من نظرة عنصرية[١].

ويكفي هذا بذاته كدليل على دحض مقولة «الاحتلال» العثماني لمصر، على أنه ينبغي أن نتذكر الصورة العامة في ذلك الوقت، فإن مصر المهددة في أواخر عصر المماليك من الشمال والشرق، إذ تكررت الإغارات العسكرية على البحر المتوسط والبحر الأحمر قد نعمت بالأمن وابتعاد التهديد عنها بفضل العثمانيين لثلاثة قرون[٢]، حتى لقد نسي المصريون فيها أنه يمكن للغرب أن يهزم الشرق، وعبَّر عن هذه الصدمة قولُ الجبرتي في شأن انتصار الحملة الفرنسية على المسلمين بأنه «اختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع»[٣].

لا يمكن أن يجد الباحث شعورًا بالرضا عن عمل سعى في كل سطر منه للاختصار والتكثيف والاختزال، وهو ما وقع لنا في هذه الورقة التي تحاول جمع صورة نصف قرن زاخر وحافل في صفحات قليلة، لكن الذي نستخلصه بيقين من مطالعة المصادر والمراجع أن حركة البحث في هذه الفترة مع نموها وتسارعها في الفترة الأخيرة لا تزال تحتاج كثيرًا من الدراسات التي تعتمد على الوثائق التي

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٧٤، ١٧٥.

(٢) محمد حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، ط١ (القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية، ١٩٩٤م)، ص١٣٩ وما بعدها؛ محمد جلال كشك، **القومية والغزو الفكري**، ط١ (القاهرة: د. ن، ١٩٦٧م)، ص١١٢، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٥.

(٣) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق: شموئيل موريه، (القدس: الجامعة العبرية، ٢٠١٣م)، ٣/ ١.

Readonly

لا تزال مغمورة ومدفونة في الأرشيف التركي والمصري، والتي يجب أن تُزَوَّد بالتحليل الإحصائي للسجلات والأرقام الكثيرة المتنوعة، وهو ما يحتاج أن تتوجه له جهود الجامعات والمراكز البحثية لتسفر عن الوجه الحقيقي لسلوك الإدارة العثمانية في الولايات العربية.

ومن المؤسف أن نعترف في ختام بحث كهذا بأن الصورة الحقيقية للحكم العثماني لمصر ولسائر الولايات العربية لن يسفر عن وجهه حقًا إلا بالتحرر السياسي من السلطات التابعة للغرب، إذ طالما ظل الموقف السياسي ضاغطًا باتجاه إحداث الوقيعة والتباغض بين العرب والأتراك فإنه قادر على التحكم في كثير من الإنتاج العلمي طبقا للعلاقة التحكمية بين السلطة والمعرفة، ولهذا فكل تحرر لأمتنا على مستوى السياسة هو تحرر على مستوى العلم والمعرفة، والعكس بالعكس أيضًا.

***

Readonly



أوقاف الولاة العثمانيين بالقاهرة
تاريخها وآثارها

(٩٢٣ ـ ٩٧٤هـ = ١٥١٧ ـ ١٥٦٦م)

* أُلْقي هذا البحث في مؤتمر الأوقاف الأول

المنعقد بجامعة «إسطنبول صباح الدين زعيم»

بتاريخ ١٤ ـ ١٥ يوليو ٢٠١٨م

يثور جدل كبير معاصر، دفعت إليه الخيارات والمواقف السياسية المعاصرة، حول قضية الحكم العثماني للبلاد العربية، فيجادل البعض بأن الحكم العثماني هو من نوعية الاحتلال الأجنبي التوسعي الذي غزا البلاد العربية وتعامل معها كمستعمرات يستفيد من مواردها البشرية والاقتصادية لخدمة مشروعاته وأهدافه التسلطية. بينما يرى فريق آخر أن الحكم العثماني للبلاد العربية إنما هو امتداد للحقبة الإسلامية ولا يمكن تصنيفه تحت مسمى «الاحتلال الأجنبي» الذي عرفته الدول العربية في فترات الاستعمار الغربي، ويجادلون بأن العلاقة بين السلطنة العثمانية والولايات العربية لم تكن علاقة المركز بالأطراف أو الدول المستعمِرة بمستعمراتها، وإنما كانت علاقة سلطة برعيتها، لا سيما وأن المفهوم القومي لم يتولد في التاريخ الإسلامي كما هو بالمعنى المعاصر، ولم يكن اختلاف الأعراق بين الفئة الحاكمة والشعوب التي تحكمها في التاريخ الإسلامي يعني وجود علاقة احتلالية استغلالية.

Readonly

يطرح البحث سؤالًا رئيسيًّا هو: ما أثر الأوقاف التي أنشأها الولاة العثمانيون على مجتمع القاهرة في نصف القرن الأول من الحكم العثماني لمصر؟

وهو يعد، بهذا الشكل، إضافة علمية في هذا الجدل الدائر، وذلك من خلال كونها تدرس مسألة الأوقاف التي أنشأها الولاة العثمانيون في مطلع الحكم العثماني لمصر، وبالتحديد في نصف القرن الأول من الحقبة العثمانية، وهي الحقبة الأكثر دلالة على سلوك العثمانيين في مصر وما إن كان يندرج تحت مسمى الاحتلال الأجنبي أم أنه حقبة جديدة في ظل المنظومة الحضارية الإسلامية؟

وقد قسمت هذه الورقة البحثية إلى تمهيد ومبحثين، فالتمهيد يتناول أربعة أمور توضيحية تلقي الضوء على مفاهيم أساسية ينبغي إدراكها في ذلك العصر، والمبحث الأول يتحدث عن تاريخ الأوقاف العثمانية وطبيعتها ودوافعها، ثم يتحدث المبحث الثاني عن آثار هذه الأوقاف على مجتمع القاهرة. وقد اعتمدت المنهج التاريخي في المبحث الأول والمنهج التحليلي في المبحث الثاني، ثم أنهيت بخاتمة ذكرت فيها نتائج البحث وخلاصاته.

Readonly

تمهيد: الحكم العثماني لمصر وطبيعة الوقف

نظرًا لأن البحث يقع في تقاطع بين مجالي الاقتصاد والتاريخ، فينبغي البدء بتمهيد يبين بعض المسائل الأساسية المستوردة من حقل التاريخ أصالة لكنها ضرورية في فهم الصورة الاقتصادية المتعلقة بموضوع البحث. وهي ثلاثة أمور:

١. الحكم العثماني لمصر

دفعت كثير من العوامل السياسية والتاريخية والعلمية لتشويه فترة الحكم العثماني لمصر، من أهمها بزوغ فكرة القومية ثم فكرة الوطنية وهيمنتها السياسية على العالم الإسلامي والتي امتدت حتى وقتنا هذا، وفي إطار هذه الهيمنة كان لا بد من إنتاج التاريخ القومي والوطني الذي يُعَرِّف القومية والوطنية بحدود جغرافية ومفاهيم عرقية تمارس تعريفًا وتصنيفًا جديدًا للواقع وللتاريخ كذلك. وكانت الفترة العثمانية هي ضحية هذه الهيمنة إذ نُظِر إليها على أنها احتلال أجنبي، ونُظِر إلى الخروج من نفوذها على أنه لحظة استقلال قومي ووطني تستحق الاحتفاء، ومن ثم كان لا بد من دعم وصناعة الرواية التاريخية التي تشوه فترة الحكم العثماني في إطار تدعيم وترسيخ الحكم القومي والوطني. ولقد كانت لمصر خصوصية أخرى تمثلت في أن دخول الحداثة لم يكن على يد الاحتلال الأجنبي المباشر بل بدأت على يد محمد علي باشا وأسرته، وحيث إن الإنجليز قد احتلوا مصر وروجوا لدعاوى أنهم الذين أدخلوها إلى عصر الحداثة، فإن الرواية الوطنية كانت تستلهم تحديث محمد علي، والذي مثَّل انقلابًا على الدولة العثمانية وحاربها، فكل تعزيز لنهضة محمد علي كانت بالضرورة خصمًا من حقبة الدولة العثمانية[1].

---

(١) انظر هذه العوامل بتفصيل أكبر عند: د. نيللي حنا، **تجار القاهرة في العصر العثماني: سيرة أبو طاقية شهبندر التجار**، ترجمة: د. رؤوف عباس، ط١ (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، يوليو ١٩٩٧م)، =

Readonly

والواقع أن هذه النظرة مغرقة في الخطأ، ذلك أننا عندما نطالع المدونات التاريخية لفترة الحكم العثماني لمصر لا نجد أثرًا للنظر إليهم بمعنى الاحتلال الأجنبي من قبل المصريين[١]، إذ لم يكن معنى القومية موجودًا أصلًا، فضلًا عن وجوده كمعيار تصنيفي. وإنما نُظِر إلى الدولة العثمانية كسلطة إسلامية حاكمة لا يُشترط لها «المصرية»، وقد كان الحكام قبلهم أتراكًا وشراكسةً وأكرادًا وعربًا، ووُجِد من المؤرخين المصريين من مدحوا الدولة العثمانية ورفعوها فوق سائر الدول السالفة الحاكمة[٢].

لقد دخل العثمانيون إلى مصر إثر صراع سياسي مع المماليك، وهو الأمر الذي ينظر إليه كثير من المؤرخين والباحثين باعتباره كان فرصة وضرورة؛ لأنَّ دولة المماليك كانت قد وصلت إلى حالة مزرية من الضعف وتهددت سواحلها في البحرين الأحمر والمتوسط بغارات الأوروبيين، بينما نعمت مصر بالأمن من التهديد الخارجي لثلاثة قرون منذ دخلت في الحكم العثماني[٣]. كما أن العثمانيين

= ص١١، ١٢؛ د. خالد فهمي، **كل رجال الباشا: محمد علي وجيشه وبناء مصر الحديثة**، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م)، ص٢١ وما بعدها.

(١) «المصريون» هنا وصف بمعنى المقيمين في مصر لا بالمعنى القومي الوطني الذي يجعل المصريين عرقًا مستقلًا، إذ عرف العالم الإسلامي ـ وبالذات في قلبه وحواضره الكبرى ومنها: مصر ـ التقاءً هائلًا للأعراق والأجناس يستحيل معه إنزال المعنى القومي على الشعوب المقيمة في أراضيه.

(٢) انظر: الإسحاقي، **أخبار الأوّل فيمن تصر في مصر من أرباب الدول**، (طبعة مصر، ١٣١٠هـ)، ص١٤١؛ الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، تحقيق: شموئيل موريه، ط١ (القدس: الجامعة العبرية، ٢٠١٣م)، ١/ ٢٢.

(٣) محمد حرب، **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، ط١ (القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية، ١٩٩٤م)، ص١٣٩ وما بعدها؛ محمد جلال كشك، **القومية والغزو الفكري**، ط١ (القاهرة: د. ن، ١٩٦٧م)، ص١١٢، ١٥٤، ١٦٤، ١٦٥.

Readonly

لم ينشؤوا في مصر تغييرات جوهرية حادة في نمط السياسة والإدارة على نحو ما يفعل الاحتلال الأجنبي، وإنما تعامل مع البلد وأهلها كما تتعامل السلطة الإسلامية مع البلاد الإسلامية ورعاياها، ولقد كانت عادة الدولة العثمانية عامة ألا تغير نظام البلاد المفتوحة إلا بقدر ما يبقيها تحت سيادتها[١]، وتلك عادة العثمانيين في البلاد التي حكموها حتى في بلاد شرق أوروبا التي ظلت مؤسساتها قائمة حتى بعد خروجها من السيادة العثمانية[٢].

٢. الآثار الاقتصادية لدخول مصر في السلطنة العثمانية

منذ الفتح الإسلامي عبَّر عمرو بن العاص عن مصر بقوله: «ولاية جامعة تعدل الخلافة»[٣]، وكانت مصر قادرة على تمويل حركة الجهاد مع الروم وقت ضعف الخلافة العباسية نفسها كما جرى في الدولة الطولونية والإخشيدية، وكان انضمامها إلى الشام هو ما جعل زوال الحملات الصليبية مسألة وقت في عهد صلاح الدين، وعليها دارت الحملات الصليبية من الخامسة حتى السابعة. وقد كانت القاهرة

---

(١) علي مبارك، **الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، ط ١ (القاهرة: مطبعة بولاق، ١٣٠٦هـ)، ١/ ٥٦؛ هاملتون جب وهارولد بوين، **المجتمع الإسلامي والغرب: دراسة حول تأثير الحضارة الغربية في الثقافة الإسلامية بالشرق الأدنى**، ترجمة ودراسة: أحمد آيبش، (أبو ظبي: دار الكتب الوطنية، ٢٠١٢م)، ١/ ٢٨٧؛ عبد العزيز الشناوي، **دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني**، ضمن: **أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة: مارس ـ إبريل ١٩٦٩م**، (القاهرة: دار الكتب، ١٩٧١م)، ٢/ ٦٧٥.

(٢) برنارد لويس، **السياسة والحرب**، ضمن: جوزيف شاخت وكليفورد بوزوروث، **تراث الإسلام: الجزء الأول**، ترجمة: حسين مؤنس وآخران، سلسلة عالم المعرفة ٨ (الكويت: المجس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٥م. ص٢٢٨.

(٣) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق: د. علي عمر محمد، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤م)، ص٢٢٠.

Readonly

عاصمة الخلافة الإسلامية فيما قبل العثمانيين، وذلك لمدة ثلاثة قرون منذ اجتياح المغول بغداد وإنهاء الخلافة العباسية في العراق، وبهذا أضيفت إلى مصر المكانة السياسية العظمى فوق ما تتمتع به من موقع جغرافي يجعلها قلب العالم التجاري وما لديها من موارد طبيعية وبشرية غنية، «فعَظُم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعَلَتْ السنة، فصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء»[١]، فكانت في عصر المماليك «عمود الإسلام وفسطاط الدين»[٢].

ومن هنا استفادت الدولة العثمانية بضم مصر ثروات اقتصادية هائلة بما احتوت عليه مصر من موارد طبيعية وكثافة بشرية وموقع جغرافي تتحكم به في طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب، وانفتحت الدولة العثمانية على سواحل البحر الأحمر ومن ورائه خليج عدن والخليج العربي والمحيط الفارسي، وصار شرق المتوسط بحيرة عثمانية خالصة. وكان خراج مصر الذي يُحمل إلى الخزينة العثمانية ثمانية أحمال في كل سنة، واستطاع الوالي خسرو باشا أن يجعله اثنا عشر حملًا في إحدى السنوات إلا أن السلطان سليمان القانوني عزله معتقدًا أنه لا بد من أن تكون تلك الزيادة ناتجة عن قهر وظلم للرعية[٣].

كذلك استفادت الحركة التجارية في مصر من انضوائها تحت السلطنة العثمانية مما «وفر لها وشجعها على إقامة علاقات تجارية قوية مع المراكز التجارية

---

(١) السيوطي، **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٧م)، ٢/ ٩٤.

(٢) ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ط١ (أبو ظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ)، ٣/ ٢٨.

(٣) فريدون أمجان، **سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين: حقائق في ضوء المصادر**، ترجمة: د. جمال فاروق وأحمد كمال، ط١ (القاهرة: دار النيل، ٢٠١٤م)، ص٧٩.

Readonly

في حوض البحر المتوسط، وبخاصة مع إسطنبول. وتزايد نشاط مصر التجاري في تلك الفترة»[١]، فقد احتلت القاهرة «مركزًا محوريًّا في التجارة العثمانية الداخلية التي ساعد على رواجها حرية تنقل الممتلكات والأشخاص وعدم وجود حدود. وأخيرًا ساهم توسع الإمبراطورية إلى أقصى حدود العالم العربي ـ باستثناء المغرب ـ وجهود الأسرة الحاكمة وممثليها المحليين، في تنمية الحج للأماكن المقدسة، الأمر الذي استفادت منه القاهرة ودمشق كثيرًا، إذ كانتا موقعين لتجمع قوافل الحج، ويمكن الاستدلال على نهضة القاهرة الهائلة من نمو المناطق التجارية الرئيسية»[٢].

٣. الأوقاف الإسلامية بين السلطة والمجتمع

يؤثر واقع الدولة الحديثة على فهم التاريخ فيما قبل الحداثة، ومن أهم تلك الفوارق التي تجب الإشارة إليها أن النشاط الاقتصادي والتعميري لم يكن موكولًا إلى السلطة فيما قبل الحداثة، وكان تدخل السلطة فيه محدودًا يقتصر على الحفاظ على الأمن اللازم لاستمرار النشاط الاقتصادي وتوفير القضاء الذي يتدخل لحل المنازعات، بينما يدير الناس هذا النشاط الاقتصادي دون توجيه ملزم أو تحكم وسيطرة من قبل السلطة. بينما في عصر ما بعد الدولة الحديثة تحول الموقف إلى النقيض، إذ تتولى السلطة إدارة النشاط الاقتصادي وتحديد نظامه وطبيعته وتتحكم في مراحله جميعًا، والسلطة هي التي تسمح بحدود الحرية التي يمكن للناس أن يحظوا بها في إطار النظام الاقتصادي.

---

(١) نيللي حنا، **مصر العثمانية والتحولات العالمية: ١٥٠٠ ـ ١٨٠٠**، ترجمة: ، مجدي جرجس، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦م)، ص٢٧، ٢٨.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة: تاريخ حاضرة**، ترجمة: لطيف فرج، ط١ (القاهرة: دار الفكر، ١٩٩٤)، ص١٩٥.

Readonly

لذلك فيمكن أن نبصر الانهيار الاقتصادي في صفحات التاريخ مع ضعف نظام السلطة الذي يؤدي إلى انهيار الأمن أو ضعف القضاء أو زيادة الظلم والمصادرات، بينما في الواقع المعاصر يمكن أن يكون نظام السلطة قويًا ومتحكمًا بكفاءة لكن الوضع الاقتصادي ضعيف أيضًا بفعل الفساد داخل جهاز السلطة نفسه.

وما يهمنا في هذا السياق أن مسألة الأوقاف لم تكن بالأساس عملًا سلطويًّا، فالحديث عن «الأوقاف العثمانية» يشير أساسًا إلى نشاط الأوقاف في العصر العثماني وليس إلى نشاط السلطة العثمانية في إنشاء الأوقاف، فلم يكن رصد الأوقاف ضمن مهمات السلطة في النموذج الإسلامي، وإنما هو يحدث من قبيل مشاركة السلطة في نشاط اجتماعي خيري وليس هو من مهماتها بالأصالة[١].

لكن حيث كانت ظاهرة الأوقاف ظاهرة كبيرة وشاملة وراسخة في المجتمعات الإسلامية فكان من النادر ألا توجد سلطة إلا وترصد أوقافًا على جهة ما من وجوه الخير، وهو تخصيص موارد جزء من بيت المال كأوقاف، تلك الأوقاف هي التي يقع عبء إدارتها على عاتق السلطة، إضافة إلى الأوقاف التي صارت مجهولة الصاحب مع تقادم العهد أو لأسباب أخرى أو الأوقاف التي هجرت وخربت أو التي غاب عنها أصحابها غيابًا متصلًا أو التي كانت أهلية وانقرض المستفيدون منها ونحو ذلك.

لم يكن غريبًا أن تكون الموارد الموقوفة هي معظم موارد البلاد[٢]، ولذا

---

(١) للمزيد حول هذا الموضوع، انظر: محمد إلهامي، **منهج الإسلام في بناء المجتمع**، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٥م)، ص١١٣ وما بعدها، ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) تورد بعض المصادر أن السلطان سليم العثماني حين دخل مصر وأمر بمسح أراضيها وجد نحو ٤٠٪ منها موقوفة، انظر: الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٤٣، بل وأوردت مصادر أخرى أن الموقوف كان ثلثي الأرض وأن بعض الوزراء استكثر هذا وحرَّض السلطان على ضمها للخزينة =

Readonly

تعددت محاولات بعض الولاة والسلاطين للاستيلاء على الأوقاف أو تغيير شروط واقفيها إما بدافع الطمع أو بدافع تجهيز الجيوش أو غيره، وهو ما كان يجد معارضة قوية من العلماء، وظلت الأوقاف مُصانة في الجملة حتى جاء عصر الدولة الحديثة والأنظمة العلمانية فسيطرت عليها فكانت تلك من أقسى النكبات التي عانت منها الأمة[1].

سنتحدث في هذا البحث عن الأوقاف التي أنشأها الولاة العثمانيون في القاهرة، أي أننا سنتناول النشاط السلطوي في رصد الأوقاف، لكن ينبغي فَهْمُ أن الوالي حين لا يوقف وقفًا فلا يُعَدُّ هذا تقصيرًا منه طبقًا للنموذج الإسلامي وطبقًا لمفاهيم ذلك العصر، بخلاف عصر ما بعد الحداثة الذي تضخمت فيه مسؤوليات السلطة وشملت النشاط الاقتصادي. ومن هنا، فنحن حين نتحدث عن الأوقاف العثمانية في إطار هذا البحث فإنما نتحدث عن جانب طوعي خيري يقوم به الوالي العثماني في مصر فوق مهماته الأساسية. ويجب أن يكون واضحًا أن نشاط الوقف هو نشاط مجتمعي وليس نشاطًا سلطويًا.

لكن ها هنا يجب الانتباه أيضًا إلى أن أوقاف الولاة والسلاطين ليست كلها فعل خير خالص، وإنما وفَّر نظام الوقف الإسلامي بابًا كبيرًا لأمور وَجَدَ فيها الولاة

= فرفض واحتد وقال: «خيرات فعلها من قَبْلَنا لا نحب أن يكون نَقْضُها من قِبَلِنا»، ووقع مثل هذا مع السلطان سليمان القانوني. انظر: عيسى السفتي، **عطية الرحمن في صحة الأرصاد للجوامك والأطيان**، مخطوطة بالمكتبة الأزهرية، خاص (٣٧٢) عام (٤٩٥٧٢)، لوحة ٢٠، ص٣٨.

(١) محمد أبو زهرة، **محاضرات في الوقف**، ط١ (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٥٩م)، ص٢٠ وما بعدها؛ محمد عمارة، **هل الإسلام هو الحل: لماذا وكيف؟**، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م)، ص١٢١، ١٢٢؛ وانظر: محمد إلهامي، **جناية الأنظمة العلمانية على الأوقاف الإسلامية**، مجلة البيان السعودية، عدد ٣١٢، شعبان ١٤٣٤هـ-يوليو ٢٠١٣م.

Readonly

والسلاطين ما يحقق مصلحة لهم فاستثمروه. ذلك أن جوهر الوقف أن الإنسان يُخرج شيئًا من ملكه ليصير ملكًا لله تعالى، فبهذا يحرم التصرف فيه والاعتداء عليه، فمن أوقف ريع أرض على وجه من وجوه الخير الذي يحدده فقد حرم التصرف فيها على أي نحو آخر، ويمكن للواقف أن يوقف شيئًا على أهله وأولاده فيمتنع عليهم التصرف فيه واقتسامه كالإرث، وإنما يستفيدون منه كما تركه، وهذا ما يسمى الوقف الأهلي أو الذري (من الذرية)، وهذا النوع الأخير من الوقف أدَّى إلى منع تقسم الملكيات الكبيرة كالبيوت والأراضي ونحوها كما يحدث مع الميراث.

لا يمكن إغفال العامل الديني الذي نزع بالولاة والسلاطين إلى إرصاد الأوقاف تدينًا ورغبة في التوبة وخدمة الدين، ولكن نظام الوقف كان طريقهم لعدد من المصالح الأخرى منها: التقرب للرعية والعلماء بإرصاد الأوقاف على الفقراء والمساكين ومصالح الناس وعلى العلماء والمدارس والمساجد، ومنها: التنافس مع غيرهم من الولاة السابقين والمعاصرين رغبة في الشهرة والذكر الحسن بين الناس وعند الخليفة، ومنها: تجنب ما قد يمكن أن يقع على أملاك الوالي إذا تغير الحال وانقلب الوضع السياسي وصار هو قتيلًا أو طريدًا ففي هذه الحالة تبقى أملاكه موقوفة على ذريته لا يمكن مصادرتها ونزعها منهم[١].

تاريخ الأوقاف العثمانية في القاهرة

زخرت القاهرة بالأوقاف في الحقبة العثمانية، وكان ذلك امتدادًا لازدهار الأوقاف في العصرين الأيوبي والمملوكي، وفي هذا العصر الأخير بلغت القاهرة

---

(١) ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ط٢ (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨م)، ص٥٤٩.

Readonly

ذروتها السياسية والاقتصادية، وعلى غير ما شاع في الكتابات الاستشراقية والدراسات التاريخية القديمة من صورة انحدار وضعف هوت إليه القاهرة، فقد قدمت الدراسات الحديثة التي اعتمدت على الأرشيف والوثائق صورة أخرى أكثر وثوقية ومصداقية تثبت أن القاهرة واصلت نموها وازدهارها، هذا النمو والازدهار الذي كانت الأوقاف جزءًا منه وسببًا فيه في نفس الوقت.

الولاة العثمانيون بمصر وأوقافهم

عيَّن السلطان سليم أميرَ حلب خاير بك، وهو مملوكي انحاز إلى العثمانيين، ولاية مصر فكان أول ولاتها العثمانيين، ولما مات السلطان سليم بعد فتح مصر بثلاثة أعوام أقرَّه السلطان سليمان على الولاية كما هو، وظل بالمنصب إلى وفاته، فقضى في الولاية خمس سنوات[١]. وفي تلك الفترة أنشأ زاوية الشيخ حسن الرومي (٩٢٩ هـ ـ ١٥٢٢م) بأمر السلطان سليمان القانوني كما يظهر من الشاهد الذي كان مكتوبًا عليها ونقله حسن قاسم في «موسوعة المزارات الإسلامية»، وأوقف عليه أوقافًا منها أربعة منازل مساحتها (١٢١٨ مترًا مربعًا) بشارع المحجر، وكان هذا الوقف تكريمًا للشيخ حسن الرومي الذي كان من كبار الصوفية توفي زمن السلطان سليمان (٩٢٨هـ) لتعمير الزاوية التي اتخذها للتدريس والإقراء[٢]، وبلغ إيرادها

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله اللطائف الربانية على المنح الرحمانية**، تحقيق: د. ليلى الصباغ، ط١ (دمشق: دار البشائر، ١٩٩٥م)، ص١٠٢، ١٠٣.

(٢) محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني**، مراجعة: د. صالح سعداوي، ط١ (إسطنبول، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٣م)، ص١٦؛ سعاد ماهر محمد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ١٩٨٣م)، ٥/ ٧٣ وما بعدها.

Readonly

أربعة آلاف قرش وكانت عامرة بالدراويش[١].

وبعد وفاته وقع اضطراب لخمس سنوات في ولاية مصر، حيث فوجئ المماليك بأن السلطان سليمان قد عيَّن أميرًا من رجاله وليس منهم فحاولوا التمرد عليه، ثم هُزِموا، ثم تولى مصر أحمد باشا وكان طموحًا فنزع إلى الاستقلال بها فوقعت مواجهات مع العسكر انتهت بمقتله، ثم استقرت أحوال الولاية بمقدم إبراهيم باشا صهر السلطان، والذي رتب الأحوال في مصر ووضع نظامها الإداري ليبدأ فيها عهد استقرار طويل. لقد «كان معظم الحكام الذين أُرْسِلوا لمصر أقوياء وأكفاء، والمعطيات التاريخية القليلة المتاحة عنهم تتحدث عن أعمالهم أو عن الأثر الذي تركوه في نفوس رعاياهم»[٢].

كان سليمان باشا الخادم أول ولاة مصر في هذه الحقبة، وظل فيها عشر سنوات (٩٣١ ـ ٩٤١هـ)، نجح خلالها في توطيد الأمن، وأولى اهتمامًا كبيرًا بضبط الأمور فأعاد تعيين المساحة لضبط الأقاليم، كما اهتم كثيرًا بالفعاليات التجارية في البحر الأحمر ومع الهند، وانبسط به أهل مصر في ولايته الأولى[٣].

ثم اسْتُدْعِيَ سليمان الخادم للمشاركة في حملة بغداد فصارت ولاية مصر إلى خسرو باشا، الذي أرسل خراج مصر اثني عشر حملًا بدلًا من ثمانية، فرأى سليمان

---

(١) علي مبارك، **الخطط التوفيقة**، ٢/ ١٠٤.

(٢) مايكل ونتر، **المجتمع المصري تحت الحكم العثماني**، ترجمة: إبراهيم محمد إبراهيم، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م)، ص٦٠.

(٣) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٤٦ وما بعدها؛ الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب بمن ولي مصر من الملوك والنواب**، تحقيق: محمد الششتاوي، ط١ (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٩٩٩م)، ص١١٠؛ فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٢٢٨.

Readonly

أن هذه الزيادة جاءت بظلم الرعية، فعزله وأنفق الزيادة في وجوه الخير[١]، فلم تكمل مدة ولايته السنتين (٩٤١ ـ ٩٤٣هـ)، ومع هذا فقد شهدت نشاطا عمرانيًّا حيث عمَّر جزءًا من سوق الصاغة، وأنشأ صهريجًا بين القصرين، وأنشأ مكتبًا يتبنى تعليم الأيتام وإطعامهم، كما «حصَّن القرافتين المرضيتين، وعمَّر بهما الدروب الجدد»[٢]، وسبيله المشهور هو الوحيد الباقي من أسبلة تلك الحقبة، ولا يزال بحالة جيدة[٣].

وبعد انتهاء الحملة تولى سليمان الخادم منصب الوزارة في الآستانة ثم أعيد مرة أخرى إلى مصر، وكانت ولايته هذه المرة أقل من سنتيْن (٩٤٣ ـ ٩٤٥هـ)، وعُرِفَ سليمان الخادم بكثرة العمارة في مصر وأشهر آثاره جامعه المعروف بجامع سارية الجبل في القلعة، أنشأه في ولايته الأولى (٩٣٥هـ) وهو أول جامع يشيد على الطراز العثماني، «وله أوقاف دارّة وشعائره الإسلامية مقامة»[٤]، كما عمَّر تكية وجامع السليمانية في منطقة بولاق، وجعل عليها وقفًا كبيرًا بلغ خمسة وعشرين فدانًا بالجيزة، وبجواره وكائل وأسواق وربوع، منها مَعَاصِر للسكر ووكالتين لتجارة الكتان ووكالات للذهب والزيت، وعمَّر تكية بقوصون[٥]، وبنى قبة خضراء على قبر الشيخ

---

(١) فريدون أمجان، **سليمان القانوني**، ص٧٩.

(٢) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٥٨، ١٥٩. وقد أضافت المحققة د. ليلى الصباغ لترجمة خسرو باشا إضافات من «عيون الأخبار ونزهة الأبصار»، وهو كتاب آخر لابن أبي السرور البكري. وانظر: الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٠.

(٣) محمود حامد الحسيني، **الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة: ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م**، ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٨م)، ص١٢٢.

(٤) علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، ٥/ ١٤.

(٥) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٥٧، ١٥٩؛ الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٠؛ محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**، ١/ ٥٥ وما بعدها؛ =

Readonly

سعود المجذوب بشارع سوق السلاح عند حارة النصارى[١]. ومن أشهر الأمراء في عهد سليمان الخادمِ الأميرُ جانم الحمزاوي، الذي كان ناظرًا على الأموال السلطانية، وكان محبًا للعلماء حريصًا على الاجتماع بهم، وقد عمَّر تُرْبَة وأوقف عليها أوقافًا وقرر لها شيخًا وعشرة أشخاص يقيمون بها مع المسكن والطعام[٢].

ثم تولاها داود باشا لنحو اثني عشر عامًا (٩٤٥ ـ ٩٥٦هـ)، وأثنى عليه المؤرخون بالحلم والكرم ومحبة العلماء والكتب والعدل والأمن[٣]، وأنشأ عددًا من الوكالات لتجارة وتخزين الحبوب[٤]، وبنى في ولايته مدرسة عظيمة محكمة البناء بسويقة اللاله ـ وهي المعروفة الآن بمسجد داود باشا ـ ووقف لها أوقافًا[٥]، وجدَّد مسجد الطباخ بتوصية من السلطان سليمان بمنطقة باب اللوق[٦]، ولما مات

= د. هدى جابر، **البشر والحجر: القاهرة في القرن السادس عشر**، (القاهرة: دار الوثائق والكتب القومية، ٢٠١٠م)، ص٧٦.

(١) الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة**، تحقيق: خليل المنصور، ط١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م)، ٢/ ١٤٦؛ علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، ٦/ ٣٢؛ محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**، ١/ ٣٩.

(٢) محمد راغب الطباخ، **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، ط٢ (حلب: دار القلم العربي، ١٩٨٩م)، ٣/ ٤٧٤. ومن طريف ما يروى عن هذه المقبرة أنه دُفِن فيها اثنان من العلماء الكبار: نور الدين الطرابلسي الحنفي والنور البحيري الشافعي وطلب الشيخ نور الدين محيسن القاهري أن يدفن معهم إن مات فيكون قد اجتمع بها ثلاثة أنوار.

(٣) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٠ وما بعدها؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١١.

(٤) د. هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٧٦.

(٥) الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥٠.

(٦) محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**، ص٥٣، ٥٤.

Readonly

الشيخ جاهين الخلوتي، وهو من الأولياء الصوفية دفن بزاويته التي في سفح جبل المقطم، فبنى عليها ـ بتوصية من السلطان سليمان ـ قبة وأوقف عليها أوقافًا[١].

ثم صارت ولاية مصر إلى علي باشا السمين (علي باشا الوزير)، وكان حاكمًا عادلًا صالحًا محبًا للعلماء والفقراء محسنًا لهم، وقد عُرِف بالعمران أيضًا، إذ رمَّم وبنى عدة مبانٍ في القاهرة كمقام السيدة زينب ومبان أخرى بفوة ووكالة عظيمة برشيد، وجدد قلعة العريش[٢]، وكان قدوة حسنة لغيره من الأمراء الذين شيدوا الجوامع[٣]، وقد قضى علي باشا في مصر أربع سنوات ونصف (٩٥٦ ـ ٩٦١هـ) ثم استُدْعِي إلى الآستانة ليشغل منصب الصدر الأعظم.

ثم تولاها محمد باشا (٩٦١هـ) فكان على عكس سلفه محبًا للخلاعة، قضى في مصر ثلاث سنوات (٩٦١ ـ ٩٦٣هـ) فكرهه الناس وتكررت منه الشكاوى وزاد البلاء بأن وقع في زمنه غلاء عظيم وشَحَّتْ المحاصيل، فلما وصلت قبائحه إلى السلطان سليمان عزله ثم قتله خنقًا (٩٦٣هـ)[٤].

ثم تولى إسكندر باشا فحكم ثلاث سنوات وأشهر (٩٦٣ ـ ٩٦٦هـ)، وكان من أهل الخير والصلاح، وأحبه الناس محبة عظيمة، وزاد النيل في ولايته فقلَّتْ

---

(١) المناوي، **الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: الطبقات الكبرى**، تحقيق: محمد أديب الجادر، ط١ (بيروت: دار صادر، ١٩٩٩م)، ٣/ ٣٧٩.

(٢) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٣، ١٦٤؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١١، ١١٢.

(٣) جرجي زيدان، **مصر العثمانية**، تحقيق: د. محمد حرب، (القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٣م)، ص١٢١، ١٢٢.

(٤) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٥، ١٦٦؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٢.

Readonly

الأسعار، وهو أشهر الولاة العثمانيين وأكثرهم عمارة في تلك الفترة، فهو صاحب الوقف الشهير المعروف بوقف إسكندر باشا، وفيه المدرسة والسبيل والتكية والمنشآت الكثيرة[١]، فعبر سنوات ولايته «شَيَّد واشترى ٢٧ حانوتًا ومبنيين للإيجار ومطبخ سكر» وأوقفها على المدرسة والسبيل والتكية[٢]، ومن المؤسف أن هذا كله زال وهُدِم في مراحل لاحقة[٣].

ثم تولى على باشا الخادم (٩٦٦هـ) لمدة ستة عشر شهرًا، وكان من أهل الدين والخير، عادلًا محبًا للعلماء والفضلاء كثير الإحسان لهم، ولما مات لم يكن لديه إلا سبعة دنانير، وخمسة عشر قطعة من الملبس[٤]، ولا تُعرف له أوقاف في مصر.

ثم تولى مصطفى باشا شاهين (مصطفى الثاني) (٩٦٧هـ) فقضى في الولاية ثلاث سنوات وأربعة أشهر، «فجعل الرشوة شعاره والظلم دثاره مع عدم إنصافه للرعية»، ومع ذلك فإنه كان من أصحاب العمارة حيث عمَّر الرُّبْع الذي بمصر القديمة، وجعله وقفًا على أعمال خير، ولما وصلت أخبار ظلمه وجوره عزله السلطان سليمان عن مصر[٥]، وهو آخر ما نرى لهم من الولاة أوقافًا على أعمال

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٧، ١٦٨؛ الإسحاقي، **أخبار الأول**، ص١٥١؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٢، ١١٣.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٩٧.

(٣) محمد أبو العمايم، **آثار القاهرة الإسلامية**، ١/ ٧١ وما بعدها.

(٤) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٦٨؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٣.

(٥) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٧٠، ١٧١. وترجح المحققة أن المنطقة المذكورة هي عطفة السادات التي في شارع درب الجماميز بمنطقة السيدة زينب؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٣.

Readonly

الخير حتى نهاية الفترة محل البحث، إذ خلفه في ولاية مصر علي باشا الصوفي (٩٧١هـ) فقضى فيها سنتين وثلاثة أشهر وبدأ في ولايته التلاعب بالعملة وضعف الأمن وزادت اللصوص[١]، ثم خلفه محمود باشا (شوال ٩٧٣هـ) الذي بدأ ولايته بقتل عدد من الأعيان والكبار ومصادرة أموالهم، ثم اغتيل على يد مجهول قبل أن يكمل عشرين شهرًا في منصبه، وكان آخر ولاة السلطان سليمان في مصر[٢].

طبيعة ودوافع الأوقاف العثمانية بالقاهرة

كانت أوقاف الولاة العثمانيين ضمن الأوقاف التي تشرف عليها السلطة، إذ «كانت تخضع حساباتها لإشراف من القضاة أو من ديوان محاسبة الأوقاف الكبرى، كما كان الغالب أن ينصب الناظر على هذه الأوقاف بتذكرة ديوانية من الديوان»[٣]، ولكونها كانت كبيرة في الغالب فإنها كانت متعددة الوظائف والأغراض والمصادر، كما كان فيها العديد من الموظفين واحتاجت إلى تدقيق قانوني أوسع حتى إن وقف سليمان باشا كان يسجل سائر معاملاته في المحكمة ليكون له أرشيف قضائي، وهو ما سيأتي معنا طرف منه فيما بعد.

وبالنظر في تواريخ الأوقاف وطبيعتها تتبدى لنا بعض الملامح العامة التي تكشف عن طبيعتها ودوافعها، من أبرزها:

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٧١ وما بعدها؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٤.

(٢) ابن أبي السرور البكري، **المنح الرحمانية**، ص١٧٤ وما بعدها؛ ابن الوكيل، **تحفة الأحباب**، ص١١٤، ١١٥.

(٣) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م)، ص٨٤.

Readonly

١. يبدو بأدنى نظر أنَّ أوقاف الولاة كانت ظاهرة عامة، ذلك «أن معظم ولاة مصر قد شيدوا لهم أوقافًا، وسواء كان ذلك من أجل زيادة الهيبة الاجتماعية أو لتخليد الذكرى أو لنفع اقتصادي، فالمُلاحَظ عظم أوقاف الولاة بصفة عامة، حتى إنَّ بعض أوقاف الولاة كوقف خاير بك كان أكبر من أوقاف بعض السلاطين، وكذلك التنوع في موقوفات الولاة وتوزعها بين الحضر والريف باستثناء وقف سليمان باشا، وبين الوجه القبلي والبحري، للحفاظ على سيولة واستمرارية عائد الوقف»[١].

٢. تقل الأوقاف التي أنشأها الولاة في زمن الاضطراب الذي وقع بعد وفاة خاير بك، ثم في آخر عهد السلطان سليمان القانوني، بينما تكثر وتزدهر بقوة ووضوح في عموم عهد السلطان سليمان، ويتضح هذا في الوصف المتكرر للوالي بأنه كان محبًا للعمارة أو كان محبًا للخير ومن أهل الصلاح، ونحو هذا من الأوصاف كما مرَّ آنفًا.

وهنا يبدو واضحًا العلاقة القائمة بين الأحوال السياسية وأحوال الأوقاف التي تشرف عليها وتنشئها السلطة، وتتميز الفترة التي نبحثها في هذه الورقة باستقرار الوضع السياسي وقوته، وهو ما انعكس على قوة الأوقاف واتساعها، حتى أطلق عليها البعض «الفترة الذهبية لهؤلاء الولاة» حيث لم تكن «تنقصهم القوة أو السيطرة على مجريات الأمور»[٢].

ونجد هذه فرصة لتوضيح إشكالية جاءت في وصف لعلي مبارك عن الأوقاف العثمانية، فقد قال عن الولاة العثمانيين: «اهتم بعضهم في عمارة بعض الجوامع وبنى بعضهم وكائل في القاهرة وبولاق وبنى داود باشا مدرسة في سويقة اللاله

---

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢١٧.

(٢) حمزة عبد العزيز بدر، **أنماط المدفن والضريح في القاهرة العثمانية (١٥١٧ ـ ١٨٠٥م)**، رسالة دكتوراة في قسم الآثار الإسلامية بكلية الآداب جامعة سوهاج، ١٩٨٩م، ص٢٣.

Readonly

سنة خمس وخمسين وتسع مئة وبنى إسكندر باشا جامعًا وأنشأ عمارة عظيمة في باب الخرق (باب الخلْق).. وأوقف كل منهم أوقافًا دارَّة على عمارته لأجل بقائها عامرة، لكن كان من عادتهم أن كل من أراد وقف شيء أخذ من وقف غيره ووقفه باسمه أو نهب ما بأيدي الناس ووقفه، فلذلك لم تستمر بعدهم بل أخذت تلك الأوقاف في التقهقر والخراب حتى صارت بعضًا من كل وقلّ إيرادها فاختل لذلك بعض تلك العمائر»[١].

في هذه الفقرة إجمالٌ يُفضي إلى توهم بأن الولاة المذكورين هنا كانوا من أولئك الذين استولوا على أوقاف سابقيهم ونهبوا ما كان بأيدي الناس، والواقع أنَّ هذا فهم خاطئ جاء من الاختصار، ذلك أن البحث في التفاصيل يؤدي إلى أن ذلك إنما كان في فترة ضعف السلطة العثمانية، وهي فترة تالية للفترة التي نتناولها في بحثنا هذا، فبالتنقيب في مصادر أوقاف الولاة العثمانيين الذين نتعرض لهم هنا اتضح الآتي: «جزء كبير من الموقوفات قد آل إلى الولاة نتيجة الشراء من أطراف أخرى مما يوضح مدى ثراء هؤلاء الولاة حتى قبل مجيئهم إلى مصر، ولكن جزءًا لا يستهان به من أوقاف الولاة ولا سيما الأطيان الزراعية قد آل إليهم بطرق أخرى مثل حق الوالي في الرصد من بيت المال على جهة ما، بصفته نائب الإمام، وتوسع بعض الولاة في هذا الحق مثل خاير بك الذي بلغت مساحة إحدى الرزق التي رصدها من ضمن ما رصد ٤٠٠ فدان قطعة واحدة»[٢]، واستعرض المؤلف المصادر الأخرى فكانت للولاة في فترة الضعف والتراجع[٣].

---

(١) علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، ١/ ٥٦.

(٢) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢١٨.

(٣) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢١٨، ٢١٩.

Readonly

٣. حصلت العمارة الدينية على معظم الأغراض التي أوقف الولاة لأجلها أوقافهم، فهي بين المساجد والزوايا والتكايا والقباب للأولياء الصوفية، وهذا مفهوم من ولاة يُحاولون التقرب إلى الرعية وإحراز الذكر الحسن بعد وفاتهم، ومن أبلغ ما يُقال في هذا ما ذكره ابن أبي السرور البكري عن خاير بك حيث قال: «ومُحَصِّلة مساويه أكثر من محاسنه، وليس له من المحاسن غير وقفه المعلوم بباب الوزير ووقفه على المحيا بالجامع الأزهر»[١].

وينبغي أن نذكر أن ذلك العصر كان من عصور ازدهار التصوف وكثرة الطرق والأولياء المتصوفين، وقد شاع في كتب التراجم والطبقات لتلك الفترة الحديث عن الكرامات والخوارق التي تحدث للأولياء، وذكرت بعض تلك المصادر المكانة التي حازها بعض الأولياء عند العامة وعند رجال الدولة[٢] حتى ذُكِر أن إقبال الجند على الشيخ إبراهيم الكلشني دفع بالسلطة إلى نفيه لخوفها من التفاف الجنود به ثم أعيد بعد فترة مع حظر استقباله للعسكر[٣]، وتبدو الرواية من المبالغات المعتادة في كتب الصوفية إلا أنها تعطي أساسًا حول ما بلغه بعض أولئك الأولياء من المكانة، وهو ما أفضى إلى وقف الولاة أوقافًا على قبابهم وزواياهم زيادة في التقرب من مجتمع العلماء ومن العامة.

٤. كذلك فقد انتشر في أوقاف الولاة أن يوقف الوالي على نفسه طيلة حياته ثم بعد وفاته لجهات خيرية أو بصفة غالبة على ذريته، ويشترط في الوقف أنه إذا

---

(١) ابن أبي السرور البكري، **الكواكب السايرة في تاريخ مصر القاهرة**، مخطوط بمكتبة الإسكندرية، رقم ١ ٠٠٤٥، (alkwakebalsa2era) لوحة ٤١. (رابط المخطوطة).

(٢) انظر: المناوي، **الكواكب الدرية**، ٣/ ٣٩٧.

(٣) انظر: المناوي، **الكواكب الدرية**، ٣/ ٣١٤.

Readonly

انقرضت ذريته أن يؤول ريع الوقف إلى عتقائه ثم عتقاء ذريته، أو يشترط اشتراك ذريته مع جهات خير في ريع الوقف[١]. وهو الأمر الذي يتبين فيه دوافع الحماية من تقلبات السياسة والعزل والإقصاء كما هو مضطرد في أحوال الواقفين من عصر الأيوبيين والمماليك.

٥. ومن أهم ما ينبغي إيراده هنا أن بعض الموارد التي أوقفت على المنشآت في مصر كانت في الحجاز أو إسطنبول، كما في أوقاف خاير بك وسليمان باشا. أي أن مصر كانت تستفيد من أملاك أولئك الولاة التي هي خارجها، وهذا بحد ذاته أهم ما يَرُدُّ على فكرة الاحتلال العثماني وأنه أراد استصفاء مصر لحساب المركز في الآستانة، كما يرد على مسألة الشعور القومي في العصر العثماني[٢].

آثار الأوقاف العثمانية على مجتمع القاهرة

تتعدد أوجه الآثار التي يمكن أن نرصدها لأوقاف الولاة العثمانيين على مجتمع القاهرة في تلك الفترة، على أن أهم ما ينبغي التنبيه إليه أن حركة الولاة تجاه نشاط ما يثير بطبيعة الحال إقبالًا عليها في سائر طبقات المجتمع، فالناس على دين ملوكهم، «وقد مضت سنة الاجتماع في تقليد الناس لأمرائهم وكبرائهم، فكل ما راج في سوقهم يروج في أسواق الأمة»[٣]، ومن هنا نشطت حركة الأوقاف في طبقة الأمراء وطبقات الأغنياء والطبقات الوسطى، فكانت ظاهرة عامة لها آثارها العميقة في المجتمع المصري.

---

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر العثمانية**، ص٢٢٠.

(٢) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر العثمانية**، ص١٣٢.

(٣) محمد رشيد رضا، **الخمر أم الخبائث**، مجلة المنار، ٤/ ٨٩٦.

Readonly

وكثيرًا ما يصعب فصل الآثار المترتبة على وقف ما تحت تصنيف بعينه، فقد يكون للوقف نفسه أثـر عمراني واقتصادي وديني واجتماعي، ولهذا فقد سرنا هنا في رصد الآثار بحسب مـا يغلب على الوقف مـن الأثر دون نفي الآثار الأخرى المتعلقة به بطبيعة الحال. وقسمناها هنا إلى آثار: عمرانية واقتصادية واجتماعية. ونورد تحت كل منها شذرات سريعة بحسب ما يحتمله المقام.

آثار عمرانية

لقد «كان لاتجاه الولاة العثمانيين إلى تشييد العمائر التابعة لأوقافهم خارج القاهرة الفاطمية أثره في التوسع العمراني خارجها، فمن بين ٩ ولاة أقاموا منشآت لهم وجدنا واحدًا بالقاهرة (٥ , ١١٪)، وثلاثة بالمنطقة الجنوبية (تقريبًا ٥ , ٣٣٪)، واثنين ببولاق (نحو ٥ , ٢٢٪) وواحد بمصر القديمة (تقريبًا ٥ , ١١٪)، واثنين أقاموا منشآت في أكثر من مكان (٥ , ٢٢٪) حيث أقاموها بالقاهرة الفاطمية والضاحية الجنوبية وبولاق، وتنوعت هذه المنشآت بين خدمية (كالمدارس والكتاتيب والأسبلة والصهاريج والتكايا والجوامع) وسكنية (كالرباع) وتجارية (كالوكالات والقيساريات والحوانيت)»[1].

وتبدأ هذه العملية بأن يشتري الواقف أو يشيد «مبانٍ اقتصادية تدر ريعًا مثل المنازل والحوانيت والرباع والحمامات العامة. وكان من مصلحة نظار هذه الأوقاف أن تكون مواضع الممتلكات متقاربة حتى يسهل عليهم إدارتها وجباية دخولها والسهر على سلامتها. وعلى هذا كانت العقارات تتجمع في غالبية الأحوال على مقربة من الصرح الذي أنشئ الوقف لصالحه. وكان من الممكن أيضًا

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٦٤.

Readonly

أن يتحول وقف حضري كبير إلى عملية تعميرية حقيقية يتم في ظلها إعادة تشكيل أو تنظيم حي بأكمله. وفي الأغلب تجري مثل هذه العمليات في مناطق المدينة القابلة للتوسع، حيث توجد مساحات متاحة، وتقل كثافة الإنشاءات. وهذا يفسر لنا لماذا أقيم عدد من الأوقاف في مواقع رائدة، وحيث ساهمت في توجيه نمو المدينة أو على الأقل في مصاحبته»[١]، وبهذه الطريقة أسفرت منشآت وقف إسكندر باشا عن إعادة تشكيل المنطقة الواقعة بين باب زويلة وباب الخلق إلى مسافة ٥٠٠ متر من باب زويلة[٢].

وهكذا توسعت القاهرة في مطلع العصر العثماني عمرانيًا إلى الجهة الشمالية بأثر من النمو التجاري، الذي استثمرته ودعمته منشآت الولاة العثمانيين، كمعاصر السكر ووكالات تجارة الكتان التي أنشأها سليمان باشا، ووكالات الحبوب التي أنشأها داود باشا، فتوسعت بولاق تجاه الشمال والغرب ونما شارع كبير موازٍ لنهر النيل على أراضي طرحها النهر أثناء انحساره تجاه الغرب، وقد وجد بها عدة منشآت تابعة لأوقاف بعض الولاة كمسجد سليمان باشا وسنان باشا، وأخذ الزحف العمراني يمتد إلى أرض وقف سليمان باشا بشاطئ النيل وتحولت بعض الحدائق المرصدة إلى مقاهٍ ووكائل[٣].

وإذا «كان الناس على دين ملوكهم فنجد أن القاهريين باختلاف فئاتهم يسهمون بدور في تفعيل الحركة العمرانية، كأن هناك تكاتف بين هؤلاء والدولة على أهمية التعمير، فاتجهوا أيضًا إلى تشييد المنشآت التجارية والخدمية ولا سيما

---

(١) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص٢١٠.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص١٩٧، ٢١٠.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٧٦.

Readonly

الأسبلة والآبار ثم قاموا بوقفها، وقد راع هؤلاء أن يختاروا لمنشآتهم تلك المناطق التي تتسم بخلخلة عمرانية والتي تسمح بالتوسع فيما بعد، فنجد مثلًا الجمالي يوسف بن يونس الزركاشي يوقف عدة منشآت تشتمل على معمل نشادر ووكالتين مستجدتي الإنشاء بخط باب اللوق والجامع الطولوني بالإضافة إلى عدد من الحوانيت ومدبغة ونصف طاحون وغير ذلك من المنشآت التي أحدثها الواقف، ووقفها على نفسه ثم من بعده يخصص جزء من ريعه لحمل المياه إلى عدد من الزوايا»[١].

وقد حظي أمر توفير المياه للناس والحيوانات «باهتمام أغلب الواقفين، فحرصوا على إنشاء الأسبلة والآبار في مختلف أحياء القاهرة، ولوحظ أن منشئيها قد حرصوا على تشييدها بالمناطق الخربة والأرض الموات. وبعيدًا عن العوامل العقدية والدنيوية لإقامة مثل تلك المنشآت فإن اختيار أماكنها.. أسهم بدور ولو بسيط في تشجيع التوسع وجذب الناس إلى الأماكن التي تتسم بضعف النمو»[٢].

وحيث كان جزء كبير من ريع الأعيان الموقوفة ينفق في صيانة الوقف وترميمه، فقد سهل هذا من عملية الصيانة، التي كانت خاضعة لإشراف القضاء، ولم يكن ذلك ليتم لولا اهتمام الدولة العثمانية بالأوقاف[٣]، مما أبقى الأثر العمراني للوقف أطول مدة ممكنة بمحافظته على عين الوقف وأنشطته وما حوله من أوضاع. وقد كان من ضمن ما يخصص من وظائف الوقف: وظيفة الكنس والرش ولم القمامات، وهو ما «يعكس حقيقة ذلك الاتجاه للاهتمام بنظافة المدينة؛ لأن نظافة الوقف لم تكن

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٦٤.

(٢) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٦٥.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٨٠.

Readonly

منحصرة على ما بداخله، بل كان يتعدى إلى النطاق الجغرافي المحيط به»[١].

آثار اقتصادية

كان دخول مصر تحت حكم الدولة العثمانية قد فتح العلاقات التجارية بين القاهرة وبين مركز الإمبراطورية (إسطنبول والأناضول)، وهو ما «زاد من أهمية بولاق التي كانت باب القاهرة على البحر المتوسط. وكان لنمو العلاقات مع الدول الأوروبية نفس الأثر»[٢].

ومن هنا عَمِلَتْ منشآتُ الولاة الصناعية والتجارية على أن تَرِدَ إلى القاهرة العديد من البضائع التي لاقت رواجًا اقتصاديًّا كالكتان والأرز والحبوب والجلود والسكر بدلًا من البضائع الكمالية التي كانت تفد إلى مصر القديمة[٣]، فلذلك «كان القرن السادس عشر هو فترة نمو نشيطة بالنسبة لبولاق حيث قام باشوات القاهرة بتشييد سلسلة من الوكائل، وبطبيعة الحال أنهم كانوا يفكرون في الأرباح التي يمكنهم الحصول عليها من وقف هذه الممتلكات: فقد شيد سليمان باشا (١٥٢٥ ـ ١٥٣٨) وكالة للكتان؛ وداوود باشا (نحو ١٥٦٤).. وتتفق هذه الضخامة مع أنشطة بولاق التجارية خلال القرن العثماني الأول، بل وتتناظر أيضًا مع القوة المالية للحكام الذين قاموا بتمويلها»[٤].

وبقدر ما أسهمت الأوقاف في تنشيط الحركة التجارية في بولاق وإتاحة الفرصة لها لتكون مركزًا تجاريًا، بقدر ما عاد هذا على الأوقاف نفسها بالتوسع،

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٠١.

(٢) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص٢٤٤.

(٣) د. هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٧٦.

(٤) أندريه ريمون، **القاهرة**، ص٢٤٤.

Readonly

فلقد صار وقف سليمان باشا من الأوقاف الكبرى التي تزيد مواردها عن تغطية نفقات المصارف المقررة لها، ولهذا سمح الواقف لإدارة الوقف أن تستثمر الفائض في توسيع الوقف بشراء المزيد وضمه إليها، ويصبح حكم الجديد كحكم الوقف الأصلي، وقد ضم الوقف عقارًا بقيمة ٢٦ ألف نصف فضة، وأنشأ وكالة تجارية لبيع الكتان تكلفت أكثر من ١٦٠ ألف نصف فضة[١].

وقد شجَّع وقف سليمان باشا بطريق غير مباشر على رواج الحركة التجارية، ذلك أن أحواض وأسبلة المياه من وسائل رواج حركة التجارة الداخلية، إذ إن وجودها في مكان ما كخدمة مجانية كان يزيد من نشاطه التجاري، ولقد كان في وقف سليمان باشا في بولاق حوضان معدان لشرب الدواب، كذلك أسهم وقف سليمان باشا في رواج هذه الحركة التجارية بطريق أخرى، حيث كان يصرف في كل سنة ثمن ستة قناطير زيت، يضاء به كل ليلة الفنار الموجود في أبي قير لينير الطريق للمسافرين الواردين عليها. وهذا أمر متعدد الفائدة إذ لها فائدة اقتصادية في تشجيع التجارة بإنارة الطريق للتجار، وفائدة اجتماعية بتأمين الناس وحركة السير ليلًا، وفائدة عمرانية بتعمير المكان[٢].

ومن أهم الآثار الاقتصادية للأوقاف ما توفره من الوظائف المتعددة لكثير من الطاقة العاملة، وهو ما يُدخل إلى سوق النشاط الاقتصادي موارد بشرية تزيد من حركة دوران رأس المال في المجتمع، فقد كانت أوقاف المساجد والمدارس والتكايا والزوايا تحتاج إلى العديد من الوظائف الدينية والفقهية، سواء من جهة الإشراف على هؤلاء الموظفين وحساب الراتب وغيره، وكثيرًا ما يكون لناظر

---

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص١٣٩، ١٤٠.

(٢) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢١٠، ٢١١.

Readonly

الوقف نائب أو أكثر كما يكون لديه وكيل يتولى عنه الحضور أمام القضاء وغيره، وربما كان للوقف الواحد أكثر من ناظر، وربما كان للوقف ناظرٌ ومتولٍّ مع تشابه وتداخل في المهام، وأحيانًا يكون أكثر من واحد في مهمة المتولي، هذا فضلًا عن وظائف أخرى توجد أو لا توجد بحسب الوقف كالمُباشر والكاتب والشاهد، كذلك فقد استلزم وجود الوقف وظائف أخرى كالجابي الذي يجمع أموال الوقف، والشاد (ويُسَمَّى أيضًا: القاصد) الذي يساعده، وفي بعض أنواع الأوقاف لزم وجود الصراف لاكتشاف الأموال المزيفة، وأمين الكلار الذي يوجد في الأوقاف التي تخزن الغلال أو الأمتعة والأدوات، ومتعاهد كتاب الوقف (وهو أقرب إلى وظيفة الشؤون القانونية للوقف) وعمَّال الصيانة، والحارس (الخفير)، فضلًا عما يقتضيه كل وقف من وظائف مخصوصة تبعًا لطبيعته وغايته[١].

وتؤكد الشواهد أن رواتب وظائف الأوقاف لم تكن سيئة، بل كان يقع على الحصول عليها تكالب ولجوء إلى الوسطاء، كما وُجِد ما يدل على أن بعض الأسر كانت تتعيش من رواتب الأوقاف، وأن الحصول على وظيفة وراتب ثابت من الأوقاف كان مدعاة للاستقرار والاطمئنان، وقد زاد خاير بك في رواتب موظفي وقفه، وشرط سليمان باشا الخادم في وقفيته أن تزيد رواتب موظفيه بمرور الزمن[٢].

وقد منحت بعض الأوقاف لبعض موظفيها ـ فضلًا عن الراتب ـ سكنًا ملحقًا بها، حرصًا على حسن القيام بالعمل، ومن ذلك أن وقف خاير بك قد منح سكنًا «للمزملاتي»[٣]، وقد مرَّ سابقًا أن جانم الحمزاوي أوقف على التربة التي عمَّرها

---

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٨٦ وما بعدها.

(٢) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص١١٨، ١١٩.

(٣) المزملاتي: هو المسؤول عن تسبيل الماء في السبيل، وهو أهم موظف في الوقف إن كان سبيلاً. =

Readonly

وقفًا ينفق على سكن المقيمن فيها، ومنح وقف إسكندر باشا سكنًا لإمام الجامع، وشرط سليمان باشا الخادم في وقفه ١٨ مسكنًا لسكنى موظفي الوقف[١]، وهذا السكن فوق ما له من الآثار الاقتصادية التي ترفع الكلفة عن كثير من المحتاجين فإنه له آثارًا اجتماعية عميقة.

آثار اجتماعية

تعددت الفئات والطبقات الاجتماعية التي استفادت من الوقف، بل شكلت تلك الأوقاف عماد حياتها في كثير من الأحايين.

١. **الصوفية**: في بحث إحصائي وُجِد أن الزوايا والتكايا قد حصدت نصيب الأسد من نسبة المباني المنشآة في العصر العثماني بنسبة (٢٧٪)، ثم المساجد بنسبة (١٨,٩٪)، وقد «يرجع ذلك إلى اهتمام الدولة العثمانية بتشجيع التصوف والصوفية، وتمثل ذلك في التوسع في الأوقاف المرصدة على منشآت الصوفية وإعفاء أراضيها من الضرائب، ومن ثم ساعد ذلك في انتشار هذا الفكر، وقد رغب كثير من الناس في الانضواء تحت لوائه فرارًا من شظف العيش»[٢].

٢. **العلماء**: منذ أوائل العصر العثماني حظي العلماء برعاية الدولة، فقد أصدر السلطان سليم الأول مرسومًا يقضي بعدم التعرض لرزق العلماء، والأوقاف المرصدة على المؤسسات التعليمية سواء أكانت موقوفة من قبل أمراء المماليك

= انظر مهماته التفصيلية في: محمود حامد الحسيني، **الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة**، ص٣٠٣ وما بعدها.

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص١١٣، ١١٤، وراجع: محمد راغب الطباخ، **إعلام النبلاء**، ٥/ ٤٧٤.

(٢) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٧٧.

Readonly

أم من الرعية، وبالنظر لمتوسط مرتبات تلك الفئة (العلماء) المخصصة لهم من الأوقاف نجد أن المدرس كان يحصل على ١١٨,٧٥ نصف شهريًا، بينما بلغ دخل مؤدب الأطفال ١٨,٢٢ نصف شهريًا، وهذا المتوسط تحكمت فيه شروط الواقف والريع المخصص من الوقف الذي كان متفاوتًا بالنسبة لكل شريحة[١].

وندرج في العلماء أيضًا القضاة باعتبار أنهم شريحة من العلماء، وقد كان القضاة من أوسع الناس استفادة من عملهم في النظارة على الأوقاف، إذ يسجل الواقف وقفه أمام القاضي الذي يصدق عليه ويصدر حجته ثم يشرف عليه ويعين ناظره ويحق له عزله إن خالف شروط الواقف أو ظهر منه ما يسوء[٢].

٣. **الفقراء**: وهم المعنيون بالأساس من عمل الخير الذي توقف له الأوقاف عادة، أو هم المستفيدون منها بطريق غير مباشر، حيث يمكن لهم الالتحاق بالمدارس والكتاتيب والتفرغ للتعلم دون دفع أجرة بل وربما أخذوا أجرًا على هذا ليغنيهم وقت تفرغهم، كذلك فلقد كانت التكايا والزوايا من الأماكن التي يمكن لهم أن يقيموا بها، وللعابرين منقطعي السبيل أن ينزلوا فيها، وكان الطعام في التكايا والمياه في الأسبلة يقدم مجانًا للفقراء.

ولقد كانت مساحة الأراضي الزراعية الموقوفة على بعض المنشآت الخدمية بالقاهرة (المدارس والكتاتيب والأسبلة..) في أوائل القرن السادس عشر قد «بلغت

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٧٦، ١٧٧.

(٢) عبد الرازق إبراهيم عيسى، **تاريخ القضاء في مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨)**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م)، ص٢٧٦ وما بعدها.

Readonly

٣٨٢٣,٢٦ فدانًا، وذلك في البحيرة والقليوبية وغيرها من ولايات مصر»[١]، وقد وضعنا جدولًا ببعضها كملحق بهذا البحث.

جاء في حجة وقف إسكندر باشا: «وجعل لعشرين من الفقراء يقيمون بالتكية في الشهر مئة وخمسين نصفًا وفي اليوم عشرين رطلًا من الخبز، ولبوابها في الشهر ثلاثين نصفًا وفي اليوم رطلين خبزًا، ولطباخها خمسة عشر نصفًا وفي اليوم رطلين خبزًا، وكل يوم يُشترى أربعة أرطال من اللحم تجعل سبعة عشر جزءًا، منها خمسة عشر لشيخ التكية وفقرائها، وجزآن للواردين، وفي جمعة يطبخ أرز بالسمن والفلفل، وفي جمعة يطبخ زردة بعس النحل ويفرق ذلك على التكية والواردين، وكل يوم أربعة أرغفة للواردين، وجعل في الشهر خمسة وأربعين نصفًا ثمن الحطب، وثلاثة أنصاف ثمن الخضروات، وفي السنة مئتين وأربعين نصفًا لشراء بقرة وثلاثة خرفان تذبح في الضحية، وفي السنة ما يحتاج إليه من ثمن أرز أبيض خمسة أرادب، وقمح عشرة أرادب، وعدس خمسة أرادب، وحمص أردبين، وبصل اثني عشر قنطارًا، وفلفل خمسة أرطال، وملح أردبًا واحدًا، وسمن ستة قناطير، وعسل قطر خمسة قناطير ثمن القنطار ثمانون فضة..»[٢].

وانتشر في حجج الأوقاف الاهتمام بالفقراء في أوقات معينة، حيث خصص ريعها «لإطعام الطعام للفقراء والمساكين والأرامل والمحتاجين في الجُمَع والمواسم والأعياد وأوقات المزاحم»، وبعضها اشترط أن يؤول ريع أوقافهم بعد انقراض نسلهم إلى مصالح فقراء القاهرة[٣].

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص٧٩.

(٢) نقلا عن: علي مبارك، **الخطط التوفيقية**، ٤/ ٥٧.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٩١.

Readonly

٤. **ذووا الأرحام**: كان الوقف وسيلةً للبر بالأقربين، فقد اشترط بعض الواقفين توظيف أهله أو أبنائه، ومن هذا القبيل شرط خسرو باشا أن يوظف عُتَقَاءَه في وظائف مهمة من وقفه، وكانت تورث وظائف الأوقاف كما في حجتي وقف خاير بك[١]، ونصت معظم حجج الأوقاف على أن يؤول ريع الوقف الأهلي على الذرية ومن بعدهم على العتقاء وذرية العتقاء كما في وقف خاير بك[٢]، وكان خاير بك نفسه قد شيد في أوقافه مدافن لأقاربه وعتقائه[٣]، وقد وصل بعض العتقاء إلى رتبة الأمير وشيدوا أوقافًا لهم، وكان من عتقاء داود باشا الأمير علي ريحان بن عبد الله الحبشي الذي قرر لعتقائه راتبًا شهريًّا من أوقافه، وأوقفت بعض النساء العتقاء أوقافًا، ومنهن من أوصت بنظارة وقفها لعتيقها[٤]!

٥. **أبناء السبيل**: لعبت الأسبلة «دورًا في تزويد سكان المدينة بالمياه دون مقابل، حيث تبارى الخيرون في إنشاء الأسبلة، لأجل توفير ماء النيل طول العام بمختلف أرجاء المدينة، وقد تركزت بشكل عام في المناطق الآهلة بالسكان والأسواق والأحياء التجارية، بالإضافة إلى إنشاء بعضها في المناطق التي تتسم بالضعف العمراني، وقد كانت هذه الأسبلة جارية ضمن أوقاف خصص جزء من ريعها للعناية بمثل تلك المنشآت، وحمل الماء إليها حتى لا تتعرض للجفاف، كما شملت فكرة توفير المياه أيضًا للحيوانات حيث أنشأت بعض الأحواض لسقي

---

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص١١٩، ١٢٠.

(٢) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢٢٤، ٢٢٥.

(٣) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢٢٧.

(٤) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢٢٥، ٢٢٦.

Readonly

الدواب، والتي أرصدت لها أوقاف لضمان القيام بمهمتها»[١].

٦. **السجناء**: «نال السجناء قدرًا من اهتمام أعيان القاهرة بهم، وذلك عن طريق تخصيص جزء من ريع أوقافهم على السجون ومن بها، فقد كان مخصصًا بوقفية الأمير جانم الحمزاوي ٥ , ٨١ بطة دقيق[٢]، يتم خبزها وتوزيعها يوميًا على الجامع الأزهر وحبس الديلم وغيرهم، كما خصص الحاج شهاب الدين أحمد أبي بكر الجبيلي في وقفيته عام ٩٦٨هـ ـ ١٥٦٠م نصفين من ريع وقفه في ثمن خبز يتصدق به على المسجونين بسجن الرحبة والديلم، وفي عام ٩٦٨ هـ ـ ١٥٦٠م تم نقل وقف محب الدين محمد بن محمد المؤذن إلى سجن الرحبة والديلم، وذلك بعد زوال الجهة التي أرصد عليها الوقف، فقد أرصد بهذا الوقف ٢٠ نصفًا شهريًا ثمن ماء عذب يسبل بالسجنين.. كما أوصى بعض التجار بجزء من ثروتهم لبعض المساجين، وخاصة أصحاب الديون على أن يسدد ما عليهم من ديون من هذه الأموال الموصى بها ويتم إطلاق سراحهم»[٣].

٧. **الطبقة الوسطى**: لضمان أداء حقوق الأوقاف فقد اشترط الواقفون أمورًا منها ما جاء في وقف سليمان باشا حيث يقضي بعدم تأجير شيء منها لظالم ولا لذي شوكة ولا لصاحب جاه ولا لحاكم ولا لمن يُخاف منه استيلاؤه عليه مجانًا[٤]، وجاء في حجة وقف خاير بك ألا يتولى وظيفة في الوقف من سعى إليها بوساطة من متنفذ[٥]. وهذا الشرط كان من آثاره توجه الانتفاع بالموارد المرصودة على الأوقاف

---

(١) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١١٢.

(٢) البط الدقيق تزن تقريبًا خمسين رطلاً. انظر: المقريزي، **السلوك**، ٧/ ١٧٧.

(٣) هدى جابر، **البشر والحجر**، ص١٥٤، ١٥٥.

(٤) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص١٤٨.

(٥) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص٢١٣.

Readonly

للطبقة المتوسطة لا المتنفذة، وللضعفاء غير المتجبرين، وهو ما ساهم في توسيع هذه الطبقة الوسطى ودعمها على حساب الطبقة الحاكمة.

٨. **أهل الحرمين الشريفين**: فقد كان وقف سليمان باشا يدر ريعًا أساسيًّا مقداره في العام ٢٢ ألف بارة، وقد خصص منه عشرة آلاف بارة لأهالي مكة، واثني عشر ألفًا لأهالي المدينة المنورة. وقد توسع وقف إسكندر باشا الذي كان يدر عشرة آلاف بارة في العام فصار يدرّ ١٢٦ ألف بارة، ثم انخفض في وقت لاحق حتى وصل إلى ٢١,٦٠٠ بارة، فكان يخصص منه لأهالي مكة ١٠,٨٠٠ بارة ولأهل المدينة مثله[١]. وهذه الفئة وإن لم تكن من مجتمع القاهرة إلا أن لها أثرًا دينيًا كبيرًا في القاهرة، إذ إن مكانة الحرمين الدينية والشعور العام الذي يسود أهل القاهرة في أن هذه الأوقاف تنفق ريعها على إعمار الحرمين كان واحدًا من أهم الملامح الأساسية المرتبطة في الوجدان الشعبي القاهري، والذي مثَّلته مظاهر مثل قافلة الحج التي تحمل الكسوة وغيرها. وقد حفلت حجج الوقف الأهلي بالشرط القائل بأن يؤول ريع الوقف بعد انقراض الذرية إلى عمارة الحرمين الشريفين، وقد وقع أن كثيرًا من الورثة تنازلوا عن أوقافهم للحرمين دون توريثها لورثتهم[٢]، وهذا ما نعنيه بالأثر الديني لأوقاف القاهرة المرصودة على الحرمين.

٩. **الأتراك في القاهرة**: فقد اشترط سليمان باشا في وقفه تعيين واعظ رومي يجيد اللغة التركية في جامع القلعة لكي يعظ بها الأتراك الذين صاروا جزءًا من أهل

---

(١) سميرة فهمي علي عمر، **إمارة الحج في مصر العثمانية**: (٩٢٣ ـ ١٢١٣هـ/ ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م)، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠١م)، ص٣٥٦، ٣٥٧.

(٢) سميرة فهمي علي عمر، **إمارة الحج في مصر العثمانية**، ص٣٦٢، ٣٦٦.

Readonly

البلد[١]، وكانت الزاوية التي في وقفه «مخصصة تمامًا للمتصوفة من غير العرب من سكان مصر، كما تنص على ذلك وثيقة الوقف بوضوح. وكان ينبغي أن يكون جميع العاملين ابتداء من الشيخ وحتى العمال اليدويين من العجم»[٢].

وهكذا نرى أن تأثير الأوقاف التي أنشأها الولاة العثمانيون في القاهرة قد امتد إلى الفئات المتعددة والمتنوعة، وإلى أنشطة متعددة، فكان لها آثار عميقة وبليغة في مجتمع القاهرة آنذاك.

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض للأوقاف التي أنشأها ولاة مصر العثمانيون بالقاهرة في نصف القرن الأول الذي تلا الحكم العثماني لمصر ـ وهي الفترة المبحوثة ـ نستطيع أن نستخلص عددًا من النتائج، هي:

١ ـ رغم أن الوالي ليس من مهماته الأصيلة إنشاء أوقاف جديدة، إلا أن معظم الولاة العثمانيين أنشأوا أوقافًا كبيرة ذات أنشطة متعددة وأغراض متعددة كذلك.

---

(١) محمد عفيفي، **الأوقاف والحياة الاقتصادية**، ص١٠٣، ١٠٤.

(٢) مايكل ونتر، **المجتمع المصري تحت الحكم العثماني**، ص٢٤٤. وهنا لا بد من التعليق على أمرين وردا عند مايكل ونتر؛ الأول: أنه ذكر الذي نقلناه هنا باعتباره في وقف حسن الرومي الذي أنشأه سليمان باشا، وهذا خطأ إذ تاريخ زاوية حسن الرومي كما هو مسجل عليها يعود بها إلى فترة سابقة وهي فترة ولاية خاير بك كما قدمنا في الجزء المخصص لتاريخ الآثار، وأغلب الظن أن الخطأ وقع في نقله هو عن صاحب المقال الأصلي ليونور فرناندز أو وقع على سبيل الخلط. والثاني: هو استخدامه لفظ «العجم» ويعني به الأتراك، وهذا خطأ آخر ربما جاء من الترجمات، ذلك أن «العجم» كان يعني أهل إيران أو الفرس، بينما «الروم» هي التي تعني الأتراك في اصطلاح ذلك العصر. فلقد كانت عناية سليمان باشا بالأتراك «الروم» لا بالإيرانيين الفرس «العجم».

Readonly

٢ ـ دفعت هذه الحركة كثيرًا من الأمراء ومن الطبقة الغنية على إنشاء أوقاف أخرى ورصدها على وجوه الخير.

٣ ـ ساهمت حركة الأوقاف هذه مساهمة كبرى في دعم وتنشيط اقتصاد القاهرة، وساهمت في توسعها العمراني بالذات في الجهة الشمالية والغربية، وكانت لها آثارها الواسعة على مجتمع القاهرة بسائر فئاته وشرائحه.

٤ ـ كانت الفئات الأهم التي استفادت من إنشاء هذه الأوقاف هي: الفقراء الذين وجدوا موردًا لحاجياتهم الأساسية، والعلماء الذين وجدوا موردًا يعتمدون عليه في التعليم والتدريس وطلب العلم، والطبقة الوسطى التي وجدت في حركة الأوقاف الواسعة وظائف كثيرة تستطيع أن تؤمن بها حياة جيدة.

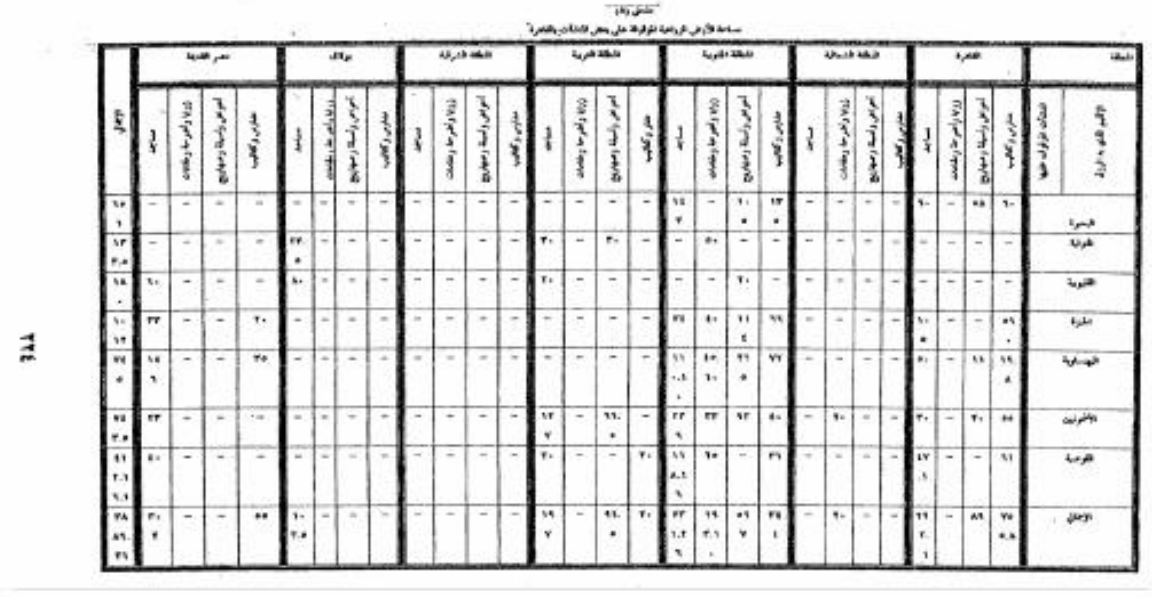
٥ ـ إن السلطة العثمانية لم تكن سلطة احتلال أجنبي لمصر، إذ لم تكن سياساتها الاقتصادية سياسة امتصاص الموارد لحساب المركز، وإنما كانت سياسة سلطة إسلامية تحكم بلادًا إسلامية، ولم يكن المصريون يعتبرون أنها سلطة احتلال أجنبي، ولا كانوا يتعاملون معها على هذا الاعتبار.

وفي نهاية هذا البحث فإن التوصية الأهم التي أقدمها للزملاء الباحثين، هي ضرورة دراسة حجة أوقاف الولاة العثمانيين كلٌّ على حدة، ورصد آثارها على المجتمع المصري في فترة الوالي نفسه ضمن غيرها من الظروف والأوضاع السياسية والعسكرية والإدارية، فدراسة من هذا النوع هي التي تضمن الكشف عن تفاصيل مهمة في آثار أوقاف الولاة العثمانيين، وهي التفاصيل التي تغيب

في خضم الدراسة العامة التي تتناول تتضمن قطاع الأوقاف العثمانية في فترة زمنية أوسع، وهي كفيلة بإلقاء الضوء بقدر أعمق على العلاقات بين الولاة العثمانيين والمجتمع في مصر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

ملحق: مساحة أراض زراعية موقوفة على بعض منشآت القاهرة [1]



مصر الجديدة

٤٨٨

* * *

(١) هدى جابر، البشر والحجر، ص٢٢٤.

Readonly



سياسة محمد علي باشا تجاه أوقاف بيت المقدس

* ألقي هذا البحث في المؤتمر الأكاديمي الدولي الثامن عشر لدراسات بيت المقدس والمنعقد في إسطنبول، بتاريخ ١٥، ١٦ سبتمبر ٢٠١٨، بعنوان: «أوقاف بيت المقدس: الماضي والحاضر والمستقبل»

مَثَّلَتْ فترة الحكم المصري (١٨٣١ ـ ١٨٤١م) انقلابًا في العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بمنطقة الشام، حيث كانت المحاولة الأولى والأقوى في إدخال نمط الدولة الحديثة في الشام، بما استتبعه ذلك من تغيير نمط العلاقة بين السلطة والمجتمع، وبين المجتمع والأجانب، وبين الطوائف الدينية، وبين الحقوق والواجبات المدنية، وأشكال الإدارة المالية والقانونية والتوجهات الثقافية. وقد بقيت آثار تلك الفترة في كافة المناحي رغم انتهائها بعد عشر سنوات فقط.

وتعد سياسة الحكم المصري تجاه أوقاف بيت المقدس فرعًا عن السياسة العامة التي أديرت بها بلاد الشام في تلك الفترة. حيث شهدت الأوضاع في بيت المقدس انقلابًا مشابهًا، شمل ضمن ما شمل التعامل مع أوقاف بيت المقدس الإسلامية وغير الإسلامية، والتي أثرت على الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية للمسلمين وغير المسلمين.

Readonly

تسعى هذه الورقة إلى تسليط الضوء على هذه السياسة تجاه أوقاف بيت المقدس، بتحليل منطلقاتها ودوافعها الأصلية، ثم ما ترتب عليها من آثار في العقود التالية، ومجيبة عن سؤال بقائها واستمرارها رغم انتهاء السلطة السياسية التي أسست لها.

سياسة محمد علي في الشام

اقتحمت جيوش محمد علي الشام وانتزعتها من السلطنة العثمانية في واحدة من أقوى التمردات التي عرفتها الدولة العلية على الإطلاق، وانساحت جيوش إبراهيم باشا ـ ابن محمد علي ـ تهزم جيش الدولة العثمانية حتى جاوزت الشام واخترقت الأناضول واقتربت من إسطنبول نفسها، ولم يتوقف هذا كله إلا بتدخل القوى الدولية التي لم تكن رتبت أمورها بعد لوراثة الدولة العثمانية، فخشيت أوروبا من التحالف العثماني الروسي الذي اضطر إليه الخليفة فتدخلت لإيقاف محمد علي باتفاقية كوتاهية (١٨٣٢م) التي أعطت له الشام فوق ما يملكه من مصر وبلاد السودان. لكن هذا الوضع لم يستمر إلا عشر سنوات فقط حافلة بالاضطرابات ثم تجدد القتال بين الدولة العثمانية وجيش محمد علي وهو القتال الذي انحاز فيه أهل الشام وإنجلترا إلى جانب الدولة العثمانية فيما تخلت فرنسا عن حليفها محمد علي بعد أن عزم على القتال اطمئنانًا إلى مواقفها مما أدى إلى اتفاقية لندن (١٨٤٠م) التي أخرجته من الشام مقابل بقاء حكم مصر له ولذريته من بعده.

نستطيع أن نُجمل سياسة حكم محمد علي[1] في سنوات الشام بأنها إدخال

(١) والذي نرفض بإصرار إطلاق مصطلح «الحكم المصري» عليه، لأن هذه السلطة لم تكن تعبيرًا عن المصريين بل قاهرة لهم كما قهرت أهل الشام.

Readonly

منظومة التحديث التي تكسر المجتمع وتفكك روابطه لصالح ترسيخ السلطة المركزية المتغولة التي تتحكم في سائر الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية، وهي نفس الطريقة التي جرى عليها في مصر والتي كانت أبرز معالمها: كسر البنى الاجتماعية التقليدية للمشايخ والزعامات الشعبية والأنماط الاقتصادية التقليدية وروابط الحرفيين والسيطرة على الأموال ـ بما فيها أموال الأوقاف ـ وفرض التجنيد الإجباري ونزع السلاح من الأهالي. وكان لابد لتحقيق هذه السياسة من الاعتماد على الأقليات الدينية والاجتماعية ورفعها مع الاعتماد على العناصر الأجنبية لتكوين طبقة سلطوية ملتصقة بالسلطة وكاملة الولاء لها، فالأمر أشبه بالحرب الحقيقية لكسر الوضع القديم وتثبيت الوضع الجديد، وهو ما لا يتأتى بغير الاستعانة بالأقليات والأجانب وتمكينها من مفاصل الحكم. وقد استطاع محمد علي تحقيق هذا في مصر بقدر هائل من القسوة والعنف وإخماد الثورات الشعبية بأشد الوسائل الحربية، وهذا مع أن مصر من الدول التي يسهل استقرار نظام الحكم فيها لطبيعتها الجغرافية والقبلية التي سمحت بوجود سلطة عامة وقبائل ضعيفة حتى عُدَّت أقدم سلطة مركزية في التاريخ. بينما أخفق محمد علي في ترسيخ هذه السلطة في الشام لكثير من العوامل من أبرزها: طبيعة الشام الجغرافية الوعرة وقبائلها القوية حيث أنتج هذا الوضع مقاومة أقوى، كذلك فقد كانت سلطة محمد علي في الشام أضعف منها في مصر، ثم طبيعة التعقيدات الدولية التي اختلفت في الشام واتفقت في مصر، هذا مع أن محمد علي حاول تقديم كل ما استطاع من استرضاء للقوى الأوروبية وفي مسائل هي من صميم التنازل عن مقدسات دينية حساسة، وفي النهاية كتبت نهايته في اتفاقية لندن (١٨٤٠م) بعد عشر سنوات من حكم الشام.

فيما يخص موضوع هذه الورقة فإن فترة حكم محمد علي الشام شهدت

Readonly

انقلابًا شاملًا في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وخلاصة هذا الانقلاب يتمثل في: رفع شأن الأجانب وتمكينهم مقابل خفض شأن الرعايا، ورفع شأن اليهود والنصارى وتمكينهم مقابل خفض شأن المسلمين. وهذه السياسة عبرت عنها سياسته منذ اللحظة الأولى لدخول جيوشه مدن الشام[١]، فبينما أهينت المساجد واستعمل بعضها كمنازل للعساكر جرت حركة نشاط واسعة لتعمير الكنس اليهودية والكنائس النصرانية وترميم القديم وإنشاء الجديد، وأتيحت مزايا واسعة للقناصل الأجانب الذين أسبغوا حمايتهم على النصارى واليهود الذين لم يقصروا أبدًا في استعمال هذه الحماية للحصول على مزايا كبرى بل وللسيطرة على أراضٍ أميرية ووقفية إسلامية، ورفعت ضرائب عن اليهود والنصارى وكنائسهم وأديرتهم مقابل فرض ضرائب جديدة على المسلمين، وتدفق الحجاج من اليهود والنصارى حتى تغيرت خريطة السكان في بيت المقدس فارتفعت نسبة اليهود ثم النصارى ارتفاعًا كبيرًا مقارنة بانخفاض نسبة المسلمين فيها[٢]، وفتحت الأماكن الإسلامية المقدسة

---

(١) منذ وقت مبكر نجد وثيقة هي تقرير من يهودي شامي إلى محمد علي بتاريخ ١٩ محرم ١٢٣٨هـ (٦ أكتوبر ١٨٢٢م)، أي قبل دخوله الشام بتسع سنوات، يخبره بأحوال الشام وبغداد وإيران. وهو أمر مثير للتساؤل والشك عن مدى العلاقة التي تجعل يهوديًا شاميًا يرفع تقارير لمحمد علي، وعن مدى قدرة اليهودي الواحد على جمع أخبار من الشام وبغداد وإيران، وهو ما يطرح فكرة أنه ليس مجرد فرد متطوع بل جزءًا من عمل أكبر!

انظر الوثيقة عند: د. أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية: بيان بوثائق الشام وما يساعد على فهمها ويوضح مقاصد محمد علي الكبير**، (بيروت: الجامعة الأمريكية، ١٩٤٠م)، ١/ ٤٤، ٤٥.

(٢) طبقًا لإحصائية غربية فقد بلغ تعداد سكانها في العام (١٨٥٠م): ٥٣٥ مسلمون، ٣٦٥٠ مسيحيون، ٦٠٠٠ يهود. انظر: كارين أرمسترونج، **القدس: مدينة واحدة عقائد ثلاث**، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، (القاهرة: سطور، ١٩٩٨م)، ص٥٦٧.

Readonly

لسياحة الأجانب تحت حراسة السلطة، وعُيِّن نصراني في موقع المسؤول المالي ورُفِع شأنه، واستقبل قنصل الإنجليز في دمشق بموكب حافل وكان من قبل ممنوعًا من دخولها أصلًا باعتبارها أرضًا مباركة ممنوعة على الأجانب، وبينما كانت تنزل العقوبات القاسية بالمسلمين كانت ترفع عن النصارى واليهود، واضطر أعيان المسلمين للدخول تحت حماية اليهود والنصارى والقناصل للنجاة من الإذلال، ونزع السلاح من الأهالي المسلمين فحسب دون اليهود والنصارى، ولذلك كانت ثورات الشاميين تنتقم من عسكر محمد علي ومن اليهود والنصارى معًا. كذلك فإن أول قنصلية أجنبية نشأت في القدس كانت في ذلك العهد، وأول محاولة استيلاء يهودية على جزء من حائط البراق كانت في ذلك العهد، والواقع أنه يمكننا القول بأن بذور تأسيس إسرائيل إنما وضعت في هذا العهد، بل ولولا أن مشروع حكم الشام انتهى بعد عشر سنوات لتوقعنا أن تنشأ إسرائيل في الأرض المقدسة قبل نشأتها بنصف قرن على الأقل[1].

الأوقاف كنقيض بين النظام الإسلامي والدولة الحديثة

تقتصر مهمات السلطة في النظام الإسلامي على ملفي الأمن والدفاع وما يتعلق بهما، ومهمتها أشبه ما تكون بمهمة الحراسة التي تعمل لمنع وقوع التظالم والانحرافات في بقية المجالات، ومن هنا كانت للأمة في النظام الإسلامي مساحة

---

(١) للمزيد انظر: محمد إلهامي، **التأسيس للنفوذ الأجنبي في بيت المقدس في عهد محمد علي باشا الكبير**، ورقة بحثية في المؤتمر الأكاديمي السادس عشر «العثمانيون وبيت المقدس»، ديسمبر ٢٠١٦م؛ وانظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ: الجزء الأول**، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٧م)، ص١١٧ وما بعدها.

Readonly

واسعة للفعل والتأثير والحركة والنشاط. بينما في نظام الدولة الحديثة تسيطر السلطة على كل نشاط يقع داخل حدود الدولة، فهي تراقب كل حركة بشرية أو مالية وتعطي التصاريح لكل نشاط اقتصادي أو اجتماعي، ومساحة الحرية الممنوحة للناس هي المساحة التي تسمح بها السلطة، وقد وُصِفت الدولة الحديثة عن حق بأنها «الدولة التنين» وبأنها «الحلول الإلهي على الأرض» وبأنها «قائمة لذاتها».

تمثل الأوقاف مساحة تناقض بين النظامين، فهي مساحة تمويل الأمة لأنشطتها، فإذا أوقف المرء دخل مورد على وجه من الوجوه خرج هذا المورد ودخله من ملكه وصار ملكًا لله ويمتنع أن يُصرف من دخله في وجه آخر غير الوجه المخصص له، ولا تستطيع الدولة أن تحوز مال الأوقاف ولا أن تتصرف فيها، وقد تطور الوقف مع تقدم التاريخ الإسلامي حتى صارت الأوقاف هي أغلب الأرض أو نصفها أو ثلثها بحسب البلدان، مما يعني أن أنشطة الأمة كانت تمول ذاتيًا، وهو ما حافظ على بقاء وازدهار حركة العلم والحضارة حتى في ظل ضعف السلطة السياسية. هذا الوضع يمثل أزمة لنظام الدولة الحديثة الذي يحتاج إلى السيطرة على الموارد والتصرف فيها بحسب خطة الدولة الاقتصادية، ولا يستطيع نظام كهذا أن يحكم ولا أن يترسخ في مساحة يفقد فيها أغلب مواردها بل لا يستطيع أن يغير وجوه صرفها.

وقد مثلت حرمة الأوقاف ومكانتها حماية شرعية لها فقد احتاج بعض السلاطين في أوقات معينة أموالًا ففكروا في الاستيلاء على أموال الأوقاف لتمويل حرب أو نحوه فلم يستطيعوا، كالظاهر بيبرس ـ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وقت حاجته للمزيد من النفقة لمواجهة المغول والصليبيين ـ فتصدى له النووي وجمع العلماء حتى ردَّه عن ذلك، والظاهر برقوق ـ في أواخر القرن التاسع الهجري، ليستعيد لبيت المال الخاوي ما احتال الأمراء على وقفه تحصينًا لأموالهم

Readonly

ـ فتصدى له البلقيني وابن جماعة وأكمل الدين وكان أقصى ما سمحوا له ما وُقِف على الأبناء ومنعوا عنه ما وُقِف للخير العام، وحاول ذلك والي مصر العثماني إبراهيم باشا القبودان (١١٢١هـ ـ ١٧٠٩م) فتصدى له علماء المذاهب الأربعة، فبقيت الأوقاف على ما هي عليه، بل وعجز السلطان العثماني نفسه (١١٤٨هـ ـ ١٧٣٥م) عن مثل ذلك، ولئن أفلح الأمراء في التحايل على الاستيلاء على أموال الوقف إلا أن ذلك من الفساد الإجرائي الذي كان يمكن إصلاحه في كل وقت[١]. وهذا الذي فشل فيه كل أولئك استطاع أن ينجح فيه محمد علي مع سياسة التدمير العام لمكانة العلماء على الجملة والاطراح العام لأمر الشريعة، فاستولى على أموال الوقف متعهدًا بأن الدولة سترعى أمر المساجد وتنفق عليها وعلى غيرها من وجوه الوقف، يروي الشيخ محمد عبده عن سياسة محمد علي: «أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى فائض رزنامه لا يساوي جزءًا من الألف من إيراده. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم[٢] لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة»[٣]! وبهذا، انهارت قدرة الأمة بقدر ما ترسخت قدرة السلطة المتسلحة بالقوة وبالدعم الأجنبي وبحكم الأقليات.

---

(١) انظر: محمد أبو زهرة، **محاضرات في الوقف**، (القاهرة: معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٩م)، ص٢٠ وما بعدها؛ د. محمد عمارة، **هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف**، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م)، ص١٢١، ١٢٢.

(٢) ربيع الأول ١٣٢٠هـ ـ يونيو ١٩٠٢م.

(٣) مقال الأستاذ الإمام محمد عبده، «**آثار محمد علي في مصر**»، مجلة المنار ٥/ ١٧٥ وما بعدها؛ محمد عبده: **الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام**، تحقيق: د. محمد عمارة، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٣م)، ١/ ٨٥١ وما بعدها.

Readonly

وهذا التناقض لم يكن خافيًا على من أسسوا إسرائيل، بل لقد «كان البريطانيون على دراية واسعة بأهمية الوقف، فأصدروا عدة قرارات بشأن تنظيم الأراضي والحد من آليات الاستفادة من الأوقاف. فعلى سبيل المثال طلب وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزون استشارة رئيس المنظمة الصهيونية حاييم وايزمان بخصوص القانون المقترح بشأن الأراضي في فلسطين، فكان رد الأخير على أهمية إيقاف أي إنشاء لأوقاف جديدة، وذلك لكي يكون للحكومة دور أكبر في السيطرة على الأراضي المنتشرة والشاسعة، وأن يكون لليهود كأفراد دور في الاستيطان وشراء الأراضي. وقد أخذت سلطات الاحتلال البريطاني بهذا الرأي في ١٣/ ٩/ ١٩١٩ كما جاء في تقرير الكولونيل فرنش وما جاء في كلام السيد غاربت الذي قال: «إن المنشور يجب أن لا يتضمن ترتيبات لأراضي الأوقاف، وهي المسألة التي قد تؤخر إنشاء حكومة فلسطين المستقبلية دون عناء». وفي سنة ١٩٢٠ صدر قانون انتقال الأراضي، والذي أشار في أحد بنوده إلى إيقاف إنشاء أوقاف جديدة»، وفيما بعد صدرت ـ في أعوام ١٩٢٥، ١٩٢٦ ـ القوانين التي تشرع نزع الأراضي لصالح المجهود الحربي والمنفعة العامة ولو كانت وقفية، وذلك «لما توجس اليهود من أن تكون الأوقاف عاملًا أساسيًّا في بقاء الأراضي والعقارات في أيدي العرب»[١].

ويعد فهم طبيعة الأوقاف وموقعها كمساحة تناقض بين النظامين الإسلامي والغربي أساسًا في فهم وتحليل سياسة حكم محمد علي في الشام وتجاه الأوقاف في بيت المقدس.

---

(١) د. سامي الصلاحات، **مؤسسات الوقف في القدس: النشأة والتطور**، ضمن: د. محسن صالح (تحرير)، **دراسات في التراث الثقافي لمدينة القدس**، ط١ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠١٠م)، ص٢٢٧، ٢٢٨، وهو ينقل عن: عبلة المهتدي، **أوقاف القدس في زمن الانتداب البريطاني**، ص٦٣، ٦٧.

Readonly

سياسة محمد علي تجاه الأوقاف الإسلامية

لأن الوقف كان عادة جارية مضطردة ومستمرة في التاريخ الإسلامي، ولأن فلسطين وبيت المقدس أرض مقدسة فإنَّ الأوقاف تعددت وتنوعت وزادت مع الوقت فيها وعليها، فإذا «كانت فلسطين تشكل نموذجًا إسلاميًا عريقًا في تعدد أوقافها وتنوعها بين جموع الدول العربية والإسلامية، فإن مدينة القدس هي الأخرى تعد اللؤلؤة الوقفية من بين مدن فلسطين وقراها، إذ تحتضن مدينة القدس أكثر من مئتي أثر وتراث إسلامي.. أقيمت منذ عشرات أو مئات السنوات، ومنها ما يصل إلى عصر النبوة الشريفة. بل يمكن القول إن المدينة المقدسة هي مثال المدينة الوقفية في العالم»[١].

من هنا فإن أي تغيير في أوضاع بيت المقدس يؤثر مباشرة على أوقافها، وهو ما لم يتردد حكم محمد علي في فعله، فقد انطلق في حصر أموال الأوقاف وأملاكها لتحوز الخزينة موارد ما أمكن منها، وفرض الضرائب على ما لم يستطع حيازته، مقابل التعهد بأن تتولى الحكومة الإنفاق على وجوه هذه الأوقاف كتعمير المساجد ودفع الأجرة للقراء ونحو ذلك.

لقد «فُتِّش على كل مورد حتى أوقاف الحرمين الشريفين تقرر تحصيل ما يخص الحكومة من ريعها، أيضًا ألزمت الأملاك الموقوفة بدفع الأموال الأميرية، وكان ذلك جديدًا على الأهالي»[٢]، وجاء النص على النحو التالي:

---

(١) د. سامي الصلاحات، **مؤسسات الوقف في القدس**، ضمن: **دراسات في التاريخ الثقافي لمدينة القدس**، ص٢١٩.

(٢) د. لطيفة سالم، **الحكم المصري في الشام: ١٨٣١ ـ ١٨٤١م**، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٠م)، ص١١٦. وهي تنقل عن: تقرير بتاريخ ١٨ ربيع الأول ١٢٤٨هـ(١٥ أغسطس ١٨٣٢م).

Readonly

«إنه حيث سابقًا توجه تحرير لمنيب أفندي ديوان أفنديس وكيل أوردي عكا المنصور أن يحرر لمتسلم القدس الشريف عن **تحصيل مال وقف الحرمين والسادات المصريين المطلوب من القدس الشريف حيث عايدات هذه الأوقاف المذكورة انضمت إلى الخزينة العامرة**، فالآن حضر الجواب من منيب أفندي بأن حرر لمتسلم القدس عن ذلك، وحضر له الجواب منه أن العادة تحضر لهم وصولات بذلك من متولين الوقف ثم يعطى مال الوقف، وطالب من قيمقام بك وصولات من متولي الوقف بأن يرسلها له لكي يرسلها للقدس ويحضر المطلوب عنها فحرر له قيمقام بك أن كما عرفه سابقًا بأن **عايدات هذه الأوقاف صارت مضمونة للخزينة وارتفعت يد المتولي**، وحيث إن متسلم القدس مراده وصولًا لذلك، فحرر فيمقام بك وصولات ممهورًا وأرسله لمنيب أفندي طي تحريره ليرسله للقدس وعَرَّفَه أن يُعَرِّف متسلم القدس بأنه إذا كان مقتضى وصولات متفرقة بشأن ذلك بالقدس فيكفي متسلم القدس بأصول في مقامبك ويعطي من يده وصولات للأفراد **ويستلم المبلغ ويرسله عن يد منيب أفندي لخزينة الشام**»[١].

وجاء في رسالة من إبراهيم باشا إلى يحيى بك متسلم القدس بتاريخ ١٣ رجب ١٢٤٧ (١٨ ديسمبر ١٨٣١م) أن الإنفاق على دراويش التكية المولوية وفقرائها يخرج من الخزينة، وهذا نص رسالته: «حيث إن مرتب إلى دراويش وفقراء تكية المولوية بالقدس الشريف [كل] يوم رطل ونصف غنم وثلاث أرطال خبز من خزينة القدس الشريف فَتُجْرُوا لهم ذلك يومي كما كان جاري بالمدة السابقة»[٢].

---

(١) د. مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م)، ص١١٩، ١٢٠.

(٢) أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، (بيروت: الجامعة الأمريكية، ١٩٣١م)، ١/ ٩٥.

Readonly

وفي بيت المقدس «دفعت الحكومة من خزينتها ٣٠٠٠٠ قرش لتعمير وإصلاح قبة المسجد الأقصى، وأبطلت «أجرة الغفر المقررة على قراءة القرآن في باب القيامة»، وأجريت الإكراميات التي كانت تصرف فيما سبق والخاصة بِخُدَّام مقامات الأنبياء»[١].

وقد كان فرض أموال على الأوقاف لصالح الخزينة في بداية الأمر دافعًا لمحاولة البعض أخذها على طريقة الالتزام، فتكشف رسالة إبراهيم باشا إلى أعيان بيت المقدس بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٠هـ (٣ أكتوبر ١٨٣٤م) أن بعضهم تطلع لإدارة وقف الخليل ببيت المقدس على طريقة الالتزام، تقول الرسالة: «تحيطون علمًا أنه من المعلوم وقف سيدنا الخليل ترتب عليه عشرين ألف غرش لخزينة الوالي بالمدة السابقة والآن جملة أناس متقدمين إلى الوقف المذكور ودافعين عنه إلى الخزينة خمسة وثلاثون ألف غرش وزيادة أيضًا، ولكن من حيث أن تحقق لدينا أن مزاحمت الراغبين لتوليت الوقف المذكور ليس لأجل صيانت بل لأجل الوكل والبلع فقط»[٢].

ويبدو أن إبراهيم باشا شعر من هذه العروض بأن إيرادات الوقف أعظم من أن يفرض عليها مبلغ عشرين ألفًا فقط، لذا فقد قرر أن تكون إدارة الوقف تابعة للسلطة مباشرة، ومن ثَمَّ فقد رفض هذه العروض المغرية ونَظَّم طريقة إدارة الوقف بحيث تكون المحكمة ومجلس مدينة يافا مطلعتان على كافة تفاصيل موارد الوقف وإجراءات إدارته، وألغى العشرين ألف قرش التي كان يأخذها على الوقف ليصير الوقف عمليًا تحت إدارة رجل تابع للحكومة وجهازها، فصدر قراره يقول:

---

(١) د. لطيفة سالم، **الحكم المصري**، ص٢٤٦.

(٢) د. أسد رستم، **الأصول العربية**، ٢/ ١٣٩.

Readonly

«اقتضت إرادتنا بأن يكون تحصيل إرادت الوقف على ذمة الوقف وتصرف مرتباته حسب شروطه بكل ضبط وتوفيق وحيث يلزم لذلك رجل أمين وصادق وقد أحضر لدينا أن السيد محمود المهتدي أحد التجار بالقدس أنه رجل أمين فاقتضت إرادتنا بأن يحال تولية الوقف المذكور إلى المومى إليه، ولكن من كون أنه رجل تاجر ويتعاطى الأسباب فإذا أشغل بأشغال الوقف من إعطا ضمانات وقطع فصايل وتحصيلات بالقدس وغزة ويافا فلا يبقى له وقت لإرادات أشغال تجارته ويحصل له غدر بهذا الخصوص فاقتضت إرادتنا أن إشغال الوقف المذكور بالقدس الشريف والخليل مثل إعطا ضمانات وقطع فصايل فهذا يصير بمعرفة المخاطبين بالمحكمة، والمال الذي يصير الحالي عليه يُعطى علمه إلى المتولي المذكور الذي يقيده عنده بمعرفة كتاب الوقف، والتحصيل يصير بمساعدة المتسلم وكذلك الإيراد العائدة إلى الوقف [في] سنجاغة غزة ويافا تحال إلى مجلس يافا والذي يعمل بمعرفة المجلس يحضر به خلاصة إلى المتولي والمتسلمين يجتهدوا بالتحصيل وإرسال الدراهم إلى المومى إليه وهو عليه ضبط الإيراد والمصرف بكل دقة، وفي آخر السنة يقدم دفتر ايرادات ومصرف»[1].

لكن أخطر ما تعرضت له الأوقاف الإسلامية في هذا العهد هو ما كان ناتجًا عن سياسة رفع شأن اليهود والنصارى فوق المسلمين ورفع شأن الأجانب فوق الرعايا، فقد أغرت هذه المزايا بما لم يكن يخطر ببالهم من قبلها، فقد طلب وكيل طائفة السكناج (اليهود الغربيون) بالقدس الترخيص «لهم بمشترى الأملاك وأراضي الزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار،

(١) د. أسد رستم، **الأصول العربية**، ٢/ ١٣٩، ١٤٠.

Readonly

وتعاطي مَصَابِن ومعاصر[١] بناء يدفعوا المرتب للميري مثل الرعايا، هذا مضمون استعلامهم» وأرفق بهذا الطلب رأي مجلس شورى القدس الذي يرفض الموافقة على هذا المطالبات التي «ما سبق لها أمثال» والتي هي تصرف في أراضي «ميرية ووقفية، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة»[٢].

وحيث كان أهل الذمة «يُسَمُّون في المكاتبات الرسمية بأنهم (حماية الإفرنج) فإنهم لم يكن ليترددوا تحت أي ظرف من اهتبال الفرصة للاستيلاء على الاقتصاد الوطني بهذه التسمية واستغلال ما يرخص لهم بشكل طبيعي. الأكثر من هذا أنهم كانوا يغلون في هذا حتى أن تقرير أحد المسؤولين المسلمين في القدس (راغب أفندي) لاحظ أنهم يحاولون أن يستولوا على كل شيء ويقولون (نحن إفرنج).. وعلى هذا النحو تشير المكاتبات المتتابعة»[٣].

وبعد دراسة في وثائق الأوقاف ذكر د. مصطفى عبد الغني «أن الوثائق زخرت بالعديد من مواقف اليهود المشينة، خاصة أولئك اليهود الآتين من الغرب، حيث لم يتوقفوا قط عن محاولة البحث عن استغلال للأوقاف الإسلامية أو شراء مساحات من الأراضي لتحويلها إلى ملكية يهودية على حساب الأوقاف الإسلامية»[٤].

وكانت أبرز هذه المحاولات وأشدها هو طمع اليهود في الاستيلاء على حائط البراق من المسجد الأقصى مع أن هذا الموضع كان وقفًا إسلاميًّا، وأعانهم على هذا القناصل، فقد احتفظت لنا السجلات بوثيقة تتضمن شكوى شيخ المغاربة في بيت

---

(١) جمع مصبنة من صناعة الصابون ومعصرة.

(٢) أسد رستم، **الأصول العربية**، ٣/ ٦٥، ٦٦. (وثيقة بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٥٣هـ).

(٣) د. مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، ١٢٣.

(٤) د. مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، ص١٢٠.

Readonly

المقدس إلى إسماعيل عاصم حكمدار حلب من أن اليهود ما زالوا يتعاظم أمرهم ويزيدون في الإيذاء عند حائط البراق، فمن بعد ما كانوا يزورون الحائط زيارة عادية هادئة صارت تتعالى أصواتهم وتتكاثر أعدادهم ويزيدون طقوسهم حتى كأنه صار كنيسًا لهم، ثم أرادوا أن يُبَلِّطوا الأرض التي أمام الحائط، وهو أمر جديد لم يسبق لهم أن تجرأوا عليه، ثم إنه **سيؤدي إلى إغلاق طريق مؤدٍ إلى وقف أبي مدين الغوث وهذا الموضع هو ضمن حدود هذا الوقف**، وقد دُعِمت شكوى شيخ المغاربة بقرار من «مجلس شورى القدس» الذي أوصى بمنع اليهود من إحداث شيء جديد في ذلك الموقع، ومن ثَمَّ قرر إسماعيل عاصم منع اليهود من إحداث شيء جديد، لكن ما لبث أن جاء أمر من القنصل الإنجليزي إلى متسلم القدس بأن يسمح لليهود بما أرادوا بدعوى أن أحد اليهود كان قد نذر نذرًا إن حدث له شيء أن يُبَلِّط زقاق البراق هذا، فأصدر متسلم القدس أمرًا بالسماح، ثم اعترض مجلس شورى القدس إذ ليس لأحد أن ينذر أن يعمِّر شيئًا ليس ملكًا له ولا هو تابع لطائفته اليهود **فضلًا عن وقوعه ضمن حدود وقف أبي مدين الغوث ويترتب عليه ضرر على جهة الوقف**، فرُفِع الأمر لإبراهيم باشا الذي رفعه بدوره إلى حسين باشا (رئيس ديوان محمد علي)[1]!

أي أن رغبة يهودي واحد في تبليط زقاق حائط البراق والإضرار بوقف إسلامي وصناعة أوضاع جديدة في المدينة المقدسة كانت تُرفع ليفصل فيها محمد علي بنفسه! فلا يستطيع أن يفصل فيها مجلس شورى القدس ولا حكمدار حلب إسماعيل عاصم، ولا حاكم عام الشام محمد شريف باشا ولا حتى إبراهيم باشا، وهذا كافٍ بحد ذاته في إثبات عظم النفوذ الذي تمتع به اليهود والأجانب في تلك

---

(١) د. أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٤/ ٢٩٤ وما بعدها، (رقم الوثيقة ٦٢٠٥ بتاريخ ٤ محرم ١٢٥٦هـ).

Readonly

الفترة، وهو يشير أيضًا إلى عدد غير محصور من المواقف التي ظُلِم فيها مسلمون ورعايا لم يكن أمر مظلمتهم بخطورة الاستيلاء على وقف ملاصق للمسجد الأقصى الشريف!

وفي النهاية انتصرت رغبة اليهودي، «وأصبحَ فناءٌ مُبَلَّطٌ ضيقٌ بجانب الحائط الغربي من الحرم الشريف ـ وهو مقدس عند المسلمين واليهود معًا ـ نقطةً لمركز لصراع عميق بين المجتمعيْن والديانتيْن أدى إلى أعمال شغب وقتل»[١]، ذلك «أن اليهود كثيرًا ما كانوا ينتهكون المناطق الإسلامية وخاصة مناطق الوقف منها ليفرضوا وجودهم بعنف أمام الحائط مما أسهم في كثير من الاضطرابات بين اليهود الآتين من الخارج، والذين يحملون الحماية البريطانية أو الغربية وبين المسلمين»[٢].

---

(١) د. مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، ص١٢٥، وهو ينقل عن وثائق تركية ومصرية لم يتسن لي الاطلاع عليها. وفي مسألة موقف محمد علي النهائي من قبول طلب اليهودي أو رفضه اضطراب لدى المؤرخين، ففي حين نقل مصطفى عبد الغني هذه الفقرة التي تؤكد حصول رغبة اليهودي بتبليط المنطقة مما أدى إلى نزاعات، فإنه هو نفسه قبلها بصفحات نقل أن محمد علي رفض هذا (انظر: **الأوقاف على القدس**، ص٦٦، ٦٩)، وكذلك نقلت زبيدة عطا رفض محمد علي لهذا الطلب دون أن تعزو لمصدر. (انظر: زبيدة عطا، **عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية**، ط١ (القاهرة: عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٧م)، ص١٥).

ومردُّ هذا الاضطراب إلى عدم التوثيق الدقيق للقرارات، فعند أسد رستم تشمل محفظة الموضوع رسالة شيخ المغاربة المرفقة بتوصية مجلس شورى القدس ورفعها إلى حكمدار حلب ثم رد الأخير ثم كتاب القنصل ثم رفع الأمر لإبراهيم باشا ثم رفعه من إبراهيم لحسين باشا، ولا يوجد شيء عن القرار النهائي لمحمد علي في الموضوع. فلعل حسن ظنهم بمحمد علي وعدم اطلاعهم على مجمل مشروعه وسياسته أفضى بهم إلى الظن بأنه رفض، أو لعلهم اطلعوا على شيء ولم يوثقوا النقل عنه مما تعذر التأكد منه.

(٢) د. مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، ص١٢٥.

Readonly

سياسة محمد علي تجاه الأوقاف اليهودية والمسيحية

يبدو واضحًا حجم الاهتمام بالأوقاف الإسلامية تجاه الأوقاف اليهودية والمسيحية من حجم المساحة التي تناولت فيها د. لطيفة سالم هذا الموضوع ضمن دراستها الوثائقية الممتازة، وهي رغم كونها من أنصار حكم محمد علي إلا أنها لم تستطع مضادة ما في الوثائق وإن اجتهدت في تأويلها والتكلف لهذا كثيرًا[١]. لقد شغل الحديث عن الشؤون الدينية الإسلامية أقل من ثلاث صفحات بينما استغرق الحديث عن الشؤون الدينية لأهل الذمة سبعة عشر صفحة فضلًا عن عشر صفحات أخرى عن صلاحيات القناصل الأجانب[٢]. وأدنى نظر موضوعي في هذه الإجراءات تدل على أن تصرف سلطة محمد علي لا تختلف أبدًا عن تصرف أي سلطة احتلال غربي للشام.

من أبرز ما يدل على التوجه العام لإدارة محمد علي أن إبراهيم باشا كان قد استولى إبراهيم باشا على بيت المقدس يوم ٣ رجب ١٢٤٧هـ (٨ ديسمبر ١٨٣١م)، ومع هذا فإننا نجد وثيقة مؤرخة بـ«أوائل رجب» فيها تصريح من قاضي بيت المقدس إلى حاخام اليهود بترميم كنيس اليهود في بيت المقدس، أي أن ترميم معابد اليهود كان أولوية أولى لدى إبراهيم سابقة حتى على تمكين سلطته في باقي أنحاء الشام، إذ

---

(١) وهو سمت مؤسف لدى المؤرخين المصريين والشاميين المتأثرين بحقبة محمد علي، وهو في جوهره تأثر بنمط ونموذج العلمانية والحداثة، إذ يوردون الأدلة ويفتشون في الوثائق ثم يتكلفون التأويل والتفسير لتؤدي إلى عكس مقصودها، فإن أعجزهم هذا التمسوا المبررات والمعاذير، ولذا يظهر كثيرًا التناقض والاضطراب في مواقفهم، إلا أنَّ رصد هذا خارج عن نطاق بحثنا هذا.

(٢) الشؤون الدينية الإسلامية: ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧، الشؤون الدينية لأهل الذمة ٢٤٧ ـ ٢٦٣، القناصل والأجانب: ص٢٦٣ ـ ٢٧٢.

Readonly

لم تكن عكا قد سقطت أمامه بعد، وهي في ذلك الوقت عاصمة الإقليم ومركز قوته، وفيها الجزار باشا وجيشه[١].

لقد انتعش وضع اليهود والنصارى الأجانب وغير الأجانب، وقد أعيد ترميم وبناء كُنُسٍ جديدة، بلغ عددها تسعة معابد لليهود وصفتها وثيقة بأنها «أُنْشِأت من جديد بالقدس»[٢]، وهذا أمر «لم يُعهد له نظير في الإمبراطورية العثمانية أن يُمنح المسيحيون الحرية لتجديد معابدهم وأديرتهم في كل مكان، وحتى لبناء الجديد منها دون أن يشتروا شهادات من المحكمة الإسلامية (إعلامًا) بضرورة أعمال التصليح والبناء ولا إذنًا من السلطات المحلية»[٣]، وقد وقع الخلاف أحيانًا بين اليهود أنفسهم حول بناء معابد جديدة أم استثمار الأماكن في بناء مساكن لاستيعاب اليهود المهاجرين المتدفقين الذين لا يجدون مأوى لهم[٤]. بمعنى أن بيت المقدس عانى يومذاك من فائض في المعابد اليهودية وفائض في الهجرة اليهودية.

وسعت سلطة محمد علي إلى إلغاء الضرائب والعوائد التي كانت تؤخذ من الكنائس والأديرة أو من الحجاج النصارى واليهود إلى القدس، وتحملت هي

---

(١) انظر الوثيقة عند: د. أسد رستم، **المحفوظات الملكية**، ١/ ١٣٦، (وثيقة رقم ٣٦٤).

(٢) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٤/ ٢٩٦ وما بعدها، (وثيقة رقم ٦٢٠٦ بتاريخ بتاريخ ٤ محرم ١٢٥٦هـ)، ٤/ ٣٨٥ (وثيقة رقم ٦٣٤١ بتاريخ ١٦ ربيع الآخر ١٢٥٦هـ).

(٣) قسطنطين بازيلي، **سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني**، ترجمة: طارق معصراني، (موسكو: دار التقدم، ١٩٨٩م)، ص١٦٢. وينبغي لفت النظر إلى ما أشار إليه المؤلف نفسه من أن التقييدات القانونية إنما كانت في حالة تشابك القضية بين المقدسات الإسلامية والمسيحية واليهودية خصوصًا في بيت المقدس، أما ما كان شأنًا داخليًا بين أهل الدين الواحد فلم يكن يحتاج لهذه التقييدات.

(٤) كارين أرمسترونج، **القدس**، ص٥٦٤.

Readonly

تعويض المنتفعين من هذه العوائد، ففي وثيقة بتاريخ غرة ربيع الأول ١٢٤٨هـ (٢٩ يوليو ١٨٣٢م)، وافق محمد علي باشا على تخصيص مرتبات سنوية لأصحاب «العوائد» بدلا عما كانوا يستوفونه من إيراد الكنائس، ذلك أن جزءًا من هذه الضرائب كان يُموَّل منه والي بيت المقدس وقاضيها وأعيانها[١].

وفي ذلك العهد استوفت الطوائف المسيحية ما أرادت من تعمير وتجديد الكنائس والأديرة حتى أنهم أثاروا القضايا التي كانت من قبل عهده، فقد طالبوا باستعادة مكان كانوا يقيمون فيه شعائرهم ببيت المقدس وبيوت تخص وقف كنيستهم بعكا قالوا بأنها أُخِذت منهم في عهد الجزار، وقالوا بأن عبد الله باشا هدم كنيسة تتبع الدير بجبل الكرمل وأقام مكانها منتزهًا لنفسه، وفتحت سلطة محمد علي هذه الملفات ونُظِر فيها، فبعضها أعيد لهم وبعضها لم تورد المصادر التي بين أيدينا مصيرها[٢].

أما أكثر إجراء إثارة للدهشة فهو توجيه محمد علي إلى بناء محجر صحي في يافا للحجاج الروم القادمين إلى بيت المقدس، ثم وجه إلى شريف باشا بوجوب تقديم المساعدات الإدارية اللازمة لمدير الحجر الصحي، وجعل ما يدفعه أولئك الحجاج تحت تصرف رهبان الروم والأرمن[٣]، أي أن هذا بمثابة إنشاء وقف من قبل السلطة على حجاج أهل الذمة لبيت المقدس! وذلك أمر لا يتسق أبدًا مع سياسة رجل يؤسس دولة حديثة ويعتمد نظامًا اقتصاديًّا احتكاريًا!

---

(١) د. أسد رستم، **المحفوظات الملكية**، ٢/ ٥٨؛ د. لطيفة سالم، **الحكم المصري**، ص٢٤٨.

(٢) د. لطيفة سالم، **الحكم المصري**، ص٢٥٠ وما بعدها.

(٣) أسد رستم، **المحفوظات الملكية المصرية**، ٣/ ١٣٤. (وثيقة رقم ٤٦٣٧ بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٢٥٢هـ ـ ١ يونيو ١٨٣٦م)

Readonly

مثل هذه الإجراءات لا يمكن تفسيرها بأي معيار ينظر إلى سياسة محمد علي كسياسة مستقلة تحديثية، لذلك فحتى المؤرخون المعجبون بمحمد علي لم يملكوا بعد كل المجهود في التبرير والاعتذار إلا الاعتراف بأثر النفوذ الأجنبي، تقول د. لطيفة سالم: «ومن الجدير بالذكر أن تلك العلاقة التي ربطت بين والي مصر والفرنسيين لها أثرها في هذا الأمر، ففرنسا تعتبر نفسها حامية للكاثوليك وبالتالي فهي مسؤولة عن أمانهم، ولم تكن تستطيع أن تقدم على ذلك قبل الحكم المصري، ولكن معه وجدت فيه نوال مقاصدها حتى إنه في الأمرين السابقين (رفع الضرائب عن حجاج وزوار القدس النصارى، وإعفاء كنائس وأديرة الطوائف المسيحية من الضرائب التي تدفعها) هناك إشارة إلى مساعي قنصل فرنسا في بيروت تجاه «حفظ وصيانة الأديرة الموجودة بنواحي القدس والناصرة والكرمل التي هي تحت حماية الفرنساويين»، هذا من ناحية، والرغبة التي حملها الحكم الجديد لتنفيذ المبادئ التي وضعها حتَّمَتْ عليه اتباع تلك السياسة»[1].

لقد كانت حاجة الأديرة والكنائس تُفَضَّل وتُقَدَّم على حاجة السلطة نفسها، ومن ذلك أنه لما اشتكى رئيس دير الأرمن بيافا ـ الواقعة ضمن إقليم بيت المقدس ـ من أنَّ الدير يتعرض لبعض «المضايقات لنزول المسافرين فيه تحرر على الفور لمتسلم يافا بمنع هذا الأمر، وكان ذلك الدير يمتلك محلات ويجري تأجيرها فلما عصى بعض المستأجرين في دفع الإيجار ورفضوا تركها كُتِب إلى المتسلم لمساعدة رئيس الدير في إنهاء الدفع بما يرضيه أو الخروج من المحلات، ومما

(١) د. لطيفة سالم، **الحكم المصري**، ص٢٤٨. والعبارة الأخيرة هي من جملة تأويلات وتبريرات المؤرخة لسياسة محمد علي باعتبار أنها قائمة على مبادئ المساواة والحرية والمواطنة!

Readonly

يُذكر أن من بينها ما هو مؤجر للميري مثل ديوان المتسلم ومخازن غلال الأنبار، فتمت محاسبة رئيس الدير عن إيجاراتهما»[١].

وبالجملة فقد شهد وضع الأجانب وغير المسلمين صعودًا قويًا وغير متوقع من جراء الإجراءات المتعددة سياسيًّا واقتصاديًّا وإداريًّا وقانونيًّا، وانتعشت أوضاع أوقافهم من الكنائس والبيع والأديرة وما يتعلق بها من الممتلكات الأخرى، ولا يزال هذا الموضوع لم يحظ بالعناية بالكافية في تتبعه لدى المؤرخين والباحثين في الوثائق.

على كل حال لم يختلف أحد في أن حكم محمد كان فتحًا كبيرًا على اليهود والنصارى، فما «تمتع به المسيحيون في تلك الفترة لم ينالوه قبل الحكم المصري ولا بعده»[٢]، إلا أن دولة محمد علي التي لا تزال قائمة حتى الآن باعتبارها محاولة استقلال قومي أنتجت معرفتها التي جعلت كثيرًا من المؤرخين رغم رصدهم لما وقع من سياسات يحملونها على أحسن الوجوه، فسائر ما وقع في تمكين الأقليات سيق على أنه «ذلك العطاء الفياض للحرية الدينية وتلك الحماية التي كللت بالأمان حتى إن أحد المعاصرين المسيحيين والمسجلين لأحداث الفترة يبين أن ما حدث في هذا الصدد لم يحصل منذ الأيام الأولى للإسلام (والغاية أن هذه الحرية لم صار مثلها من زمان الفتوح إلى الآن)[٣]، اتجهت السياسة المصرية لرفع الحيف

---

(١) د. لطيفة سالم، **الحكم المصري**، ص٢٥١.

(٢) د. لطيفة سالم، **الحكم المصري**، ص٢٥٦.

(٣) يبدو هنا واضحًا كيف أنها أخطأت الفهم، فعبارة الرجل تتحدث عن حرية لم تحصل أبدًا ولا في زمان الفتوح، بينما فهمتها هي على أن الحرية التي كانت في زمن الفتوح تكررت مع محمد علي! وشتان بين الفهمين، ففهمها يؤدي إلى أن محمد علي جدد سيرة الإسلام في الأقليات الدينية، بينما الصحيح أن محمد علي خرج عن سيرة الإسلام كلها بل كأنما هي سيرة محتل أجنبي يرفع من شأن الأقليات ويمكنهم ويخفض من شأن الأهالي ويكسرهم.

Readonly

والظلم عن المسيحيين في إطار الحياة العامة بعد أن أغدقت عليهم في مؤسساتهم الدينية»[١].

الخاتمة

تكتب هذه الورقة في ظل افتتاح السفارة الأمريكية الجديدة ببيت المقدس، وبهذه المناسبة نشير إلى أن فترة محمد علي قد شهدت هذه الفترة أول صعود للدور الأمريكي في بيت المقدس، وذلك أن قنصل أمريكا ـ ومقره يافا، كبقية القناصل ـ طلب أن يعين نائبًا عنه في القدس وأن يرفع العلم الأمريكي هناك[٢]، «والمراسلات بين ديوان دولة الباشا السر عسكر إلى سامي بك (من مصر) كانت تشير إلى هذا من واقع التقارير المستمرة التي كانت تأتي إلى مصر تحذر بكثرة من هذا الاتجاه.. وأكثر ما يُلاحظ على هذه الوثيقة أن أعدادًا غفيرة من المسؤولين وعلماء الدين ووكلاء مفتي القدس ومؤذني المسجد الأقصى والمفتي وغيرهم اهتموا كثيرًا بالتوقيع بأختامهم على مثل هذه التقارير التي ترصد الدور الأمريكي منذ فترة مبكرة»[٣].

لقد انتهى حكم محمد علي للشام لأن طبيعة القوى الدولية كانت أكبر منه، وانحسرت دولة محمد علي لتبقى في مصر والسودان بعد توقيعه الاتفاقية المذلة (لندن ١٨٤٠م) التي جعلته يرتد إلى الضعف ويسرّح بنفسه أكثر الجيش، وكذلك فقد ضعفت الدولة العثمانية التي وإن استردت الشام رسميًّا إلا أنها لم تستطع أن

---

(١) د. لطيفة سالم، **الحكم المصري**، ص٢٥٣.

(٢) د. أسد رستم، **المحفوظات الملكية**، ٢/ ٣٤٩. (وثيقة رقم ـ بتاريخ ٢٩ ربيع الأول ١٢٤٩هـ ـ ١٧ أغسطس ١٨٣٣م).

(٣) د. مصطفى عبد الغني، **الأوقاف على القدس**، ص٦٩.

Readonly

تزيل آثار النفوذ الأجنبي الذي صنعه حكم محمد علي، بل انتشرت القنصليات واستمر تدفق المهاجرين من اليهود والنصارى، وهو الأمر الذي انتهى باحتلال مصر (١٨٨٢م) ثم بيت المقدس (١٩١٧م) بنفس الطريقة ونفس المدى الزمني تقريبًا لصعود محمد علي واستيلائه على مصر ثم بيت المقدس. ولولا سياسة التحديث التي اتبعها محمد علي والتي كان جوهرها ضرب القوى المجتمعية التي تعتمد في جوهرها على نشاط الأوقاف لما كان بالإمكان أن يصعد النفوذ الأجنبي في مصر ولا أن يجد الطريق ممهدة ليبقى فيها ثم ليذهب منها إلى بيت المقدس.

نستطيع أن نقول بثقة بأن ازدهار الأوقاف في المجتمعات الإسلامية هو أول الطريق لإزالة الاحتلال الأجنبي والسلطات التابعة له، فمن خلال الأوقاف تنشط حركة الأمة الذاتية العلمية والدعوية والجهادية ولا تظل معتمدة على السلطة وحدها كاعتماد الطفل الصغير على أبيه المتحكم في سائر تفاصيله.

***

Readonly



موقف السلطان عبد الحميد الثاني من الثورة العرابية

أُلْقِي هذا البحث في مؤتمر «السياسة الخارجية للسلطان عبد الحميد الثاني» المنعقد في جامعة العلوم الاجتماعية بالعاصمة التركية أنقرة، بتاريخ ٤، ٥ أكتوبر ٢٠١٨م

بينما ينظّم أحمد عرابي أمور جيشه وهو يخوض معاركه الأخيرة مع الإنجليز الذين نزلوا إلى مصر، إذ بالسلطان العثماني عبد الحميد الثاني يصدر فرمانًا يعتبر فيه عرابي عاصيًا وخارجًا عن الطاعة، فيما بدا وكأنه تأييد من الخليفة لاحتلال الكفار لبلد من بلاد المسلمين، وهي طعنة جاءت من مأمن، إذ مهما بلغ الخيال لم يكن أحد ممّن في صف عرابي يتخيّل أن يصدر مثل هذا عن السلطان العثماني.

أخذت هذه الحادثة حجمًا كبيرًا من التفاعل والاهتمام لدى المؤرخين، لأنها تقع على منطقة الاحتكاك والاشتباك بين الاتجاه القومي الوطني الذي يتمسك باستقلال مصر ويُحمّل الحقبة العثمانية المسؤولية عن الأزمات التي وقعت فيها، وبين والاتجاه الإسلامي الذي يرى أن مصر كانت ولاية عثمانية ويُقَدِّر السلطان عبد الحميد الثاني ومواقفه وتوجهه الإسلامي. لذلك التمست المدرسة الأولى

Readonly

تشويه موقف السلطان عبد الحميد كما التمست المدرسة الثانية[١] تشويه موقف أحمد عرابي.

ومن المؤسف أن هذه الحادثة رغم أهميتها ومركزيتها تكاد لم تتعرض لدراسة موضوعية توضح حجم الأزمة السياسة وتحلل دوافع الأطراف لتحاول فهمها ضمن سياقها للخروج بصورة واقعية. وهذا هو ما تحاوله الورقة البحثية التي ترصد وتتابع التفاصيل والتواريخ لبيان سياسة السلطان عبد الحميد تجاه الثورة العرابية وكيف تطورت من الدعم الكامل إلى إصدار منشور العصيان.

وقد اكتفت الورقة بالاعتماد على مذكرات ومؤلفات شهود العيان، والمصادر التي نقلت مباشرة عن الوثائق التي لم نستطع الوصول إليها[٢]، واعتمدت بعض

---

(١) مثلا: فسَّر المؤرخ التركي مصطفى أرمغان نفور عبد الحميد من عرابي بأن له ميولاً للقومية العربية، وأنه متهور لم يستجب لنصيحة السلطان بالتهدئة، وأنه بتهوره هذا كان السبب في الاحتلال الإنجليزي. ويقول المؤرخ التركي سليمان جوقه باش: «كان السلطان عبد الحميد يرى بجلاء أن عرابي باشا ما هو إلا ألعوبة في يد الإنجليز»، ووصف عرابي بالحماقة والتهور ورفض الاستماع لنصائح درويش باشا والشيخ أسعد. بل إنَّ شيئًا من هذا يُشْتَمَّ من كلام عبد الحميد نفسه في نسخة من مذكراته ذكر فيها عبارة سريعة مجملة قد توهم بموقفه العدائي من عرابي، وهو ما يدحضه ما سنراه من تفاصيل في هذه الورقة.

انظر: مصطفى أرمغان، **السلطان عبد الحميد والرقص مع الذئاب**، ترجمة: مصطفى حمزة، ط١ (بيروت: الدار العربية للعلوم، ٢٠١٢م)، ١/ ٨٣؛ سليمان جوقه باش، **السلطان عبد الحميد الثاني: شخصيته وعصره**، ترجمة: عبد الله أحمد إبراهيم، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨م)، ص٢٣٧؛ عبد الحميد الثاني، **مذكراتي السياسية: ١٨٩١ ـ ١٩٠٨**، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٩م)، ص١١٩.

(٢) هاهنا ملاحظة يجب تسجيلها، وهو أنني اعتمدت بالأساس على مذكرات عرابي التي حققها =

Readonly

الأحيان على مقولات مؤرخين عُرِفوا بانحيازهم لعرابي وانحيازهم ضد السلطان عبد الحميد ليكون الاستشهاد في موضعه أقوى على نحو قول الله تعالى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦].

* * *

= ونشرها د. عبد المنعم الجميعي في ثلاث مجلدات عن دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، إذ هي النص الكامل لمذكرات عرابي، وهذا الاعتماد على المذكرات كمصدر أول مع العلم بأن بعضها قد نقله عرابي من بلنت في كتابه «التاريخ السري للاحتلال الإنجليزي لمصر» أو من سليم النقاش في كتابه «مصر للمصريين»، ومرجع هذا الاعتماد أن توثيق عرابي له إنما هي تزكية له، إذ هو الشاهد الأول على الحدث، وهو حتى إن نقل عن غيره فإنما نقله تقوية للرواية وشهادة لها.

Readonly

تمهيد: دوافع العلاقة بين السلطان عبد الحميد والثورة العرابية

كانت الثورة العرابية واحدة من أهم اللحظات الحرجة في تاريخ العلاقة بين مصر والدولة العثمانية، فقد انفصلت مصر عمليًا عن جسد الدولة العثمانية قهرًا وقسرًا منذ عهد محمد علي، ثم تعمّق هذا الانفصال في عهد خلفائه في مصر وخلفاء السلطان محمود الثاني في إسطنبول، وبدعم ورعاية من الدول الأجنبية. وقد وصلت السلطنة العثمانية إلى حالة بائسة من التخلُّف العلمي والعسكري الذي أدى لهزائم متتالية أمام الدول الأوروبية التي توحّدت وتوحّشت لاقتسام تركتها، وكانت مصر قد وقعت عمليًّا في هيمنة النفوذ الأجنبي وتدفَّق عليها الأجانب الذين صاروا يتمتّعون باستقلال مالي وقانوني وحماية أجنبية، وصاروا هم سادة البلاد والمتحكّمين في اقتصادها وسياستها.

وفي بداية عهد عبد الحميد الثاني، نبتت في مصر حركة مقاومة للنفوذ الأجنبي كان رأس حربتها في الجيش المصري عبر عسكريين مصريين وصلوا في ظروف استثنائية إلى مراتب قيادية، واستطاعوا بالفعل أن يجبروا الخديوي توفيق على تغيير الحكومة وإجراء انتخابات مجلس النواب وإصدار دستور وتقليص نفوذ الأجانب في الحكومة المصرية.

كان طبيعيًّا أن تلتقي المصالح بين الطرفين، إذ سيجد فيهم عبد الحميد أمله في استعادة مصر إلى جسد الدولة العثمانية، والظفر بها من النفوذ الأجنبي فلقي في هذا معارضة شديدة من الإنجليز والفرنسيين وصلت إلى التهديد باحتلالها[1]، كان

---

(١) جون نينيه، **رسائل من مصر: ١٨٧٩ ـ ١٨٨٢م**، ترجمة: فتحي العشري، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٥م)، ص١٠٦؛ اللورد كرومر، **مصر الحديثة**، ترجمة: صبري محمد حسن، =

Readonly

هذا النفوذ الأجنبي يعتمد بالأساس على الخديوي إسماعيل ثم توفيق سليليْ أسرة محمد علي التي مكَّنَتْ للأجانب في مصر، حتى صار الوضع أن السيادة الحقيقة في مصر للأجانب بينما السيادة الشكلية الرسمية للدولة العثمانية، ويستطيع الأجانب أن يديروا السياسة في مصر دون الرجوع إلى السلطنة العثمانية من خلال الخديوي بينما لا يستطيع السلطان العثماني أن يدير شيئًا في مصر دون مراعاة رغبة الأجانب ومصالحهم. فلما صارت في مصر قوة جديدة قد نشأت في الجيش، وهي تضاد النفوذ الأجنبي وتريد تقليص صلاحيات الخديوي عبر مطلب الحكم النيابي، انتعشت آمال السلطان العثماني ولاحت له فرصة جديدة في إعادة تغيير الأوضاع في مصر.

وعلى الجهة الأخرى، كان طبيعيًا لهذه الحركة التي تقاوم النفوذ الأجنبي وتدخل في اشتباك مع الخديوي أن تجد في السلطان العثماني «الشرعية» لنفسها، فالخديوي من الجهة الرسمية هو نائب السلطان في مصر، فإن استطاعوا الحصول على دعم السلطان نفسه فلقد تضاعفت قوتهم بما أضيف إليها من شرعية سياسية ودينية كذلك، فالسلطان هو خليفة المسلمين جميعًا.

وأول ما نعرفه في هذا الصدد هو التماس أرسله عرابي إلى إسطنبول (سبتمبر ١٨٨١م) يقول فيه: «إن مصر كانت تسقط في أيدي الأجانب وإنها يجري تنصيرها، وأنه إذا لم يتدخل السلطان فإن البلد سيؤول مصيره إلى المصير الذي آلت إليه تونس»[(١)]، وقبلها بشهر واحد (أغسطس ١٨٨١م) كان الحديث عن اللجوء إلى

= ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م)، ١/ ٢٢٥، ٢٢٦.

(١) كرومر ١/ ٢٧٠؛ نينيه ص٢٨٢؛ وأشار عرابي إلى هذه الرسالة في مذكراته، انظر: عبد المنعم الجميعي، **مذكرات الزعيم أحمد عرابي: كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية**، ط١ (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م)، ١/ ٢٩٤. =

Readonly

السلطان ليقيم العدل في مصر يتسرب من أفواه رجال «الحزب الوطني»[١]، وبعدها بشهر واحد (أكتوبر ١٨٨١م) كان «مصير تونس قد ألقى في روع المصريين أن توثق الرابطة بينهم وبين الإمبراطورية العثمانية هو عصمتهم الوحيدة من عدوان أوروبا»[٢].

وقد تكرر في الخطابات المعلنة لرموز الثورة العرابية إعلان ولائهم التام وخضوعهم الكامل للسلطان العثماني، بل إنهم ما يتحركون في سبيل الإصلاح إلا «باسم الذات الشاهانية» وأنهم حريصون على هذا الولاء للدولة العلية وأن السلطان يوافق على أعمالهم[٣]، وقد سارت الأحداث وظهر التكتل الأجنبي ضدهما بما جعل ارتباط الطرفين ببعضهما حاجة حتمية لكل منهما[٤]، وجاء في برنامج الحزب الوطني الذي صاغه بلنت من حواراته مع عرابي ورجال الثورة العرابية والمشايخ المؤيدين لها ونشره في الصحف الإنجليزية، نصُّ المادة الأولى: «يرى الحزب الأهلي محافظته على العلاقات الودادية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب

= ومثل هذا مما لا يحب أن يراها مؤرخو المدرسة القومية المصرية لأن فيها طلبًا من عرابي بتدخل السلطنة في الشؤون المصرية، ودعمًا للحركة التي يصبغون عليها صبغة وطنية لا ترحب بالتدخل التركي.

(١) نينيه ص٣٢٢.

(٢) ولفرد سكاون بلنت، **التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر**، تقديم: عبد القادر حمزة، (القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٨م)، ص١١٨.

(٣) انظر مثلاً: مذكرات عرابي ١/ ٣١٧ وما بعدها، ٣٧٣، ٢/ ٥٢٩، ٥٣٠؛ بلنت ص١٣٠؛ ويصرح عرابي في مذكراته (١/ ١٠١) بأن محاربة محمد علي للدولة العثمانية كانت فتنة دهماء «دكدكت سياج الإسلام وفضحت عورة المسلمين وكسرت شوكة الدولة الحامية لجميع الموحدين». وأهمية هذا هو في الدلالة على أن عرابي لم يكن ـ كما أراد أن يسبغ عليه المؤرخون القوميون المصريون ـ قوميًا مصريًا من نوع محمد علي الذي لبس هو الآخر ثوب القومية المصرية قسرًا في كتابات هذه المدرسة!

(٤) كرومر ١/ ٣٠٧؛ بلنت ص١٤٠، ١٩٢.

Readonly

العالي واتخاذ ذاك الباب ركنًا يستند عليه في أعماله ويعتقد أن جلالة السلطان عبد الحميد مرادهم وخليفة الله في أرضه وإمام المسلمين ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات ما دامت الدولة العلية في الوجود ثم يعترف باستحقاق البابا العالي لما يأخذه من الخراج وما يلزم من المساعدة العسكرية إذا طرأت عليه حرب أجنبية»[١].

كذلك كان طبيعيًا أن يسعى الخديوي في تفجير وإفساد هذه العلاقة بين السلطان والعرابيين، فزعم أن حركة عرابي قومية تريد إنشاء خلافة عربية تجمع تحتها الشعوب الناطقة بالعربية، وهو ما علَّق عليه عرابي بقوله: «سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم»[٢].

دعم عبد الحميد الثاني للثورة العرابية

سرعان ما تطورت هذه العلاقة بين السلطان عبد الحميد والعرابيين إلى دعم حقيقي، وتمثل هذا الدعم في المجهود السياسي والرسائل السرية، وقد تمثلت هذه في خمس محطات بارزة:

١. المماطلة في إرسال قوات لدعم الخديوي

أرسل الخديوي في أثناء مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١م) برقية يطلب فيها

---

(١) مذكرات عرابي ١/ ٤٠٣ وما بعدها.

وهاهنا ملاحظة مهمة، إذ ما نقله بلنت عن كلام عرابي وما سجله في برنامج الحزب الوطني وفي كتابه «التاريخ السري» صريحٌ في أن العلاقة التي أرادها عرابي مع الدولة العثمانية هي علاقة الولاء والارتباط مع بقاء الإدارة الذاتية المستقلة داخليًا في مصر، ولكن تحرير هذه المسألة خارج عن موضوع ورقتنا هنا، فنكتفي منها بإثبات أن الارتباط بالخلافة العثمانية كان أمرًا معلنًا ومتكررًا بوضوح حتى فيما يُقال للأجانب ضمن حوارات خاصة.

(٢) مذكرات عرابي ١/ ٤٠١.

Readonly

«إرسال قوة عسكرية يبلغ مقدارها عشرين طابورًا على جناح السرعة على أن تكون قيادتها العامة منوطة به خاصة»، فأجابه عبد الحميد ببرقية تحمل فحواها التقريع له ولحكومته على غفلتهم وتطلب المزيد من التفاصيل، يقول: «بما أنه ليس من المحتمل قط أن لا يكون لديكم أنباء على الثورة والإحاطة بسموكم في قصركم وتضييق الحصار عليه فضلًا عن أن حكومتكم لا بد لها من علم بالظروف والأحوال التي ساعدت على تكوين هذا الحادث.. فإزاء ذلك لا يسع الباب العالي أن يقوم بأي سعي لإعادة الأمن إلى نصابه وتسوية المسألة وفق الاعتبارات المحلية ما لم يحصل أولًا على المعلومات الوثيقة من سموكم لتجلو الأحوال جلاءً تامًّا»، وكان المآل العملي لهذه البرقية هو التسويف والمماطلة في إرسال قوات لدعم الخديوي، وهو ما يبدو أن هذا الأخير قد فهمه فأرسل برقية تفيد أن الأمر قد انتهى «وأن الجيش الآن في غاية الخضوع والطاعة وأن سائر الأمور والشؤون جارية على ما يرام»[١]، وكان ذلك صحيحًا من الناحية العلنية إذ استجاب توفيق لمطالب عرابي وبدا أن الأمور تسير على ما يرام لكن الأطراف كلها تترقب وتتربص تنفيذ ما اتُّفِق عليه.

وبهذا كان موقف السلطان عبد الحميد منحازًا إلى البرقية التي وصلته من عرابي، «كان السلطان يرى أنه ليس مطلوبًا تثبيط همة عرابي بشكل كبير، وعليه جرى إعطاء عرابي قليلًا من التشجيع» مع بقائه ممسكًا بالعصا من المنتصف[٢]، بينما كان موقف الأجانب يؤكد لرئيس الحكومة شريف باشا بأنه «إذا ما أثبت الجيش خضوعه وطاعته، فإن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية سوف تستعملان

---

(١) الجميعي، **موقف الدولة العثمانية من الثورة العرابية**، المجلة التاريخية المصرية، عدد ٢٦ (القاهرة: الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧٩م)، ص١٤٢، ١٤٣.

(٢) كرومر ١/ ٢٧٠.

Readonly

نفوذهما لدى الباب العالي لمنع احتلال مصر من قبل أي جيش عثماني»[١].

لقد كان سباق النفوذ السياسي يبحث عن الجنود، فمن جهةٍ يفكر الأجانب والخديوي أنهم إما استطاعوا ترويض الجنود المصريين وإما استجلبوا جنودًا عثمانية لضربهم وإخمادهم على طريقة «نلتمس ذريعة، ندفع السلطان إلى ارتكاب حماقة كبيرة في مصر تحت رقابتنا»[٢]، ومن جهة أخرى تفكر السلطنة في أن الجنود المصريين إما استطاعوا الانتصار وإعادة التمكين للروابط بينها وبين مصر وإما أتاحت لهم مساحة تدخل ووساطة على الأقل، «فإن أمير المؤمنين لم تكن له رغبة في أن يكون آلة مسخرة في يد الغرب يفعل لهم أفاعليهم ويحترم جرائمهم، فقد كان راضيًا بالتدخل ولكن على هدى»[٣].

وستستمر المعركة السياسية على هذا النحو دائمًا: عبد الحميد لا يرسل الجنود طالما الرياح في صالح عرابي ويماطل دون أن يغلق الطريق، بينما الأجانب يضغطون عليه لإرسالها في ذلك الوقت. فإن انقلب الموقف على الأرض انقلب الموقف السياسي.

٢. بعثة نظامي ودورها

فكَّرَ السلطان عبد الحميد في إرسال قوة عسكرية إلى مصر، ولكن المعارضة الأوروبية الشديدة جعلت الفكرة لديه تنتهي إلى بعثة تؤكد السيادة الشكلية وحقه في مصر دون أن يترتب عليها تغيير شيء في الواقع[٤]، فأرسل السلطان عبد الحميد

---

(١) كرومر ١/ ٢٦٣.

(٢) نينيه ص٣٣٢.

(٣) بلنت ص٢٢٥.

(٤) كرومر ١/ ٢٧٢.

Readonly

وفدًا رفيع المستوى على رأسه نظامي باشا سر ياور السلطان، ومعه علي بك فؤاد (من أعضاء مجلس شورى الدولة) ونجل عالي باشا (الصدر الأعظم) ومعهما قدري بك وصفر أفندي وسيف أفندي من ياوران السلطان.

مما لا يُنتبه له عادةً أن نظامي باشا هو نفسه المبعوث العثماني الذي بحث حقوق الأمير مصطفى باشا فاضل التي انتزعها منه الخديوي إسماعيل[١]، أي أنه من حيث التاريخ يحمل موقفًا غير ودود بالنسبة لتوفيق.

تحرك الوفد إلى مصر (٢ أكتوبر ١٨٨١م) دون تنسيق ولا إخبار الخديوي توفيق[٢]، إلا أن هذا الأخير عرف بنبأ الوفد ومهمته من مندوبه بالآستانة[٣]، فسارع بإصدار قرار ـ بالاتفاق مع حكومة شريف ـ بإبعاد عرابي عن القاهرة لكي لا يلتقي بالوفد العثماني فأمر بنقل الأميرالاي الرابع إلى رأس الوادي، فاشترط عرابي صدور أمر الخديوي بانتخاب النواب قبل سفره[٤].

وصل الوفد العثماني إلى الإسكندرية (٦ أكتوبر ١٨٨١م) ومنها إلى القاهرة في مساء اليوم نفسه، ثم إلى الإسماعيلية حيث كان الخديوي هناك (٧ أكتوبر ١٨٨١م) فاستقبلهم بالحفاوة وأبلغوه أن مهمتهم تثبيت سلطته كما أبلغهم أن الأمور على ما يُرام. ثم ذهب الوفد إلى نظارة الحربية فاستقبلهم محمود سامي البارودي بالترحاب اللائق وألقى نظامي باشا خطابًا في الجنود حثهم فيه على الطاعة وأجابه متحدثهم

---

(١) نينيه ص٣٤٨.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، **الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزي**، ط ٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م)، ص١٥٨.

(٣) الجميعي ص١٤٤.

(٤) مذكرات عرابي ١/ ٣٢٢؛ إسماعيل سرهنك، **حقائق الأخبار عن دول البحار**، ط١ (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣١٢هـ)، ٢/ ٣٨٠.

Readonly

طلبة عصمت بخطاب يعلن فيه انتظام الجنود في سلك الطاعة، فأظهر نظامي سروره بهذا وذكر بأنه قد علم بحسن النوايا وأن المظاهرة العسكرية لم تكن لإضرار أو فساد، فأجابه طلبة مؤكدا هذا وذكر أنها إنما كانت محافظة على شرف البلاد وأنها كانت بالأساس تطالب بزيادة الجند اللازمين لحفظ البلاد وأمنها مع كثرة الأجانب فيها، إلا أن رئيس الوزراء كان يريد تقليل الجند ويسير في غير طريق الوطنية ويضر بمصالح البلاد، وكرر الخضوع للخديوي ومِن فوقه للدولة العثمانية والسلطان[١].

ثم أجرى الوفد لقاءات عديدة مع شيخ الأزهر ونقيب الأشراف وشيخ المالكية[٢] وغيرهم، وكلهم كان يثني ويمدح ما فعله الجنود بقيادة عرابي، وما وصلت إليه الحال (الحكومة الجديدة برئاسة شريف باشا)[٣]، وهو ما يدفع إلى القول بأن الوفد كان يستطلع الأحوال ظاهرًا لكنه كان يدعم الثورة على الحقيقة، وذلك أن الالتقاء بممثلي الثورة بداية من البارودي ناظر الحربية مرورًا بالزعامات الشعبية بعد انتفاء تهدد سلطة الخديوي دليل على أن حقيقة المهمة لم تكن تطابق المعلن منها وهو تثبيت حكم الخديوي الذي أرسل بنفسه قبل نزول البعثة يقول بأن الأمور على ما يرام. كذلك فإن حرص الخديوي على إبعاد عرابي وعدم التقائه بالوفد دليل آخر على توجسه منه.

قضى الوفد ثلاثة عشر يومًا في مصر، ثم قفل راجعًا إلى الآستانة (١٩ أكتوبر ١٨٨١م).

لكن أخطر ما ترتب على زيارة الوفد هو انزعاج الدول الأجنبية: إنجلترا

---

(١) مذكرات عرابي ١/ ٣١٧ وما بعدها.

(٢) كان شيخ المالكية في هذه الفترة هو الشيخ محمد عليش، وكان أكبر علماء مصر قدرًا وهيبة، إلا أنه لم يكن شيخًا للأزهر لقوة العداء بينه وبين الخديوي.

(٣) مذكرات عرابي ١/ ٣٢١.

Readonly

وفرنسا، فتوجه قنصلا الدولتين في مصر «إلى الخديوي وأخبراه أنهما لا يعلمان شيئًا عن أسباب قدوم الوفد العثماني والدالة أن الوفد المذكور لا يمكنه أن يعبث بشيء من حقوقه أو اختصاصاته»[١]، وأرسلت الدولتان إلى السلطان تبديان اندهاشهما وانزعاجهما من الوفد العثماني، وأن حضوره يمثل تدخلًا في الشؤون الداخلية المصرية، وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة إقامته، وأبرق ماليت (القنصل الإنجليزي بمصر) لحكومته أن ترسل بارجة حربية إلى الإسكندرية وكذلك فعلت فرنسا، وأعلنتا أن البارجتيْن ستغادران عند مغادرة الوفد العثماني، وهو ما كان، فقد رحلتا بعد يوم واحد من رحيله (٢٠ أكتوبر ١٨٨١م) بعد أن نشب نزاع دبلوماسي سريع بين السلطان وبين الدولتين بخصوص هذا التحرك العسكري[٢].

ولكن دلَّ الأمر على أن الحادثة خطيرة، إذ هو تهديد بالتدخل العسكري حال تفكير السلطنة العثمانية في استعادة شيء من نفوذها في مصر! وهو دليل على قوة النفوذ الأجنبي بمصر في ذلك الوقت. لكن الدلالة التي تهمنا في سياق هذا البحث هو أن الوفد العثماني كان تهديدًا للمصالح الأجنبية التي كانت ترعى الخديوي توفيق وتثبت سلطته، وانزعجت حين حصلت حركة الوفد دون إخبار لهم، ومن ثَمَّ فلن يكون الوفد بحال مؤيدًا لسلطة الخديوي كما قرأته السياسة الأجنبية ومن ثَمَّ اتخذت منه هذا الموقف العسكري التهديدي العنيف[٣].

---

(١) مذكرات عرابي ١/ ٣١٧.

(٢) كرومر ١/ ٢٧٣ وما بعدها؛ الرافعي، الثورة العرابية، ص١٦٠، ١٦١.

(٣) من اللافت للنظر هنا اتفاق موقف الإنجليز والفرنسيين مع موقف مؤرخي المدرسة القومية المصرية في رفض وفد نظامي باشا، بل إن جون نينيه السويسري، وهو أجنبي أيضًا، لم ير في حضور الوفد وانصرافه أية أزمة وكان يدين الموقف الإنجليزي منه، ومثله بلنت.
انظر: كرومر ١/ ٢٦٩؛ الرافعي ص١٥٨ وما بعدها؛ نينيه ص٣٤٨، ٣٤٩؛ بلنت ص١١٨.

Readonly

٣. العلاقات السرية بين عرابي والسلطان

لكن وفد نظامي باشا لم يرحل كله إلى الآستانة، وإنما بقي منه أحمد راتب باشا الذي توجه في مهمة إلى الحجاز، فانطلق من القاهرة إلى الزقازيق قاصدًا السويس لكي يركب منها إلى جدة، وفي القطار المتجه من الزقازيق إلى السويس التقى بأحمد عرابي.

لا تكشف المصادر التي أتيحت لنا شيئًا عن ترتيب سري لهذا اللقاء، حتى عرابي في مذكراته التي كتبها بعد عودته من المنفى لم يُشِر إلى أن ثمة ترتيب، بل رواه كأنه لقاء عادي[١]، ولكن الظروف تقطع بأن اللقاء كان مرتبًا وهو ما نكاد نجزم به، وربما كان الترتيب باتفاق بين الطرفين: راتب وعرابي، أو هو على الأقل من جهة عرابي وحده الذي أراد أن يكسر الحظر الذي فرضه الخديوي عليه من لقاء الوفد العثماني، فأقل المحتمل أن عرابي أراد أن يبرئ ساحته أمام السلطان وينفي ما قد يثيره الخديوي عنه، وربما أراد ما هو فوق ذلك من إنشاء صلة بالسلطان والحصول على دعمه.

قصَّ عرابي على أحمد راتب كل ما جرى، وحرص على القول «لم نشق عصا الطاعة كما يدعي الأوربيون بل طلبنا الإصلاح باسم الذات الشاهانية وبذلك علم الكبير والصغير أن لنا سلطانًا شرعيًا هو صاحب السيادة العظمى على البلاد المصرية، وأن الخديوي هو نائب عن جلالته فقط من بعد أن كانوا لا يعرفون لهم حاكمًا شرعيًا غير الخديوي»[٢].

---

(١) حتى إن محمود الخفيف جزم في كتابه أن اللقاء كان مصادفة، انظر: محمود الخفيف، **أحمد عرابي: الزعيم المفترى عليه**، (القاهرة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٢م)، ص٢٠٩. وأغلب الظن أنه جزم بهذا متابعة لبلنت، وهذا من المثير للتساؤل إذ إنه جزم في مقدمة كتابه أنه يأخذ عن مذكرات عرابي المخطوطة التي أعطاه إياها بعضُ أبنائه.

(٢) مذكرات عرابي ١/ ٣٣٠.

Readonly

وقد حافظ أحمد عرابي على سرية هذا اللقاء، حتى إن بلنت حين سأله ما إن كانت له صلات بالآستانة كما قد أشيع في ذلك الوقت، فإن عرابي «أبدى لي أنه يلزم جانب التحفظ في هذه النقطة وراغ من السؤال»، ويقول بلنت: «ولا شك عندي في أن ذكرى حديثه مع أحمد راتب باشا عرضت لذهنه وقتئذ وكان ذلك سبب تردده ولكنه لم يُشِر من ذلك في كل حال»[١]، وفيما بعد كانت رواية عرابي لبلنت عن هذا اللقاء تؤكد كونه مصادفة وأن تعارفهما كان كغريبين[٢].

وقصَّ عرابي في مذكراته واقعة أخرى دون أن يحدد تاريخها، فلقد أوفد مبعوثًا خاصًّا من عنده إلى السلطان عبد الحميد، وهو علي راغب الذي يشغل منصب قبطان في البحرية المصرية، لم يحدد عرابي متى أرسله إلى السلطان، لكن علي راغب التقى هناك بالشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية، فالتقى عند السلطان خيطان: أحمد راتب ومحمد ظافر، فكتب كلٌّ منهما رسالتان إلى عرابي حملهما إليه السيد أحمد أسعد وكيل الفراشة النبوية[٣].

ويورد صحافي مصري معاصر في كتاب لا يمكن الوثوق بمعلوماته[٤]، صلة ثالثة بين عرابي وعبد الحميد كانت بواسطة السيد أحمد أسعد الذي التقى وهو عائد من الحجاز بعرابي فلما وصل الآستانة «مدحه لجلالة السلطان بأنه الرجل الذي يُرجى منه الخير للدولة في مصر»[٥].

---

(١) بلنت ص١٣٠.

(٢) بلنت ص١١٨. وفي الأصل الإنجليزي استعمل لفظ «accidental»، انظر:
Wilfrid Scawen Blunt, **Secret History of the English Occupation of Egypt**, (New York: Alfred Knopf, 1922), p. 119.

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٤٩٩.

(٤) لأنه كتب بطريقة صحافية ساخرة، وكثير من أخباره على طريقة الطرائف والغرائب.

(٥) إبراهيم المويلحي، **ما هنالك**، (القاهرة: مكتبة المقطم، ١٨٩٦م)، ص١١٥.

Readonly

ثم في أثناء الاحتلال الإنجليزي ستُكتشَف برقيات مرسلة بين عرابي وبين نسيم بك من قرناء الحضرة السلطانية، وقد وُوجِهَ بها عرابي في التحقيقات التي أجريت معه فيما بعد، ويتبين من لهجتها أن عرابي كان يقدم تقاريره عن الوضع في مصر من خلالها[١]، فهذه صلة رابعة لكن من المؤسف أننا لا نعرف عنها إلا هذا الشحيح القليل[٢].

جرى الأمر ظاهرًا على ما يُرام، الخديوي يستجيب ويتشكل مجلس النواب بصلاحيات ممتازة، وعرابي حريص من جهته على طمأنة الخديوي وعدم الظهور كمنافِس أو صاحب طموح وإن كان حريصًا على متابعة ما يجري من موقع المراقب؛ خوفًا من المناورات الخديوية، لكن الدهاليز تحمل مشاهد أخرى:

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٧٦١ وما بعدها.

(٢) هناك صلة أخرى بين عرابي وعبد الحميد لكن المعلومات عنها شحيحة للغاية، وذلك هو ما دار من المراسلة بين عرابي وبين الأمير حليم، الذي كان مرشح عبد الحميد ليتولى مصر بعد ضرب الإسكندرية، وكان دائمًا أحد البدائل لعزل الخديوي إسماعيل، إذ ووجه عرابي في التحقيقات التي أجريت معه عن صورة حضرت إليه من الآستانة للأمير حليم وعلى ظهرها خَتْمُه عبر عثمان باشا فوزي وكيل دائرة زينب هانم بنت محمد علي، وقد ألقي القبض على عثمان باشا فوزي بعد الثورة العرابية، وكان حسن موسى العقاد ـ من كبار التجار المصريين، ومن كبار رجال الثورة العرابية ـ يسعى لجمع التوقيعات لتولية حليم وعزل توفيق، وبلغ في ذلك مبلغ الاستعدادات الرسمية لتنصيبه حين يحضر، وقد انصبت التحقيقات مع العقاد حول الأموال والرسائل المتبادلة بينه وبين حليم بواسطة عثمان فوزي. ولا يُعقل بحال أن تكون مراسلات حليم والعقاد وعرابي في هذا الوقت (بعد ضرب الإسكندرية) دون اطلاع وموافقة ومشاركة من السلطان عبد الحميد.

انظر: مذكرات عرابي ٢/ ٧٦٦ (محضر التحقيق مع عرابي)، ٣/ ١٠٥١ وما بعدها (محضر التحقيق مع حسن موسى العقاد)؛ زينب بنت علي العاملي، **الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**، ط١ (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٣١٢هـ)، ص٢٣٧.

Readonly

فمن جهته، أرسل الخديوي توفيق مبعوثه ثابت باشا (نوفمبر ١٨٨١م)، أي بعد شهر أقل من شهر من رحيل وفد نظامي باشا، وكانت مهمته إقناع رجال الدولة العثمانية بأن «القصد من الحركة المصرية الوطنية هو إنشاء خلافة عربية تضم تحت لوائها كل ناطق بالضاد، فتشمل بلاد الحجاز واليمن والعراق ومصر والشام وطرابلس الغرب وغيرها»[١].

ومن جهة السلطان عبد الحميد فقد أفضى إلى أحمد راتب باشا وإلى الشيخ محمد ظافر فكتب كل منهما خطابًا سريًّا (٢٢ فبراير ١٨٨٢م) إلى عرابي خلاصته دعم عرابي والإذن له بإزاحة الخديوي توفيق إن استطاع دون أن يتسبب هذا في تدخل أجنبي في البلاد. وقد حمل هاتين الرسالتين أحمد أسعد أفندي وكيل الفراشة النبوية والذي كان ضمن بعثة درويش باشا التي سيأتي معنا تفصيل ما فعلت بعد قليل.

وقد وصلت إلينا فحوى الرسالتين عن طريق بلنت وبرودلي، ذلك أن أصلهما التركي قد حِيز بعد هزيمة عرابي، فبقيت الترجمة الإنجليزية التي نشرها هذان هي المصدر الوحيد، وهو الذي نقل عرابي ترجمته[٢].

جاء في خطاب أحمد راتب باشا أنه «قد سعى أناس في جعل جلالته يفتكر أنكم كنتم تسيرون على خطة مخالفة للطريق القويم (ولا أدري كيف ذلك) ونجحوا في تغيير فكرة جلالته نحوكم. وأما الآن بعد أن أوضحت لجلالته حقيقة المسألة، أقسم لكم أن جلالته متأسف جدًا لكونه سمع للأقوال الكاذبة والمختلطة

---

(١) مذكرات عرابي ١/ ٤٠١.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥٠٠؛ بلنت ص١٨٨ وما بعدها.

Readonly

التي بلغت عنكم، والذي يثبت لكم هو أن جلالته أمرني أن أحرر هذا لكم وأوضح لكم فيه الخواطر الآتية:

١ـ لا أهمية في من يكون خديوي مصر.

٢ـ ويجب أن تكون أفكار والي مصر ومقاصده وسيرته خالصة من الشوائب بحيث أن جميع حركاته تكون متجهة لصيانة مستقبل مصر ولتوطيد عرى العلاقات الوثيقة مع عرش الخلافة، وفي الوقت نفسه يجب عليه أن يظهر الغيرة التامة والإخلاص في تأييد حقوق البلاد، ويلزم أن يتصف بهذه الصفات كل من تربع من الولاة على الأريكة الخديوية.

٣ـ إسماعيل باشا وأسلافه.. اجترؤوا على ظلم المصريين وفرض الضرائب الثقيلة عليهم ومعاملتهم بالضغط والقسوة وزيادة على ذلك فإنهم تداينوا ديونًا ثقيلة وجعلوا المصريين يئنون تحت نير العبودية. واليوم حالتهم في نظر الدنيا تستدعي رأفتنا الخصوصية بهم فالمركز بأكمله في غاية الضعف ويحتاج إلى البحث الدقيق وراء الدواء الشافي العاجل.

٤ـ عليه بهمتكم قبل كل شيء منعُ ما عساه أن تؤدي إلى التداخل الأجنبي وأن لا تحيدوا عن الطريق الحق القويم، ولا تصغوا إلى الاختلافات التي تسبب الخدعة، بل يجب عليكم في كل الأحوال منع حدوث التدابير الأجنبية التي يقصد منها إثارة الفتن بكل تيقظ، وهذا هو غاية جلالة السلطان العظمى.

٥ـ بما أننا سنكاتب بعضنا في المستقبل يلزمكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لعدم وقوع خطأ بأننا في أيدي الغير. وأسهل طريقة وآمنها التي يمكنكم اتخاذها الآن كفى أن تعطوا مكاتبكم إلى الرجل الصادق الأمين الذي يحمل هذا وآخر من الشيخ محمد ظافر.

Readonly

٦ـ وأزيد على ذلك أنه من الضروري إرسال ضابط سرًا يكون عالمًا بأحوال مصر ويكون من أحد أصدقائكم الذين تضعون ثقتكم فيهم؛ ليقدم إلى أعتاب جلالة السلطان تقارير مسهبة حقيقية عن أحوال البلاد»[1].

أهم ما يلفت النظر في خطاب راتب باشا أنه مكتوب (بتاريخ ٢٢ فبراير ١٨٨٢م)، أي أنه كتب في الوقت الذي بدا فيه أن الأمور على ما يرام، فلقد كان هذا قبل المذكرة المشتركة بثلاثة أشهر وقبل تحرك السفن الأجنبية إلى السواحل المصرية. وأما أخطر ما فيه فهو موافقة السلطان على عزل الخديوي توفيق بل وعلى إزاحة أسرة محمد علي كلها كما يُفهم من قوله: «لا أهمية فيمن يكون خديوي مصر»، وإنما الذي يهمه أمران: أن يحافظ الحاكم القادم على العلاقة مع الدولة العثمانية، وأن يكون العمل كله في هذه المرحلة متركزًا على منع التدخل الأجنبي في مصر. وهذا الموقف من عبد الحميد هو الموقف الأعلى في دعم ثورة عرابي وإعطائها شرعية العمل ورفع سقف أهدافها، وهو يفسر تصرفات عبد الحميد الداعمة علنًا لعرابي والمتباطئة في إدانته ومحاولة كسب الوقت لصالحه.

وأما الخطاب الثاني الذي حمله أسعد أفندي، فهو من الشيخ محمد ظافر، شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية، ويفيد بأن عرابي أرسل رسالتين إلى الشيخ ظافر، ولا ندري على وجه الدقة هل الرسالتان قد حملهما القبطان علي راغب أم أنه حمل واحدة منهما فحسب، بينما كان لعرابي طريق أخرى لإيصال رسالة أخرى له؟ ربما كانت الطريق الأخرى أسعد أفندي، أو لعلها طريق مجهولة!

وأهم ما جاء في خطاب الشيخ محمد ظافر أن رسائل عرابي وصلت للسلطان

---

(١) مذكرات عرابي ١/ ٥٠٠، ٥٠١.

Readonly

عبد الحميد، وأنها «وقعت لدى جلالته موقعًا حسنًا حتى إن جلالته أمرني أن أبين لكم سروره ورضاه وأكتب لكم كالآتي:

١ـ حيث إن الخلافة واستقامتها فرض على كل واحد منها فيجب على كل مصري السعي بمزيد الاهتمام وراء تثبيت سلطتها لمنع خروج مصر من أيدينا ووقوعها في قبضة الأجانب الطامعين كما وقعت ولاية تونس في أيدي الفرنسيين.

٢ـ نحن وضعنا كل ثقتنا فيكم يا ولدي لاستعمال قوتكم وعمل كل ما في الإمكان لمنع حدوث شيء قبل ذلك فكن على حذر دائمًا..

٣ـ الغرض الذي نرمي إليه هو الدفاع عن ملتكم وبلادكم، وخصوصًا يجب عليكم أن تثابروا على حفظ ثقتنا بكم والروابط التي تربطكم بنا..

٤ـ بلاد مصر لها أهمية عظمى لدى إنجلترا وفرنسا وخصوصًا لدى الأولى، ويوجد شرذمة من أصحاب الدسائس والفتن في إسطنبول يمالئون هاتين الدولتين ويتشغلون من زمن مضى بعيد بمشروعاتهم الفاسدة.. ولذا رأوا من صالحهم ازدياد تلك الدسائس والفتن في مصر وجهوا عنايتهم إلى ذلك بنشاط وغيرة، فرغبة جلالته الخصوصية هي أن تحذروا أولئك الخونة الأشرار ومكائدهم وتراقبوا أعمالهم بعيون ساهرة.

٥ـ بناء على التلغرافات والأخبار المرسلة من الخديوي توفيق باشا أحد أعضاء الجمعية المومأ إليها نرى أنه ضعيف ومتقلب ولاحظنا أيضًا أن كل تلغراف من تلغرافاته لا يؤيد الآخر بل جميعها على طرفي نقيض.

٦ـ أزيدكم معرفة بأن علي نظامي باشا وعلي فؤاد بك قد أثنيا عليك ثناء جميلًا لدى الحضرة السلطانية وكذا أحمد راتب باشا.. فقد كلفني لهذا السبب أن أظهر لكم ثقته فيكم..

Readonly

٧ـ حيث إن جلاله يعتبركم رجلًا ذا استقامة وأمانة فهو يطلب منكم قبل كل شيء منع وقوع مصر في قبضة الأجانب وأن لا تتركوا لهم حجة تمكنهم من التداخل في شؤون مصر.

٨ـ وأعلمكم بصفة سرية أن جلالة السلطان لا يعول على إسماعيل ولا حليم[١] ولا توفيق، بل يعول على الرجل الذي يفكر في مستقبل مصر ويثبت الروابط التي تربطه بالخلافة، ويحترم جلالته الاحترام الواجب ويعمل بمقتضى الفرمانات السلطانية بلا تعطيل ولا تغيير، ويؤيد سلطته المستقلة في إسطنبول وخلافها، ولا يُعطي رشوة لأولئك الموظفين الخائنين»[٢].

كتبت الرسالتان في نفس التاريخ (٢٢ فبراير ١٨٨٢م)، وهما تحملان نفس المضمون الأساسي: أن السلطان يثق في عرابي ويعوِّل عليه، وأنه لا مانع لديه في إزاحة الخديوي بل وأسرة محمد علي كلها، إنما الذي يهمه ألا تقع مصر في يد الأجانب وأن يكون واليها مرتبطًا بالخلافة العثمانية. إلا أن رسالة الشيخ ظافر تزيد في أن السلطان يرى الخديوي توفيق ضمن زمرة الأشرار الخونة الذين يرتبطون

---

(١) كان الأمير حليم من أبناء محمد علي باشا، وكان يسكن الآستانة، وكان طموحا في عرش مصر مع اهتزاز أوضاع الحكم فيها، كذلك كان يمكن أن يكون بديلا باعتباره أكثر عثمانية ـ من وجهة نظر السلطان ـ من أبناء عمومته المتغربين الذين يحكمون مصر، وعودته للحكم تعني انتهاء قانون الوراثة الذي منحه السلطان عبد العزيز للخديوي إسماعيل والعودة إلى وضع ١٨٤٠ بتوريث الأرشد من أسرة محمد علي. وقد طُرِح اسمه في المفاوضات الجارية بين عبد الحميد والدول الأوروبية، وأبدت فرنسا أكثر من مرة قبولها لمناقشة الفكرة. ويوصف حليم في بعض المصادر بأنه معروف بتعاطفه مع الفلاحين وبأنه عدو للاستغلال (الأجنبي)، وأن له أنصارا في مصر.
انظر: نينيه ص١٢٢؛ كرومر ١/ ٣٤٢؛ سرهنك ٢/ ٣٨٩.

(٢) مذكرات عرابي ٥/ ٥٠١ وما بعدها.

Readonly

بالمصالح الأجنبية ويمهدون لها، فضلًا عن التصريح بضعفه وتقلبه.

يفسر كرومر بأن سائر ما أبداه وزراء حكومة الثورة من التحدي للنفوذ الأجنبي وسلطة الخديوي إنما كان «راجعًا بدرجة كبيرة إلى الرسائل التي أحضرها أسعد أفندي من إسطنبول»[١]، ويفسر بلنت الموقف من جهة السلطان بأنه «عندما صارت المسألة تنحصر في مقاومة أوروبا عاد عرابي فكسب رضى السلطان ونال حظوته. ولم يكن عند السلطان أي تردد في أيهما يجب أن يختص بعطفه: توفيق ألعوبة فرنسا وإنجلترا أو عرابي الذي يذود الدول المسيحية عن بلاد إسلامية»[٢].

٤. بعثة درويش ودورها والتكريم العلني لعرابي

عندما بلغ الباب العالي نبأ إرسال الدول سفنًا حربيةً قبالة الشواطئ المصرية: «ورد تلغراف [في الأيام الأولى من مايو ١٨٨٢] من الآستانة يعلن أن الباب العالي أرسل إلى الدول منشورًا يعترض فيه على إرسال الدوارع الأجنبية إلى القطر المصري استنادًا إلى أن الأحوال الجارية إذ ذاك فيه لا تدعو إلى مثل هذا التداخل فضلًا عن أنه يجب أن يُعْهَد به إلى الدولة العثمانية إذا كان ثمة في الأمر ما يبعث عليه»[٣]. لكن السفن واصلت مسيرتها إلى الشواطئ المصرية، فطلب السلطان عبد الحميد «من فرنسا وإنجلترا أن تستردا أسطوليهما فأجابتا أنهما لا تسترجعانهما إلا بعد أن تعود إلى مصر راحتها ويستقر فيها النظام»[٤].

---

(١) كرومر ١/ ٣٥٤، ٣٥٨.

(٢) بلنت ص١٩٢.

(٣) مذكرات عرابي ١/ ٤٨٦.

(٤) مذكرات عرابي ١/ ٤٨٧؛ سرهنك ٢/ ٣٨٧.

Readonly

كان الرأي السائد في لندن تلك الأثناء أنه «قد تحالف الحزب العسكري والباب العالي»[١]، ولئن اختلف الإنجليز والفرنسيون في كثير من التفاصيل فإن القدر المتفق عليه بين الجميع كان منع عودة مصر إلى حكم السلطان العثماني، حتى أولئك الإنجليز الذين عارضوا احتلال مصر كانوا على هذه القناعة، وأما الفرنسيون فبين أن يكون الحل احتلالًا مشتركا لمصر أو السماح لإنجلترا باحتلال منفرد[٢]، وتعددت الآراء في الموازنة بين تدخل عسكري عثماني يخمد الثورة ولا يترتب عليه مكاسب عثمانية في مصر، وبين تدخل عسكري أجنبي[٣].

وصل الأسطولان الإنجليزي والفرنسي أمام الشواطئ المصرية، وقدمت الدولتان إلى الحكومة المصرية «اللائحة المشتركة» (٢٥ مايو ١٨٨٢م) التي تطالب باستقالة الحكومة ونفي عرابي خارج مصر ونقل مساعديه عبد العال حلمي وعلي فهمي إلى مناطق ريفية بعيدة لا يخرجان منها، وحل الجيش إلا الجزء الذي يحمي الحدود الجنوبية[٤]. وفُسِّرَت المذكرة في مصر أو في الصحافة الإنجليزية على أنها مكافحة لعمل السلطان الذي «الذي لا يزال يطعن من الخلف» وأنها تحريض للخديوي على معاداة الحركة العرابية ولكي يطمئن إلى دعم الدول الأجنبية له، وأنها تكشف الرغبة الأوروبية في تخفيف ارتباط مصر بالباب العالي[٥].

وكان طبيعيًّا أن ترفض الوزارة هذه المطالب، فذهبوا إلى الخديوي الذي

---

(١) بلنت ٢١٨.

(٢) كرومر ١/ ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩١ وما بعدها؛ بلنت ص١٣٤، ١٣٥.

(٣) كرومر ١/ ٣٢٥، ٣٤٢، ٣٤٩، ٣٥٠.

(٤) مذكرات عرابي ١/ ٤٨٧، ٤٨٨.

(٥) كرومر ١/ ٣٠٥، ٣٠٦.

Readonly

أخبرهم بأنه قد وافق عليها، فاحتجت الوزارة وقدَّمت استقالتها فقبلها الخديوي مسرورًا، ثم أصدر منشورًا عامًا (٢٦ مايو ١٨٨٢م) يعلن فيه قبول استقالة الوزارة وأن القوات الأجنبية قوات مسالمة ويأمر فيه بحظر أي إعداد عسكري للمقاومة[١].

وفي اليوم التالي دعا الخديوي إلى اجتماع عام حضره النواب والأعيان والعلماء ـ وأبرزهم: الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوي والشيخ محمد الإنبابي ـ وقادة الجيش، وأخبرهم أن السياسة تقتضي إقالة الوزارة وقبول اللائحة المشتركة وقد تولى بنفسه الجيش والإدارة لحين تشكل الحكومة الجديدة، فأعلن الحاضرون رفضهم للائحة المشتركة، وأعلن طلبة عصمت وكيل نظارة الجهادية أنهم لا يقبلون بغير عرابي رئيسًا عليهم، وأعلن العلماء وجوب الاستعداد للجهاد[٢]، ويزيد كرومر أن طلبة عصمت قال أيضًا بأن الجيش «ينتظر قرار الباب العالي الذي هو بمثابة السلطة الوحيدة التي يعترف بها العسكريون»[٣].

وسرى في البلاد حالة عنيفة من الخوف والقلق والغضب والسخط، ووصلت إلى عرابي مئات الرسائل من مديري الأنحاء المصرية تخيرهم بين عزل الخديوي قبل أن يدخل الأجانب وبين رفض اللائحة المشتركة، وإزاء هذا الانفلات السياسي أبرق الخديوي إلى السلطان عبد الحميد بما يحدث، فجاءه الرد بأنه سيرسل بعثة عثمانية ستصل بعد ثلاثة أيام للنظر في هذا الموقف[٤]، واضطر الخديوي أن يقبل مرغمًا بعرابي الذي صار الرجل الوحيد الذي يطلبه الناس حبًا أو اضطرارًا، إذ هو

---

(١) مذكرات عرابي ١/ ٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) مذكرات عرابي ١/ ٤٨٩، ٤٩٠؛ كرومر ١/ ٣٥٦، ٣٥٧؛ سرهنك ٢/ ٣٨٧، ٣٨٨.

(٣) كرومر ١/ ٣٥٨.

(٤) مذكرات عرابي ٢/ ٤٩٥؛ كرومر ١/ ٣٥٨ وما بعدها.

Readonly

الوحيد القادر على القيام بمهمة حفظ الأمن، وقد طلب عرابي حينها ثلاثة أشياء من الخديوي: إعلان رفض اللائحة وانسحاب الأسطولين، ووضع قانون أساسي تتحدد فيه صلاحيات الخديوي والوزراء، والثالثة ـ وهي الأهم في سياقنا الآن ـ «قطع المخابرات والعلاقات مباشرة مع الدولتين ومع عموم الدول إلا بواسطة الباب العالي»[١].

وهذا الطلب الثالث حين يصدر من عرابي في هذا التوقيت، فهو ذو دلالة بالغة على ثقته في سياسة السلطان عبد الحميد وموقفه من حركته، وتلك اللحظة كانت قبل وصول رسالتي عبد الحميد اللتين حملهما أسعد مع وفد درويش، وهو يعزز الثقة بوجود صلات سرية غير التي اكتشفناها.

قبلها كان السلطان عبد الحميد قد أرسل يحتج على هذه اللائحة المشتركة لدى الدول الأوروبية[٢]، فحمل ردُّها مزيدًا من الإهانة، إذ مع تصريحهم بأنهم لا يريدون تغيير الوضع الدولي في مصر إلا أنهم ربطوا هذا بحصول «تفاهم بين الدول الكبرى والدولة صاحبة السيادة الاسمية على مصر»، وكان طبيعيًّا أن تثير كلمة «الاسمية» حنق السلطان، لكنها في نفس الوقت تفيد بأن الدول الأوروبية تعارض تمامًا أي زيادة لنفوذه في مصر عن سلطة شكلية[٣].

وصلت بعثة درويش باشا إلى الإسكندرية (٧ يونيو ١٨٨٢م) فأرسل الخديوي وفدًا لاستقباله برئاسة علي ذو الفقار باشا وأرسل عرابي (ناظر الجهادية وقتها)

---

(١) سرهنك ٢/ ٣٨٨، وهو ينقل عن «البحر الزاخر في تاريخ الأوائل والأواخر» للوزير العرابي محمود فهمي وهو شاهد عيان.

(٢) انظر نص الاحتجاج عند: سرهنك ٢/ ٣٨٣.

(٣) كرومر ١/ ٣٤٠، ٣٤١، ٣٥١؛ سرهنك ٢/ ٣٨٤.

Readonly

وفدًا برئاسة يعقوب سامي باشا وكيل نظارة الجهادية، ورغم اعتراض الخديوي توفيق على وجود وفد من قِبَل عرابي وأوامري إلى محافظ الإسكندرية بمنعه إلا أن يعقوب سامي أصرَّ على أنه موفد من نظارة الجهادية ولن ينصرف إلا بأمر من عرابي، واستقل مركبًا آخر غير مركب وفد الخديوي لاستقبال درويش بابا قبل وصوله إلى الشاطئ بل وسبق بمركبه إليه، فاستقبله درويش باشا «بأعظم قبول، واختلى بسعادة يعقوب باشا وتحدث معه مليًّا، وبعدها وصل القاربان الآخران (قارب علي ذو الفقار وقارب محافظ الإسكندرية) وكانت مقابلتهما اعتيادية، ولما ركب ذو الدولة درويش باشا في الزورق المعد لركوبه استصحب معه سعادة يعقوب باشا وكيل الجهادية فقط وترك الآخرين»[١]، ثم لما انتقل إلى البر حاول أعوان الخديوي «أن يحولوا بين مندوب عرابي وبين الركوب صحبة درويش في عربته، فأخذه درويش بذراعه وأدخله معه في العربة»[٢]، وهو «الأمر الذي أسخط الخديوي أشد السخط»[٣].

كان من بين أعضاء الوفد أحـمد أسعد أفندي الذي حمل رسالتين سريتين إلى عرابي من أحمد راتب باشا ومن الشيخ محمد ظافر، وقد استعرضناهما آنفًا، وهاتان الرسالتان هما أخطر شيء في موضوعنا هذا الذي يحدد موقف السلطان عبد الحميد من الثورة العرابية.

تورد بعض المصادر أن البعثة كانت ذات وجهين، فدرويش مُرْسَلٌ للخديوي توفيق بينما السيد أسعد كان مرسلًا لعرابي، وكان لكل واحد منهما مخابرة مخصوصة

---

(١) الجميعي ص١٤٦، وهو ينقل عن وثيقة عثمانية؛ الخفيف ص٢٢١ وهو ينقل عن جون نينيه.

(٢) الخفيف ص٢٢١، وهو ينقل عن جون نينيه.

(٣) الخفيف ص٢٢٠.

Readonly

مع السلطان بتلغرافات الأرقام لا يعرفها الآخر، وأن تلك كانت وسيلة السلطان لمعرفة الحقائق عن طريقين ولإدارة المعركة السياسية عبر طرفين[١].

وبسبب من هذه الازدواجية اضطربت الآراء في تقييم درويش باشا وحقيقة دوره في النزاع القائم بين الخديوي والعرابيين، والذي نميل إليه أن درويش باشا كانت مهمته الأساسية دعم عرابي وتقييد الخديوي وكبح اندفاعه إلى الإنجليز والفرنسيين، وهذا ما نراه في «أفعاله»، ولطبيعة دوره هذا كان لا بد له أن يُظهر للخديوي أنه قد جاء داعمًا له، وهذا ما نراه في «أقواله»، ونقدِّر أنه قد جاء بتوصية تقول بأنه إذا لم يستطع دعم عرابي فعليه أن يعمل بكل طاقته لكي لا تقع البلاد في يد الإنجليز. وبهذه الرؤية تنسجم أفعاله وأقواله جميعًا كما تنسجم مع الموقف الطبيعي للسلطان العثماني الذي يريد المحافظة على سيادته في مصر كأولوية أولى. لذلك فما نميل إليه في تحليل مواقف درويش باشا هو قراءتها مع التفريق بين «أفعاله» و«أقواله».

أثناء مرور درويش باشا من الميناء إلى سراي رأس التين، وفي طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة، رأى كثيرًا من الجماهير وهي تهتف وتردد «ابعدوا السفن الأجنبية» و«اللائحة مرفوضة»، وكان عبد الله النديم ـ خطيب الثورة العرابية ـ قد سافر إلى الإسكندرية قبيل وصول الوفد وخطب في الناس بما أثار حماستهم وأذكى شعورهم الوطني[٢]. وبهذا المشهد يفسر بلنت طبيعة ما فعله درويش في دعم عرابي، ذلك أن بلنت يرى ويعتقد أنه كان مرسلًا لإخماد ثورة

---

(١) كرومر ١/ ٣٦٩؛ بلنت ص٢٢٥؛ إبراهيم المويلحي، ما هنالك، ص١١٥، ١١٦.

(٢) بلنت ص٢٢٦؛ الخفيف ٢٢٠، ٢٢١.

Readonly

عرابي إلا أنه منذ رأى هذا الشعور العارم أخذ يحتاط لنفسه[١].

استقبل الخديوي وفدَ درويش باشا بحفاوة في سراي الإسماعيلية وتعامل معه درويش باشا بجفاء، ثم زارهم في منزلهم بسراي الجزيرة، «وهناك أظهر له استياءه من حُسْنِ لقائه مندوب عرابي، ومن جفاء لهجته في مخاطبته إياه في سراي الإسماعيلية، فطَيَّبَ درويش خاطره مُظْهِرًا أنه ما جاء إلا لتثبيت سلطة الخديوي»[٢].

استقر الوفد في سراي الجزيرة، وهناك حضر إليه بعضُ العلماء منهم «الشيخ عليش والشيخ حسن العدوي وغيرهم من المنتمين إلى عرابي عن مساوئ الخديوي»[٣]، وكان يرد على الجميع بإجابة عامة مفادها أن السلطان سيُجري العدل وأنه قد أتى ليردّ للسلطان سلطته ويعيد النظام، ولم يُصَرِّح إلا للأتراك بأن عرابي سيُرْسَل إلى الآستانة، بينما كان الشيخ أسعد يطمئن عرابي ويخبره بالنوايا الحسنة للسلطان تجاهه[٤].

تفيد بعض المصادر أن الخديوي حاول كسب درويش إلى صفه فقدَّم له رشوة خمسين ألف جنيه، وحُليًّا قيمته خمسة وعشرون ألف جنيه[٥]، ويذكر بعض المؤرخين أن ذلك كان لأن توفيق شكَّ في نيات درويش وأوجس منه خيفة[٦]، ويصرح جون نينيه بأن درويشًا كانت لديه أوامر سرية بأن يعمل على خلع توفيق إن

---

(١) بلنت ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٢) الخفيف ص٢٢١، وهو ينقل عن جون نينيه.

(٣) الجميعي ص١٤٧.

(٤) بلنت ص٢٢٦.

(٥) بلنت ص٢٢٦.

(٦) الخفيف ص٢٢٣.

Readonly

أمكنه[١]، ويذكر كرومر أن درويشًا كان يعمل على عرقلة التدخل الأجنبي من خلال ربط نفسه بقناصل ألمانيا وإيطاليا والنمسا[٢]، وهو بهذا يعمل ضد الخديوي، وحتى المؤرخين الذين يرون أن درويشًا صار بعد هذه الرشوة منحازًا إلى الخديوي كبلنت يردف قائلًا: «ولكن درويشًا مع ذلك لم يحاول أن يضرب عرابي ضربة قاضية»[٣].

وكان اليوم التالي هو يوم الجمعة (٩ يونيو ١٨٨٢م)، فصلَّاها في الأزهر فتقدم نحوه عدد من العلماء ومعهم عريضة وَقَّعوا عليها، ووقع عليها عدد كبير من الناس، يرفضون الإنذار الأجنبي وإبعاد عرابي، ثم زاره وفدٌ منهم في مقره بسراي الجزيرة، فكرروا طلبهم منه أن يقف مع حركة الشعب وأن يرفض المذكرة المشتركة ويرفض إبعاد عرابي، وهو الموقف الذي يضادّ موقف الخديوي، وكانت جرأة العلماء وشجاعتهم مما جعله يفزع فيرد بعنف على المتحدث عنهم قائلًا بأنه ما جاء هنا ليتلقى النصائح بل جاء ليأمر أوامره، ثم صرفهم بجفاء وخشونة، وأنعم بالحلة العثمانية على المشايخ المنحازين للخديوي وهم أربعة: الشيخ الإمبابي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ العباسي، والشيخ البحراوي، والشيخ السادات[٤].

خرج وفد المشايخ من عنده في غضب وعزموا أن يردُّوا عليه ما فعل، فتحدث كلٌّ منهم في جَمْعِه وبين أصحابه، وسرت في البلاد مشاعر سخط على ما فعله درويش مع وفد العلماء، وهو ما فُسِّر بأنه انحياز للخديوي ضد عرابي وحركة الشعب، فوصلت إلى مقره رسائل الاستنكار من الأعيان على ما فعله مع المشايخ،

---

(١) الخفيف ص٢٢٠.

(٢) كرومر ١/ ٣٦٩، ٣٧٠.

(٣) بلنت ص٢٢٦.

(٤) كرومر ١/ ٣٧١؛ بلنت ص٢٢٦؛ الخفيف ص٢٢١.

Readonly

وعقدت اجتماعات بأنحاء المدينة، ونظَّم طلبة الأزهر اجتماعًا فيه في اليوم التالي وخطب فيه عبد الله النديم واحدة من خطبه البليغة التي أثارت النفوس وأشعلت حماستها[١].

ساعتها طلب درويش أن يقابل عرابي ومحمود سامي البارودي، وكان إلى ذلك الوقت لم يطلب لقاءهما، وما جرى في هذا اللقاء (الذي انعقد ظهر السبت: ١٠ يونيو ١٨٨٢م) هو رواية السويسري جون نينيه الذي يذكر أنه سمعه من عرابي، وخلاصته أن درويش باشا أظهر المودة لعرابي والبارودي وأجلسهما إلى جواره، وتحدث في لهجة مصارحة ودية وأنه منهما بمقام الأب، إذ كان درويش حينئذ في السبعين من عمره، وأن الهدف الأول له هو مقاومة التدخل الأجنبي والعمل على رحيل الأساطيل الأجنبية التي هي إهانة للسلطان وتهديد لمصر، وأن هذا الهدف ينبغي أن يكون هدف الجميع، ولهذا عرض عليهم أن يعتزلا مناصب الجندية ـ ولو في الظاهر فقط ـ أو ليسافر عرابي إلى الآستانة ليسترضي السلطان ويقيم هناك بعض الوقت. فأجابه عرابي بأنه يتحمل الآن بالفعل مسؤولية الأمن وحفظ النظام، وأنه لا يفرط في هذه المسؤولية إلا إن وصله قرار إقالة صريح يُخلي مسؤوليته من كل ما يقع، فإذا صدر هذا القرار فسيذهب إلى الآستانة كفرد من أغمار الناس. فطلب درويش أن يبرق الآن إلى الإسكندرية وقائد حاميتها أنه قد استقال من مسؤوليته وأنه من هذه اللحظة وكيل درويش في العمل لا أكثر، وبعد غد (الإثنين ١٢ يونيو ١٨٨٢م) سيجتمع الخديوي مع القناصل ليصدر قرار الإعفاء التام بحضور الجميع. ورفض عرابي أن يتخلى عن مسؤولياته قبل وصول قرار الإقالة، وعلى هذا انتهى الاجتماع[٢].

---

(١) بلنت ص٢٢٧، ٢٤٣، ٢٤٤؛ الخفيف ص٢٢١.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٧٣٨؛ بلنت ص٢٢٧، ٢٢٨.

Readonly

في اليوم التالي (١١ يونيو ١٨٨٢م) وقعت حادثة الإسكندرية التي كانت الذريعة الأساسية للتدخل الأجنبي، والتي كانت تصب تمامًا في مصلحة الخديوي والإنجليز، إذ تتيح لهما الحديث عن عدم أهلية عرابي لحفظ الأمن والحديث عن اضطراب الأحوال بمصر وتهدد أرواح ومصالح الأجانب. غير أن الذي نريد التركيز عليه هنا هو موقف درويش باشا.

لئن كان من المفهوم التشكك في درويش باشا قبل هذه المذبحة، فإن سلوكه بعد المذبحة سلوك رجل دولة عثماني يريد مقاومة التدخل الأجنبي ونزع ذرائعه، وهذا بغض النظر عن موقفه الشخصي من عرابي، إلا أنه كان يدير هذه المسألة وهو إلى جوار الخديوي توفيق لا إلى جوار عرابي، وذلك هو موقعه الطبيعي والصحيح، سواء من جهة السياسة إذ لا يزال الخديوي رأس السلطة ونائب السلطان في مصر، أو من جهة إدارة المعركة إذ الخطر يُتَوَقَّع من الخديوي الذي يتواصل وينحاز إلى الأجانب لا من عرابي الذي يجتمع الأجانب ضده. هذا مع أننا نميل حتى لنكاد نجزم أن درويش باشا كان منحازًا إلى عرابي منذ البداية ضد الخديوي توفيق، هذا ما تكشفه طبيعة المواقف سواء من قِبَل الخديوي أو من المصادر الغربية، كما أن هذا ما يستقيم مع طبيعة الوضع، فلا يُتوقع أن ينحاز إلى توفيق مبعوث عثماني قادم من عند سلطان لا يرحب بتوفيق ولا يؤيده ويتخوف من أن يكون سببًا في احتلال مصر وانتزاعها من الدولة العثمانية.

ما إن وقعت أحداث الإسكندرية حتى جاء طلعت باشا سكرتير الخديوي إلى درويش باشا «ليبلغه بأن فتنة وقعت في الإسكندرية، وأنها استمرت ثلاث ساعات، وأن الأوربيين والمسيحيين كانوا يُقتلون أينما وجدوا، وقد أدى طلعت الرسالة في مظهر المنتصر، وظهر عليه سرور شديد، وكأنما كان يريد أن يقول إن عرابي الذي

Readonly

عمل من أجله ما عمل كان سبب ما حدث»[١]، بل يتوقع بلنت أن حدوث المذبحة كان مرتبًا بغرض تيسير قبض مبعوث السلطان على عرابي[٢].

وبعد الحادثة بيومين (١٣ يونيو ١٨٨٢م) أرسل ماليت إلى جرانفل يقول: «بعثة درويش قد فشلت فشلًا تامًا في مهمتها، وأن مندوب السلطان اضطر إلى الخضوع لسلطة عرابي، وأنه أدلى إلى ممثلي الدول بقوله: إنه تحت ضغط الظروف الملحة يشارك عرابي باشا في تنفيذ أوامر الخديوي، وإنه وزع الأوسمة على العرابيين وعلى الخديوين، وأن تأثيره قد ذهب»[٣]، وقد أبلغ عبد الحميد دوفرين في إسطنبول كما أبلغ سفيرُه في لندن الحكومةَ البريطانية أن الوضع قد استقر وأن عرابي أعلن إخلاصه وخضوعه للسلطان ولم يعد مجال للقلق وأنه لهذا أنعم عليه بالنيشان والأوسمة[٤].

هذه البرقية التي هي بعد الحادثة بيومين فقط تشير إلى مسألة توزيع الأوسمة على العرابيين، وهو الأمر الذي سيقع بعدها بعشرين يومًا، في (٤ يوليو ١٨٨٢م) وسينشر بالوقائع المصرية (٥ يوليو ١٨٨٢م)، أي أن الحديث في تكريم رجال الجيش وتكريم عرابي تسرب عن درويش بعد حادثة الإسكندرية بيومين فحسب، وهذا يشير إلى عزم قديم عند درويش باشا من قبل وقوع الحادثة،

---

(١) الخفيف ص٢٣٥.

(٢) بلت ص٢٣١.

(٣) كرومر ١/ ٣٧٣؛ الخفيف ص٢٣٩. وهنا أخطأ مترجم كتاب كرومر في طبعة المركز القومي فجعل التاريخ (٣١ يونيو، وكتبها «الحادي والثلاثين») وليس (١٣ يونيو)، وليس في شهر يونيو يوم ٣١ أصلًا.

(٤) كرومر ١/ ٣٧٣.

Readonly

أو على الأقل عزمٌ تحدث فيه عندما شاهد مجهود رجال الجيش العرابيين في إخماد الفتنة بالإسكندرية وإعادتها إلى حفظ الأمن.

يؤكد ذلك أنه بعد حادثة الإسكندرية، ذهب الخديوي إلى الإسكندرية وكان معه درويش باشا، وهناك اجتمع القناصل الأوروبية ـ ماعدا قنصلي إنجلترا وفرنسا، إذ بقيا في القاهرة ـ وأعرب لهم الخديوي عن أسفه ووعدهم أن يصرف عنايته إلى عدم تكررها، ومثل ذلك قال درويش باشا لكنه أضاف أنه «يثق وثوقًا تامًا بحسن نيات الجهادية ورجالها ونبالة مقاصدهم وأنه على يقين من أنهم يحافظون على الراحة العمومية ما استطاعوا»[١]. لكن الخديوي أسرَّ إلى كولفن (المراقب العام الإنجليزي) أنه لا يثق باستمرار الأمن وأنه يعتبر مهمة درويش باشا قد انتهت ولم تفلح (في تثبيت سلطته) وأنه لا يرى بُدًّا من وجوب مجيء جنود عثمانية لإعادة الراحة والطمأنينة[٢]، ويفسر بعض المؤرخين موقف الخديوي هذا بأنه كان «ردًّا على ما أثنى به درويش على رجال الجهادية»[٣]، وبهذا يكون الخديوي قد فهم أن درويش باشا يعمل ضده.

وكان درويش باشا مساهمًا في انقسام الموقف الأوروبي، إذ سعى في دفع قنصلي ألمانيا وأستريا لدى الخديوي ليشكل وزارة جديدة يكون عرابي وزير الجهادية والبحرية فيها لتستقر الأمور، وقد نجح هذا المسعى حين وافق إسماعيل راغب على تولي الحكومة، وكان الوصول إلى الحكومة هو نقطة نجاح كبيرة لدرويش باشا اعتمدت عليها الدبلوماسية العثمانية في منع عقد مؤتمر أوروبي

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٥١٢.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥١٢.

(٣) الخفيف ٢٥٢.

Readonly

يتناول المسألة المصرية إذ بتشكيل الحكومة تنتهي حالة الاضطراب لتبدأ حالة استقرار ولا يعود ثمة ما ينبغي أن ينعقد مؤتمر لأجله[١]، وكانت برقية درويش باشا تشير إلى استقرار الأحوال وأن الجميع من الأهالي والجانب راضون عما وصل إليه الحال بعد تأليف الوزارة[٢].

أما أهم وأخطر ما فعله درويش باشا فهو التكريم العلني لعرابي وجنوده، مما رفع من شأن عرابي ورسخ مكانته، وهذا في الوقت الذي كان عرابي نفسه هو مركز الاشتباك والأزمة الذي تُلِحُّ الدول الأوروبية على إبعاده عن مصر كلها لا عن مجرد مناصبه العسكرية.

وقد أثبت عرابي هذا في التحقيق معه، ثم في مذكراته، وفيها: «لما حضر الوفد العثماني تحت رياسة دولتلو درويش باشا رأى البلاد المصرية في غاية الهدوء والسكون ولم يكن بها أدنى شيء يدل على ما يوجب تلك الارتباكات، كما أنه رأى الجيش المصري في غاية الطاعة والانقياد، ملازمًا لخدماته وواجباته العسكرية، وعرض عن ذلك للباب العالي بالآستانة، وترتب على ذلك تشريفنا بالنيشان المجيدي.. كما أنه حضرت جملة نياشين برسم ضباط الجيش إعلانًا على حسن طاعته وانقياده»[٣].

ومما يزيد في الدلالة هنا أنه «لم يُستشر توفيق في الإنعامات جميعًا، وقد وزعها درويش مباشرة على أصحابها باسم السلطان»[٤].

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٥١٥، ٥٢٧، ٥٢٨.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥٤٤ (تعليق الجميعي).

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٧٣٩.

(٤) الخفيف ص٢١٩، نقلا عن الكتاب الأزرق الإنجليزي المختص بوثائق مصر، رقم ١٧، ص٤٨.

Readonly

«ولا ريب أن توفيقًا على الرغم مما أنعم به عليه، يفطن إلى معنى الإنعام على عرابي، فهو تأنيب عملي لتوفيق على صلته بالدولتين، وهو في الوقت نفسه دليل على أن السلطان يريد أن يقول إنه يرى في عرابي المدافع عن حقوقه في مصر.. وقد وصل الوسام ومعه فرمان من السلطان في اليوم الرابع من يوليو وسلمهما الخديوي بيده لعرابي، معبرًا له عن رضائه عنه وثنائه عليه لإخلاصه في أداء خدماته وانتباهه إلى واجبه. وشكره عرابي شكرًا حارًا على هذا العطف، كما أبرق عرابي إلى الآستانة يرفع شكره إلى السلطان، وجاءته برقية تتضمن رضاء السلطان عنه وثناءه على حسن سلوكه وإخلاصه لواجبه.. وقد أظهر عرابي كياسة ولباقة في استلام الوسام، وذلك أنه أبى أن يتسلمه إلا من الخديوي حتى لا يكون في تسلمه من مندوب السلطان معنى التحدي للخديوي»[1].

وفي نفس الوقت حاول عبد الحميد تسكين توفيق وتخديره هو وحاشيته؛ لكي لا يلقي بنفسه إلى الإنجليز، وهو ما تعبر عنه هذه البرقية (٢٥ يونيو ١٨٨٢م) من كارتريت (وكيل القنصل الإنجليزي بالإسكندرية) إلى وزير الخارجية الإنجليزية جرانفل، والتي تشرح وجهة نظر الخديوي، تقول: «أخبر الخديوي السير أوكلند كلفن أن السلطان منح سموه منحة من الجواهر علامة على الرعاية وحسن النظرة إلى مقامه، وأضاف سموه أن السلطان مع الأسف قد أنعم على عرابي بالوسام المجيدي الأكبر، وأنه أنعم على سلطان باشا بوسام روميلي بيلربي. ولكن الخديوي يقرر أنَّ جميع جهود درويش باشا في تسكين ثائرة عرابي باشا بالملاينة أو بالقوة قد منيت بالفشل التام، وأن درويش نفسه يتخذ المسألة لهوًا وهزرًا، ويتمسك عرابي الآن بأن ما يتضمنه هذا الإنعام الأخير عليه من الرضا والعفو لا يدع ثمة ضرورة؛

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٧٣٦؛ الخفيف ص٢١٩.

Readonly

لأن يتخذ خطوات أخرى يبرر بها سلوكه، ويبدو من درويش باشا أنه يتراجع عن أن يبذل أية محاولات أخرى للتأثير عليه»[١].

وقد كان درويش باشا حاضرًا الاجتماع الذي انعقد لمناقشة تهديد الأدميرال سيمور بضرب الإسكندرية، ومعه السيد أحمد أسعد، وهو الاجتماع الذي تقرر فيه مقاومة العدوان الإنجليزي، وفي نهاية اليوم الأول للحرب ذهب مبعوثون من طرف الخديوي ودرويش باشا لشكر رجال الجيش والثناء على صبرهم وصمودهم[٢]، وإنما نذكر هذا هنا لنقول بأن حضور درويش باشا هو الذي جعل قرار مقاومة العدوان رسميًّا، وجعل الهجوم الإنجليزي يظهر أنَّه ضد السلطان، وجعل مندوبًا من طرف الخديوي يذهب يثني على رجال الجيش ويزورهم، وهي أمور لم يكن ليفعلها الخديوي لو لم يكن درويش موجودًا إذ هو متحالف مع الإنجليز وينظر إليهم كمنقذين من البداية، ومن ثم فقد كان وجود درويش هو إسباغ الشرعية بما فيها شرعية الخديوي على عمل عرابي والجيش، ومنع وقوع انشقاق في تلك اللحظات بين صفوفهم. وهي الشرعية التي سيستند إليها عرابي في مواصلة المقاومة وفي الرد على الخديوي وعزله وفي محاكمته فيما بعد، ومع أن القوانين لا تسمن ولا تغني في حضرة القوة والسلاح إلَّا أنَّ الشرعية من أهم وأبلغ ما يحتاجه الثائر المجاهد في لحظة الكفاح.

وتعد اللحظة التي انتهت فيها مهمة درويش باشا هي اللحظة التي استطاع فيها الخديوي ومن معه الفرار من سراي الرمل إلى سراي رأس التين (١٥ يوليو ١٨٨٢م) فيصير تحت حماية الإنجليز الذين بدؤوا يومها السيطرة على الإسكندرية، فهنا صار

---

(١) الخفيف ص٢١٨.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥٦٤، ٥٧٤؛ بلنت ص٢٧٣.

Readonly

موقف الخديوي قويًّا، وصار يمكنه إعلان ولائه وانحيازه للإنجليز، وإعلان عصيان عرابي وعزله، وإثارة الشقاق في صفوف الساسة ورجال الجيش. عندئذ عاد درويش باشا إلى الآستانة (١٩ يوليو ١٨٨٢م)، ويذكر عرابي أنه «استُدْعِي» إليها[١].

فشلت مهمة درويش باشا كما فشلت كل الجهود السياسية تحت قصف المدافع الإنجليزية، فإن الإنجليز سبقوا ـ أو بالأحرى: سحقوا ـ سائر المساعي الدبلوماسية وانفردوا بالعمل العسكري الذي ترتب عليه احتلال الإسكندرية بينما درويش لا يزال في القاهرة ومؤتمر الوكلاء الأوروبيين لا يزال منعقدًا في الآستانة، فكما انفض المؤتمر عن غير نتيجة انتهت بعثة درويش باشا عن غير نتيجة، وصار الجميع يترقب ما تحكم به الحرب فيما كانوا فيه يختلفون!

المثير للتساؤل في أمر بعثة درويش باشا أن عرابي في مذكراته تناولها تناولًا سريعًا بإشارات مقتضبة، مع أنه شهد بأن موقف درويش كان في صالحه سواء في تفسير الإنعام عليه بالوسام المجيدي أو في سياق تكذيبه تقرير اللورد دوفرين أمام مؤتمر الآستانة[٢]، ولا أعرف لهذا تفسيرًا إلا أنه يترجح عندي أن عرابي ظل محافظًا على سرية ما كان بينه وبين السلطان العثماني حتى لحظاته الأخيرة، ذلك أن عرابي عاد من المنفى وكتب مذكراته ولا يزال السلطان عبد الحميد في السلطنة، ولا تزال المشكلات بينه وبين الإنجليز على مصر قائمة، حتى إن رسالتي راتب باشا والشيخ ظافر لم ينشرهما عرابي وإنما نشرهما بعد أن عُرِفتا حين حازهما الجيش الإنجليزي أثناء الاحتلال وترجمهما بلنت، فهو لم يروِ إلا ما كان قد عُرِف واشتهر. والله أعلم!

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٦؛ بلنت ص ٢٨٠.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥٤٠.

Readonly

هذا هو الاستعراض العام لما فعلته بعثة درويش باشا، وقد تمسك مؤرخو المدرسة القومية المصرية بأربعة أمور جعلوها أدلة على انحياز بعثة درويش باشا ضد عرابي، وهي:

أولًا: تقريره بأن عرابي يسعى لقيام خلافة عربية تجمع الناطقين بالضاد، وأن نجاح حركته سيؤدي إلى انفصال الشام والعراق والحجاز[١].

ثانيًا: طلبه من عرابي السفر إلى الآستانة لشكر السلطان على الوسام المجيدي[٢]، وهو الأمر الذي يعني تفكيك الحركة العرابية بانتقال قائدها إلى خارج مصر، ويعدّ تنفيذًا عمليًا لطلب اللائحة المشتركة بإبعاد عرابي لكن في صيغة التكريم.

ثالثًا: تودده لعرابي وطلبه أن يزور السفن الراسية على شاطئ الإسكندرية ومنها اليخت السلطاني عز الدين الذي جاء بالوفد، ثم أعطى أوامره لقبطانه بالرحيل مباشرة بمجرد صعود عرابي إلى ظهرها[٣].

رابعًا: أن درويش باشا ظل مرافقًا للخديوي بعد ضرب الإسكندرية، حتى لقد قال عرابي في برقية بعث بها إلى بسيم بك من قرناء الحضرة السلطانية، بتاريخ ١٨ يوليو ١٨٨٢م: «مع أنه كان من الواجب على دولته ذمة وديانة أن ينصح الخديوي بأن يتوجها معًا إلى العاصمة مقر الحكومة ليكونا خلف الجيش لا أن يتركا جيش الإسلام الشاهاني وينحازوا إلى جيش العدو المحارب»[٤].

---

(١) الجميعي ص١٥٤.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٧٣٩.

(٣) الجميعي ص١٤٧، ١٥٤، وهو ينقل عن وثيقة إنجليزية؛ بلنت ص٢٢٣.

(٤) مذكرات عرابي ٢/ ٧٦٢.

Readonly

وبداية نقول: لو وافقنا على أن هذه الأمور الأربعة هي دلائل واضحة على انحياز درويش ضد الحركة العرابية فإن موقف درويش باشا نفسه لا يساوي موقف الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني وهو الموضوع الأساسي الذي نناقشه هنا، بل غاية ما يمكن قوله إن وافقنا على دلالة هذه الأمور أن هذا هو موقف درويش باشا الذي جاء لتثبيت سلطة الخديوي، بينما كان في نفس الوفد الشيخ أحمد أسعد المكلف بدعم عرابي، وتوصيل الرسائل السرية الداعمة له بل المحرضة له على خلع توفيق، وقد أخذ هذا في جمع توقيعات من الأهالي محررة ضد الخديوي «ومختومة بألفي خاتم»[1].

ثم نقول ثانيًا: إن هذه الأمور الأربعة قد تكون من أثر رشوة الخديوي توفيق، أو من أثر إقناعه درويش باشا بأن حركة عرابي تمثل خطرًا على السلطنة، سواء من جهة أنها تكرار لما فعله المصريون قديمًا من تولية محمد علي باشا الذي انتهى أمره إلى قتال الدولة العثمانية وتكوين دولة مستقلة لا سيادة للسلطان عليها، وهو ما قد يُغري البلاد العربية الأخرى التي تأثرت بالحركة العرابية ونظرت إلى عرابي كزعيم (وزعامة عرابي قد وصلت حقًّا إلى الهند وأفغانستان شرقًا وإلى بلاد المغرب غربًا)، أو من جهة أنها الوسيلة التي سيتذرع بها الأجانب للتدخل في مصر وانتزاعها من سيادة الدولة العثمانية. وهذا الموقف حين يُصَوَّر بهذا الشكل أمام رجل دولة عثماني همُّه الأول ألا تؤخذ مصر من السلطنة العثمانية فإنه يُتَوَقَّع منه أن يتخذ موقفًا منحازًا ضد هذه الحركة من جهة مآلاتها السياسية حتى وإن كان معجبًا بها في نفسه.

---

(١) الجميعي ص١٤٨، وهو وينقل عن وثيقة عثمانية.

Readonly

ثم نقول ثالثًا: إن هذه الأمور الأربعة يقابلها غيرها مما فعله درويش باشا من حسن استقبال مندوب الحركة العرابية في السفينة وحرصه على اصطحابه معه إلى عربته الخاصة ومقابلته توفيقًا أول الأمر بجفاء في قصره، والتقائه بالعلماء والأعيان وهم رجال الثورة، وعدم اتخاذه قط موقفًا علنيًّا ضد عرابي وحركته، أو وصمها بعصيان الخديوي والسلطان، ثم هذا التكريم العلني بالوسام المجيدي ورتبة الباشوية دون استشارة توفيق.. فالموازنة بين هذه المواقف جميعًا تقول على أقل تقدير بأن درويش باشا كان محايدًا أو كان يدير معركة توازن يداري فيها كل طرف ويظهر بعض الانحياز إليه كي يستمر في أداء مهمته دون أن يفقد أحدهما.

ثم نقول رابعًا: إن ما نميل إليه في تفسير مواقف درويش باشا بعد كل هذا أنه جاء من البداية داعمًا لعرابي، إذ قدم من عند سلطان لا يحب توفيقًا ويعمل على خلعه وتولية غيره، فإن لم يكن غيره هذا من رجال العرابيين فليكن أميرًا آخر من أسرة محمد علي كالأمير حليم وهو أقرب إلى الانتماء العثماني، لكن الأهم عنده هو بقاء مصر في ظل السلطنة العثمانية وعدم تدخل الأجانب فيها، فمن هاهنا فإن الأوفق له ولمهمته أن تسعي بكل طريقة لتحقيق هذا الهدف ببقائه إلى جانب الخديوي حتى اللحظات الأخيرة، إذ هناك يكون على مقربة من تواصلاته مع الإنجليز ومن متابعة الموقف، ولا يفيد شيئًا وجوده مع عرابي أو جيشه فهو مجرد مبعوث سياسي! ولقد أفاد وجودهُ إلى جانب الخديوي الحركةَ العرابية حتى وقوع ضرب الإسكندرية بل حتى فرار الخديوي إليهم.

ولا نستبعد أن يدبر رجل دولة عثماني ليخرج عرابي من مصر إذا قدَّر أن خروجه ينزع ذرائع الاحتلال الأجنبي، ونحن وإن كنا نرى أن هذا من الخطأ لأن القوي المحتل لا يبحث عن ذرائع وإنما عن مبررات فإن لم يجدها اختلقها، لكننا

Readonly

نرى أيضًا أن سياسة نزع ذرائعه مما يُتَفَهَّم وتختلف فيه الأنظار، وليس يعيب درويشًا أن يفكر في إخراج عرابي من جهة المبدأ، إلا أنه مع هذا لم يتغير على عرابي لما رفض عرضه بالسفر إلى الآستانة، فقد قال عرابي بأن الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد، إذ هم لا يزالون يزدحمون عليه في كل وقت، فلو علموا بنية السفر هذه فإنهم يمنعونه «مما يحيق بهم من الضرر في المستقبل، ويترتب على ذلك حدوث فتنة داخلية التي دائمًا نحاذر من الوقوع فيها. فعند انتهاء الأمر وانصراف المراكب الحربية من المياه المصرية يمكن أن نتخلص من هذا الأمر المحفوف بالمصاعب ونتوجه إلى الآستانة»[١]، ومع هذا فإن هذا الجواب لم يعطل وصول الأوسمة من الآستانة، ولم يؤد إلى موقف مضاد من درويش لعرابي، كذلك فإن عرابي رفض زيارة السفن، وتعلل بأنَّه ضابط مشاة لا شأن له بالبحر، وأن زيارة السفن من إضاعة الوقت[٢]، ولم يؤد هذا إلى شيء معلن ضد عرابي وحركته من قبل درويش باشا. بل إنَّ الانطباع الذي ساد لدى العرابيين بعد لقائهم درويش باشا كان واضحًا، وقد نقل هذا الانطباع صابونجي في برقية إلى بلنت (١٠ يونيو ١٨٨٢م) جاء فيها: «الباب العالي لا يميل إلى مقترحات أوروبا، وعرابي يلح على أنه لن يستقر السلام حتى يخرج كولفن وماليت، وهو سيقاوم هجوم الأتراك، ولن يسافر إلى الآستانة. عين الشيخ عليش شيخًا للأزهر. قرر الباب العالي خلع الخديوي»[٣].

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٧٣٩؛ بلنت ص٢٣٧ (الحاشية).

(٢) الجميعي ص١٤٧، ١٤٨.

(٣) بلنت ص٢٤٠. وتبدو عبارة «وهو سيقاوم هجوم الأتراك» عبارة شاذة بين هذه البرقية، إذ ما الداعي لحصول هجوم من الأتراك أصلًا في ظل تجاوب السلطان مع الحركة، فهو لم يقبل مقترحات أوروبا وهو يوشك على خلع الخديوي؟! وانظر: ص٢٤٢.

Readonly

ثم إن التخوفات الصريحة التي أبداها الخديوي والتي كان يفضي بها إلى الإنجليز تقطع بأن عمل درويش باشا لم يكن ضد عرابي، وقد استمرت مخاوفه حتى بعد رحيل درويش باشا، ولهذا فعندما دار الحديث عن عودة درويش باشا على رأس قوة عثمانية من خمسة آلاف جندي لدعم سلطته، أفضى توفيق في (٣١ يوليو ١٨٨٢م) إلى كولفن أنه «يتوجس خيفة كبيرة من التآمر التركي، وأنه على ثقة من أن الأتراك سيكونون تحت سيطرة [إنجليزية] محكمة»[(١)]، وهذا أمر بالغ الدلالة في تحليل موقف درويش ودور بعثته[(٢)]!

٥. المجهود الدبلوماسي ومؤتمر الآستانة

دخلت الدبلوماسية العثمانية والإنجليزية في سباق محموم تجاه المسألة المصرية، فقد عملت إنجلترا بكل مجهودها لدعم سلطة الخديوي وإنهاء هذه الحركة العرابية لتعود الأمور إلى نصابها كما كانت في عهد الخديوي إسماعيل، وطالما ظلت الحركة العرابية تتمدد فإنَّ هذا يعرض نفوذها الكبير في مصر لخطر شديد. لهذا فقد حشدت طاقتها لإقصاء عرابي وزعماء الجيش المصري الموالين له بأي طريقة، وكان مطلب اللائحة المشتركة هو إخراجه من مصر مع أوسمته ونياشينه وتفكيك التجمع العسكري من حوله، فلما رفض عرابي هذا سعت بكل سبيل لدى السلطان العثماني للانحياز صراحة وعلنًا إلى الخديوي والقيام بتدعيم

---

(١) كرومر ١/ ٣٩٦.

(٢) حتى بلنت الذي لا يحب عبد الحميد ولا درويش، لم يجد إلا أن يفسر دور بعثة درويش في ظل الرسائل السرية المرسلة من عبد الحميد إلى عرابي، فيقول: «هما يوضحان ما حدث بعد ذلك في يونيه وقت بعثة درويش». انظر: بلنت ص١٩١.

Readonly

سلطته ضد عرابي[١]، فلما لم يجد هذا قبولًا لدى السلطان الذي بذل كل مجهود يعارض السياسة الإنجليزية، صارت الدبلوماسية البريطانية إلى عقد مؤتمر في الآستانة لبحث المسألة المصرية كي تشترك فيه كل الدول الأوروبية.

كان هذا المؤتمر واحدًا من المعارك الدبلوماسية الواسعة التي خاضتها السياستان العثمانية والإنجليزية، ولو كان النصر لمنطق السياسة وحده لانتصر العثمانيون، لكن السلاح والبوارج والأساطيل حسمت الموقف على الأرض بينما المؤتمر لا يزال منعقدًا لم يصل إلى رأي. لكن مقصودنا الآن هو فهم سياسة السلطان عبد الحميد الثاني تجاه الثورة العرابية من خلال هذه المدافعة السياسية في مؤتمر الآستانة.

عمل عبد الحميد ما استطاع على عدم انعقاد المؤتمر، فهو يناقش شأنًا داخليًّا مصريًّا لا يتعلق بالدول الأوروبية، وصار يتذرع بكل نجاح يجري في المسألة المصرية لكي يقول بأن الأمر انتهى والمسألة قد سويت ولا داعي لعقد مؤتمر، كما اجتهد في إقناع الدول الأوروربية بأن هذا المؤتمر هو ذريعة الإنجليز لاحتلال مصر والسيطرة عليها والانفراد بها وهو ما يعرض مصالح الدول الأوروبية الأخرى ـ سواء في مصر نفسها أو في المنطقة ـ إلى الضرر. بينما سعت إنجلترا بكل ما استطاعت لتقول بأن مطلبها عقد مؤتمر هو نفسه دليل عدم وجود نية ولا رغبة في الانفراد بشأن مصر، وأنه مؤتمر يطلب من السلطان العثماني التدخل بجنوده في مصر، وأن دوافع عقد المؤتمر لا تزال موجودة وتزداد إلحاحًا، فتذرعت لهذا بكل وسيلة تفيد بأن الوضع في مصر مضطرب ومتوتر، وهو ما يؤثر على مصالح

---

(١) انظر مجهود السياسة الأجنبية في محاولة الحصول على دعم السلطان عبد الحميد ضد عرابي عند كرومر ١/ ٣٤٩ وما بعدها.

Readonly

الأجانب وأرواحهم، وقد عملت صحافتها على هذا بكل الوسائل، كما أنَّ دوافع عرابي وطموحاته لو تحققت واستطاع إزاحة الخديوي أو تضييق صلاحياته فإنها ستؤدي إلى ضرب النفوذ الأجنبي في مصر[١].

بدأ الموقف العثماني بتصلب تام، إذ حاول عبد الحميد جعل رحيل الأساطيل الأجنبية عن مصر شرطًا لإرساله وفد درويش باشا، إلا أنَّ فكرة المؤتمر قطعت عليه تمنعه هذا، فسارع بإرسال الوفد كي لا ينفرد الأوروبيون ببحث المسألة[٢]، ثم عمل على أن يكون هذا الوفد هو وسيلته لقطع الطريق عليهم في المؤتمر، فقد كان «شديد التمنع من عقد المؤتمر، ويعارض في تأليفه كل المعارضة»[٣]، وبمجرد تشكل حكومة إسماعيل راغب باشا دعا وزير الخارجية العثماني إليه تراجمة السفارات الأجنبية وسألهم «أن يبلغ كل منهم حكومته شكر الجناب السلطاني على المساعدة التي أبدتها في تسوية المسألة المصرية وقال: من رأي الجناب السلطاني في أنه بناء على صيرورة جميع المسائل إلى حالة النظام بعد أن تشكلت الوزارة الجديدة على هيئتها المعروفة وصورتها المعلومة لم يبق لزوم لعقد مؤتمر دولي لعدم بقاء شيء يتفاوض المؤتمرون في شأنه»[٤]، وبهذا لم تعد الدولة العثمانية تعترض على الاشتراك في المؤتمر بل هي تعارض انعقاده في الآستانة أصلًا، مع أنَّ وزير الخارجية العثماني أشار إلى أنه «لا يليق بأوروبا أن تعقد هذا الاجتماع في غير العاصمة العثمانية كما أنه لا يليق بوكلائها أن يتذاكروا في المسألة المصرية

---

(١) انظر: مذكرات عرابي ٢/ ٥٢٤ وما بعدها، ٥٣٨ وما بعدها، ٥٤٥.

(٢) كرومر ١/ ٣٦٧، ٣٦٨.

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٥٢٤.

(٤) مذكرات عرابي ٢/ ٥٢٥؛ كرومر ١/ ٣٦٩.

من غير علم الجناب السلطاني فإنها تعلم جيدًا أنَّ قراراتهم لا تكون حائزة لديه قبولًا إذا صدرت على غير علم منه»[١]، وكان مفهومًا لدى إنجلترا أن «ما صرَّح به وزير الخارجية العثمانية ليس إلا من قبيل السعي الذي يحاول به الجناب السلطاني في تأجيل المؤتمر أو إبطاله.. فلا شكَّ أنَّ الحكومة العثمانية تنتهز الفرصة فتفسد جميع أعمالنا المتعلقة بها»[٢].

وبدأ الموقف الإنجليزي بطلب بسيطٍ لكنه شديد المراوغة والحساسية، إذ أرسلت ـ بالاشتراك مع فرنسا ـ إلى السلطان عبد الحميد «لائحة مشتركة تطلبان فيها أن يأمر عرابي باشا وسائر زعماء الحزب العسكري أمرًا قطعيًّا بالذهاب إلى الآستانة»[٣]، ومثل هذا المطلب في هذا التوقيت يساوي تثبيت سلطة الخديوي وتفكيك الثورة العرابية وإضاعة الوقت.

وإزاء رفض السلطان ورفض عرابي عرضت إنجلترا ـ بالاشتراك مع فرنسا ـ طلبًا بسيطًا ولكنه أشد حساسية، وذلك «أن يتداخل باسم أوروبا في القطر المصري تداخلًا غير مطلق بل مُعَيَّن الحدود، وأن يكون ابتداء هذا التداخل بإرسال مأمور على سفينة واحدة حربية يحض الضباط المصريين على امتثال أمر الخديوي والخضوع لإرادته، ويصدق على تصرفه في أعماله السابقة، فاجتمع الوزراء في الآستانة وتذاكروا في تداخل الباب العالي في القطر المصري، وقرروا أنه إذا دعت الحاجة إلى ذلك فلا يكون التداخل إلا بمقتضى سياسة الحضرة السلطانية على القطر المصري الذي تعترف بها أوروبا، وليس على الوجه المقيد كما عرض

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٥٢٥.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥٢٦.

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٤٩٨.

Readonly

Readonly

السفيران»[١]، وحاولت إنجلترا بهذا الاقتراح تجميل موقفها وزيادة مراوغة فقد أظهرت أنَّ «ما تريده هو نشر العلم العثماني في القطر المصري وإرسال المعتمد السلطاني على مدرعة حربية عثمانية»[٢].

كان الهدف من هذا التدخل المقيد هو منع الدولة العثمانية من إعادة السيطرة على مصر (إذ ماذا يفعل مأمور واحد؟!) وتثبيت سلطة الخديوي ووصم الحركة العرابية بأنها خارجة على الشرعية وعلى السلطان العثماني، وحيث إن ميزان القوى في هذه الحال سيكون خالصًا للإنجليز والفرنسيين فقد كان الاقتراح مرفوضًا حتى من قبل الوزراء الآخرين الذين اعترضوا على هذا التدخل المقيد إن دعت الحاجة.

لم يقطع عبد الحميد طرف خيط التدخل العسكري العثماني في مصر، كان لابد أن يظهر أمام الدول الأوروبية وكأنه داعم لسلطة الخديوي ومقتضى هذا الدعم أنه إن تهددت سلطة واليه على مصر فإن الدولة العثمانية تتدخل لحمايته وإعادة الأمور إلى نصابها، لكنه في الوقت نفسه يماطل ما استطاع؛ إفساحًا لعرابي في الوقت، فإما أن يزيح الخديوي فيحسم المعركة لنفسه ويعلن ولاءه للسلطان فيعترف السلطان به، وإما أن يصل إلى إقرار الأمن في مصر فيسحب بذلك ذريعة الإنجليز والفرنسيين، فينفضح إصرارهم على التدخل أمام الدول الأوروبية الأخرى التي يُتَوَقَّع ألا تسمح لهما بالانفراد بمصر؛ حفاظًا على مصالحهم فيها. فبقي الموقف الرسمي العثماني أن الأمر لا يستدعي تدخلًا عسكريًّا عثمانيًا بَعْد، وإذا استدعى فالجنود العثمانية على أهبة الاستعداد.

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٤٩٧، ٤٩٨؛ سرهنك ٢/ ٣٨٩.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٤٩٨؛ كرومر ١/ ٣٥٨؛ سرهنك ٢/ ٣٨٩.

Readonly

وقد كان الرأي في البلاط العثماني، لا سيما رأي المشايخ، أن «إرسال العساكر المسلمين لقتال إخوانهم المسلمين يضر بمقام الخلافة سيما أمام مسلمي الهند الذين تتهيأ الدولة بواسطة المشايخ على استجلابهم لها في مستقبل الزمن»[١].

ومن جهتها كانت إنجلترا وفرنسا حريصتان أن يكون طلبهما تدخل الجنود العثمانية غير فعَّال في الواقع، وقد تعددت الاقتراحات التي تجعل من هذه القوة العثمانية في خدمة المصلحة الأجنبية، ففي البداية جاء اقتراح معتمد واحد على سفينة حربية عثمانية تكون مهمته إعلان دعم السلطان عبد الحميد لسلطة الخديوي لنزع الشرعية عن عرابي، ثم جاء اقتراح آخر فيما بعد على أن تكون القوة العثمانية تحت أمر الخديوي وسلطته[٢].

وبقدر ما كان الإنجليز مُرَاوغين وأبدوا مرونة كبيرة في قبول الاقتراحات وفي مسعاهم السياسي للوصول إلى رأي عام أوروبي يسمح بالتدخل في مصر، بقدر ما تصلبوا تمامًا ضد أي محاولة تفاهم أو صلح يكون عرابي طرفًا فيها، فحين تغيرت السياسة الفرنسية وجاء دي فرسنيه بدلًا من جامبيتا[٣] ـ ولم يكن يؤيد التدخل

---

(١) المويلحي ص١١٥.

(٢) كرومر، ١/ ٢٧٧، ٢٧٩؛ مذكرات عرابي ٢/ ٥٣٨ وما بعدها؛ الخفيف ص٢٥٠.

(٣) كان جامبيتا هو رئيس الحكومة الفرنسية التي حرضت على غزو مصر، وكان جامبيتا يهوديًا وقد نادى بريطانيا أن تشارك بدورها في الحرب الصليبية الجديدة مثلما قامت فرنسا بدورها في احتلال الجزائر وتونس، والمؤرخون الذين يميلون إلى أن بريطانيا لم تكن عازمة على احتلال مصر يحملونه المسؤولية عن هذا الاحتلال.

انظر: ريمون فلاور، **مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر**، ترجمة: سيد أحمد علي الناصري، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠م)، ص١٩١؛ بلنت ص١٢٢، ١٣٤ وما بعدها.

Readonly

العسكري ـ فإنه عرض على إنجلترا سياسة التفاهم مع عرابي باعتباره صاحب النفوذ الحقيقي في مصر وبذلك يمكن التفاهم معه في تسوية المسألة المصرية، إلا أن الرد الإنجليزي كان صارمًا: «إنه لا يمكن وضع تسوية ثابتة مقبولة إلا بالقضاء على عرابي باشا والحزب العسكري في مصر»[١]. وبقدر مرونتهم في السياسة فقد كانت حركتهم العسكرية على أرض الواقع حركة جادة وحاسمة أيضًا بلا مرونة، وكان قد صرَّح اللورد سالسبوري في مجلس النواب بأن إنجلترا قادرة على فعل ما تريد ولو عارضها في ذلك جميع الدول[٢].

ظل السلطان حريصًا على عدم المشاركة في مؤتمر الآستانة لمزيد من عرقلة انعقاده، ثم إذا انعقد فإن غيابه يكون من وسائل عرقلة تنفيذ قراراته باعتباره لم يكن طرفًا فيها، وكل هذا يكسب الوقت ويُعطِّل تحرك إنجلترا المنفرد أو المتفق مع فرنسا، هكذا كان يظن. وكانت حجته أنه يعمل من خلال بعثة درويش باشا على التوصل للاستقرار في مصر، ولذلك كانت تقارير درويش المطمئنة من وسائله في تعطيل المؤتمر، بينما كانت تقارير الصحف والقنصلية الإنجليزية التي تنطق بسوء الحال واتساع الاضطراب والتوتر من وسائل الإنجليز في الدفع بانعقاد المؤتمر، ثم الدفع به نحو التدخل في مصر، وقد اتفقت إنجلترا وفرنسا على عقد المؤتمر عاجلًا سواء أوافق السلطان عبد الحميد على المشاركة فيه أم لم يوافق، وبدأت جلسات المؤتمر (٢٢ يونيو ١٨٨٢م) دون حضور ممثل عن الدولة العثمانية[٣].

---

(١) كرومر ١/ ٣٧٨؛ الخفيف ص٢٤٩، ٢٥٠؛ وانظر: بلنت ص٢٥١.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥٤٥.

(٣) الخفيف ص٢٥٠.

Readonly

تجاهل السلطان انعقاد المؤتمر في الآستانة، إذ وصل إليه تقرير من درويش باشا في نفس يوم انعقاد المؤتمر (٢٢ يونيو ١٨٨٢م) يشرح استقرار الأحوال وتشكيل وزارة راغب باشا، فجرى تعميم مضمون هذا التقرير على سفراء الدولة العثمانية في العواصم الأوروبية كي يبلغوا الدول باهتمام تركيا بشؤون مصر بحيث لا يدعو الحال إلى تدبير خاص[١]، وأن ما يحصل فيها ليس «أكثر مما يحصل في كثير من ممالك أوروبا المتمدنة»[٢].

استمر المؤتمر يدرس كيفية التدخل التركي، تحت ضغط الاستعجال من قِبَل الإنجليز الذين يلحون أن الحال في مصر لا تحتمل الانتظار، وعمل دوفرين في مصر بكل جهده لإثارة الأوضاع، ثم أرسل برقية إلى حكومته في آخر شهر يونيو (أي بعد ثمانية أيام من بدء انعقاده) يقول «المؤتمر لم يفعل شيئًا حتى ذلك الوقت، وإنه ما لم تتخذ خطوة عاجلة فإن إطالة مدة وجوده تظهر أنه عديم الجدوى»[٣].

إلى هنا تبدو مساعي السلطان عبد الحميد تؤتي ثمرتها في عرقلة المؤتمر وعرقلة توصله إلى نتائج، فقرر المؤتمر (٢ يوليو ١٨٨٢م)، أي بعد عشرة أيام من انعقاده أن يقرر «أنه إذا رفض السلطان الدعوة الموجهة إليه لإرسال جنود إلى مصر فإنَّ المؤتمر يحتفظ بحق التعبير عن رأيه فيما عسى أن يتخذ في الفرصة المناسبة»[٤].

ومع التمنع العثماني لم يستطع المؤتمر تطوير قراره هذا بشيء، وإنما صار

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٥٣١؛ سرهنك ٢/ ٣٩٤؛ الخفيف ص٢٥٩.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٥٢٩.

(٣) كرومر ١/ ٣٧٦؛ الخفيف ص٢٦٥.

(٤) كرومر ١/ ٣٧٥؛ الخفيف ص٢٦٦.

Readonly

يضع الشروط التي يوازن بها بين إغراء ودفع السلطان العثماني لإرسال قوات إلى مصر وبين أن لا تكون هذه القوات وسيلة لإعادة مصر إلى حكم الدولة العثمانية، فوصل المؤتمر إلى قرارٍ جديد (٦ يوليو ١٨٨٢م) وخلاصته إرسال الجنود العثمانيين إلى مصر للقضاء على حركة عرابي، ووضعوا من الشروط لإرسال هذه القوات ما يجعل الدولة العثمانية في حال نجاح جنودها قد تحملت المغارم وحدها دون المغانم، فقد اشترطوا ألا يغير هذا من طبيعة العلاقة بين مصر والدولة العثمانية، أي لا يُمَسّ استقلال مصر، وأن تكون القوات تحت إمرة الخديوي، وألا يزيد بقاؤها عن ثلاثة أشهر إلا بطلب من الخديوي، وألا تتغير أي اتفاقات أو نظم قائمة في مصر، وأما تكاليف الحملة فستدفعها الخزينة المصرية[١]. أي أنهم أرادوا تثبيت نفوذهم الأجنبي في مصر وعميلهم فيها (الخديوي) لكن بدماء عثمانية وأموال مصرية! وإلا فإن البديل هو الاحتلال الأجنبي لمصر وانتزاعها عمليًا من الدولة العثمانية[٢]!

هذا البديل كان يجري تنفيذه على الواقع بالفعل، وبقدر ما كان عبد الحميد يبذل جهده لعرقلة التدخل الإنجليزي سياسيًّا بقدر ما كانت القوة الإنجليزية تدهس السياسة وتمضي غير عابئة بها، فقد أعدت إنجلترا جيوشها وتحركت أساطيلها ورست أمام السواحل المصرية مما لا يعنينا في هذا السياق تفاصيله، فأرسل السلطان عبد الحميد مذكرة (١٠ يوليو ١٨٨٢م) يقول فيها: «ومن الجلي أن عملًا كهذا إذا وقع يؤدي إلى افتيات خطير على الحقوق الملكية لصاحب الجلالة الشاهانية السلطان وعلى مصالح الإقليم، وأن الحكومة الشاهانية الواثقة من أن

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٥٥٦، ٥٥٧؛ كرومر ١/ ٣٧٥ وما بعدها؛ الخفيف ص٢٦٦.

(٢) كرومر ١/ ٣٥٣، ٣٧٦.

Readonly

مجلس وزراء سان جيمس إذ ينظر إلى ما ذكر نظرة الاعتبار الجدي يتخذ الخطوات التي تؤدي إلى أن ينصرف الأدميرال سيمور عن أي عمل من طبعه أن يفضي إلى مثل هذا الوضع النهائي»[١].

وكما هي العادة، لم تفلح السياسة في مواجهة الأساطيل، فقد بدأ الإنجليز ضرب الإسكندرية (١١ يوليو ١٨٨٢م)، بعد خمسة أيام من قرار المؤتمر بإرسال الجنود العثمانية، ودون أي اعتبار لمؤتمر الآستانة الذي لا يزال منعقدًا، بل الذي واصل الانعقاد حتى بعد ضرب الإسكندرية.

وحيث استطاعت القوة قلب موازين الواقع فقد تبعتها المواقف السياسية التي شهدت انقلابًا وتحولًا كبيرًا، فمن بعد ما كان عبد الحميد هو الذي يمتنع عن الحركة ويتمنع عن الاستجابة للمبادرات ويطيل أمد الردّ على الاقتراحات لكسب الوقت صار هو الذي يقترح ويبادر ويطارد الإنجليز، وصار الإنجليز من بعد المطاردة والإلحاح هم الذين يمتنعون ويتمنعون ويطيلون الأمد لكسب الوقت.

فقد اقترح عبد الحميد على الإنجليز ـ عقيب ضرب الإسكندرية ـ عزل الخديوي توفيق الذي يسبب كل هذه الأزمة في مصر، وأن يُعيَّن بدلًا منه الأمير حليم باشا قائلًا: «إنه يكون حاكمًا ممتازًا» وإن تعيينه «سيمنع إراقة الدماء، وسيرضي الجميع»، ولقد رفضت الحكومة الإنجليزية هذا الاقتراح رفضًا باتًّا عاجلًا وأبلغت السلطان أنه «يضيع الوقت سدى عندما يتقدم باقتراحات من هذا القبيل»[٢]. وهذا الاقتراح من السلطان في هذا التوقيت دليلٌ أكيد على موقفه الداعم لعرابي حتى اللحظات الأخيرة.

---

(١) الخفيف ص٢٨٣.

(٢) كرومر ١/ ٣٩٥؛ الخفيف ص٣٥٣.

Readonly

حاول السلطان عبد الحميد إعادة عقارب الساعة إلى الوراء فوافق أخيرًا على الاشتراك في مؤتمر الآستانة الذي انعقد مرة أخرى (١٥ يوليو ١٨٨٢م) بعد ضرب الإسكندرية بأربعة أيام ثم (١٩ يوليو ١٨٨٢م)، محاولًا أن يمضي في الاتفاق على إنزال القوات العثمانية إلى مصر لكي لا ينفرد بها الإنجليز ومستعينًا في هذا بالدول الأوروبية، فأرسل إلى المؤتمر يوافق على الانضمام إليه، ثم بعث إليه بمندوبيه: الصدر الأعظم سعيد باشا ووزير الخارجية عاصم باشا، فحضرا جلسته العاشرة في (٢٤ يوليو ١٨٨٢م)[١]، وتورد بعض المصادر أن هذا كان بعد أن أوحت فرنسا إلى السلطان عبد الحميد أنها تقبل التفاوض مع العرابيين[٢]، وفي (٢٦ يوليو ١٨٨٢م) أعلن سعيد باشا للمؤتمر أن الدولة تجهز خمسة آلاف من جنودها للنزول إلى مصر، وعليه فلم تعد ثمة ضرورة للتدخل الحربي بجنود أجنبية[٣]. وقد فوضت الدولة العثمانية درويش باشا لقيادة العساكر العثمانية المزمع إرسالها[٤]، ولو أن المؤتمر أراد حقًّا الوصول إلى حل لقبل ما عرضه العثمانيون والذي هو نفسه تنفيذ لقرار المؤتمر إلا أن الدول نكصت «وجنحت إلى ترك إنجلترا تعمل على مسؤوليتها مكتفية بأنها لم تعطها تفويضًا بهذا، وهل كانت إنجلترا تطمع في أكثر من أن تعمل على مسؤوليتها؟»[٥]، وأما الإنجليز فقد أخذوا في المماطلة والتسويف

---

(١) كرومر ١/ ٣٩٥.

(٢) كرومر ١/ ٣٨٠.

(٣) كرومر ١/ ٣٩٣، ٣٩٥؛ الخفيف ص٣٤٩.

(٤) الجميعي، ١٤٩ نقلا عن وثيقة عثمانية.

(٥) الخفيف ص٣٥٠.

Readonly

ووضع الشروط حتى تكسب الوقت وتستطيع قمع الثورة وحسم الأوضاع على الأرض فلا يبقى سبب لمجيء ذلك الجيش العثماني[١].

والذي يهمنا من هذا السرد أن السلطان العثماني بعد أسبوعين من ضرب الإسكندرية كان لا يزال يحاول إرسال قوات عثمانية إلى مصر، ولم يَخْطُ شيئًا تجاه إعلان عصيان عرابي.

منشور عصيان عرابي

صار الوقت يمضي في صالح الإنجليز ومعهم الخديوي وضد عرابي والعثمانيين معًا، ومن هذه اللحظة سيظهر الحديث عن منشور يصدره السلطان عبد الحميد الثاني لإعلان عرابي عاصيًا، لقد «ربطت إنجلترا موافقتها على إرسال عساكر عثمانية بإصدار منشور يتضمن أن عرابي عاص وثائر وأن الدولة العثمانية ملتزمة بالمحافظة على الخديوي وعلى نفوذه وامتيازاته»[٢]، لقد صار هذا هو الشرط الذي تفرضه بريطانيا صاحبة القوة والتصرف على أرض الواقع، للتفاوض حول نزول القوات العثمانية إلى مصر، تلك القوات العثمانية التي هي الأمل الأخير الوحيد في الحفاظ على مصر من الاحتلال الأجنبي بنزع ذرائعه ومبرراته.

١. سياق صدور منشور العصيان

ضغطت إنجلترا لإصدار منشور يعلن عصيان عرابي فتعلل سعيد باشا قائلًا لدوفرين «ليس من الحكمة إصدار هذا القرار قبل بلوغ الجنود العثمانية مصر»، إلا أن الأخير قال: «إذا كان السلطان يرغب في التعاون مع حكومة جلالة الملكة، فإن من

---

(١) الخفيف ص٣٤٩؛ الرافعي، الثورة العرابية، ص٣٨٤.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٦؛ الجميعي ص١٤٩ نقلا عن وثيقة عثمانية.

Readonly

الضروري أن يحدد في وضوح ما يعتزم اتباعه نحو عرابي وعصابة الثوار»[١].

وبِمُضِيِّ الوقت، يزداد الموقف العثماني تراجعًا وضعفًا، ويزداد الموقف الإنجليزي قوة وتصلبًا..

١. في (٢٩ يوليو ١٨٨٢)، جاء في برقية من لندن إلى دوفرين ـ المندوب الإنجليزي في مؤتمر الآستانة ـ خلاصتها أن الحكومة تقبل وصول قوات عثمانية إلى مصر بشرط أن «تكون خالية من كل ما يجعلها تُؤَوَّل تأويلين بسبب تصريحات السلطان السابقة»، أي أنها تشترط إصدار منشور العصيان والانحياز للخديوي صراحة وتتهم السلطان بأن موقفه لا يزال يحتمل الوجهيْن، ثم تذكر البرقية نفسها أن «قعود السلطان عن العمل، ذلك القعود الذي طال أمره.. ألقى على عاتق إنجلترا عبئًا تضطلع به الآن في سبيل صالح العالم وفي سبيل صالحها كذلك.. (وأنه) حالمـًا ينتهي العمل الحربي المراد فإنها ستستعين الدول في وضع نظام قويم لحكم مصر في المستقبل»، وأهم ما في هذه البرقية هو قطعها الطريق على المساعي العثمانية في التراجع عن الغزو العسكري، إذ ذكرت أن إنجلترا «لا يمكنها سحب جنودها من مصر ولا التراخي في إعداد العدة»[٢].

٢. في (٢ أغسطس ١٨٨٢م) تعهد سعيد باشا أن يعرض على المؤتمر صيغة قرار يعلن فيه السلطان أن عرابي من العصاة[٣]. وهنا، أي بعد ٢٣ يومًا من ضرب الإسكندرية ودخول القوات الإنجليزية إلى مصر نرى أول تراجع عثماني وقبول لمبدأ إعلان عرابي عاصيًا.

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٦؛ كرومر ١/ ٣٩٦؛ الخفيف ص ٣٥٠.

(٢) سرهنك ٢/ ٤٠٤؛ الخفيف ص ٣٥٠، وهو ينقل عن الكتاب الأزرق.

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٤؛ كرومر ١/ ٣٩٦.

Readonly

٣. في (٥ أغسطس ١٨٨٢م) جاء الرد الإنجليزي على هذا العرض العثماني وخلاصته: «ما لم يُعِدّ السلطان قرارًا ذا صفة مُرْضِيَة، وما لم توافق الحكومة التركية على الدخول في مؤتمر حربي مع حكومة جلالة الملكة، لن يُسْمَح للجنود العثمانية بالنزول في مصر»[١]. ويبدو في هذه البرقية التصلب الإنجليزي الذي يشترط أن تكون صيغة منشور العصيان صريحة ومرضية لهم، ثم أضافت شرطًا جديدًا، وهو تنظيم مؤتمر حربي بين الإنجليز والعثمانيين لدراسة التعاون العسكري، وإلا فلن يُسمح للقوات العثمانية بالنزول إلى مصر.

ولم تكن هذه البرقية نفسها إلا مزيد عرقلة وتعويق لمسألة القوات العثمانية، فقبل هذه البرقية بيوم واحد كانت برقية أخرى قد وصلت من حكومة إنجلترا إلى الأدميرال سيمور تخبره أنه «إذا قدمت أي سفينة تحمل جنودًا تركية إلى بورسعيد أو إلى الإسكندرية أو إلى جهة أخرى فعليه أن يبلغ قائدها في أكثر الصيغ مودة ورفقًا أنه ينتظر تعليمات من حكومته بشأن مؤتمر حربي بين تركيا وإنجلترا، الغرض منه معاونة الأولى لنا في القضاء على العصاة، ولكنه لم يتلق أنباء بأن هذا المؤتمر قد عُقِدَ، وبناء على ذلك فإن إرسال جنود تركية لا بد أن يكون عملًا سابقًا لأوانه أو بني على سوء فهم»، وعليه فهو سيقاتل القوات العثمانية إن أصروا على النزول إلى مصر[٢].

وعلى الجهة الأخرى، نشرت جريدة الطائف ـ الناطقة بلسان الثورة العرابية ـ بتاريخ (٥ أغسطس ١٨٨٢م) أن «الباب العالي أرسل برقية يهنئ بها الجنود

---

(١) كرومر ١/ ٣٩٧؛ الخفيف ص٣٥١، وهو ينقل عن الكتاب الأزرق.

(٢) كرومر ١/ ٣٩٧؛ الخفيف ص٣٥١، ٣٥٢.

Readonly

المصرية على ما أبدوه من شجاعة أثناء ضرب الإسكندرية، كما ورد إلى تركيا في برقية كان قد أرسلها درويش باشا»[١]، فإن كان هذا صحيحًا فهي حجة أخرى في ميزان السلطان عبد الحميد، وإن كان الخبر كاذبًا وأن الجريدة إنما نشرته على سبيل التثبيت والتأييد للجنود والجماهير فهي حجة على طبيعة نظر الثورة العرابية للسلطان عبد الحميد وموقفه.

٤. في (٧ أغسطس ١٨٨٢م) رضخت الدولة العثمانية أكثر فأعلنت قبولها التدخل الحربي في مصر على الكيفية التي قررها المؤتمر بتاريخ (١٥ يوليو ١٨٨٢م) بما تحتويه من بنود وشروط، وقت أن كانت الدولة العثمانية تتجاهل المؤتمر. ثم أضافت أنها تلتزم في تدخلها بالتعاون مع إنجلترا، وبهذا تراجعت الدولة العثمانية التي كانت ترفض أن تتدخل هي بقواتها، فصارت تقبل أن تتدخل بالاشتراك مع إنجلترا[٢].

٥. في (٩ أغسطس ١٨٨٢م) أعد السلطان قرار عصيان عرابي، وأرسله إلى دوفرين للاطلاع عليه، وفي اليوم التالي (١٠ أغسطس ١٨٨٢م) قُبِلت صيغة القرار بعد إدخال بعض التعديلات عليه. ثم بدأت إنجلترا سعيها في الترتيب للمؤتمر الحربي الثنائي الذي ينظم التعاون العسكري، والذي جعلته شرطًا لسماحها بنزول القوات العثمانية إلى مصر[٣].

وينبغي أن نشير إلى أن منشور العصيان وصل إلى دوفرين للاطلاع في نفس

---

(١) الخفيف ص٣٥٣.

(٢) الخفيف ص٣٥٢.

(٣) كرومر ١/ ٣٩٧؛ الخفيف ص٣٥٢.

Readonly

اليوم الذي كان للإنجليز فيه في الإسكندرية نحو أربعة عشر ألفًا من المشاة، وثلاث فرق من الفرسان، ونحو ألف من رجال المدفعية، ونيف وخمس مئة من المهندسين، وعدد آخر من المختصين بأعمال الجسور وأسلاك البرق والخطوط الحديدية، وبعد ثلاثة أيام وصل إليها الجنرال ولسلي القائد العام للحملة الإنجليزية[١].

كذلك ينبغي الإشارة أن السلطان العثماني حاول إيقاف حركة البريطانيين، إذ سارع سفيره في لندن لتقديم مشروع اتفاق ينص على أن لا تتجاوز القوات البريطانية المنطقة التي احتلتها (الإسكندرية والمنطقة المجاورة لها) وألا تبقى قواتها أكثر من ثلاثة أشهر، وأن تسلم من أسرتهم إلى الخديوي، لكن الإنجليز رفضوا. فحاول عبد الحميد إبقاء التفاهم في إطار المؤتمر كي لا تنفرد إنجلترا بالتصرف لكن الإنجليز تصرفوا عمليًا بمعزل عن المؤتمر[٢].

٦. وبهذه التطورات انتهى دور مؤتمر الآستانة الذي شاركت فيه الدول الست، فاجتمعوا في (١٤ أغسطس ١٨٨٢م) وقرروا تأجيل انعقاده، ولم يُعقد من بعدها أبدًا! ليكون واحدًا من أهم المؤتمرات الهزلية السخفية في تاريخ الدبلوماسية العالمية.. واتجهت التطورات لتنحصر بين الطرفين العثماني والإنجليزي. هذا رغم محاولة مضنية من السلطان لبقاء المؤتمر واستمرار انعقاده أملًا في أنَّ هذا قد يزيد من فرص الاختلاف بين الدول الأوروبية[٣].

٧. سيختفي الحديث عن منشور العصيان نحو عشرة أيام أخرى، شهدت

---

(١) الخفيف ص٣٤٩.

(٢) كرومر ١/ ٣٩٨.

(٣) كرومر ١/ ٣٩٨، ٣٩٩.

Readonly

تلك الأيام اقتراحات يعرضها العثمانيون فيرفضها الإنجليز واقتراحات يعرضها الإنجليز فيرفضها العثمانيون، ثم يعود ذكر المنشور في حادثة جانبية، إذ أراد عبد الحميد أن يعرقل المجهود الحربي الإنجليزي بإجراء لا يُحسب عليه، فأوعز إلى التجار ألا يبيعوا للإنجليز البغال التي يشترونها لصالح العمل العسكري في مصر، ولكن دوفرين اكتشف هذا واحتجَّ عليه بعنف فتراجع عبد الحميد وأرسل إليه مندوبًا خاصًّا يبلغه أنه أمر بإرسال البغال المطلوبة، فأرسل دوفرين مع مبعوث السلطان يستحثه من جديد على إصدار منشور العصيان[1].

٨. في (٢٣ أغسطس ١٨٨٢م) زار دوفرين سعيد باشا في إطار مناقشة المؤتمر الحربي المزمع عقده، فقد كان المزمع أن تنزل القوات العثمانية إلى الإسكندرية بينما اقترحت إنجلترا اقتراحًا جديدًا وهو نزولها في أبي قير ورشيد ودمياط، أي أن الإنجليز أرادوا العثمانيين كمساعدي احتلال لا كشركاء ولا متعاونين كما هو المعلن، ما يهمنا الآن أنَّ هذه الجلسة حملت طلبًا جديدًا من دوفرين بإعلان منشور العصيان، فأجابه سعيد باشا «بأن حكومته ترى أنها خطوة ليس من الميسور اتخاذها لأول وهلة، وتريد أن تستبدل بها قرارًا آخر يقوم على النصح لعرابي ومناشدة ولائه مناشدةً أخيرةً، وإذ ذاك نهض دوفرين غاضبًا معلنًا أنه من المستحيل أن يعود ثانية إلى التحدث مع تركيا بشأن المؤتمر أو في أي أمر آخر وأحدثت هذه الغضبة أثرها، إذ رافقه سعيد باشا، وقاسم باشا إلى أسفل الدار ثم إلى الشارع معتذرين، وقالا: إنهما تقدما بهذا الاقتراح على غير مشيئتهما، ورد دوفرين في صلف: إنه لن يوقع

---

(١) كرومر ١/ ٣٩٩؛ الخفيف ص٣٧٨. وبعد يومين ستأتي برقية إنجليزية تكشف أن عبد الحميد قد منع من جديد إرسال البغال وهدد من يساعد في إرسالها للإنجليز بالسجن. انظر: كرومر ١/ ٤٠١، ٤٠٥.

Readonly

على قرار عقد المؤتمر إلا إذا وصله قرار العصيان باللغتين العربية والفرنسية»[١].

٩. في (٢٥ أغسطس ١٨٨٢م) أرسل ماليت إلى جرانفل «يشكو من أن عمل السلطان من شأنه ألا يجعل العصاة يصدقون أنه سوف يساعد الحملة؛ لذلك فإن الحملة لن تحصل منه على التأييد الأدبي المطلوب، ويقول: إن شريف ورياض يعارضان في مجيء جنود تركية إلى مصر ويخشيان مما ينجم من المتاعب بسبب ذلك فيما بعد»[٢]، وهنا يظهر موقف الإنجليز الذين لا يستطيعون الحصول من السلطان على دعم حملتهم بمنشور عصيان عرابي، فيما كان شريف ورياض يصدقان أن الإنجليز يتفاوضون فعلًا مع العثمانيين على إرسال قوات عثمانية!

١٠. في (٢٧ أغسطس ١٨٨٢م) أفضى سعيد باشا إلى دوفرين أن تركيا مستعدة لقبول الشروط التي تراها إنجلترا لعقد المؤتمر الحربي الذي يُنَظَّم فيه التعاون بين الطرفين، ويربط صدور منشور العصيان بالتوصل لاتفاق نهائي، بينما تشترط إنجلترا أن يكون يصدر منشور العصيان حالًا كبداية لانعقاد التعاون العسكري، وتضيف مزيدًا من الشروط والالتزامات على السلطان[٣].

١١. ثم أرسل دوفرين من جديد إلى حكومته يصرح فيها بأن «السلطان جاث على ركبتيه وإني لأجرؤ على أن أتقدم إلى حكومة جلالة الملكة في إخلاص أن تقبل تضرعاته» وزاد دوفرين على ذلك: «إن السلطان يعد في نظير ذلك أن يعمل كل شيء تريده إنجلترا بشأن القرار ضد عرابي، وأن يأمر الصحف بتغيير لهجتها»[٤].

---

(١) كرومر ١/ ٣٩٩، ٤٠٠؛ الخفيف ص٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) كرومر ١/ ٤٠٠، ٤٠١؛ الخفيف ص٣٧٩.

(٣) كرومر ١/ ٤٠٢؛ الخفيف ص٣٧٩.

(٤) كرومر ١/ ٤٠٢، ٤٠٣؛ الخفيف ص٣٧٩، ٣٨٠.

Readonly

فهاهنا نرى أن عبد الحميد لا يزال يَعِد بإصدار المنشور وتغيير لهجة الصحف ضد عرابي بعد احتلال الإسكندرية بشهر ونصف الشهر.

١٢. في (٣ سبتمبر ١٨٨٢م) صرح السلطان لدوفرين بأن المنشور تجري ترجمته للعربية بعد أن ربط الإنجليز توقيع الاتفاق بإعلان المنشور[١]، ثم صدر المنشور أخيرًا في (٦ سبتمبر ١٨٨٢م)، على الأمل الأخير أن ينهي هذا الحال، أي أن المنشور الذي أُعِدَّ في (٩ أغسطس ١٨٨٢) صدر بعد نحو الشهر من المماطلة والتسويف، وتحت هذا الضغط من الرغبة في الوصول إلى إتاحة نزول قوات عثمانية تمنع الإنجليز من الانفراد بمصر، وهذا التاريخ نفسه دليل على موقف عبد الحميد الداعم للثورة العرابية، إذ منشور العصيان قد ظهر قبل الهزيمة الفعلية في التل الكبير بستة أيام فقط، وقبل احتلال القاهرة بأسبوع واحد، وبعد ضرب الإسكندرية بشهرين! أي بعد أن تمكّن الإنجليز من الموقف، وبعد أن وصلت قواتهم القادمة من البحر الأحمر والتقت مع قواتهم القادمة من البحر المتوسط، وهي اللحظة التي استبانت فيها هزيمة عرابي.

ويجدر هنا ذكر مواقف رجال البلاط العثماني بل وبقية الشعب التركي، وهو مما يدل على حقيقة الموقف كما يراه رجال السلطان وكما يسري في عاصمة الخلافة، فقد قال خير الدين التونسي الذي شغل منصب الصدر الأعظم قبل ثلاثة أعوام ولا يزال عضوًا بمجلس الأعيان، حيث أكد أن ثورة عرابي «تحاول أن تحول دون خراب مصر. وإنهم في رأيي مخلصون للخلافة ولكنهم يطالبون بتحسين مصيرهم.. ولذا فإنهم لا يخالفون الشريعة على الإطلاق. وعليه لا يمكننا

---

(١) كرومر ١/ ٤٠٣.

Readonly

من الوجهة الدينية أن نعتبرهم عصاة»، وقد رفض فيما بعد التوقيع على منشور العصيان[١]، وكتب ثابت باشا[٢] إلى رئيس ديوان الخديوي توفيق (بتاريخ ٦ سبتمبر ١٨٨٢م) أي في نفس يوم صدور منشور العصيان: «إن العوام هنا وكثير من الرجال والعلماء الكرام الذين هم غير واقفين على حقيقة الأحوال يتمنون انتصار العرابي، حتى أنني صادفت منذ أيام في المابين الهمايوني الشيخ علي محوي أفندي مدرس السلطان الحائز على رتبة الصدر (رتبة دينية) فأخذ في مدح العرابي والثناء عليه، فاعترضت عليه، ولكنه ابتدرني بقوله: لا لا إنه رجل عظيم ومتدين، كما وأنني عندما قابلت في المابين الهمايوني نجيب أفندي الحائز كذلك على رتبة الصدر (رتبة دينية) تكلمت ضد العرابي وشنعت عليه فكان كلامه أنه لا يستطيع أن يعرف من هو الذي يلزم أن يدعو له من الطرفين: هل العرابي أم الخديوي»[٣].

ولقد حصل ما هو متوقع إذ «ما إن ظفرت إنجلترا بتوقيع السلطان على القرار، حتى راحت في لؤم، ليس له مثيل، تتنصل من وعدها بقبول المؤتمر بحجة أن قرار العصيان لم يكن في الصيغة التي أرادتها إنجلترا تمامًا! واستؤنفت بعد ذلك الاتصالات بين الدولتين في صورة مملة»[٤]، ووضعت إنجلترا مزيدًا من العراقيل تتعلق بأن تكون القوات العثمانية تحت قيادة الجنرال وليسلي، وأن يكون نزولها

---

(١) نازك سبايارد، **الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة**، ط٢ (بيروت: دار نوفل، ١٩٩٢م)، ص٧٣.

(٢) هو السكرتير الخاص بالخديوي في الآستانة، وبحسب بلنت فإنه «لم يكن يهمل في إخبار السلطان كل ما يوغر صدره على عرابي». بلنت ص١٩٢.

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٩٥٣.

(٤) كرومر ١/ ٤٠٤؛ مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٧؛ الخفيف ص٣٨٠.

Readonly

لا في الإسكندرية ولا بورسعيد ولا السويس بل في رشيد ودمياط وأبي قير، وهذا فوق ما يعنيه من الإهانة والإذلال لمركز السلطان في بلاد هو سيدها فإنه يجعل القوات العثمانية مساعدة للاحتلال وليست حتى شريكة في القرار[١].

زعم كرومر أن السلطان حتى في ساعات صدور المنشور «كان يفكر في التعامل مع عرابي من وراء ظهر كل من الحكومة البريطانية والخديوي»[٢]، وقد روى عرابي كيف كانت طريقة الإنجليز في هذا التملص من الاتفاق، فقد «اختلقت التيميس خبرًا مقتضاه أن الإنجليز قبضوا على كتاب مرسل من الحضرة السلطانية إلى عرابي باشا وأنه لو نُشِر لكان له تأثير عظيم وأن العلاقات لم تزل مستمرة بين عرابي باشا والآستانة بالرغم من مناورة جلالة السلطان بعصيان عرابي ومن معه. فترتب على ذلك تذرع إنجلترا بتلك الشروط الصعبة إلى منع سفر الجنود العثمانية إلى مصر مخافة أن تشترك مع المصريين في مقاومة الإنجليز فيشتد البلاء ويكون إعلان جلالة السلطان لعصيان عرابي باشا ضربًا من الإيهام توسلًا إلى الفوز بالمقصود ثم إن اللورد دوفرين لم يرضه ما جاء في منشور جلالة السلطان قائلًا إن المنادة بعصيان عرابي لم تكن صريحة العبارة واضحة الإشارة»[٣]. وهذه الرواية المُخْتَلَقَة من الجريدة الإنجليزية تصف حقيقة موقف السلطان من عرابي، وحقيقة مخاوف الإنجليز من نزول قوات عثمانية إلى مصر.

يفسر بلنت مماطلة عبد الحميد في إصدار المنشور استنادًا إلى رسالتي ظافر

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٦ وما بعدها؛ سرهنك ٢/ ٤٠٧.

(٢) كرومر ١/ ٤٠٣.

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٥.

Readonly

وراتب باشا إلى عرابي، يقول: «وهذه الخطابات توضح أيضًا السبب في كراهية السلطان عبد الحميد لأن يعلن في شهر أغسطس أن عرابي ثائر خارج على الدولة»[١]، ويذكر محمود الخفيف ـ ولعله أخلص المؤرخين المصريين لموقف عرابي ـ أنه ما من شك في أن السلطان عبد الحميد كان «راغبًا عن هذا القرار؛ لما يكون من سوء أثره في العالم الإسلامي، ولأنه يوقن أن عرابي إنما يدافع عن حقوقه في مصر»[٢].

وانتهى أمر نزول القوات التركية مع انتصار الإنجليز على عرابي في التل الكبير، لتجتمع مواقف الإنجليز والفرنسيين والخديوي على أن الأمر لم تعد له أهمية، وأُبلغ السلطان بأن الوقت قد فات[٣].

٢. موقف عرابي وأثر منشور العصيان على واقع المعارك

أبرق دوفرين إلى جرانفل (٢٦ يوليو ١٨٨٢م) يقول: «علمت أن عرابي باشا أبرق مباشرة إلى السلطان يعبر عن ولائه للخلافة، ويقول: إنه وقد حمل حملًا على الحرب يمتلك كل ما يلزم لقهر أعدائه وذلك بفضل المساعدة المقدسة وما تفيض به مصر من خير، وإنه لا يصدق ما يؤكده أعداء وطنه ودينه من أنه سيجد فرقًا عثمانية في طريقه فإن ذلك سيضعه أمام الضرورة القاسية التي تجعله يعامل إخوانه في الدين معاملة الأعداء»[٤].

---

(١) بلنت ص١٩١.

(٢) الخفيف ص٣٧٨.

(٣) كرومر ١/ ٤٠٥، ٤٠٦.

(٤) الخفيف ص٣٥٣، وينقل عن الكتاب الأزرق؛ وانظر: بلنت ص٢٤٠، ٢٥٦.

Readonly

وأهمية هذه البرقية تكمن في أن عرابي كان مستعدًا لمقاتلة القوات العثمانية إن نزلت إلى جوار الإنجليز، ونحن نسوق هذا الأمر هنا لنقول بأن تأثير المنشور على واقع المعارك في مصر لم يكن تأثيرًا ضخمًا ولا فارقًا في ميزان المعركة كما يحاول تصويره أنصار المدرسة القومية المصرية، فلو كان ثمة ما يؤثر على واقع المعارك على الأرض لكان يمكن أن يحدث هذا منذ شهر يوليو مع تسرب أنباء قدوم القوات العثمانية، لا أن يحدث بعدها بشهر وعشرة أيام لمجرد صدور منشور ظهر قبيل الحسم النهائي على أرض الواقع.

إلا أن هذا لا يعني أيضًا أن المنشور منعدم التأثير، فإن نزع الشرعية عن عرابي وجيشه واحدة من الضربات التي تلقاها، وقد كانت قبيل هذه اللحظات الحاسمة من جملة الأخبار السيئة بل الشديدة السوء التي نزلت بمعسكره، وأن هذا المنشور في هذه اللحظة إنما كان ذريعة لمن صار يضعف عن القتال عمليًا وهو يرى نفسه سائرًا إلى الهزيمة مع تقدم القوات البريطانية.

ما إن وصل خبر منشور العصيان إلى عرابي حتى أعلن في وضوح: «هذا المنشور مغاير لأحكام الشريعة الإسلامية الغراء، **ومغاير لرضاء السلطان الأعظم** والسادة الأشراف يتبرؤون مما نسب إليهم بصفته مغايرًا للحقيقة، وإنما **هو إرضاء للإنجليز فقط**»[1]، والعجيب أن عرابي ـ وهو المطعون في ظهره المغدور به ـ كان أشد تفهّمًا لموقف السلطان عبد الحميد الثاني من سائر من يطعنون في السلطان بهذا الموقف، فحين اقترح عبد الله النديم أن يرد على المنشور رفض ورأى أن المصلحة في كتمانه كأن لم يكن، وقال: «ربما كانت هذه البياننامة مبنية على سياسة

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٥.

Readonly

من السلطان اضطرته إلى إصدارها مراعاة لظروف الأحوال، والخوف من ظهور المسألة الشرقية في مظهر يصعب استدراكه ويعز تلافيه»[١]، وعرابي في هذا التفسير أرفع نفسًا وأبعد عن الضغينة وأشرف ممن يتخذه سبيلًا للطعن في عبد الحميد.

وقد كتب عرابي في تقريره قبيل المحاكمة: «لم يستنكر السلطان أبدًا ما فعلنا، لا في أثناء تلك المفاوضات ولا فيما بعدها حتى وقتنا هذا، بل إن السلطان أيَّد أفعالنا بالقول وبالعمل»[٢]، وحمَّل مسؤولية هذا المنشور لسعيد باشا الصدر الأعظم للدولة العثمانية، وأنه كتبه بضغط من الإنجليز الذين أرادوا تهدئة المسلمين في الهند ومنعهم من استغلال الأحداث في ثورة.

أما أثر المنشور في معسكر الجيش العرابي فيذكر عرابي أنه قد «تذمر بعض الأمراء العسكرية وقالوا إننا إذًا عصاة على السلطان مخالفين لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد علي باشا رأس العائلة الحاكمة وابنه إبراهيم باشا، ومن مات مات عاصيًا لا أجر له، مثل الذين ماتوا من المصريين في قتال الدولة العلية، فنصحناهم بأن هذا المنشور مخالف لأحكام الدين الإسلامي؛ لأننا إنما نقاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الإسلامية، وإن الجهاد في سبيل حماية الدين والمال والوطن فرض واجب علينا، وإن سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هذا المنشور **وإنما هو دسيسة إنجليزية تمكنوا من إنفاذها بواسطة الرشوة**، ولو فُرِضَ مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لأحكام الدين. إلا أن تلك النصائح لم تؤثر في الذين يجهلون أحكام الدين مثل أحمد بك عبد الغفار قومندان السواري، وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جي آلاء

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٧٠٣.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٧٠٣.

Readonly

سواري، وعلي بك يوسف ميرالاي ٣ جي بياده، ولكنهم أظهروا قبول ما أوضحناه لهم وأَسَرُّوا الغدر والخيانة والحساب على الله»[١]، وفي موضع آخر أضاف رابعًا تأثر بالمنشور هو: حسن بك رأفت قومندان الطوبجية[٢].

فهنا نرى أن عرابي لم يذكر من المنشقين عنه بأثر المنشور سوى ثلاثة أو أربعة، وأن هؤلاء أنفسهم لم يقودوا حركة انشقاق علنية استنادًا إلى منشور العصيان، وهو ما يؤكد أنه لم يكن للمنشور تأثير قوي يتمكن المتأثر به من الاعتماد عليه والمجاهرة بموقفه استنادًا إليه، وقد فسَّر عرابي موقف هؤلاء في موضع آخر بدوافع أخرى غير تأثرهم بالمنشور، فعزا ذلك إلى أن أحمد عبد الغفار قومندان السواري إنما تأثر بابن عمه أحمد عبد الغفار عمدة تلا (بمحافظة المنوفية) الذي كان منحازًا إلى الخديوي، وأن هذا العمدة ومعه السيد الفقي ـ وكلاهما نائب في مجلس النواب عن محافظة المنوفية ـ قد «أثروا على قلوب» المذكورين[٣].

أي أنه، وبشهادة عرابي نفسه، لم يكن منشور العصيان هو السبب الوحيد على الأقل لتصرف هؤلاء، وهذا ما يجعلنا نضع تأثير المنشور في حجمه الحقيقي، وذلك فضلًا عما نراه من موقف عرابي نفسه في تحليل دوافع السلطان الذي هو نفسه يخالف توجه المدرسة التاريخية القومية المصرية التي كادت أحيانًا أن تجعل المنشور سبب الهزيمة الأول!

وبفعل مجهود الخديوي ومن انحاز إليه تسرب المنشور إلى صفوف جيش عرابي، فعندئذ «ضعفت عزائمهم ووهنت قواهم، فعمَّ الاختلال وساد على عقولهم

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٨.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٧٠١.

(٣) مذكرات عرابي ٢/ ٧٠١.

Readonly

الارتباك»، فجمع عرابي مجلسًا من جميع الضباط وطلب منهم إبداء الرأي «فكان رأي أكثرهم وجوب الاستمرار على الدفاع، وأما الباقون فرأوا أن التسليم أسلم، وبعد ذلك انفض المجلس على نية الدفاع بغالبية الآراء»[١]، وفي هذا دليل كافٍ على أن منشور العصيان لم يكن حاسما ولا فارقا في سير المعارك، بل لقد كانت أغلب الآراء بعد العلم به تتجه إلى استمرار المقاومة.

لكن التأثير الأكبر للمنشور كان سياسيًّا، إذ عمل المنحازون للخديوي على نشره، إذ به يتدعم موقف الخديوي، وهو الموقف الذي كان لا وزن له عسكريًّا في ذلك التوقيت إذ الجيش والشعب مع عرابي والمعركة العسكرية تدور بين الجيش الذي يقوده عرابي وجيش الإنجليز، ولا ريب أن الهزائم المتولية تساوي انحياز البعض إلى الإنجليز كما هي عادة الناس مع الغالب والمغلوب، يذكر عرابي أنه وُزِّع من المنشور نسخ «كثيرة على ضباط الجيش المصري في جميع المراكز بواسطة أبو سلطان باشا (محمد سلطان باشا) ومن معه من المخدوعين بالإسماعيلية مع الإنجليز ومن حبا إليهم من عمد البلاد الجهلاء»[٢]، أي أنه وُزِّع في الإسماعيلية التي صارت فعلًا في قبضة الإنجليز وفي المراكز البعيدة التي لم تكن تشهد قتالًا، فلم يكن للمنشور تأثير عسكري في واقع المعارك.

وأما التأثير الأهم للمنشور فقد كان خارج مصر كلها، وذلك أن الإنجليز خشوا على مركزهم في البلاد الإسلامية، وعملوا بكل طاقتهم الدعائية لنشر أنهم لا يحاربون خليفة المسلمين وإنما هم حلفاؤه ضد متمرد عليه في مصر، لذلك «أُرْسِل

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٧٠٤.

(٢) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٨.

Readonly

منه مئات الألوف إلى الهند والأوغان (الأفغان) والحجاز والعراق والترك ومصر والمغرب الأقصى وجميع بلاد الإسلام»[١]، ولقد بلغ ذكر عرابي الآفاق باعتباره ثائرًا على الإنجليز حتى شمل هذا بلاد المسلمين جميعًا[٢]، لا سيما تلك التي تقع تحت النفوذ والاحتلال الإنجليزي في المشرق، وسجَّل مؤرخ إنجليزي بأن شهرة عرابي كانت «تتزايد في الشرق على حساب بريطانيا، ولو تُرِك لكان في الإمكان حدوث ثورة إسلامية شاملة في الهند»[٣].

ومع ذلك فنحن لا نجد أن المنشور قد بلغ آثارًا بعيدة على مستوى الجماهير، فلقد عاد عرابي إلى مصر بعد عشرين سنة كان كل شيء فيها يُحمِّله مسؤولية ما وقع، وتكونت حالة فكرية وثقافية تراه سبب الاحتلال وترى ثورته «مشؤومة» واستقبله شوقي شاعر القصر بقصيدة هجاء بليغة، ومع هذا فقد روى الشيخ رشيد رضا أن أكثر العامة كانوا يحبون عرابي ويرونه مخلصًا وأنهم صاروا يتمسحون به بعد أن صلى الجمعة حين عاد إلى مصر[٤]، ولقد كانت العامة في منفاه القصيَّ البعيد تقبل إليه وتحتفي به وتزدحم حيث سيصلي الجمعة[٥]، وسجل رشيد رضا

---

(١) مذكرات عرابي ٢/ ٦٨٧، ٦٨٨.

(٢) بلنت ص٢٨٥.

(٣) ريمون فلاور ص١٩٤.

(٤) مجلة المنار ٤/ ٥٩٢، ١ رجب ١٣١٩هـ ـ ١٤ أكتوبر ١٩٠١م؛ لطيفة سالم، **عرابي ورفاقه في جنة آدم ١٨٨٣ ـ ١٩٠١: دراسة وثائقية**، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٧م)، ص١٠٤ وما بعدها.

(٥) لطيفة سالم ص٢١ وما بعدها؛ وثائقي «ملف الثورة العرابية» ضمن سلسلة «أرشيفهم وتاريخنا» على قناة الجزيرة، بث بتاريخ ١٠ ديسمبر ٢٠١٠م. نقلا عن تقارير بريطانية.

Readonly

أنه حضر مجلسًا في سوريا فذُكِرت فيه الثورة العرابية فقال كبير العلماء في تلك البلدة: كلنا عرابيون[١].

وخلاصة الموقف أن السلطان عبد الحميد الثاني راهن على انتصار عرابي وحاول بما استطاع أن يكسب له الوقت ويعرقل السياسة الإنجليزية، لكن تلك السياسة لم تكن مجرد مجهود دبلوماسي بل كانت متسلحة بالبوارج والأساطيل، وبذلك استطاعت أن تنسف مجهود السياسة العثمانية وأن تغير الوضع على أرض الواقع، فلما تغير هذا الواقع على الأرض حاول السلطان أن يكون في معسكر المنتصرين لا المهزومين ليكون له مكان في تحديد «مستقبل مصر» و«المسألة المصرية». إلا أن تقديره هذا كان خاطئًا، ولم يفعل إلا أن أعطى الإنجليز ـ وإن في لحظات استيلائهم الأخيرة ـ مبررًا لوجودهم في مصر، وأنهم إنما قدموا لحماية الأجانب وإعادة سلطان الخديوي مع الإقرار الكامل بشرعية السلطان العثماني.

هل كان يملك السلطان عبد الحميد أن يحارب الإنجليز دفاعًا عن مصر؟ هنا تختلف الأنظار والتقديرات، ففريق على رأسهم الصدر الأعظم سعيد باشا يرى أن الدولة العثمانية كانت قادرة وكان ينبغي عليها أن تفعل، وفريق على رأسهم السلطان نفسه يقول بوضوح: «لو كنتُ اندفعت للمقاومة في تونس فربما تسببت في ضياع سوريا. لو وقفتُ بعناد في مصر لكنت بالتأكيد فقدت فلسطين والعراق»[٢]، ولقد كان للسلطان موقف يميل إلى تجنب الحروب يراه محبوه من دلائل حكمته ويراه

---

(١) مجلة المنار ٥/ ٢٩٢، ١٦ ربيع الثاني ١٣٢٠هـ ـ ٢٢ يوليو ١٩٠٢م.

(٢) عبد الحميد الثاني، **مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني**، ترجمة: د. محمد حرب، ط٣ (دمشق: دار القلم، ١٩٩١م)، ص٩٧، ٩٨.

Readonly

الآخرون من دلائل تردده وضعف عزيمته، وإني وإن كنت أميل إلى هؤلاء الآخرين في الجملة فإني أقطع بأن دوره في المسألة المصرية هو دور سلطان مسلم مخلص لدولته ورعيته لا يدخل في دوره هذا شبهة خيانة لعرابي أو تحالف مع الإنجليز.

الخاتمة: محنة الشرعية مع الجواد الخاسر

هكذا اضطرّت الخلافة العثمانية للتخلي عن أحد أخلص أبنائها بعد أن صار جوادًا خاسرًا لا يمكن المراهنة عليه، وهنا يثبت التاريخ مرة أخرى أن الشرعية لا بد لها من القوة، وأن القوة الخالية من الشرعية أقدر على صناعة ـ أو حتى شراء ـ شرعية لنفسها تحكم بها. والواقع أنه في زمن الانحطاط والاستضعاف تصير الخيارات كلها مريرة، إذ لا يستطيع أحد أن يتخذ الموقف الصحيح أو الأصح، بل يجتهد ليبحث عن الخيار الأقل سوءًا.

لقد حاول عبد الحميد دعم عرابي ما استطاع بداية بالامتناع عن إغاثة الخديوي، مرورًا بالوفود التي حاولت أن تنشئ الصلة معه لدعمه وتقييد الخديوي عنه، ثم بالمجهود السياسي في منع انعقاد الآستانة ثم في محاولة عرقلة قراراته، لكن عقلًا إنجليزيًّا مع أسطولٍ كان أقوى من عقل عثماني بلا أسطول، وكتبت المدافع التاريخ من جديد.

لكن الأزمة العميقة في هذه الحادثة هو في هذه الفجوة العميقة بين الرؤيتين: الرؤية القومية المصرية والرؤية الإسلامية (التي هي نفسها لاعثمانية في ذلك الوقت)، إذ بينما يتبارى مؤرخو المدرسة القومية في نسبة السلطان إلى التواطأ على عرابي ومحالفة الإنجليز، يختلف السلطان نفسه مع صدره الأعظم حول صحة قرار خوض حرب مع الإنجليز إنقاذًا لمصر، فيتهمه سعيد باشا بالتردد وقلة الحزم بينما

يتعلل السلطان بالعجز وفراغ يده من القوة[١]! وما أبعد المسافة بين قلة الحزم وبين التواطؤ والخيانة.. لكنها مسافةٌ صنعتها ورسختها التوجهات القومية الوطنية في كتابة التاريخ.

* * *

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني، ص٩٧، ٩٨، وانظر: ص٩٣، ٩٤.

Readonly

Readonly



معضلات التاريخ للسلطان عبد الحميد الثاني

***هذا المقال هو مقدمة كتاب «السلطان عبد الحميد الثاني في الذاكرة العربية»**

لا يزال عمل المؤرخين يستهدف أن يصل إلى أقرب صورةٍ ممكنة لما كان عليه التاريخ، ولأقرب تفسير ممكن لمجريات أحداثه. ومن أجل هذا وضع المؤرخون نظريات وإجراءات وأدوات لمحاولة ضبط العمل العلمي التاريخي، وتأسست لهم مدارسهم ومذاهبهم وتياراتهم المتعددة. لكن بعض الأحداث والشخصيات لها من الأهمية والحساسية ما يجعل التأريخ لها أصعب وأعقد من غيرها، فلئن كانت سيرة كل رجل بسيط في زاوية من الأرض تصلح أن تكون عملًا تاريخيًّا عميقًا، فكيف يمكن أن تكون سيرة سلطان امتد حكمه على ثلاث قارات وكان آخر نموذج ممثِّل لحضارة استمرت أكثر من ألف سنة، ثم هي لا زالت تقاوم؟!

هكذا هي سيرة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني، السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين آل عثمان، والذي تولى العرش وهو في الرابعة والثلاثين، ثم استمر عليه ثلاثة وثلاثين عامًا قبل أن يُعزل في أخطر انقلاب عسكري في تاريخ الإسلام. الرجل الذي مرَّت على وفاته مئة سنة ولا تزال ذكراه حاضرة ملتهبة لا بين المؤرخين وحدهم بل بين السياسيين كذلك.

Readonly

هذه السطور حديث عن معضلات التأريخ لهذا السلطان، وأبرزها ثلاث معضلات، وهي عامة في كل التواريخ، لكنها حين تتنزل على موضوع السلطان عبد الحميد تبدو أكثر إعضالًا!

التاريخ يكتبه المنتصر

قد اشتهر بين المؤرخين وبين عامة الناس القول بأن «التاريخ يكتبه المنتصر»، واستدلوا على ذلك بأنه ما إن يزول حاكم أو تزول دولته حتى يظهر من التاريخ ما كان مطمورًا محجوبًا فيرى الناس أن ما صدَّقوه كان كذبًا وما كرهوه كان حسنًا! وقد جادلهم آخرون بأن التاريخ أقوى من التزييف، وأن تمكنه من الظهور والذيوع بعد الحجب والإخفاء هو في نفسه دليل على ذلك، إذ مهما اجتهد حاكم ونظام في صناعة تاريخ وطمس تاريخ فإن التاريخ وإن انطاع لهم زمنًا ما وبدا أنه مهزوم لا يلبث أن ينتقم منهم بعد أن يجعلهم تاريخًا. ومن هاهنا ظهرت مدارس تاريخية مهتمة بصياغة التاريخ من وجهة نظر المغلوبين كمدرسة التابع التي طوَّرت أفكار الفلاسفة الناقدين للمركزية المُوَجِّهة للكتابة التاريخية، بحيث يمكن نبش وإحياء هذا التاريخ المجهول الذي كان مغلوبًا مع أهله المغلوبين.

التاريخ بطبيعة الحال هو رواية للأحداث، هذه الرواية هي رواية إنسانية يكتبها البشر، وأولئك البشر مندرجون في شبكة من منظومة القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهم ناطقون عنها متأثرون بها وفاعلون فيها، ومن هاهنا فلا بد أن تكون الرواية الصادرة هي واحدة من نتائج علاقات القوة المهيمنة على المجتمع، فالتاريخ فرع عن الخطاب السائد المهيمن في المجتمع، الذي هو وليد حصيلة القوى المهيمنة عليه والفاعلة فيه. وليس معنى «القوة» هنا مقتصرًا على مفهوم

Readonly

الإجبار والإكراه، بل هو يشمل معنى الاختيار أيضًا، فالمنتصر لا يكتب تاريخه بمجرد الإجبار والإكراه من موقع كونه الغالب القاهر فحسب، بل إن نموذجه في النصر يغري ويثير الإعجاب فيُكتب له تاريخه من موقع كونه المتفوق المُلْهِم أيضًا.

وقد شغلت مسألة الخطاب المهيمن عددًا من الفلاسفة والمفكرين، يظهر جزئيًا وتفصيليًا عند الباحثين الذين يحاولون التخلص من أنواع المركزيات المهيمنة المُنْتِجة للرؤية التفسيرية، والتي هي في حالتنا الآن المركزية الغربية، ثم تظهر بشكل أفضل عند مجادلة خطاب الاستشراق الذي هو مجمل خطاب المركزية الأوروبية وهو ما يُرى بوضوح في أعمال إدوارد سعيد، ثم يزداد التفصيل فيه في ساحة الفلاسفة كما يظهر لدى ميشيل فوكو وجاك دريدا وناعوم تشومسكي.

وأصل هذا الأمر معروف منذ قديم، وله في حضارتنا وتراثنا الإسلامي شواهد شهيرة، بداية من علماء الحديث الذين أدركوا في عملهم البحثي الجليل وغير المسبوق ولا الملحوق أثر أن يكون الراوي صاحب انحياز، ومدى تأثير هذا على صدقه ودقته في الرواية، وأدركوا أثر أن يكون الراوي شاميًا أو حجازيًا أو عراقيًا، وأن تكون الرواية مشهورة في بلد دون بلد، ولهم في هذا دقائق عجيبة تثير الفخر بإنجاز أسلافنا. وقد ظهر التنظير له واضحًا لدى عدد من المؤرخين كمؤرخ الإسلام الذهبي الذي قال: «وخلف معاوية خلق كثير يحبونه ويتغالون فيه، ويفضلونه، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإما قد ولدوا في الشام على حبه، وتربى أولادهم على ذلك. وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة، وعدد كثير من التابعين والفضلاء، وحاربوا معه أهل العراق، ونشؤوا على النصب ـ نعوذ بالله من الهوى ـ كما قد نشأ جيش علي ـ رضي الله عنه ـ ورعيته ـ إلا الخوارج منهم ـ على حبه، والقيام معه، وبغض من بغى عليه، والتبري منهم، وغلا خلق منهم في التشيع.

Readonly

فبالله كيف يكون حال من نشأ في إقليم، لا يكاد يشاهد فيه إلا غاليًا في الحب، مفرطًا في البغض، ومن أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟ فنحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمان قد انمحص فيه الحق، واتضح من الطرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحببنا باقتصاد، وترحمنا على البغاة بتأويل سائغ في الجملة، أو بخطأ ـ إن شاء الله ـ مغفور، وقلنا كما علمنا الله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]. وترضينا ـ أيضًا ـ عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخَلْقٍ، وتبرأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليًا، وكفروا الفريقين»[1]، وهي كلمة بليغة تظهر أثر هيمنة الخطاب العام، وأثر الزمن في تعديل النظر التاريخي.

ومن هاهنا فإن التأريخ للسلطان عبد الحميد يواجه المشكلة الكبرى في أنه تاريخ المهزومين، ذلك أن النموذج الذي يمثله عبد الحميد لا يزال مغلوبًا حتى بعد مئة عام من وفاته، ونعني به: نموذج الخلافة الإسلامية الجامعة التي تتجاوز القوميات والعرقيات، وهو النموذج الذي يعتبر عبد الحميد آخر ممثليه. ومن هاهنا فقد كان التأريخ لعبد الحميد الثاني جزءًا من معركة الهوية الدائرة في العالم الإسلامي، وساحة من ساحاتها، إلا أن الغالبين كانت لهم اليد العليا والكلمة العليا كذلك في كتابة وتقديم هذا التاريخ بما توفر لهم من قدرات السلطة التي تحتكر منافذ التعليم والثقافة، وتنتج الخطاب المهيمن في المدارس والجامعات ومراكز البحوث وفعاليات الثقافة من الأدب والمسرح والإذاعة والتلفاز.

---

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣/ ١٢٨.

Readonly

خلال هذه الأعوام المئة التي تفصلنا عن عبد الحميد الثاني كان المدّ القومي هو الذي كتب تاريخ الحقبة السابقة، وهو بطبيعة الحال لم يكتبها من موضع الحياد بل من موضع الخصومة بل العداء، ولا بد لتثبيت انتصار اليوم من تقديم الصورة الشنيعة للتاريخ الذي كان بالأمس، فهذا هو مبرر الوجود وهذا هو وقود الاستمرار أيضًا.

ولا يقتصر هذا المدّ القومي على تركيا وحدها، بل لقد شمل معه العالم العربي كله، فقد دخل العرب أيضًا في سياق قومي عروبي كان لا بد له من كتابة تاريخ العثمانيين باعتباره تاريخ الظلام الكبير وقرون الانقطاع الحضاري، ومع أن السلطات القومية في العالم العربي عجزت عن صناعة الوطن العربي الواحد الذي طالما تغنوا به فإنهم نجحوا في تشويه تاريخ العثمانيين وفترة حكمهم للولايات العربية، وحتى لو أتيح لباحث هنا أو هناك أن يصل إلى عكس هذه النتيجة فإنها إن لم تثر له المشكلات فإنها ستكون مغمورة ضمن تيار الخطاب العام الغالب، الخطاب الذي يستمد مبرر وجوده من أنه مضاد للعثمانيين ومضاد للجامعة الإسلامية المتجاوزة للقوميات. وأبرز ما يمكن أن نضربه مثالًا على هذا هو قضية فلسطين:

لقد رفض عبد الحميد الثاني رفضًا قاطعًا أن يسمح بوطن لليهود في فلسطين، وظل هكذا إلى أن خُلِع، فما إن خُلِع حتى دخلت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى فهُزِمت فضاعت فلسطين، وعلى امتداد مئة عام لم يكن للقوميات العربية التي نشأت حول فلسطين مجهود جاد في تحريرها، بل الواقع أن هذه الأنظمة كانت من وسائل إقامة وحماية إسرائيل. وفي خضم هذا الألم المستمر في فلسطين تذكر الباحثون هذا الموقف المشرف لعبد الحميد الثاني، فما كان للقوميين أن يسكتوا بل لطالما أنتجوا من الكتابات التاريخية ما يتباكى على الشام في الفترة العثمانية، ثم خرج كتاب بعنوان «دور عبد الحميد الثاني في تسهيل الهجرة اليهودية لفلسطين»

Readonly

لباحثة قومية، وصدر عن أكبر المراكز القومية العربية. وبغض النظر الآن عن القيمة العلمية للكتاب الذي تصدى له بالرد كثيرون فإن المعنى الذي نريد بيانه هنا هو أن الخطاب القومي العروبي ما كان له أن يسكت عن منقبة للعثمانيين يُمكن توظيفها في معركة الهوية المشتعلة في العالم العربي مع أنصار الفكرة الإسلامية. لم يكن ذلك الكتاب ـ وأشباهه ـ مجرد بحث علمي في التاريخ بل كان سهمًا في معركة الهوية بين القوميين والإسلاميين.

لذلك فإن محاولة التأريخ لعبد الحميد تستلزم جهدًا إضافيًا؛ لأنها محاولة تُغالِب الخطاب التاريخي السائد والمستقر والمصنوع بقوة الغالب في بلاد العرب والأتراك على حد سواء، ولم يتنفس المؤرخون المؤيدون لعبد الحميد إلا بعد خفوت القبضة القومية في كل من تركيا والعالم العربي، وإن نظرة واحدة إلى تاريخ ومكان النشر للمؤلفات التي تثني على عبد الحميد ليشهد بهذا الذي نقول.

على أن ثمة أمرًا آخر يجب الإشارة إليه، وهو مؤثر أيضًا في التأريخ للسلطان عبد الحميد الثاني، وهي مسألة المقاومة الطبيعية للأمة تجاه هذه الأوضاع التي فرضها ورسمها الاحتلال الغربي والأنظمة التي دعمها في بلادنا. إن أمتنا لم تستسلم ولم تخرج من هويتها الإسلامية، وظل حلم الوحدة الإسلامية خيالًا يداعب العقول والقلوب، بل لقد هُزِم القوميون العرب في بلاد العرب حين حاولوا إنتاج قومية عروبية منقطعة ومعادية للهوية الإسلامية، فجرى استدماج مشوه بين العروبة والإسلام، يحرص فيه السياسي العروبي ونخبته الثقافية على تقديم صيغة عروبية لا تصادم الإسلام بفجاجة ولكنها تستمد منه مشروعيتها، لقد كان القوميون الأوائل ـ أو في لحظات نشوة وتمكن ـ متسارعون إلى نبذ الإسلام واستبدال العروبة به، ووصلوا إلى نبذ صهيب الرومي وسلمان الفارسي مع الحفاوة بأبي جهل وأبي لهب

Readonly

وفقًا للتقسيم العرقي الطبيعي المنسجم مع الفكرة القومية، وصدر عن بعضهم ما يجعل التضحية بالإسلام في سبيل العروبة واجبًا، كقول رشيد الخوري:

هبوني عيدًا يجعل العرب أمة وسيروا بحثماني على دين برهم

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلًا وسهلًا بعده بجهنم

أو كما اتخذ حزب البعث شعاره القائل:

آمنت بالبعث ربًا لا شريك له وبالعروبة دينًا ماله ثاني

إلا أنهم في نهاية الأمر لم يفلحوا، ولم يجدوا إلا أن يقدموا القومية في صيغة لا تتناقض مع الإسلام، وقد أعقبت الفكرَ القومي موجةٌ جديدة من الانتشار الإسلامي في بلادنا العربية، وما من حاكم قومي إلا وقدَّم نفسه في آخر حياته كحاكم مسلم أو على الأقل متصالح مع الإسلام.

لكن الشاهد المقصود الآن من إيراد هذا: هو القول بأن الأمة لا زالت تقاوم، وهي لم تستسلم، وهذه المقاومة أنتجت في سياق التاريخ كثيرًا من الكتابات التاريخية العاطفية، ولا بأس أن نسميها ردة فعل وانتقام أيضًا، وكان نصيب عبد الحميد الثاني من هذا كبيرًا كذلك. لقد خرجت كثير من الكتابات التاريخية التي تتحدث عن السلطان المظلوم، السلطان الذي ضحى بعرشه من أجل فلسطين، السلطان الذي كان وحيدًا لا يجد الرجال، السلطان الذي كان مضطرًا اضطرارًا إلى الاستبداد، السلطان الذي كانت المؤامرات أكبر منه.. إلخ!

بعض هذا حقٌّ من جهة النظر التاريخي البحت، وهو مفهوم في إطار المعركة الدائرة حول عبد الحميد كرد فعل تجاه التشويه الذي تعرض له، لكن هذا الخطاب نفسه يمارس الانتقائية في الأحداث والمواقف، كما يمارس الانحياز في التفسير

Readonly

دون التعمق الكافي في فهم وتحليل دوافع الأطراف المختلفة، ويمارس المسارعة في تبرئة عبد الحميد وفي تخطئة خصومه أو حتى تخوينهم، بل إن كثيرًا من هذه الكتابات صاغت مواقفها كأن مخالفة عبد الحميد هي بذاتها دليل شبهة وبادرة خيانة، فكأن موافقة عبد الحميد واتباعه هو ميزان الجرح والتعديل لغيره! هذا مع أن كثيرًا من خصوم عبد الحميد له سابقة جهاد وكفاح، وبعض أولئك لا يُتَّهم في إخلاصه وولائه للأمة.

ومع هذا الخطاب التاريخي العاطفي سنفقد القدرة على تعلم الدرس التاريخي، وسنعجز عن تقديم تفسير صالح لانهيار تجربة عبد الحميد بعد ثلث القرن في الحكم، وهي فترة طويلة كافية لتعديل ميزان القوى، ولن تفسر كيف أن الذين انقلبوا على عبد الحميد هم الذين تكونوا ونشؤوا في دولة عبد الحميد وعهده، فهم ثمرة غرسه الذين كان يُفترض بهم أن يكونوا عُدَّتَه ورجاله. إن هذا الخطاب التاريخي وإن كان نافعًا في تصحيح صورة عبد الحميد المشوهة إلا أنه غير مفيد في فهم التجربة والتعلم منها، إذ خلاصته أن عبد الحميد بذل كل ما في وسعه ولكن الأمور كانت أكبر منه. وهذه النتيجة مخالفة لسنة إلهية تقضي بأن الهزائم لا تأتي إلا لخلل داخلي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. والمسلمون هم أولى الناس بإنزال السنن الإلهية على القراءة التاريخية وفهم التاريخ في ضوئها، ولذلك فأولى الناس بإصدار تقييم موضوعي للتجربة التاريخية هم المسلمون الذين ينبغي أن يحرصوا على تصحيح صورة عبد الحميد مقابل تشويهها قدر حرصهم على تصحيحها دون تلميعها وزخرفتها.

Readonly

ومن هنا فإن معضلة التاريخ لعبد الحميد الثاني لا تزال بحاجة إلى أن تخرج من سياق الفعل ورد الفعل إلى سياق النظر والتدبر والتأمل للاستفادة منها، ولن يخدش هذا أنه كان سلطانًا مسلمًا مخلصًا سعى بما استطاع لحفظ بلاده وخلافته، وسلك إلى هذا سبيلًا رآه حسنًا صائبًا، فأصاب وأخفق وأجاد وأساء، وهو الآن عند ربه الذي هو أعلم به وأرحم، وأما تجربته فقد بقيت عندنا تنتظر من يفيد منها.

التاريخ يكتبه الحاضر

لئن كان التاريخ يكتبه المنتصر، ويقاومه المغلوب بروايته، فإن ثمة مدخلًا آخر يؤثر في القراءة التاريخية، وذلك هو الحاضر نفسه.

إن البحث في التاريخ هو صورة من صور إجابة الأسئلة المطروحة في الحاضر، ولعل أدق تعريف للتاريخ هو قول ألبرت حوراني «التاريخ هو ما يحتاج الناس إلى تذكره»[1]، وبقدر ما يبدو التاريخ للوهلة الأولى مجموعة تجارب مكتملة ومنقضية فإن ممارسة البحث في كل تجربة تسفر عن قراءة جديدة لنفس التجربة القديمة، حتى قيل بحق أنه ليست ثمة تجربة تاريخية مكتملة بل إن كل تجربة قادرة على العطاء بقدر ما يتجدد طرح الأسئلة عليها. وبغير دخول طويل في وصف المدارس الفلسفية البنيوية ومعارضيها وطريقة تفسيرها للتاريخ، فالخلاصة المقصودة هو ما عبر عنه ببساطة جون ليتشه بالقول: «التغييرات في التجربة أو الخبرة الحاضرة للمجتمع أو الفرد تُغيِّر معنى الماضي. لم يعد بإمكاننا أن نفهم الماضي كما هو في

---

(١) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩٣٩م**، ترجمة: كريم عزقول، (بيروت: دار النهار، ١٩٦٨م)، ص١٩.

Readonly

حد ذاته لأنه أصبح يُفهم الآن من خلال اهتمامات وهموم الحاضر»[١].

إن لحظة الكتابة نفسها ذات تأثير في المادة المكتوبة، ليس فقط من حيث علاقات القوة والغالب والمغلوب كما سبق الحديث عنه، بل من حيث الأسئلة التي تطرحها والتي يتفاعل الكاتب معها ويتخذ منها موقفًا، وربما اختلفت إجابة نفس الكاتب وانتقل في مسيرته الفكرية من اتجاه إلى اتجاه فاختلف تفسيره للحدث الواحد اختلافًا جذريًّا، وقديمًا قال ابن الرومي:

تقول: هذا مُجاجُ النحلِ، تمدحُهُ ... وإن تَعِبْ قلتَ: ذا قَيْءُ الزنابير

مدحًا وذمًّا وما جاوزت وصفهما ... والحقُّ قد يعتريه بعضُ تغيير

وأبرز الأسئلة التي طُرِحت في البيئة الإسلامية منذ عصر عبد الحميد وحتى الآن، وهي الأسئلة التي هيمنت على أذهان المؤرخين حين كتبوا تاريخ عبد الحميد الثاني، هي أسئلة الهزيمة والنهضة. وبقدر ما اختلفت اتجاهاتهم وانحيازاتهم ورؤاهم في لحظة الكتابة بقدر ما اختلفت صورة عبد الحميد في مؤلفاتهم، وبقدر ما تَلَوَّن تفسير الحدث الواحد مدحًا وذمًّا.

فعهد عبد الحميد الذي بلغ ثلث القرن قد يكون مواصلة لمسيرة الانهيار العام للدولة العثمانية وهذا حقٌّ من حيث استمرار التناقص والانكماش وخروج البلاد من حوزة العثمانيين، وقد يكون هذا العهد في قول آخر عهد تأجيل وإيقاف الانهيار إلى ثلث القرن وهذا حقٌّ من جهة مقاومة انتشار التغريب وسياسة الجامعة الإسلامية ودعم حركات مقاومة الاستعمار. قد يُمدح عبد الحميد بأنه كان مُعَوَّقًا

---

(١) جون ليشته، **خمسون مفكرًا أساسيًّا معاصرًا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة**، ترجمة: فاتن البستاني، ط١ (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨م)، ص ١٩.

Readonly

للتغريب وقد يُذَمُّ لأجل هذا نفسِه فيقال: مُعَوِّقٌ للتحديث! قد يكون عبد الحميد من أسباب التخلف التي عاشها العرب بعد انهيار الدولة العثمانية وقد يكون المثالَ الذي يُشار إليه ويُتَحسَّر عليه ويُلْتَمَس زمانه بعدما تبينت فداحة الكارثة بعد غيابه وانفكاك رابطة الخلافة.

وإذ لا نزال حتى هذه اللحظة نختلف اختلافًا واسعًا في تحديد أسباب السقوط وتحديد سبيل النهوض، فسيبقى هذا الخلاف مُلْقِيًا بظلاله على القراءة التاريخية، وإذا كان الخلاف بيننا الآن واسعًا حول المحطات الفاصلة في حاضرنا فكيف يمكن أن يكون في تقييم حدث تفصله عنا أكثر من مئة سنة؟! قد يختلف في وقتنا هذا عراقيان حول صدام حسين: هل كان هو الطاغية الذي تسبب في كل الكارثة التي حصلت من بعده؟ أم كان السدَّ الذي يقف مانعًا حصول هذه الكوارث؟ ولو افترضنا أنهما اتفقا على رأي منهما فإن هذا لن يعني اتفاقهما على نقل هذه المشابهة لتقييم عبد الحميد: هل كان سببا في الكارثة أم السدَّ الذي حال دونها؟!

نحن في الواقع نقرأ التاريخ ونقيمه ثم نكتبه وهو يحمل صدى مواقفنا من الأحداث المعاصرة، ويجب أن نتوقع ونحن في عصر التيه الكبير الذي نحياه أن اختلافنا حول تقييم الشخصيات التاريخية سيكون أكثر اتساعًا وعمقًا. إذ لا تزال أسئلة الحداثة والهوية والقومية والديمقراطية مهيمنة على المشهد الإسلامي، فمن الناس من كانت له إجابات ومنهم من لم يهتدِ إلى إجابة بعد، ومن هؤلاء الذين كانت لهم إجابات من استطاع تحويلها إلى تجارب سياسية ومنهم من لم يستطع بعد، ولا تزال أسئلة النجاح والإخفاق تحوم حول رأس كل تجربة منها.

ولقد تجد اثنين كلًّا منهما يحب عبد الحميد الثاني وينحاز له، مع اختلاف واسع

Readonly

في القراءة والتقييم، فربما كان الأول منحازًا له لتعويقه للتغريب وقضائه المبكر على الدستور (المشروطية) وإيقافه المبكر لمجلس المبعوثان ويرى في هذا حماية ووقاية للدولة العثمانية من أسباب تمزقها. بينما ينحاز الثاني لعبد الحميد مع إيمانه التام بوسيلة الدستور والبرلمان كواحدة من أهم سبل الشورى والديمقراطية إلا أنه يلتمس العذر لعبد الحميد في سياسته تجاه الدستور والمجالس النيابية باعتبارها ضرورة وقت وحالة اضطرار دفع إليها وضع عالمي متأزم وشعب غير ناضج لهذه الأمور. سيرى الأول أن موقف عبد الحميد مبدئي وأنه لو طال به الحكم ثلاثين سنة أخرى ما كان ليعيد الدستور ولا المجالس النيابية، وسيرى الثاني أن موقف عبد الحميد مؤقت ولو سنحت له الفرصة خلال هذه الثلاثين التي حكمها لأعاد بنفسه الدستور والمجالس النيابية طائعًا مختارًا. ومع أن عبد الحميد نفسه كتب في مذكراته موقفه من الحكم النيابي إلا أن عبارته تتسع لكلا التأويلين ظرفًا ومضمونًا.

وفي المقابل قد تجد اثنين كلاهما ضد عبد الحميد الثاني إلا أن أحدهما يأخذ عليه أنه لم يكن أسرع في التحديث وأكثر جذرية في بناء الهياكل الإدارية وإصلاح المالية والاستفادة من الغرب في التعليم والثقافة وأنه إنما عاقته عن ذلك أفكاره ومفاهيمه الدينية وإغراءات منصب الخلافة، بينما يرى الثاني أنه لم يكن أسرع في سياسة الجامعة الإسلامية وأكثر جذرية في تثوير الشعوب الإسلامية واستثمار منصبه الديني والاستعانة بالثوريين وأنه إنما عاقه عن كل ذلك طبيعته النفسية المترددة والمتشككة والتي هي أقرب إلى الحرص منها إلى الإقدام.

وحيث حَكَمَ التاريخ بإخفاق عبد الحميد في آخر الأمر، وانتهاء أيامه بالعزل والنفي، فإن السؤال الذي يجتهد المؤرخون في الإجابة عليه تفسيرًا لهذا الإخفاق: هل كان مشروع عبد الحميد مشروع تحديث أخفق في التوجه أم في التطبيق؟ وماذا

Readonly

كان ينبغي أن يفعل ليتجنب هذا المصير؟ هنا يعبر المؤرخون عن تصوراتهم فبعضهم يريد اندفاعًا نحو الحداثة، وبعضهم يريد اندفاعًا نحو الأصالة، وأولئك المندفعون نحو الحداثة يختلفون في الصيغة الأنسب من بين صيغ الحداثة المطروحة إذ الحداثة نفسها لا تعني النجاة من السقوط فقد سقطت ألمانيا وروسيا رغم كونهما نموذجيْن حداثييْن، وأولئك الذين يريدون اندفاعًا نحو الأصالة يختلفون حول الصيغة الإبداعية التي تحقق شكل وشرط ومفهوم الأصالة في الواقع المعاصر الذي تغير فيه كل شيء.. فالتاريخ هنا في محنة مع المؤرخين أنفسهم!

وهذه محنة التأريخ مع من اتفقوا على إخفاقه.. بينما خالفهم آخرون وقالوا: بل أدى ما عليه فنجح، ولم يكن في الإمكان أبدع مما كان!

وبين هذه المواقف أطياف من التوسط والإعذار والتحفظ، وأطياف من المداخل التفسيرية لسياسة عبد الحميد وشخصيته. وفي سياق آخر فإن كثيرين كتبوا في تاريخ عبد الحميد الثاني وليست في أذهانهم ولا في طاقتهم تقديم صورة تفسيرية جامعة، فتضطرب مؤلفاتهم وكتاباتهم، وقد يجمعون بين مديح نقيضيْن أو ذمّ نقيضيْن، وقد وزَّع الله الأفهام كما وزَّع الأرزاق، فرفع بعضهم فوق بعض درجات.

لا ريب في أن الخلاف سيظل من سمات البشر، لكن المقصود هنا هو أن خلافًا بهذا الحجم والاتساع في الأسئلة الكبرى في أمة تحاول أن تقرأ تاريخها، سيعني أن جهدًا عزيزًا يجب بذله في قراءة وفهم وتقييم هذا التاريخ. وأكثر لحظات هذا التاريخ اشتباكًا وحساسية هي اللحظات التي وقعت فيها هزيمتنا وانتصر فيها علينا أعداؤنا، وإن لحظة عبد الحميد في القلب والصُّلْب من هذه الفترة. ومن هنا

Readonly

فإن كثيرًا من الكتابة عن عبد الحميد كانت في عمقها كتابة عن أسباب التخلف وعن وسائل النهوض، وعلى قدر الخلاف الكبير في هذه الأمور على قدر الخلاف في قراءة وكتابة تاريخ عبد الحميد.

التاريخ يكتبه إنسان

يبقى في معضلات التاريخ للسلطان عبد الحميد الثاني أن الرواية التاريخية يكتبها في نهاية المطاف إنسان، ومن الناس من يستطيع التحرر من رواية الغالب وأن يكافح مناضلًا لإسقاطها ومقاومتها وأن يجتهد لبعث رواية المغلوب والتعاطف معه، وربما دفع ثمن هذا راضيًا من حياته وأمنه ومستوى معيشته. وأقل من هؤلاء مَنْ يستطيع التحرر من حاضره إلى حد ما، فلا تستفزه أسئلة الحاضر بقدر ما يستطيع هو إعادة صياغتها وتوجيهها ضمن مسار فكري أكثر اتساعًا وعمقًا، ولكن أنَّى لإنسان أن يستطيع التحرر من نفسه وجملة معارفه وخبراته، فتلك هي وسائله وأدواته بقدر ما هي قيوده أيضًا.

يصدق هذا بطبيعة الحال على كل مادة مكتوبة، وهو في شأن الكتابة التاريخية أوضح، ولعل أوضح ما نضربه على هذا من أمثلة هو ما ذكره العقاد في مقدمة كتابه «عبقرية محمد»، حيث روى أنه كان عازمًا على كتابة هذا الكتاب قبل ثلاثين سنة، إلا أنه بعد هذه الثلاثين كان أكثر معرفة وخبرة ونضجًا، فلو أنه كتبه قديمًا لعاد لكتابته من جديد[1]. هذا مع أن الموقف العام بين الكاتب والموضوع لم يتغير طوال هذه السنين، كما أن أسئلة الحاضر المطروحة للإجابة عليها من السيرة لم تختلف اختلافًا جذريًا، ثم إن علاقات القوة الغالبة طوال هذه السنين في البيئة التي

(١) انظر: عباس محمود العقاد، **عبقرية محمد**، (القاهرة: دار الشعب، د. ت)، ص٤، ٥.

Readonly

كان يؤلف فيها العقاد لم تجرؤ أن تعتدي على مقام النبي ﷺ. الذي تغير فحسب هو الكاتب نفسه الذي مضت مسيرته الفكرية وازداد من خبرة الحياة وتطورت شخصيته ورؤاه ونظراته بما جعله يفهم كثيرًا من المواقف النبوية فهمًا آخر.

وقد ضربتُ المثل بالعلاقة بين مسلم وبين نبيه ﷺ، وهي العلاقة التي ملؤها التقدير والإجلال وأخذ مقعد التلميذ المتأمل من القدوة والأسوة، ضربت المثل بها لكي يبدو حجم تعقد الموقف حين يدرس المؤرخ شخصيةً تنازعتها الآراء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. ولقد كتب العقاد نفسه في مطلع سيرته الذاتية قائلًا: «وعباس العقاد ـ كما أراه ـ هو شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الشخص الذي يراه الكثيرون من الأصدقاء أو من الأعداء.. هو شخصٌ أستغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه أو يتحدثون عنه، حتى ليخطر لي في أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق به مرة في مكان، فأضحك بيني وبين نفسي وأقول: ويل التاريخ من المؤرخين»[1].

والمؤرخ حين يمارس التاريخ لا يتخلى عن بشريته، ويستطيع موقفٌ واحد أن يُنشئ في نفسه علاقة متميزة مع الشخصية المدروسة حبًّا أو بُغْضًا، وكثيرًا ما انعقدت صلاتٌ كهذه بين الشخصية والباحثين في تاريخها تراثها، ويُمكن لهذا الموقف الواحد أن يكون مدخل الكتابة التاريخية كلها، وربما حصل ذلك دون أن يشعر المؤرخ نفسه بهذا التأثير.

يتلاعب الروائيون وصُنَّاع الدراما بعواطف القراء والمشاهدين حين يعيدون تقديم صورة المجرم على أنه ضحية، وتقديم الضحية على أنه مجرم، وكثير من

---

(١) عباس محمود العقاد، أنا، (القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٦م)، ص ١٥.

Readonly

الروايات والأفلام السينيمائية تعمدت أن تسوق القارئ ضمن سردية خاصة تجعل موقفه واضحًا تجاه الشخصية ثم ربما مارست انقلابًا مفاجئًا أو تدريجيًا في التطور الروائي الدرامي لتصل إلى تقديم رسالة واضحة تقول: لا تحكم بناء على الظواهر. وبقدر ما يمكن استعمال هذا في الخير بقدر ما يمكن استعماله في الشر أيضًا، يتوقف هذا على صاحب النص.

والمؤرخ وإن لم يكن يطالع نصًّا دراميًا محبوكًا، فهو يطالع في النهاية قصة حقيقة منتشرة فصولها بين الوثائق والمراسلات والسير الذاتية وأرشيف الصحف وغيرها، ويتنقل بين قصص كثيرة ترسم أطراف الشخصية، تستطيع واحدة منها أن تشكل حجر الزاوية في العلاقة بين المؤرخ والشخصية.

وفي سيرة عبد الحميد كثيرٌ من المواقف..

بالنسبة لعبد الحميد، ستكون قصته مع هرتزل ألمع ما قد يجد الفلسطيني العربي المسلم لا سيما إن كان لاجئًا في الشتات قد قضى عمره وهو يتغذى ويرتوي من قصة فلسطين ونكبة أهله وصفة قريته وحديث الليالي الكثيرة عن «أيام البلاد». وستكون قصته مع سكة حديد الحجاز ألمع ما قد يجد المتشوق للوحدة الإسلامية الذي يحلم بها ليلًا ونهارًا ويقضي وقته وهو يتأمل ماذا لو اكتمل خط حديد الحجاز فاتصل ما بين بلغراد وإسطنبول والأناضول والشام والحجاز واليمن والعراق؟!

وفي المقابل قد يكون جهازه الأمني «الجورنالجية» هو حجر الزاوية في رسم العلاقة بين تاريخه وبين مؤرخ قضى حياته في معاناة أو في كفاح مع الأجهزة الأمنية، فلربَّ كلمة قالها هنا أو هناك تسببت في سجنه أو في تشريده أو على الأقل في حرمانه من حقوقه الطبيعية. إن مؤرخًا كهذا لا يمكن أن يغفر لعبد الحميد تبريره

Readonly

لمثل هذا الجهاز. وقريبٌ من هذا مؤرخ قضى حياته في صراع مع الاستبداد وفي نضال من أجل الحكم النيابي واستقلال السلطات ومنع تركزها بيد شخص واحد، فمثله لن يقبل تبرير عبد الحميد لتعطليه المجالس النيابية والعمل بالدستور بذريعة أن الأمة لم تنضج بعد، فتلك الذريعة نفسها «الأمة لم تنضج بعد للحكم النيابي» هي التي كانت حجة سائر المستبدين من بعده.

مؤرخ آخر قد يُسَلِّم بكل هذا أو ببعضه، لكنه يتعاطف مع عبد الحميد الذي وُلِد يتيمًا ونشأ في حضانة زوج أبيه، ولم يهنأ بيوم في خلافة مضطربة قد وصلت حافة النهاية، يحيط به صدور عظام ليسوا بعيدين عن الشبهة، وقد يرسم خط تطوره النفسي من اليُتْم إلى معاينة الاضطراب بين القصر والجيش في مطلع حياته إلى اكتشاف المؤامرة مبكرًا في سفره مع عمه عبد العزيز إلى اغتيال عمه إلى عزل أخيه إلى توليته ليكون طوع يمين الرجال المتنفذين إلى مسيرة من الهزائم أمام روسيا وسلسلة من الاحتلالات الأجنبية لبلاده ثم سلسلة من التمردات الداخلية للأعراق والقوميات شرقًا وغربًا. قد تكون سيرة السلطان المثيرة للتعاطف هذه هي وسيلة إعذاره في سائر ما قد يُؤخذ عليه، تمامًا كما يستطيع كاتب الرواية ومؤلف الدراما أن يلقي الضوء على سيرة مجرم عتيد بداية من طفولة بائسة ومراهقة عسيرة وشباب ضائع فيأخذ القلوب نحو التعاطف معه بدل التشفي فيه وقد لقي جزاءه العادل!

المقصود هنا أن موقفًا بعينه قد يرسم لدى المؤرخ تفسيره لشخصية السلطان كلها، وبحسب تكوين المؤرخ وحياته وأحلامه تعمل منظومته التفسيرية على تحليل وتفسير الشخصية التي يدرسها، والناس متفاوتون في العمق والقدرة على التحليل.

وما أبرئ نفسي.. وسأسوق مثلًا على هذا من تجربتي الخاصة، فمنذ أن قرأت

Readonly

في سيرة عبد الحميد ومن حوله وجدتني أتوقف مليًّا أمام عبارة وردت في مذكرات عبد الحميد، تلك هي قوله: «إن هرتزل يريد أرضـًا لإخوانه في الدين؛ لكن الذكاء ليس كافيـًا لحل كل شيء»[١]. فوقع في نفسي أن قوله «الذكاء ليس كافيًا لحل كل شيء» إنما كان يعبر بها عن نفسه.

نعم، كان عبد الحميد ذكيًا وداهية، وشهد بهذا له خصومه، حتى إن رجلًا مثل جمال الدين الأفغاني قال عنه: «لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة»[٢]، وجمال الدين هو أهم وأكبر زعيم شعبي في ذلك الوقت، وسيرته ـ مهما اختلف حولها الناس ـ تقطع بعظيم ذكائه وقوة شخصيته وأنه ليس بالذي يُخْدع، فشهادته لعبد الحميد بهذا لا مطعن فيها لا سيما وقد انتهى ما بين الرجلين إلى الخصومة. إلا أن ذكاء عبد الحميد لم يكن يجد جسارة تناظره، هو كما يُقال أحيانًا «عقل رجل في قلب طفل»، له من حدة الذهن والعقل والذكاء ما يكون به في مصاف العظماء لكن ليست له من القوة النفسية والجسارة والمبادرة والإقدام ما يكافئ ذكاءه.

كأن عبد الحميد وجد في هرتزل ذكاءً عظيمًا تعوزه القدرة، وقد صدق عبد الحميد في هذا، وقد مات هرتزل ولم يتحول مشروعه إلى واقع، ولو أن المشروع الصهيوني كان هرتزل وحده لانتهى بموته، لكن المشروع الصهيوني ورثه حاييم

---

(١) عبد الحميد الثاني، **مذكرات السلطان عبد الحميد**، ترجمة وتحقيق: د. محمد حرب، ط٣ (دمشق: دار القلم، ١٩٩١م)، ص٢٩.

(٢) جمال الدين الأفغاني، **خاطرات الأفغاني: آراء وأفكار**، تقرير: محمد باشا المخزومي، ضمن: **الآثار الكاملة للسيد جمال الدين الحسيني الأفغاني**، إعداد وتقديم: سيد هادي خسروشاهي، ط١ (القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠٢م)، ٦/ ٥٩.

Readonly

وايزمان الذي أحياه من جديد بعد تضعضع وتوقف. لكن الذي يهمنا في هذا السياق أن عبد الحميد حين كان يقول «الذكاء ليس كافيًا لحل كل شيء» فإنما كان يُفسِّر حال نفسه، هكذا وقعت في نفسي كلمته وهكذا قرأتها، وهكذا وجدتها تفسيرًا يجمع سائر سيرة عبد الحميد في نظام واحد وهيئة واحدة.

لقد انتظر عبد الحميد أن تقع الحرب بين الدول الكبرى، انتظرها ثلاثين عامًا لكنها وقعت بعد أربعين سنة، حين كان معزولًا ومنفيًا. وعطَّل أسطوله البحري كي يطمْئِنَ الأوروبيين فلا يتنازعون عليه بل يتنازعون هم من حوله، ولكنهم احتلوا بلاده: تونس ومصر فضلًا عن مناطق البلقان، ولم يتحرك لفعل شيء ذي بال، هو يفسر هذا بأنه لو كان قد تحرك لفقد الشام. رجل عرف أن من بين صدوره العظام ووزرائه من يقبل الرشاوى من أوروبا ويعمل لصالحها لكنه أبقى عليهم ولم يجد غيرهم واحتج بقلة الرجال، وهو كان ينفق على معارضيه في الخارج كي لا يزدادوا وقوعًا في حبائل الأوروبيين فاستعملها أولئك في مزيد من المعارضة له. الخلاصة هنا أن عبد الحميد مع ذكائه وتدينه وإخلاصه وموهبته إلا أنه استعمل كل هذا في «إبقاء الحال على ما هو عليه» قدر المستطاع، ولم يبادر نحو تغيير هذه الخريطة، لم ينتهز فرصة سانحة بقدر ما كان يحرص على ما بيديه، كان يمثل «قوة الصمود لا شجاعة الإقدام».

في عهد الرئيس محمد مرسي في مصر رأيتُ فيه صورة من عبد الحميد، شخصية قوية في نفسه، لكنه يمثل صمود الثبات لا شجاعة الإقدام، يحاول أن يحافظ ولا يفكر في المبادرة، يجنح إلى التهدئة لا إلى حسم المواقف، وقد علمتُ يقينًا فيما بعد من شهود عيان أنه كان يعرف بخطوات الانقلاب عليه، إلا أنه لم

Readonly

يصارح أحدًا بهذا، وفضَّل أن يجنح إلى التهدئة، ثم لما صار الانقلاب واقعًا ضحَّى بنفسه حقنًا للدماء. وكنت قد كتبت بتاريخ (٢٨ مارس ٢٠١٣م) أي قبل أزيد من ثلاثة أشهر من وقوع الانقلاب العسكري في مصر أرصد هذا التشابه بين الرجلين، ثم قلت في نهاية المنشور «كدت أكتب العاشرة، ولكن محوتها وأحببت أن أظل في التاسعة، فأقول: اللهم لا تجعل مرسي كعبد الحميد وألهمه رشده!»، فالتقطت المنشور صحيفة تابعة للسلطة فكتبت أن العاشرة هي انقلاب الجيش والعزل.

ثمة فوارق بين الرجلين ليس هاهنا مقام الخوض فيها، لكنهما كانا من قوة الشخصية مع التدين والإخلاص والبصر بالمخاطر بمحلٍّ واحد، بل هما من التشكك بمحل واحد، فلقد كان الرئيس مرسي لا يأكل من طعام القصر شيئًا مهما طال يومه فيه، يخشى على نفسه منهم، وكذلك كان عبد الحميد ـ كما نقل رئيس كُتَّابه: تحسين باشا في مذكراته ـ متشككًا فيمن حوله. وهو أمر يتضح في مذكرات عبد الحميد أيضًا.

وتلك قناعتي حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، ولو كان لي أن أتمنى على التاريخ، لتمنيت أن يكون عبد الحميد أكثر جرأة ومبادرة وحسمًا، ولتمنيت أن يستفيد من جهود الأفغاني الذي هو طاقة عجيبة في تثوير الشعوب، وهو عندي ـ مع اطلاعي على مختلف الآراء فيه ـ من أعظم الرجال، بل لست أعرف له شبيهًا في قدرته على تثوير الناس في بلاد الأفغان والهند والفرس والعرب، وهو صاحب فكرة الجامعة الإسلامية، وهو الذي كان يستطيع جذب كبار العقول حوله حتى كأنهم تلاميذ في مجلسه حتى ليصفه محمد عبده ـ وهو عقلاني ـ بألفاظ الصوفية المتوحدين: «فكأنه حقيقة كلية تجلت في كل ذهن بما يلائمه، أو

Readonly

قوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله»[1]. لكن ثورية جمال الدين الأفغاني لم يكن لها أبدًا أن تلتقي بمحافظة عبد الحميد الثاني.

***

هذه المعضلات الثلاث: أثر الغالب في سيادة رواية تاريخية، وأثر الحاضر في قراءة التاريخ، وأثر المؤرخ في التفاعل مع التاريخ، كلها معضلات عامة توجد في كل رواية تاريخية، إلا أنها في حالة دراسة السلطان عبد الحميد الثاني تبدو أكثر تأثيرًا وتعقيدًا وعمقًا. وهذا ما يجعل عملية القراءة «لتواريخ» السلطان عبد الحميد بحاجة إلى القارئ اليقظ المدقق كحاجتها إلى المؤرخ النشط المتعمق.

كتاب: عبد الحميد الثاني في الذاكرة العربية

مرَّت على العرب والأتراك، وعلى المسلمين بشكل عام، نحو المئة عام التي هيمن عليهم فيها الفكر القومي لدى الأطراف جميعًا، فهيمن الفكر القومي العربي على العرب، والتركي على الترك، والفارسي على الفرس، والكردي على الأكراد، وهكذا.. ومع فشل الفكر القومي لدى الجميع إلا أن عودة الجامعة الإسلامية تمثل خطرًا على موازين القوى الدولية، ومجرد نظرة إلى الخريطة وتخيل أن تتحول المنطقة الإسلامية إلى دولة واحدة يساوي مباشرة تحولها إلى القوة العظمى العالمية الوحيدة التي تتحكم في كل طرق التجارة والمضايق البحرية وتهيمن على منابع الثروات وتختزن داخلها الكتلة البشرية القوية والعمق الحضاري العريق

---

(١) محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، ط ٢ (القاهرة: دار الفضيلة، ٢٠٠٦م)، ١/ ٢٧. وهي طبعة مصورة عن النسخة القديمة الأصلية.

Readonly

والميراث الروحي العميق، والإسلام هو البديل الوحيد للحضارة الغربية التي ذاق العالم ويلات غلبتها منذ انفردت بالهيمنة عليه.

وفي محاولة لإحياء وتعميق هذه الروابط الإسلامية، التي استمرت بين الشعوب على رغم ما فعلته الأنظمة الحاكمة، جاءت فكرة الاحتفال بالسلطان عبد الحميد الثاني، كآخر نموذج للوحدة الإسلامية الجامعة، وخطرت لي فكرة عقد مؤتمر عن «عبد الحميد الثاني في الذاكرة العربية» وأن يُعقد في تركيا، ليرى الأتراك ـ الذين يعودون تدريجيًا إلى هويتهم العثمانية ـ كيف يتذكر العرب عهد السلطان عبد الحميد الثاني. ولا ريب أن العمل على عودة وتمتين العلاقات بين سائر أطياف الأمة الإسلامية من صميم عمل الباحثين والمؤرخين.

لم نوفق أول الأمر في عقد مؤتمر، فألهمني الله تعالى فكرة أن نصدر كتابًا في هذه الذكرى، فإن لم نوفق في عقد المؤتمر، فلنحاول أن نصدر كتابًا ككتاب المؤتمر.. وكان هذا يستدعي وجود لجنة علمية تحكم الأبحاث وتقوم بعملها هذا تطوعًا، وليس هذا بالأمر السهل في ظل حالة الأساتذة الجامعيين، فاتصلت أول الأمر بالأستاذ الدكتور أحمد الشرقاوي، وأستاذنا شعبان صوان، وكلاهما متخصص في الدولة العثمانية وفي فترة السلطان عبد الحميد الثاني، فأبدى كل منهما حماسة واستعدادًا للمشروع لم أتوقعه، وأبدى د. أحمد استعداده لمراسلة أصدقائه لتكوين لجنة التحكيم، وكان أستاذنا شعبان صوان من التواضع بحيث لم ير نفسه أهلًا لأن يكون محكمًا للأبحاث.

لم يغب د. أحمد طويلًا حتى عاد بأسماء سبعة من الأساتذة المتخصصين في الدراسات العثمانية ليكونوا لجنة تحكيم متطوعة، واستطاع بدالته إقناع أستاذنا

Readonly

شعبان صوان أن يكون ضمن اللجنة، ثم أضاف إليهم كلًّا من الأساتذة المؤرخين: رائد سامي الدوري من العراق، ود. خالد الجندي من لبنان، ود. أحمد سالم سالم، ود. أحمد نجم، ود. نيفين سعد من مصر.. ليصير لدينا سبعة محكمين يمثلون اللجنة العلمية.

من جهة أخرى تواصلت مع الإخوة الكرام في «مجلس التعاون الأفروآسيوي» في إسطنبول، فتحمسوا للمشروع، واستطاعوا بعلاقاتهم الاتفاق مع بلدية (بهجلي إيفلر) أن تتحمل البلدية تكاليف ترجمة الكتاب إلى اللغتين التركية والإنجليزية وطباعة النسختين وترويجهما في معارض الكتاب.

وعند هذه اللحظة جرى الإعلان عن هذا المشروع في هذا المنشور، بتاريخ ٧ مارس ٢٠١٨، للإعلان عن محاور الكتاب. ثم بدأ عمل في الكواليس استقبلنا فيه كثيرًا من ملخصات الأبحاث، ثم عملت اللجنة على النظر في هذه الملخصات وقبول ما يصلح منها، ثم تواصلنا مع الباحثين الذين قُبِلت ملخصاتهم، ثم أرسل إلينا بعضهم الأبحاث الكاملة التي بلغت أكثر من ثلاثين بحثًا، وخضعت جميعها للتحكيم، وأعيد بعضها للتعديل ورُدَّ بعضها، ثم أجيزت البحوث التي بلغت ٢٥ بحثًا كتبها باحثون ومؤرخون من العراق وفلسطين والأردن ومصر وليبيا والجزائر والمغرب.

لم نشترط شيئًا في مؤهلات الكُتَّاب، وكان التحكيم يجري غفلًا عن الأسماء والألقاب، وغالب البحوث جرى تحكيمها من قبل المحكمين السبعة، وإن كان من شيء يمكن أن نقدمه في إطار النقد الذاتي في الكتاب فهو أن غالب البحوث نحت إلى جانب السلطان عبد الحميد، ولم يأتنا في تحليل إخفاقاته إلا بحث

Readonly

واحد فحسب، ولم يكن لي عمل في لجنة التحكيم إلا التنسيق والترتيب واستقبال وتوصيل المراسلات وتنظيم العمل لا غير.

ومع هذا العمل المستمر في الكتاب لم نفقد الأمل في عقد مؤتمر عن السلطان عبد الحميد، وكان الفضل في انبعاث الأمل من جديد لأخي السياسي المصري محمود فتحي، رئيس حزب الفضيلة، حيث ألحّ أن نكرر المحاولة في عقد المؤتمر، ثم تواصل هو من ناحيته مع المؤرخ التركي المعروف الدكتور أحمد القواس، وهو ليس مجرد مؤرخ وأستاذ جامعي بل هو دبلوماسي وسفير سابق لتركيا في تشاد. وَعَدَنا د. القواس أن يحاول، وأوصلنا بالأستاذ المساعد في قسم التاريخ بجامعة دوملوبينار في كوتاهية، الدكتور بولنت تشيكش، وهو في الحقيقة ماكينة عمل نشطة لا تهدأ. فتحمس من جهته للمؤتمر.

ومن هناك بدأت ماكينة ثالثة تعمل في تحمل تكاليف المؤتمر، وسفر المشاركين، وإقامتهم، وقد تولى تدبير الإقامة والضيافة مسؤولوا بلدية (طفشنالي) التابعة لكوتاهية، ووجدنا منهم أحسن ما وجدنا من رعاية وحفاوة واهتمام. ثم تولت مؤسسة التنسيق والتعاون التركي TIKA تكاليف سفر المشاركين، بينما تولت جامعة كوتاهية استضافة المؤتمر. وعبر هذا الشهر الماضي (نوفمبر ٢٠١٨م) كان عمل دائب لإنجاح هذا المؤتمر، وكثير من الجنود المجهولين الذين لا أعلمهم، على رأسهم أخي الصحافي التركي النشط فخر الدين دده الذي كان لإجادته العربية وسيطًا بيننا وبين الجامعة، وكان حجر رحى تدور عليه أعمال المؤتمر التنسيقية. فإلى هؤلاء جميعًا أقدم جزيل الشكر وعميق الامتنان.

وهكذا شاء الله قبل أن ينتهي العام المئوي لذكرى عبد الحميد الثاني

Readonly

(٢٠١٨) أن ينعقد المؤتمر ويتحقق الحلم، وأن يأتي المؤرخون والباحثون العرب إلى تركيا ليقدموا أبحاثهم عن السلطان عبد الحميد الثاني آخر رمز للخلافة وللرابطة الإسلامية.

والفضل لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، له الحمد في الأولى والآخرة.. ونسأله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة.

* * *

Readonly

Readonly

الباب الثاني
في أروقة الحركة الإسلامية

* حماس: أزمة الفكر السياسي تحت إكراه الواقع المعقد
* تحديات المستقبل أمام الحركة الإسلامية
* مستقبل مصر بين النفوذ الخارجي والاستبداد الداخلي
* إسهام الشيخ يوسف القرضاوي في باب التاريخ
* قناة السويس كخط جيوسياسي إستراتيجي لإسرائيل

* * *

Readonly

Readonly



حماس: أزمة الفكر السياسي تحت إكراه الواقع المعقد

* ألقيت هذه الورقة ـ عبر الفيديو المسجل ـ

في المؤتمر العلمي الدولي الأول لحركة حماس،

والمنعقد في غزة بتاريخ ١٨ سبتمبر ٢٠١٨م

ليس لحماس إنتاج كثير في باب الفكر السياسي، لهذا فإنَّ أغلب ما يكتب عنها إنما يستمد مادته من الوثائق والبيانات والسلوك السياسي في المواقف المختلفة أو من تصنيفها ضمن مدرسة إسلامية أوسع وهي في حالتنا هذه «الإخوان المسلمون» ليمكن فهم منطلقاتها السياسية، وفي هذا مخاطرة معروفة تؤثر في الدقة البحثية ووضوح التصور، فالاعتماد على تحليل السلوك السياسي لا يؤدي بالضرورة إلى فهم الرؤية الفكرية للحالة، إذ إن السلوك السياسي الواقعي هو نتاج عملية مركبة من ثلاثة عناصر: الفكر السياسي والإكراهات الواقعية الظرفية وكفاءة التنفيذ، وبإمكان العنصرين الأخيرين أن يُشَوِّها كثيرًا العنصر الأول المتعلق بالفكر، وهنا موضع المخاطرة.

من هاهنا حاولت هذه الورقة رصد أزمة الفكر وتطور الفكر السياسي لحماس تحت إكراه الواقع المعقد داخليًّا وإقليميًا ودوليًا، واضطرت أن تعتمد على الوثائق والبيانات والكتابات المقربة من الحركة لتستخلص معالم هذه الأزمة وهذا التطور عبر السنوات العشر منذ ما بعد الحسم العسكري والانفراد بحكم غزة (٢٠٠٧م) حتى (٢٠١٧م) عام صدور وثيقة المبادئ والسياسات العامة التي اعْتُبِرَتْ ـ بحق ـ

Readonly

تعديلًا على ميثاق حماس الأول (١٩٨٨م) وهو أيضًا عام آخر المحاولات الجادة في الوصول إلى مصالحة تُسَلِّم فيها حماس حكم غزة لسلطة محمود عباس.

وسعيًا لبيان ملامح هذه المسيرة قُسِّمت الورقة إلى ثلاثة محاور، الأول: عن إكراهات الواقع المفروض على حماس في التنظير والتطبيق وهو ما أنتج تجربة تزاوجت فيها الثورية اللائقة بحركة تحرر والمحافظة اللائقة بحركة محاصرة تحت ضغوط كبرى، فكان المحور الثاني عن الجانب المحافظ من تجربة حماس، والمحور الثالث عن الجانب الثوري من تجربة حماس. وهذه القسمة هي برأيي القادرة على بيان مناطق الثبات والتطور في التجربة لتكون كاشفة عن نتائج التدافع بين رغبة التحرر وضغط الواقع.

ومن نافلة القول أن هذه الورقة كُتِبت لا بغرض الثناء على حماس ولا بغرض الهجوم عليها، وكاتبها لا يتردد في الإعلان عن حبه واعتزازه وفخاره بحركة حماس كواحدة من حركات المقاومة والتحرر الإسلامية، ولكونها أنضج الحركات التي جمعت بين السياسة والقتال، ومع هذا فإن ما في هذه الورقة من الثناء لم يفارق الموضوعية المقصودة والمطلوبة من أي ورقة علمية، وليس فيها من الانتقاد إلا ما هو مقصود ومطلوب بغرض الاستفادة والنصح والتقويم، وفيها أيضًا من حسن الظن والتماس الأعذار ما هو خليق أن يُقدَّم في شأن المجاهدين.

حماس غزة:
صورة مصغرة مكثفة لتحديات إنتاج تجربة إسلامية

على نحوٍ ما، يبدو أن مشكلات الأمة الكبرى العامة تُخْتَصر في واقع الأزمة التي تعرضت لها حماس إثر توليها مسؤولية الحكم (٢٠٠٦م)، فلو حاولنا استعراض مشكلات الأمة الكبرى سنجد أنها خمسة، تلك هي:

Readonly

١. **الاحتلال الأجنبي** المهيمن على الأمة والمتحكم في قرارها ـ رغم الاستقلال الشكلي الزائف ـ وما يتمتع به من فارق القوة الضخم الذي يجعل شأن مقاومته فادح التكاليف عظيم الخسائر، ومنذ دخلت أمتنا في طور الاستضعاف قبل قرنين من الزمان ولا يزال الزمن يؤول إلى ازدياد فارق القوة بين الأمة وعدوها، وقد وصلنا في الفترات الأخيرة إلى استطاعة قوى الاحتلال القضاء على القوى الخارجة عن هيمنتها بمجرد التفوق الجوي والأمني وأحيانًا قبل نزول القوات على الأرض كما وقع في أفغانستان مع حركة طالبان (٢٠٠١م)، وفي العراق مع تنظيم «الدولة الإسلامية» (٢٠١٧م) وفي سوريا مع مناطق الثورة في حلب والغوطة الشرقية وغيرها (٢٠١٧، ٢٠١٨م).

وفي حالة غزة تبدو نفس هذه الأزمة على المقياس المصغر، إذ الفارق ضخم بين القوة الإسرائيلية العسكرية وقدراتها الأمنية وبين فصائل المقاومة، وهو ما يتيح لها القدرة على إحداث دمار واسع تضغط به على المقاتل وعلى المُفاوِض أيضًا في حال إرادة الوصول لإنهاء الحرب. إلا أنَّ الحالة الغزاوية تشهد بعض المزايا مثل: قدرة حماس على ضرب شبكات أمنية مؤثرة للاحتلال داخل غزة، وعلى إنهاء الوجود الفتحاوي الذي يمثل الإسناد الأرضي المناظر للقوات العراقية الحكومية وقوات التحالف الشمالي الأفغاني وقوات نظام الأسد، مما يجعل المهمة الأرضية موكولة إلى جنود الاحتلال الذي هو شديد الحساسية والحرص على طاقته البشرية.

٢. **الاستبداد الداخلي** والذي تمارسه النظم المحلية الوظيفية المسنودة بالاحتلال الأجنبي، والتي يمثل مجرد وجودها أحد أكبر التحديات لأي حركة مقاومة، ذلك أن مواجهة عدو أجنبي محتل أسهل على سائر المستويات ـ إلا العسكري ـ من مواجهة طرف من نفس الشعب ويتمتع بجذور سياسية وحواضن اجتماعية وخبرة محلية، فضلًا عما يضفيه عليه الإسناد الخارجي من شرعية قانونية وحضور دولي وإمكانيات مالية ودعم مالي.

Readonly

وفي الحالة الغزاوية ينتصب نموذج السلطة الفلسطينية كحالة مثالية للسلطة التي ترفع عن المحتل الأجنبي عبء إدارة الشؤون اليومية وتسخر مجهوداتها الأمنية ونفوذها السياسي لصالحه، وهي واحدة من أنجح تجارب التوظيف الاحتلالي لفئة محلية ضد حركات المقاومة.

٣. **الموقع الجغرافي الخطير**، وذلك أنَّ الأمة تتمدد جغرافيًّا في قلب العالم، حتى ليمكن القول بأنه ما من أمة في هذا العالم تستطيع إنشاء سياسة أو تجارة أو أي نوع علاقة مع أمة أخرى إلا واحتاجت إلى إذن الأمة المسلمة، وهذا الاتصال الجغرافي للأمة والممتد من أقصى الشرق حتى أقصى الغرب بقدر ما هو قوة عظمى للأمة في حال قوتها، بقدر ما هو نفسه أزمة مرهقة وخطيرة في حال ضعفها، وتلك أقدار الله التي تحتم على الأمة دائمًا أن تسعى للنهوض والقوة، فالموقع الحساس إما أن يكون مصدر القوة أو أن يكون مسرح صراع الأقوياء من حوله ونقطة جذب لأطماعهم، وهذا هو قدر الأمة، وهو بالذات قدر قلبها المصغر الذي يشمل الشام والعراق ومصر وتركيا.

وتبدو هذه الأزمة نفسها في حال قطاع غزة، لا سيما بعد أن حكمته المقاومة، إذ هو بها قطاع صغير متكدس معزول بلا عمق إستراتيجي، محشور في كبد الكيان الصهيوني الذي هو القاعدة العسكرية الأمنية المتقدمة للنظام الغربي في قلب العالم الإسلامي، فـ «إسرائيل» هي ابنة الحضارة الغربية وربيبتها التي ولدتها وأنشأتها ورعتها في هذه البقعة، وسواءٌ ذهبنا مع من قالوا بأنهم فعلوا هذا حبًّا وكرامة وإخلاصًا لدينهم وعقائدهم كما يقول من يُغَلِّب المُكوِّن الديني على قرار السياسة الغربية[1] أو مع من قالوا بأنهم فعلوا هذا سياسةً ومصلحةً وتوظيفًا للمتناقضات كما

(١) من المفارقات هنا أن كثيرًا من الباحثين والمؤرخين الأجانب يجنحون إلى التفسير الديني بينما =

Readonly

يقول من يُغلِّب المُكوِّن المادي العلماني على هذا القرار[١]، فالحاصل أن إسرائيل هي أول خطوط الدفاع والهجوم عن الحضارة الغربية ونظامها العالمي، وقد جزم البعض بأن الصراع العالمي كله متوقف على الصراع مع إسرائيل[٢].

٤. **سيادة نمط الدولة الحديثة**، وهو النمط الذي أنتجته الحضارة الغربية المعاصرة وبَنَتْ عليه نظامها الدولي، وخلاصته أن أحلَّ الدولة محل الإله، فالدولة هي المرجعية وهي صاحبة السيادة وهي المتصرفة في سائر الأنشطة الإنسانية ضمن البقعة الجغرافية التي تهيمن عليها، وسائر أوجه النشاط المجتمعي إنما هو محكوم

= أكثر الباحثين والمؤرخين العرب يجنحون إلى التفسير العلماني، وقد عزا المؤرخ الأمريكي ديفيد فروماكين إنشاء إسرائيل إلى الميول الصهيونية لدى لويد جورج رئيس الحكومة البريطانية، وذلك في واحدة من أهم الدراسات المكتوبة عن هذه الفترة، وقد أفرد كثيرون هذه الفكرة بالتأليف مثل جاريس هالسل في كتابيها «النبوءة والسياسة: الإنجيليون العسكريون في الطريق إلى الحرب النووية»، ثم «يد الله: لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل». انظر: ديفيد فروماكين، **سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط ١٩١٤ ـ ١٩٢٢**، ترجمة: أسعد كامل إلياس، ط١ (لندن ـ قبرص: رياض الريس للنشر، ١٩٩٢م)، ص٢٩٥ وما بعدها.

(١) يعتمد تنظير د. عبد الوهاب المسيري في شأن الحضارة الغربية أنها مادية علمانية، وينعكس هذا على تفسيره لمسألة إسرائيل بأنها «دولة وظيفية» صنعها الغرب تخلصًا من المشكلة اليهودية داخلها، وإنشابًا لمشكلة عويصة للعالم الإسلامي، فهي قاعدة عسكرية وحضارية متقدمة خارج أوروبا. انظر مثلًا: عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٩م)، ٧/ ٣٤٧، ٨/ ٣٩.

(٢) يرى د. جمال حمدان أن الصراع العالمي ومصير الإمبريالية متوقف على مصير العالم الثالث، وأن مصير العالم الثالث متوقف على مصير العالم العربي، وأن مصير العالم العربي متوقف على مصير الصراع مع إسرائيل. جمال حمدان، **إستراتيجية الاستعمار والتحرير**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٣م)، ص٣٥١.

Readonly

بما تسمح به السلطة، فالمجتمع على الحقيقة أسير أمام الدولة التي لم تعد مجرد سلطة سياسية ذات قوة عسكرية وأمنية، بل صارت جهازًا ضخمًا يدير ويتحكم في كل التفاصيل. هذه الحداثة لم تغرس في بلادنا إلا بقهر الاحتلال والاستبداد، ذلك أنها تخالف وتناقض النظام الإسلامي الذي شكَّل طبيعة بلادنا وصورة علاقاتها السياسية والاجتماعية عبر خمس عشرة قرنًا، ولذلك فكل قصة «تحديث» في بلادنا كانت هي ذاتها قصة الاحتلال والاستبداد. وأسوأ ما في هذا النمط هو تعطيله الفاعلية الذاتية الشعبية بمصادرة مساحات حركة المجتمع، فحتى معلم المدرسة أو خطيب الجامع صار يحتاج تصريحًا من الدولة لممارسة هذه المهمة، بل صار محتاجًا إلى ورقة رسمية تعترف له بأنه معلم أو خطيب! لكل هذا كانت خلاصة قصة «الحداثة» في بلادنا أنها النظام الذي تمكَّن من شلِّ طاقة الأمة وتعطيل شعوبها، لطبيعته هو نفسه أولًا، ولكونه مفروضًا علينا في زمن الضعف فمن ثَمَّ كان عمله في ترسيخ قوة الغالب الغربي وترسيخ ضعف المغلوب الإسلامي.

تلك هي المحنة الكبرى والنازلة العظمى على المستوى النظري والعملي، أي على مستوى إنتاج الاجتهاد الإسلامي الأصيل الرشيد، وعلى مستوى المقاومة الإسلامية التي صارت كأنها في قضية تحررها ضد نظام العالم كله.

تبدو مشكلة الأمة هذه متمثلة في غزة أيضًا، فلقد استطاع نمط الحداثة هذا أن يجعل غزة تحمل مسؤوليات الحكم كأنما هي في دولة تتحمل فيها مسؤولية إدارة سائر التفاصيل، هذا مع أنها مُحاصَرة بنفس نظام الدول الحديثة الذي يمنع اتصالها بطاقة الأمة بل يجعل طاقات الأمة كلها محاصَرة ومعزولة وممنوعة من التواصل والإمداد لطاقة الغزيين، فبقدر ما تحملت المقاومة عبء إدارة دولة حديثة طبقًا لمفهوم الدولة الحديثة بقدر ما مُنِعت من وسائل الحياة طبقًا لنفس هذا المفهوم،

Readonly

وقد وجدت حماس نفسها أمام المعضلتين معًا: معضلة أنها تتولى إدارة قطاع متكدس بالبشر (وهو عبء داخلي) وهو محاصر معزول (وهو عبء خارجي).

لا يمكن مطالبة حماس بإنتاج اجتهاد إسلامي لنازلة الدولة الحديثة، التي هي النازلة العامة التي اضطربت فيه آراء الإسلاميين من أقصى اليمين (هدم الدولة الحديثة ومن ورائها النظام العالمي) إلى أقصى اليسار (الذوبان فيها واعتبارها حتى بوضعها الحالي غاية إسلامية)، والغالب أن همّ مقاومة الاحتلال وتثبيت المكاسب الأمنية والعسكرية لم يتح أصلًا فرصة طرح هذا التوجه الفكري على مائدة البحث في أي وقت.

لكن حماس عمليًا بين اختيارَيْن، وإن لم يكن أمامها الوقت ولا الإمكانية لبحث المسألة في صورتها النظرية، وهما: أن تكون سلطة رشيدة ضمن مفهوم الدولة الحديثة أم تكون قيادة مقاومة ضمن مفهوم ما قبل الحداثة أو تصورات ما بعدها. وكل هذا ينعكس بقوة على طبيعة وحدود العلاقة بين السلطة والشعب ووظائف كل منهما.

٥. **افتقاد التنظير السياسي الإسلامي المعاصر**، والانقطاع الكبير في هذا الباب نتيجة لغياب نظام الخلافة من جهة وانحدار شأن العلماء في المجتمعات الإسلامية من جهة أخرى، وبهذين الأمرين صار أمر الاجتهاد المعاصر محتاجًا إلى فقهاء يعرفون علم الشرع وعلم الواقع ولديهم القدرة على الاجتهاد الذي يحلون به معضلة لم تواجه القرون الأربعة العشر الماضية[1]، إذ سائر التراث الفقهي مكتوب في حال

---

(١) مهما اختلفت أساليب الوصف في الأزمة الإسلامية المعاصرة، فلعل أخصر ما يعبر عنها ما قاله شادي حميد أحد أبرز الوجوه الغربية في مجال بحث الحركات الإسلامية، الأزمة القائمة في العالم الإسلامي بقوله: «المشروع الأساسي للحركات الإسلامية السائدة، إن أمكن تلخيصه في =

Readonly

لم تعد موجودة، فضلًا عن أنه مكتوب في حال لم تبلغ أبدًا من الضعف والقلة مثل ما تبلغه الأمة الآن من أنها مقهورة في سائر تفاصيل نشاطها بفارق قوة ضخم وبأفكارٍ أجنبية أنتجت نُظُمًا استقرت وتمكنت، فلو أن كل باب السياسة الشرعية هو باب الموازنات بين المصالح والمفاسد ضمن ثوابت الإسلام ففي زماننا هذا صار أمر السياسة الشرعية هو شبكة الموازنات بين الأوضاع المعقدة التي لا تكاد توجد فيها مصالح بل مجموعة من دفع الأضرار والمفاسد نحتاج إلى تقدير الأقل من بينها.

هذا فضلًا عن أن الجهة المؤهلة للاجتهاد، وهم العلماء، إنما كانوا أهم المستهدفين بالإقصاء والعزل عن المجتمعات، مع تدمير مكانتهم الاجتماعية ومحاضنهم العلمية العريقة، حتى لقد جرى إقصاؤهم عن قضايا الأحوال الشخصية

= جملة واحدة، هو السعي للتوفيق بين الشريعة الإسلامية والدولة القومية الحديثة. مهما تعددت الطرق، وفي أغلب الأحيان حصدت «الدولة» النتائج الأفضل في تلك العلاقة. ذلك أن نمط بناء الدولة الحديثة والبيئة الدولية المتمركزة عليه والداعمة له، لهما أثر علماني متأصل في المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وهو ما يضغط على الحركات الإسلامية لتحد من طموحاتها الدينية الدافعة إلى حد لم يكن ليخطر بالبال فيما قبل الدولة الحديثة، مما يقود إلى درجة خطيرة من التوتر بين المجتمعات المسلمة التي لا تزال إلى حد كبير متدينة ومحافظة»، وهو ما اختصره ألبرت حوراني في جملة واحدة بقوله: «أوجد العرب في القرن السابع عالمًا جديدًا اندمجت فيه شعوب أخرى. وفي القرن التاسع عشر والعشرين أصبح العرب أنفسهم مندمجين في عالم جديد أوجدته أوروبا الغربية».

انظر: ألبرت حوراني، **تاريخ الشعوب العربية**، ترجمة: أسعد صقر، ط١ (دمشق: دار طلاس، ١٩٩٧م)، ص٢٨٤؛

Shadi Hamid and Rashid Dar, Islamism, Salafism, and jihadism: A primer, (Brookings, July 15, 2016).

Readonly

التي صار الحكم فيها إلى قانونيين ومحاكم وضعية، مما كان من آثاره أن يكثر فيهم أنفسهم الجاهلون بأبواب السياسة الشرعية وأن ينصرف الكلام في هذه الأبواب إلى غيرهم ممن لا يحسنها فيكثر فيها الاضطراب[١] والتأثر بالثقافة الغالبة[٢]. ومن جهة أخرى صارت جماعة العلماء بين عالم في ظل سلطة أو عالم في ظل حركة إسلامية أو عالم مستقل بنفسه، تحول مجمل الاجتهاد المعاصر إلى إجابة مسائل نوازل متفرقة تعالج أحداثًا جزئية وقطرية وحزبية. وهو ما يجعل كل تجربة إسلامية في الحكم خاضعة لظروف الواقع أكثر من صدورها عن منظومة عامة.

وهذا في حالة غزة أشد عسرًا حيث تجتمع عليها العديد من النوازل في الوقت الواحد.

يتفرع عن تلك المشكلات الخمس الكبرى ويدعمها مشكلات أخرى كثيرة، كالبيئة الدولية المضطربة والمعقدة بما تطرحه من محاولات التوظيف والإنهاء، وبروز تيارات الغلو أحيانًا، والتيه في التوفيق بين ما يستحق التشدد وما يستحق المرونة، والعمل في ظل نظام سلطوي ثم نظام عالمي يتحسس ضد أي محاولة تغيير فيه أو مقاومة له، ويكافحها بلا رحمة، لا سيما والقرب الجغرافي من

---

(١) بعد مسح إحصائي في مصادر السياسة الشرعية، وفي الكتابات المعاصرة عن الفكر السياسي الإسلامي، توصل د. نصر عارف إلى أن «جميع من كتب عن الفكر السياسي الإسلامي أو التراث السياسي الإسلامي أو إحدى ظواهره لم يطلع على أكثر من ٦٪ من المصادر المباشرة لهذا التراث». د. نصر محمد عارف، **في مصادر التراث السياسي الإسلامي: دراسة في إشكالية التعميم قبل الاستقراء والتأصيل**، ط١ (فيرجينيا، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٤م)، ص٣٩.

(٢) ينظر في هذا: إبراهيم السكران، **سلطة الثقافة الغالبة**، ط١ (الرياض: دار الحضارة، ٢٠١٤م)، ص٢٤ وما بعدها.

Readonly

«إسرائيل» يجعل المعركة في قلب الصراع المحتدم بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وهو الصراع العالمي الطويل الممتد لأكثر من ألف سنة.

تمثل كل مشكلة من تلك الخمس الكبرى في حد ذاتها تحديًا ضخمًا أمام الأمة، ولهذا يمكن تصور كيف يتحول اجتماعها معًا في منطقة جغرافية صغيرة كغزة إلى محنة عظيمة، كان على حركة حماس أن تتعامل معها، في لحظة لم تتوقعها أو تستعد لها. لا سيما وأن قرار حماس ينتج في الداخل والخارج، وهو محنة أخرى لها تأثيرات داخلية عميقة على الحركة نفسها، إذ مهما قيل في الانسجام بين حماس في غزة والضفة والخارج فلن يغير هذا من حقيقة أن الأوضاع المختلفة تنتج فروقًا في الرؤية وأسلوب العمل.

ومع التسليم بكل ما سبق سرده من المشكلات الخمس الكبرى، والتقدير التام لكون عملية الاجتهاد في منازلتها عملية صعبة ودقيقة وهي أشد كلفة على الطرف الأضعف، إلا أن هذه الورقة تمثل وجهة نظر ترى أن عامة سلوك الحركة في تجربة الحكم كان أقرب إلى المحافظة منه إلى الثورية، وأن هذا هو ما فوَّت عليها عددًا من الفرص المهمة، مثل الموقف من الانقلاب في مصر والنأي بنفسها عن الدخول فيه حفاظًا على «ثوابتها السياسية»، وعلى نحو مثير للنظر يبدو الجناح العسكري أكثر ثورية ومرونة إذ استطاع استنقاذ أسرى له في السجون المصرية في اللحظات الأولى من انهيار الشرطة (٢٨ يناير ٢٠١١م) وقبلها كان قرار الحسم العسكري هو ردة فعل عسكرية لا قرارًا سياسيًّا، وبدا فيه أن الجناح العسكري أيضًا أكثر ثورية ومرونة في التعامل مع المستجدات، ويرى الباحث أنه لولا وجود السلاح بيد حماس فلربما شابهت مصير الإخوان في مصر، ذلك أنَّ وجود السلاح والجناح العسكري جعل الحسم قرارًا نابعًا من إكراه واقعي وردة فعل ظرفية، وهو من أهم

Readonly

القرارات المؤثرة في مصير القضية الفلسطينية كلها، وبه صارت غزة قلعة مقاومة منيعة.

طبقًا لهذه الرؤية، نستطيع أن نجمل مسار تجربة حماس السياسية في خطَّيْن: خط المقاومة والثبات (الجانب الثوري)، وخط القبول بالواقع (الجانب المحافظ)، فمن أهم معالم خط المقاومة: الموقف من الاحتلال، ومن فتح مفاوضات معه، واستهداف «المدنيين» منهم، والحفاظ على العلاقات مع إيران وتركيا وقطر رغم الضغوط لقطعها. ومن أهم معالم خط القبول بالواقع: الموقف من سلطة فتح ومنظمة التحرير، والقبول بنمط الحداثة في إدارة قطاع غزة وفي التعامل مع الوضع الإقليمي والدولي، والحرص المبدئي على عدم فتح أي نزاع مع الدول العربية والتحمل التام للسياسات المضادة والمعادية من قبلها.

ومن نافلة أن توزيع هذه المواقف ضمن خطي المقاومة أو القبول بالواقع هو باعتبار الغالب على الحال، وإلا فقد يقع في بعض المسائل وبعض الظروف ما يكون فيه نوع رضوخ كما في لهجة وثيقة المبادئ (١ مايو ٢٠١٧م) فليس يجعلنا هذا ننقل الموقف من الاحتلال من جانب الخط المقاوم إلى خط القبول بالواقع، وقد يقع حسم عسكري ينهي وجود سلطة فتح في غزة فليس يجعلنا هذا ننقل الموقف من سلطة فتح من جانب خط القبول بالواقع إلى خط المقاومة.. وهكذا!

الجانب المحافظ من تجربة حماس

عملت عدد من الأسباب على أن تبدأ حماس تجربتها في الحكم بأسلوب محافظ غير ثوري، ومن أهم هذه الأسباب أربعة:

الأول: أن فرصة الحكم جاءتها على غير توقع فخاضته دون رؤية سياسية

Readonly

مسبقة، وفيما يُعتبر هذا الخوض نفسه عملًا ثوريًا مفاجئًا استجابت له الحركة بمرونة تحمد عليها لكن هذا يجعله من «إكراهات الواقع»[١] ومفاجآته، وكان طبيعيًا أن يكون التصرف في واقع الحكم بعد الفوز محافظًا، إذ طالما لم تكن ثمة رؤية مسبقة فالأغلب أن تبقى التقاليد القائمة على حالها، وحماس قد نشأت كحركة مقاومة وتحرر ولم يشغل بالها أن تدير حكومة في المدى المنظور[٢]، لقد كان فوز حماس مفاجئًا للجميع[٣].

الثاني: كذلك فإن حماس باعتبارها من مدرسة الإخوان المسلمين[٤] فإن خلفيتها الفكرية في هذا الباب ستكون أقرب إلى المحافظة، فالإنتاج الفكري

---

(١) كانت الفكرة السائدة في ذلك الوقت، وكان في عهد جورج بوش الابن، أن انتخابات ديمقراطية في فلسطين من شأنها أن تُمَكِّن حركة فتح وتمنح الشرعية الكاملة لمحمود عباس، الذي خلف عرفات ولم تكن له مثل زعامته ولا تاريخه التي مثلت شرعية عرفات، كما أنه أكثر استعدادًا للتنازل، مما يؤدي إلى تصفية القضية الفلسطينية بيد حكومة شرعية منتخبة. هذا الضغط هو ما دفع حماس لخوض الانتخابات رغبةً أن تكون معارضة قوية يمكن لها عرقلة هذا المسار، ثم فوجئ الجميع بأنها اكتسحت الانتخابات وفازت بفارق كبير.

(٢) يلاحظ اختفاء الرؤية السياسية من ميثاق حماس (١٩٨٨م)، والتعامل مع الأوضاع من منظور حركة تحرر ومقاومة لا من منظور حزب سياسي معارض، وهو أمر متفهم.

(٣) كوندليزا رايس، **أسمى مراتب الشرف: ذكريات من سني حياتي في واشنطن**، ترجمة: وليد شحادة، (بيروت: دار الكتاب العربي، مايو ٢٠١٢م)، ص٤٧٦، ٤٧٧.

(٤) ميثاق حماس (١٩٨٨)، الديباجة والمواد: ٢، ٥، ٧، ٨. وإن كانت في الوثيقة الأخيرة (٢٠١٧) لم تذكر شيئًا عن الإخوان لا ارتباطًا ولا انفكاكًا، وهو تطور طبيعي في ظل التغيرات التي شهدتها الأعوام الأخيرة. وانظر: يوسف رزقة، **الرؤية السياسية لحماس**، ضمن: محسن صالح (محرر)، **حركة المقاومة الإسلامية حماس: دراسات في الفكر والتجربة**، ط٢ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠١٥م).

Readonly

لمدرسة الإخوان في باب السياسة يعتمد على إصلاح ما هو واقع وتقديم رؤى جزئية وتفصيلية، ولم يكن لهذه المدرسة إنتاج فكري ثوري في باب السياسة يتجاوز الدولة القومية الحديثة ونظمها في الحكم والإدارة[1]، وإذا كان من الصعب العسير أن يجري حوار عميق حول نقد الديمقراطية في دولة غير ديمقراطية فكيف يمكن أن يجري حديث عن تجاوز الدولة في تجربة فلسطينية عاشت تتشوق للدولة دون أن تحققها؟!

الثالث: كذلك فإن تأسيس حماس حمل في بذوره أنها بديل لحركة فتح وحركات اليسار الفلسطينية، وهي الحركات التي تبنت المواجهة المفتوحة والعالمية مع الاحتلال مما جعل دول العالم بما فيها الدول العربية تتخذ منها موقفًا معاديًّا كلَّف حركة الكفاح الفلسطينية خسائر فادحة، فاعتمدت حركة حماس نمط المواجهة المحدودة المحصورة داخل الأرض المحتلة ومن بين آمالها أن يوفِّر هذا لها دعمًا عربيًّا أو في أقل الأحوال ألا يستثير عليها عداءً عربيًّا.

الرابع: حرص حماس على تقديم صورة مطمئنة للوضع الإقليمي والدولي لتجربتها في الحكم، وهو الحرص الذي رافق كل تجربة الحركات الإسلامية السياسية والناتج عن شدة التشويه والتفزيع من كل تجربة إسلامية.

دفعت هذه الأسباب إلى تجربة حكمٍ محافظةٍ تَتَحَسَّس من التغيير ومواجهة

---

(١) لكثير من الأسباب التي ليس هنا محل بيانها كان مجمل إنتاج هذه المدرسة ورموزها كالقرضاوي والغزالي وتوفيق الشاوي وضياء الدين الريس وغيرهم ينحو إلى تعديل التفاصيل كالقوانين والمهمات دون التطرق إلى باب الفلسفة والنظرية والبدائل الكلية، بل وخرج من هذه المدرسة اتجاهات تقترب كثيرًا من العلمنة والحداثة الغربية وأحيانًا إلى حد المطابقة أو التبرير الشرعي للحداثة كما عند الترابي والغنوشي والعلواني والعثماني والعوا وجاسر عودة غيرهم.

Readonly

الوضع السائد، وغاية ما ترجو أن تتمكن من إدارة الشأن الفلسطيني بأكبر قدر من التوافق والهدوء مع خصوم الداخل، وبأكبر قدر من التهدئة والطمأنة مع خصوم الخارج:

١. لم تسع حماس إلى إزاحة فتح أو غيرها من رفاق أو خصوم الداخل، بل عملت جهدها على تكوين حكومات ائتلافية تتشارك في مهمة الحكم والإدارة منذ اللحظات الأولى[١]، ولما انفردت بتشكيل الحكومة جعلت من وزرائها مسيحيًا هو

---

(١) سعت حماس بعد فوزها في الانتخابات (٢٠٠٦م) لتشكيل حكومة ائتلافية من الفصائل، إلا أن الفصائل امتنعت، فاضطرت لتشكيل الحكومة منفردة برئاسة إسماعيل هنية (١٩ مارس ٢٠٠٦م)، ثم اشتعل صراع الصلاحيات بين وزراء حماس ونوابها من جهة وبين رئيس السلطة وموظفيها (الفتحاويين) من جهة، وفرضت إسرائيل ومصر حصارًا على غزة، واعتقلت إسرائيل نواب حماس لتعيد أغلبية المجلس التشريعي لحركة فتح، واستغلت فتح هذا بتمرير قوانين وإجراءات تفشل حماس وتجعل فوزها الانتخابي بلا قيمة، بالإضافة إلى تنظيم الاعتصامات والإضرابات ضد الحكومة، وابتدأ الانفلات الأمني الذي وصل إلى اغتيالات ومحاولات اغتيال استهدفت رئيس الحكومة والوزراء والقيادات، ولم تفلح اجتماعات ثنائية ولا اجتماعات في القاهرة ودمشق، ثم انبثق اتفاق مكة عن تشكيل حكومة وحدة وطنية (فبراير ٢٠٠٧م) لم تتمكن من تغيير الأوضاع، ومع استمرار الانفلات الأمني حتى اضطر الجهاز العسكري لحماس من تنفيذ عملية الحسم في غزة، وهي التي قابلتها فتح في الضفة المحتلة بسلوك مشابه، وأعلن عباس إقالة هنية وتعيين سلام فياض رئيسًا للحكومة، فصار الانقسام واقعًا بين الضفة وغزة، وتعددت محاولات المصالحة في ٢٠٠٩ ثم ٢٠١٢ ثم ٢٠١٧ دون أن يغير هذا من الواقع العملي شيئًا ذا بال. انظر عرضًا مميزًا لفصول هذه التطورات عند: أحمد سعيد نوفل ومحسن صالح، **موقف حماس من منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها**، ضمن: محسن صالح (محرر)، **حركة المقاومة الإسلامية حماس**، مرجع سابق، ص١٤٤ وما بعدها.

Readonly

طناس أبو عيطة، ولما اعتذر استبدلت به مسيحيًّا آخر هو جودة جورج مرقص[١]، وحرصت على خطاب إعلامي يجانب التعميم والوصم الفصائلي[٢]، مع ما تعرضت له حكومتها من العرقلة والتجريد من الصلاحيات لتتركز في يد وكلاء أو موظفين متنفذين في الأجهزة وهم بطبيعة الحال تابعون لحركة فتح[٣].

٢. لم تحاول حماس هدم شرعية منظمة التحرير الفلسطينية بل كافة ما صدر عنها كان في إطار محاولات الإصلاح للمنظمة وتوسيعها[٤]. ورغم كل ما وقع بين

---

(١) تصريح للمتحدث باسم حماس صلاح البردويل، بتاريخ ٢٦ مارس ٢٠٠٦.

(٢) حرصت حماس إبان الأزمات مع سلطة فتح، قبل الحسم العسكري في غزة، على وصف الاعتداءات عليها بأنها من فعل مجموعات «مسلحة محسوبة على حركة فتح» أو «مأجورة تحسب نفسها على حركة فتح» أو مجموعات متشكلة «خارج حركة فتح وخارج الأجهزة الأمنية»، وأن خلفها «بعض القيادات المتورطة في العلاقات المشبوهة مع جهات صهيونية ودولية» من «أصحاب المصالح والأجندات الخاصة»، وأن هؤلاء يتسببون «بالضرر البالغ لحركة فتح وسمعتها». وأطلقت عليهم أحيانًا «التيار الانقلابي» أو «التيار الخياني» أو «تيار الفتنة». وتكرر في الخطاب السياسي لحماس توجيه النداء إلى «عقلاء حركة فتح».
انظر مثلًا: بيان حماس بتاريخ ١٣ ديسمبر ٢٠٠٦م؛ بيان حماس بتاريخ ١٦ مايو ٢٠٠٧؛ نص المؤتمر الصحفي لحركة حماس في غزة بتاريخ ٢٢ يونيو ٢٠٠٧م (بعد الحسم العسكري لشرح الموقف).

(٣) انظر مثلاً: نص استقالة وزير الداخلية هاني القواسمي من حكومة إسماعيل هنية، بتاريخ ١٧ إبريل ٢٠٠٧؛ نص المؤتمر الصحفي لحركة حماس في غزة بتاريخ ٢٢ يونيو ٢٠٠٧م.

(٤) منذ البداية الأولى اتخذت حماس موقفها الرافض لمنظمة التحرير الفلسطينية لتبنيها الفكرة العلمانية، ومع هذا فقد وصفت العلاقة مع المنظمة بأنها علاقة الابن بأبيه والأخ بأخيه، وأنها تنتظر منها أن تنبذ العلمانية لتعتنق الفكرة الإسلامية (ميثاق ١٩٨٨: مادة ٢٧)، ثم وصلت إلى وثيقة المبادئ العامة الأخيرة إلى وصف المنظمة بأنها «إطار وطني يجب المحافظة عليه مع ضرورة =

Readonly

حماس وفتح[١] إلا أن الموقف الثابت الذي كانت حماس تعود إليه مهما ابتعدت عنه قليلًا أو كثيرًا هو الاعتراف بالسلطة الفلسطينية والتعامل معها كسلطة شرعية، ووصل الحال إلى الاستجابة لشروط كثيرة بغية تسليمها قطاع غزة ولكن تعطلت المصالحة على صخرة سلاح المقاومة والسيطرة الأمنية أي عند نقطة وجودية بالنسبة لحماس[٢].

= العمل على تطويرها وإعادة بنائها على أسس ديمقراطية (وثيقة ٢٠١٧: مادة ٢٩). وبطبيعة الحال لم يكن هذا الانتقال فجائيًا بل شهد عددًا من مراحل الاقتراب الحمساوي من المنظمة، لكن الذي نقصده هنا أن فكرة مواجهة المنظمة أو هدم شرعيتها وإنشاء بديل عنها لم يكن ضمن خطة حماس منذ وصلت إلى الحكومة، بل ربما نقول منذ تأسيسها إلا في لحظة استثنائية عند مطلع التسعينات في ظرف أوسلو.

انظر: إبراهيم أبو غوشة، **المئذنة الحمراء: سيرة ذاتية**، ط٢ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠١٥)، ص١٦٥ وما بعدها؛ البرنامج الانتخابي لكتلة التغيير والإصلاح ٢٠٠٦: بند ١/ ١٢، ١٨/ ٥، ١٩؛ صقر أبو فخر، **حماس وفتح ومنظمة التحرير: شقاء الأخوة**، ضمن: محسن صالح (محرر)، **قراءات نقدية في تجربة حماس وحكومتها ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧**، ط١ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠٠٧م)، ص٦٩ وما بعدها؛ أحمد سعيد نوفل ومحسن صالح، **موقف حماس من منظمة التحرير الفلسطينية وفصائلها**، ضمن: محسن صالح (محرر)، **حركة المقاومة الإسلامية حماس**، مرجع سابق، ص١٣١ وما بعدها.

(١) أحصت حماس بالأسماء والوقائع ٧٦ شهيدًا من أعضائها والمحسوبين عليها بنيران الأجهزة الأمنية الفتحاوية فيما بين مطلع ٢٠٠٦ وإلى منتصف ٢٠٠٧. وأحصت ٤٦٢ اعتداءًا في خلال الأشهر الأربعة التي تلت توقيع اتفاق مكة.

انظر: المكتب الإعلامي حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، **الكتاب الأبيض: عملية الحسم في قطاع غزة اضطرار لا اختيار**، ط١ (غزة: نسخة إلكترونية، نوفمبر ٢٠٠٧م)، ص١٧٩ وما بعدها.

(٢) لقاء محمود عباس مع قناة CBC المصرية بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠١٧، وفيه قال: لن يكون في غزة =

Readonly

كما لم تحاول حماس إجراء أي تعديل جوهري في بنية وهيكلة المؤسسات القائمة، فضلًا عن أن تنطلق من توسيع المشاركة المجتمعية في شأن الإدارة، وإنما حافظت على الواقع القائم[١]، وكثيرًا ما تردد في خطابها السياسي معنى الحفاظ على المؤسسات وإصلاحها[٢].

٣. قدَّمت حماس خطابًا سياسيًا يبتعد ما استطاع عن الإشكاليات الفكرية[٣] ويتجنب المشاكل السياسية، ولم تتزحزح حماس في تصريحاتها ومواقفها عن الثناء على النظم العربية وتثمين مواقفها وشكرها على ما يصدر عنها من مواقف مهما كانت تافهة أو صدرت بغرض الاستهلاك الإعلامي، وتجنب التعليق على سياساتها العدائية[٤].

= سلاح غير شرعي ولن يقبل باستنساخ تجربة حزب الله، تصريحات مدير عام الشرطة الفلسطينية حازم عطا الله لصحافيين أجانب برام الله بتاريخ ٨ نوفمبر ٢٠١٧، وفيه كرر كلام عباس، المؤتمر الصحفي لعضو المكتب السياسي لحماس خليل الحية، غزة بتاريخ ٢٧ نوفمبر ٢٠١٧ وفيه التأكيد على أن سلاح المقاومة خط أحمر وأن ما حدث في الأيام السابقة لا يبشر بخير.

(١) يحسب لحماس هنا، ويمكن أن يعد في الجانب الثوري من سياستها، إنشاء لجان الصلح المحلية بعد سيطرتها على قطاع غزة لحل النزاعات التي تقضي وقتًا طويلًا وتستلزم إجراءات معقدة قانونية، وقد خففت هذه اللجان من الأعباء الواقعة على عاتق الشرطة والقضاء. انظر عن التجربة: أسماء صرصور، تقاض يسبقه تراض: لجان الإصلاح تعمل وفق شريعة الله لرأب الصدع، فلسطين أون لاين بتاريخ ١٢ سبتمبر ٢٠١١م.

(٢) البرنامج الانتخابي لكتلة التغيير والإصلاح ٢٠٠٦: ٥/ ١٥، ٢٤، ٧/ ١٦، ٨/ ٥، ٧، ١٠/ ٤، ٩، ١٠، ١٣، ١٢/ ٣؛ وثيقة المبادئ والسياسات العامة ٢٠١٧: بند ٣٠.

(٣) انظر مثالاً عن تعامل حماس مع إشكالية مصطلحي الديمقراطية والشورى عند: يوسف رزقة، مرجع سابق، ص٧٩ وما بعدها.

(٤) مما لا أنساه هنا أن خالد مشعل في مؤتمر صحفي عقده بالدوحة أثناء أو بُعيْد حرب ٢٠١٤ وقد =

Readonly

٤. لم تتزحزح حماس عن موقفها بعدم التدخل في شأن أي دولة ولو كان هذا التدخل يؤثر على مصالحها، وأوضح ما يبدو هذا في أنها فضَّلت أن تعاني أشد المعاناة من إغلاق معبر رفح دون أن تطور موقفًا ضد النظام المصري الذي كان أهم الفاعلين في الحصار الخانق المفروض على غزة والمستمر منذ وصول حماس إلى الحكم(١).

وقد ظلت هذه السياسة تُثْقِل القرار السياسي لحماس حتى في أوقات الفرص الكبرى مثل الثورة المصرية وفترة الاضطراب والارتباك التي سادت ثلاث سنوات على الأقل، منذ مطلع ٢٠١١ إلى مطلع ٢٠١٤، ونزعم أنه كان بالإمكان إذا تحررت حماس من هذه السياسة المحافظة أن تحقق في هذه السنوات الثلاث مكاسب نوعية في الملف الداخلي والخارجي، بل ونزعم أن لحظة الانقلاب العسكري في مصر كانت تساوي بالنسبة لها معركة وجودية تستدعي أن تتدخل فيها بثقلها. وهي اللحظة التي أنتجت فيما بعد سياسات مصرية في غاية الشراسة تجاه حماس ألزمتها بالتراجع في الطموح والموقف حتى وصل الأمر إلى مصالحة تُسَلِّم بها قطاع غزة للسلطة الفلسطينية وهي المصالحة التي فتحت موضوع «سلاح المقاومة»!

ومن الآثار السلبية لهذه السياسة هو تضخم الروح الوطنية القومية لحماس على حساب الروح الأممية والإسلامية، وهذا مما قد يُعَدُّ في الميزان السياسي المعاصر

= حاصرته أسئلة الصحافيين تريد انتزاع تعليق منه ضد مصر السعودية والإمارات وقد كانت مواقفهم في هذه الحرب غير مسبوقة العدائية تجاه حماس، فالتزم ألا يعلق واستشهد بقول المتنبي:

وهَبْني قلتُ هذا الصبح ليلٌ أيغشى العالمين عن الضياء؟

(١) للمزيد في علاقة حماس بالدول العربية، انظر: عدنان أبو عامر، **علاقات حركة حماس مع العالم العربي**، ضمن: محسن صالح، **حركة المقاومة الإسلامية حماس**، مرجع سابق، ص٢٨٧ وما بعدها.

Readonly

نوعًا من الرشد والنضج، إلا أنه وفق تقييم يعتمد ميزان حركة التحرر الإسلامية يعد نوعًا من التراجع والتأثر السلبي بمفردات الواقع الضاغطة وإكراهات الحالة السياسية[١]، فقد تكرر كثيرًا أن تمدح حماس نفسها بالاعتدال في مقابل حركات إسلامية أخرى تخوض حروب مقاومة وتحرير، أو يتطور هذا إلى إدانة «العنف والإرهاب» بمقياس الأنظمة الحاكمة لا بمقياس حركات التحرر والمقاومة[٢]، وظهرت بعض عناصر تنتمي إلى حماس تبدي انحيازًا إلى بشار وإلى علي عبد الله صالح وترى أن الثورات عليهما تحديدًا كانت مؤامرة تستهدف القضية الفلسطينة[٣]، كما وترى أن الثورات العربية إنما عادت بالضرر على القضية الفلسطينية في حين أن هذه الثورات هي المحاولة الحقيقية لتحرير فلسطين، والانقلاب عليها هي ردة فعل إقليمية ودولية تضع نصب أعينها حماية إسرائيل وإعادة الوضع إلى ما كان عليه أو أسوأ. وأظهر ما بدا عليه هذا الوجه القومي الوطني على حساب الوجه الإسلامي في نعي شخصيات مثل سمير القنطار[٤] أو إزجاء الثناء العلني[٥] على شخصيات

---

(١) يبدو الفارق واضحًا كلما اتسع الزمن، في ميثاق حماس (١٩٨٨م) عرَّفَتْ الحركة نفسها بالهوية والانتماء الإسلامي في ١١ مادة ثم تناولت مسألة الوطن والوطنية في المادة ١٢ بصياغة إسلامية واضحة، أما في وثيقة (٢٠١٧م) فقد كانت المادة الأولى هي تعريف الحركة لنفسها بالقول «حركة تحرّر ومقاومة وطنية فلسطينية إسلامية». ويمكن القول باختصار بأن لغة الهوية الإسلامية غالبة على ميثاق (١٩٨٨م) بينما لغة الهوية الوطنية غالبة على وثيقة (٢٠١٧م). ونلمح التدرج المائل إلى تغليب الوطنية في محطات مختلفة، كالبرنامج الانتخابي لكتلة التغيير والإصلاح (٢٠٠٦).

(٢) تصريح صحفي للمتحدث باسم حماس فوزي برهوم بتاريخ ١٦ أكتوبر ٢٠١٧م.

(٣) حوارات خاصة للباحث جرت في إسطنبول، عامي ٢٠١٧، ٢٠١٨م.

(٤) تصريح صحفي للمتحدث باسم حماس سامي أبو زهري بتاريخ ٢٠ ديسمبر ٢٠١٥م.

(٥) ونؤكد في هذا المقام على كلمة «العلني»، إذ الموقف المعلن إن كان نابعًا من اختيار حر فهو =

Readonly

مثل قاسم سليماني[١] مع صمتها عن نعي الملا محمد عمر أو خلفه الملا أختر منصور أو غيرهما من قيادات نالت الشهادة في بلاد إسلامية محتلة، وعادة ما يفَسَّر هذا ـ أو: يُبَرَّر ـ بأنه يعتمد على ما قدمه هؤلاء لخدمة القضية الفلسطينية[٢]، وهذا هو جوهر ما نعنيه بأن الهوية الوطنية الفلسطينية تتقدم على الهوية الإسلامية للحركة، ونرى أن هذا من التأثر السلبي بإكراهات الواقع وضغوطه.

كذلك فإن من الآثار السلبية لهذه السياسة أنه فيما يتعلق بالأنظمة العربية فقد ظلت حماس تتلقى الهجوم والضربات دون ردّ، وكان التقدير السياسي لحماس أن الدخول في معركة ولو إعلامية مع الأنظمة العربية يسرِّع من قطار التطبيع مع إسرائيل ويوفر الأجواء لهذه الأنظمة في شن الحملات عليها وعلى القضية الفلسطينية، ورأت أن هذه المعركة هي من مسؤولية الحركات السياسية والإسلامية العربية داخل هذه البلدان، وبالرغم من تحملها الضغط الهائل وضبط النفس إزاء ما يمارس ضدها في إعلام هذه القنوات إلا أن قطار التطبيع يمضي سائرًا وتُشَنُّ الحملات الإعلامية الضارية ضد حماس بل والفلسطينيين وقضيتهم عمومًا لتمهد

= موقف من سائر الأطراف المعنية بهذا الإعلان، وإن كان ناتجًا عن اضطرار فهو يعني تقديم من كان الإعلان عن الموقف في مصلحته على غير من المعنيين. وفي كلا الحالين فإن الحركة تمتدح من يثير امتداحُهم سخط أهلَ السنة وخصوصًا في سوريا.

(١) فيديو: تصريح محمود السنوار، بث على قناة الميادين المقربة من النظام السوري بتاريخ ٢٦ ديسمبر ٢٠١٧م.

(٢) مع أن هذا التفسير ليس مضطردًا وثابتًا، فقد قدمت حماس العزاء فيمن ليس لهم خدمة معروفة لفلسطين مثل جلال طالباني ووالدة قاسم سليماني والطيار الأدرني معاذ الكساسبة ووزير الصحة التونسي سليم شاكر وغيرهم، فالأصح أن هذه التعازي هي من مقتضيات المجاملات السياسية، وهو ما يدعم ما نقوله من أن الهوية الوطنية تضخمت على حساب الهوية الإسلامية.

Readonly

الطريق للتطبيع. ويرى الباحث أن الحركة لو اعتمدت سياسة الهجوم والفضح لهذه الأنظمة على الأقل فيما قبل موجة الثورات المضادة فإنه كان بالإمكان تحقيق نتائج أفضل ضد الأنظمة في تلك الفترة، وأن استفادة الأنظمة من سياسة حماس تجاهها جعلها تقدم على ما تريد باطمئنان، فهي قد استفادت من سكوت حماس وتثمينها لمواقف الأنظمة بأكثر مما استفادت حماس من هذه السياسة تجاه الأنظمة.

ومن الآثار السلبية لهذه السياسة أن استطاع خطاب تيارات الغلو أن يجد له موقعًا في نفوس عدد ليس بالقليل من أبناء غزة بل ومن أبناء حماس نفسها[١]، وصل في بعض الأحيان إلى اعتناق تكفير حماس وقتل من يعينها ردة كما وقع من تنظيم ولاية سيناء الذي استقطب بعض الغزيين وبعض أبناء حماس[٢]. والواقع أن حركة المقاومة والتحرر لا بد لها من موازنة شاقة وعسيرة بين خطاب سياسي يدير العلاقة برفاق وخصوم الداخل والخارج وبين خطاب واضح وحاسم ومشبوب بالعاطفة للحفاظ على صفها.

الجانب الثوري من تجربة حماس

والمقصود بالجانب الثوري هو قدرة حماس على مقاومة ما يُفرض عليها من ضغوط تريد تغيير مواقفها المبدئية، أو ضغوط تريد استعمالها كورقة ضغط أو استقطابها كحليف يتبنى المواقف السياسية في ظرف ما، وتُبْدي حماس حتى

---

(١) انظر: إصدار وزارة الداخلية بحكومة غزة للكشف عن تفاصيل محاولتي اغتيال توفيق نعيم ورامي الحمد لله، بتاريخ ٢٨ إبريل ٢٠١٨م؛ أحمد سالم، جهاديو غزة وتقويض العلاقات المصرية الحمساوية، مركز رفيق الحريري للشرق الأوسط، بتاريخ ٢٢ سبتمبر ٢٠١٧.

(٢) انظر: إصدار «ملة إبراهيم» الصادر عن ولاية سيناء، بتاريخ ٤ يناير ٢٠١٨م، وفيه ينفذ عنصر سابق من حماس حكم «القتل ردة» على من سيناوي اتُّهِمَ من قبل التنظيم بمساعدة حماس.

Readonly

الآن قدرة متميزة على أن تكون نفسها وألا تسقط في فخ الاستقطابات والمعادلات المتشكلة والمتقلبة في المنطقة العربية الساخنة. ولا يمنع من هذا أن يقع شيء هنا أو هناك مرة أو مرات، فذلك لا يغير من المسار العام.

وأبرز المواقف الثورية لتجربة حماس هو موقفها من الاحتلال الإسرائيلي لكامل فلسطين، وعليه تركزت معظم الضغوط السياسية التي أرادت استخراج اعتراف من حماس بإسرائيل، أو في أقل الأحوال استخراج تصريح واضح بأنها تسعى لتحرير الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ مما يعني اعترافها بحق إسرائيل في احتلال الأراضي قبل ذلك العام، وقد تمسكت حماس بهذا الموقف طوال هذه السنوات العشر، حتى أنها حين أصدرت وثيقة المبادئ والسياسات العامة (١ مايو ٢٠١٧م) حرصت على صياغة هذا الموقف بعبارات قاطعة، ووضعت هدف تحرير الأرض المحتلة عام ١٩٦٧ في قلب مادة تنص على عدم الاعتراف بإسرائيل[١]، وهو موقف غير جديد عمليًا بل دفعت إليه سابقًا ظروف الأزمة مع فتح عام ٢٠٠٦ ضمن وثيقة الأسرى للوفاق الوطني (مايو ٢٠٠٦) لتجاوز الانقسام[٢]، وبشكل عام فإن هذه الوثيقة (وثيقة المبادئ والسياسات العامة: ٢٠١٧) بقدر ما يمكن اعتبارها نوع تراجع بقدر ما يمكن اعتبارها وثيقة تَمَسُّك، وذلك أن عباراتها عَبَّرَتْ عن المواقف العملية والمبدئية للحركة لكن بصيغ أكثر اقترابًا من مصطلحات ومفاهيم السياسة والقانون وابتعادًا عن العاطفة والحماسة، والصيغ السياسية في العادة بقدر ما تعبر عن حصافة ومرونة بقدر ما تعبر أيضًا عن مأزقٍ اقتضاها وألزم بها.

---

(١) انظر المادة ٢٠ من الوثيقة.

(٢) تنص المادة الأولى من هذه الوثيقة على «إقامة دولته المستقلة وعاصمتها مدينة القدس الشريف على جميع الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧».

Readonly

ومما يترتب على هذا موقف الحركة من «المدنيين الإسرائيليين»، وقد تمكست الحركة بموقفها القائل بأن هؤلاء محتلين وليس فيهم من يصدق عليه وصف «المدنيين»، فهم فوق كونهم قد احتلوا وسكنوا هذه البلاد بعد طرد أهلها والاستيلاء على أراضيهم وبيوتهم فإن التكوين العسكري لجيش دولة الاحتلال يجعل من سائر مواطنيها مجندي احتياط. على أن الحركة وجناحها العسكري عمدت إلى تجنب استهداف أولئك «المدنيين» عمليًا ضمن تطور ونضوج عمليات المقاومة والقدرة على تحديد الأهداف العسكرية، وهي سياسة مفيدة على المستوى السياسي والإعلامي، وهذا الالتزام العملي دون الإعلان عنه كمبدأ أو التزامه كموقف يجعل من هؤلاء «المدنيين» ورقة ضغط.

ومن أبرز المواقف الثورية في تجربة حماس عملية الحسم العسكري في قطاع غزة، والذي كان منعطفًا تاريخيًّا في مسار القضية الفلسطينية، ذلك أنه حجر الأساس في تحويل قطاع غزة إلى قلعة منيعة للمقاومة، وما كان بالإمكان أن يتحقق شيء من الإنجاز العسكري الكبير إذا بقيت أجهزة الأمن الفتحاوية التي تمثل شبكات تجسس إسرائيلية متقدمة فضلًا عن مجهودها الضخم في إجهاض العمل المقاوم. ولو لم يكن الحسم العسكري على يد حماس فإن حسمًا عسكريًّا كان سيكون على يد السلطة الفتحاوية لا ريب في ذلك[1]، وساعتئذ سنكون أمام مشهد التصفية الكاملة لحماس في قطاع غزة على نحو ما وقع في مصر بعد الانقلاب

(١) جاء في مؤتمر حماس الصحفي بعيد الحسم العسكري (٢٢ يونيو ٢٠٠٧م)، وفي غيره من التصريحات، أن لديهم معلومات موثقة حول عزم أجهزة السلطة الدخول في مواجهة عسكرية لتصفية حماس عقيب انتهاء امتحانات الثانوية العامة. على أنه ولو لم ترد هذه المعلومات فإن طبائع الأمور في مثل هذه المواقف لا يمكن أن تستمر إلا بمواجهة من هذا النوع.

Readonly

العسكري (يوليو ٢٠١٣م) ضد الإخوان المسلمين، أو على نحو ما وقع في الضفة الغربية ذاتها من استهداف سائر أوجه نشاط الحركة[١].

كذلك من أبرز المواقف الثورية في تجربة حماس هو وقوفها إلى جوار الشعب الثوري في ثورته المشهودة، واضطرار مكتبها السياسي لمغادرة دمشق تبعًا لهذا الموقف، وهو ما تأثرت به علاقتها مع الحليف الإيراني، وهذا من أثمن المواقف المشرفة لحركة حماس في وقتٍ لم يكن ليُغْتَفَر لها فيه الصمت والحياد فضلًا عن مساندة النظام السوري، وهذا بالرغم من التبعات المتوقعة لهذا الموقف، وحاولت حماس اختطاط موقف توازن فيه بين علاقاتها بإيران وحزب الله من جهة، وعلى حاضنتها الشعبية الممتدة والمتعاطفة مع الثورة السورية خصوصًا تجاه المذابح البشعة، ثم صار موقفها أكثر حرجًا مع تعرض المخيمات الفلسطينية في سوريا لمذابح النظام واتخاذ منظمات فلسطينية (كالجبهة الشعبية ـ القيادة العامة) جانب النظام السوري، ثم ازداد الموقف حرجًا بتحول الثورة السورية إلى الكفاح العسكري الذي برزت فيه الفصائل المتعددة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وعملت الآلة الإعلامية الدولية على توصيف المشهد باعتباره حربًا أهلية أحد أطرافها الجماعات «الإرهابية» التي تنأى حماس عن أن توصف كمتعاطفة معها أو

---

(١) انظر في سياسة السلطة في الضفة: المكتب الإعلامي حركة المقاومة الإسلامية «حماس»، **الكتاب الأسود: كشف للحقائق ورصد بالوثائق لممارسات سلطة «دايتون» وانتهاكات أجهزتها الأمنية في الضفة الغربية من ١٤/ ٦/ ٢٠٠٧ إلى ١٥/ ٦/ ٢٠٠٨**، ط١ (غزة، نسخة إلكترونية، ٢٠٠٨م)؛ محسن صالح (محرر)، **صراع الإرادات: السلوك الأمني لفتح وحماس والأطراف المعنية ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧**، ط١ (بيروت: مركز الزيتونة، ٢٠٠٨)؛ إسراء لافي، سياسات محاربة المقاومة: حماس الضفة نموذجا، المعهد المصري للدراسات، بتاريخ ١٦ مارس ٢٠١٨م.

Readonly

مرتبطة بها. لقد أدى هذا كله في ظرف تراجع موجة الثورات بالانقلاب العسكري في مصر إلى تراجعات متوازية في مواقف حماس، التي صارت أقرب إلى الصمت ـ إلا من تنديد بمذبحة هنا أو هناك ـ ثم بدأت تتالى تصريحات مسؤوليها التي تحاول إعادة ترميم العلاقات بينهم وبين النظام السوري، وقد كانت هذه العودة جزءًا من عودة محاور ما قبل الثورات في المنطقة العربية التي تستعيد انقسامها إلى محور اعتدال مقابل محور ممانعة[١].

ومن أهم المواقف الثورية لحماس هو موقفها من إيران، فبالرغم من الضغوط الكثيرة عليها لكي تفصم العلاقة مع إيران إلا أنها لم تفعل، وهذا موقف تُحْمَد عليه أيضًا، إذ يجب أن لا ترهن حركة المقاومة نفسها ضمن معادلة إقليمية أو دولية ما تلبث أن تتغير، ولا أن تتخلى عن حليف مهم[٢] بضغوط من أعداء في ثياب حلفاء

---

(١) انظر قائمة مواقف حماس من الثورة السورية بين مارس ٢٠١١ ويونيو ٢٠١٤ في: رصد لمركز الشرق العربي للدراسات الحضارية والإستراتيجية ونستطيع القول بشيء من التجوز بأنه بعد هذا التاريخ بدأت مرحلة التراجع في موقف حماس تجاه ما يحدث في سوريا.

(٢) أريد هنا أن أدفع ما قد يُتَوهَّم من التناقض بين اعتباري حفاظ حماس على علاقتها بإيران سلوكًا ثوريًا تحمد عليه، وبين نقدي عليها النعي العلني لسمير القنطار أو الثناء العلني على قاسم سليماني، ذلك أنَّ العلاقة بكل حليف أمر في منتهى الضرورة لحركة تحرر، وتزيد الضرورة في حال كونها مستضعفة ومنبوذة من نظام إقليمي يفترض أن يمثل حاضنتها الطبيعية، وما من حركة في تاريخنا الحديث والمعاصر إلا وتحالفت مع أعداء أعدائها اضطرارًا أو اختيارًا، وأما الموقف من شخصيات بعينها في أزمان ومواقف بعينها فهنا يحتاج الأمر إلى موازنة أخرى، فمقتل سمير القنطار في سوريا وهو إلى جانب نظام بشار الأسد الذي يخوض في المذابح اليومية ضد الشعب السوري أو مدح قاسم سليماني المشرف الأعلى على هذه المذابح وفي زمن المذابح نفسها، كل هذا يخصم من الحاضنة السنية ومن رصيد الحركة الإسلامية.

Readonly

كما هو الحال مع السعودية، لا يؤمن جانبهم فضلًا عن أن يؤمن التزامهم بوعودهم، وقد صعدت التوقعات بتغير الموقف السعودي مع تولي الملك سلمان خلفًا لعبد الله الذي رهن أي تعاون مع حماس بإعلان موافقتها المسبقة على مبادرته، وهي الموافقة التي من شأنها إنهاء حماس نفسها، فإذا بسلمان يشتري الكرسي لولده بالسير هرولة في مسار التطبيع الذي يسحق القضية الفلسطينية، ويشن الحملة الإعلامية على الشعب الفلسطيني نفسه. وقد حرصت حماس ألا تنزلق لمستنقع التنازع الطائفي الشيعي السني، بل استطاعت بكفاءة ومهارة أن تُبْقِي خطابها مُعْلِيًا قضية فلسطين فوق هذا النزاع وتقديمها كقضية جامعة.

وقد استفادت حماس من هذا الجانب الثوري من سياستها بقاءها في خط المقاومة وصمودها الذي خالفت به تقديرات «الخبراء والمحللين» السياسيين[1]، وحافظت ألا تتحول مع السلطة إلى نسخة أخرى من تجربة فتح تحت إغراء السلطة أو تحت ضغط الحصار الخانق والحروب المتكررة، وذلك في ظرف إقليمي أسوأ وأصعب من الظرف الذي جرى فيه التحول الفتحاوي، إذ انفردت أمريكا بالهيمنة العالمية وانفردت إسرائيل بالهيمنة الإقليمية وذهبت النظم العربية فرادى وجماعات خطوات واسعة في مسار التطبيع والتوظيف للمصلحة الصهيونية.

كذلك استفادت حماس من بقاء قرارها غير مرتهن لمحاور إقليمية، وتسليم الحلفاء بأنهم لا يتعاملون مع ورقة يتحكمون فيها ويصنعون سياستها.

وأهم هذه المكاسب قاطبة هي تحول غزة الصغيرة المتكدسة إلى قلعة منيعة

---

(١) انظر مثلاً: هيكل.. الفلسطينيون وآفاق التسوية مع إسرائيل، برنامج مع هيكل، قناة الجزيرة، بتاريخ ٢ يوليو ٢٠٠٧م.

Readonly

للمقاومة، تعجز إسرائيل عن اجتياحها عبر أربعة حروب كلٌّ منها أكبر وأخطر من سابقتها، وهي التي استطاعت اجتياح أربعة دول عربية ذات جيوش نظامية في ساعات وأيام عبر تاريخها منذ نشأت، وبهذا تكون غزة قد حققت في مواجهة إسرائيل ما لم يتحقق في تاريخ المقاومة العربية الصهيونية منذ بدايته، ولم يكن هذا ليتم لولا انفراد حركات المقاومة بالحكم في غزة وبناء أجهزتها وشبكاتها الأمنية وأجنحتها العسكرية وفق العقيدة القتالية الإسلامية.

الخاتمة

تقر أدبيات حماس منذ ميثاقها الأول (١٩٨٨م) وحتى لحظة كتابة هذه السطور أن حل القضية الفلسطينية هو مسؤولية لا ينفرد الفلسطينيون بحملها، وإنما تقع أيضًا على عاتق الأمة العربية والإسلامية[١]، إلا أن الوسيلة التي اعتمدتها حماس هي أن تحاول حث الأنظمة الحاكمة على القيام طوعًا بالمساهمة في هذه المسؤولية، طبقًا لموقفها المبدئي بعدم توسيع نطاق المواجهة مع العدو الصهيوني خارج الأرض المحتلة، والحفاظ على علاقات ساكنة ـ في أدنى الأحوال ـ مع كافة الأنظمة. وربما كانت هذه السياسة حكيمة ومناسبة فيما قبل زمن الثورات العربية أو قبل زمن إعلان الحرب العالمية على الإرهاب (٢٠٠١م) أو حتى قبل زمن الانفراد الأمريكي بالعالم وعصر القطب الواحد. ففيما قبل هذه المراحل كانت الدول القومية تتمتع بقدر معقول من السيادة ومساحة الحركة والمناورة والدخول في أحلاف بين قطبين عالميين، أما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي فقد تساقطت تباعًا قدرة الدول القومية العربية على المناورة وتضاءلت مساحة حركتها المستقلة مما افتتح معه عصرًا جديدًا

(١) ميثاق ١٩٨٨: بند ٢٨؛ وثيقة ٢٠١٧: المادة ٣٥.

Readonly

من التعاون والتنسيق الأمني[١] جعل العناصر المحسوبة على المقاومة تعتقل وتخضع للتعذيب منذ مطلع التسعينات في دولة كالإمارات، ثم تتابع المجهودات حتى يعقد مؤتمر لمكافحة الإرهاب في شرم الشيخ (١٩٩٦م) والهدف منه استئصال حماس وتثبيت أركان السلطة الفلسطينية الموالية للاحتلال، ثم تأتي أحداث سبتمبر والحرب العالمية على «الإرهاب» بعاصفة ضخمة من المطاردة الأمنية وتجفيف المنابع المالية والفكرية والتصفيات الجسدية لقيادات المقاومة.

كان حريًّا بهذا المسار أن يدفع حركة حماس إلى التخلي عن سياستها هذه، مهما كان هذا التخلي حذرًا وتدريجيًّا وسريًّا، لتتمسك بفرصة الثورات العربية فتعمل ما في وسعها لدعم الساحتين المصرية والسورية على وجه التحديد، والمصرية على وجه أخص، وكان يجب ألا يُكتفى بالتعويل على جهود الإخوان فحسب لا سيما بعد أن أظهروا ضعفًا وترددًا غريبًا في السيطرة على مقاليد الأمور، ثم كان يجب ألا يُستسلم تجاه وقوع الانقلاب العسكري في مصر باعتباره شأنًا مصريًّا.

وتعد المطالبة بمراجعة هذه السياسة هي الخلاصة الأساسية لهذه الورقة، إذ مهما أبدى الغزيون من البسالة والصمود فإنهم في هذا الضيق الجغرافي وتحت هذه الضغوط لا يملكون مفاتيح تغيير المشهد الذي يمكن له أن يتغير وينفتح على خيارات أخرى بتحول الأوضاع في القاهرة، مما يفرض على حركة المقاومة المعنية أن تفكر في هذا حتى لو لم تكن متضررة بشكل مباشر من سياسات النظام المصري، فكيف إذا كان الضرر الواقع عليها مباشرًا وفادحًا بل هو من أهم أولويات ومهمات ووظائف هذا النظام؟!

---

(١) وهذا لو سلَّمنا بالأساس بأن هذه الأنظمة تفعل هذا من وضع الضعف لا أنها تملك الرغبة ولديها العقيدة السياسية المضادة لحماس ومشروعها. وهو موضع شك ونظر كبير!

Readonly

وبعد هذه الخلاصة الأساسية يمكن تقديم بعض خلاصتين أخريين:

١. ضرورة توسيع المشاركة الشعبية في تحمل أعباء الإدارة والاستفادة من قوى الروابط الاجتماعية: العائلية والجغرافية والتشجيع المستمر للمبادرات الفردية والأفكار المبدعة، فمن شأن هذا كله أن يخفف من أعباء الإدارة عن كاهل الحركة، وهذا التوجه يتأسس على إدراك أن الحداثة ونمط الدولة المركزية ليس مناسبًا في عالمنا العربي والإسلامي، على الأقل هو غير مناسب تحت سلطة احتلال أجنبي متفوق وفي وضع مختنق، ومن ثم فينبغي أن تتوجه الجهود الفكرية والعلمية في الجامعة والمحاضن التعليمية والتربوية نحو نشر وتوثيق النمط المجتمعي التكافلي الذي يطلق طاقة المجتمع ويخفف الأحمال عن السلطة.

٢. ينبغي لحماس ألا تتمسك بشرعيات مهترئة كما هو الحال في منظمة التحرير أو حتى شرعية السلطة الفلسطينية، فهذا ثقل إضافي يقيدها ويثقلها، بل ينبغي عليها هدم هذه الشرعيات ما استطاعت، مع التأسيس لشرعية شعبية أخرى أو لشرعية تنطلق من قيم الكفاح والجهاد، ويمكن أن تستلهم في هذا السبيل ما فعلته حركة فتح نفسها ضد منظمة التحرير الفلسطينية

وفي الختام نقول: هنيئًا لحماس بهذه الأعوام الثلاثين، ونسأل الله تعالى أن تكون الثلاثون عامًا القادمة هي أعوام العز والتمكين والنصر الكبير.

* * *

Readonly



تحديات المستقبل أمام الحركة الإسلامية

* أُعِدَّت هذه الورقة لصالح مركز الحضارة
للبحوث والدراسات والتدريب في إسطنبول،
ضمن مشروعه البحثي «المشروع الإسلامي
وآفاق مرحلته الجديدة»

لا يمكن إحصاء عدد الصفعات التي يتلقاها مظلوم في عموم العالم الإسلامي في اليوم الواحد، إن الصفعة نفسها من أبسط مظاهر الظلم الذي يقع بالمسلم في عالم يهيمن عليه الاستبداد والاحتلال. إلا أن صفعة واحدة من تلك الصفعات مثلت الشرارة التي انطلقت لتغير وجه العالم.. تلك هي التي نزلت على وجه البوعزيزي في تونس فما هي حتى استحالت ثورات عربية ترسم التاريخ والجغرافيا من جديد.

بعد ثماني سنوات من هذه الواقعة لم نعد نتحدث عن صفعة، بل عن مجازر وحشية منصوبة ومستمرة، عن طوفان مجنون من القتل والسجون والتعذيب والتشريد وهدم المدن وعمليات الإبادة. فلو أن الأمر مجرد تغيير لشخص أو تعديل في نظام أو مطالبة بإصلاح سياسي لما كلَّف الحال أن يحصل هذا كله، ولكن الجميع يعلم أن عالمنا الإسلامي ـ وفي القلب منه العالم العربي، وفي القلب منه: مصر والشام ـ هو ميدان المعارك الكبرى ومحتدم الصراع العالمي الحضاري

Readonly

الكبير، وأنه القصعة التي يأكل منها كل قوي، فالكل يتقاتل على أرضنا ويتعارك على لحمنا ويتنافس على مواردنا، ونحن الفريسة المأكولة رغم أننا الأمة المليارية التي تهيمن على أهم مواقع العالم وثرواته، وبهذا صدق فينا قول نبينا ﷺ «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكن غثاء كغثاء السيل. ولينزعنَّ الله المهابة من صدور عدوكم منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»، وفي رواية: «حب الدنيا وكراهية القتال».

صلى الله على من أوتي جوامع الكلم، ففي هذا الحديث وصف دقيق للحال، وفيه كذلك وصف للحل وسبيل الخروج. وهذه السطور القادمة هي مجرد حاشية على هذا الحديث، فقد كنت كلما أعددت كلامًا وجدتني أنتهي إلى حيث هذه النتيجة.

نُذُرٌ من المستقبل

ما إن يختار المرء لنفسه هوية وموقعًا حتى يكون قد اختار معها طموحه وأهدافه، وما إن يفعل ذلك حتى يكون قد حدد لنفسه أعداءه واستشرف أول مستقبله. والحركة الإسلامية ما إن ترى نفسها «إسلامية» حتى تكون قد رأت في اللحظة نفسها خريطة أهدافها وخريطة أعدائها. فمجرد وجود الإسلام يعني بزوغ الحرب مع الباطل، حربًا ضروسًا لا هوادة فيها، إذ التعايش بين الحق والباطل ممتنع، فكل منهما يطلب لنفسه الحق في السيادة والهيمنة وحكم الناس وتصريف أحوالهم وإنشاء نظامهم وصياغة أفكارهم. واللحظة التي صدح فيها النبي ﷺ «لا إله إلا الله» كانت هي لحظة بزوغ العداوة فقيل له «تبًّا لك». ولقد ابتدأت المعركة الملتهبة فكانت صراعًا صفريًا، يصوره قول الله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ

Readonly

عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]، وهو ما استلزم أن يكون قتال المؤمنين على هذه الصورة ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

في واقعنا المعاصر تجد الحركة الإسلامية نفسها في مرمى الاستهداف والمؤامرة، ذلك أنه ما من شعب في هذه الأمة أتيحت له فرصة الاختيار إلا وحمل الإسلاميين على الأكتاف ووضعهم في المقدمة، تسفر عن هذا التجارب السلمية والقتالية على السواء، إن كان الخيار بالانتخابات تصدر الإسلاميون، وإن كان الخيار القتال لم يثبت في الساحات إلا الإسلاميون أيضًا.

ولهذا كفَّ مخططو النظام الدولي عن محاولة دمقرطة العالم الإسلامي حين اكتشفوا أن الديمقراطية لن تأتي بالعلمانية المطلوبة، فأجمعوا أمرهم على الحرب والاحتلال، احتلالًا صريحًا مباشرًا مكشوفًا، أو احتلالًا بالوكالة عبر دعم الأنظمة المحلية العميلة التي تمثل بديلًا ممتازًا لتغطية وجه الاحتلال بقناع وطني محلي يثير أزمة في الشرعية ويتمتع بقدرة أعلى على مكافحة الأمة والسيطرة على الشعوب.

وبغض النظر عن التفاصيل الصغيرة فإن السياسة المتفق عليها بين الجميع هي استمرار الهيمنة الأجنبية على بلادنا، يتعاون في ذلك الديمقراطيون والجمهوريون في أمريكا، واليمنيون والليبراليون في أوروبا، كما يتفق عليهم مع ذلك كله الروس والصينيون، ويعد مثال الثورة السورية واضحًا في أن العالم يقبل تمامًا بإبادة ملايين الناس وتهجير عشرات الملايين مقابل ألا تخرج البلد من هيمنته.

ولا تبدو ثمة مؤشرات في الأفق على أي تغير من جهة القوى العظمى لهذه السياسة، فالحال إما باقٍ على ما هو عليه، وإما سيزداد ضروراة وشناعة.

Readonly

الحركة الإسلامية: أثقال الإخفاق!

حين نقول «الحركة الإسلامية» فنحن نقصد جميع الأطياف الإسلامية، فالحركة الإسلامية هي استجابة الأمة المسلمة للتحديات المفروضة عليها، ولذا ستشمل الطيف الجهادي والإخواني والسلفي وسائر ما بينهما، مع استبعاد من خرج عن طيف الحركة الإسلامية ليصير ضدًّا لها، مثل فصيل السلفية الجامية المدخلية التي صنعت من الحكام «أولياءِ الأمورِ» آلهةً، ومن رغباتهم دينًا، وجعلت طاعتهم واجبة وإن كفروا، ومثل فصائل الصوفية التي عزلت نفسها عن الأمة وقضاياها ورضيت بالحكام أولياء أمر، وتركت لهم شأن الدنيا ورضيت منهم بالموائد والموالد، ومثل الغلاة من الجهاديين الذين صاروا خوارج يُكفرون حتى الفصائل المجاهدة، ويخرجون على الأمة يضربون برها وفاجرها لا يتحاشون مؤمنها. فيما عدا هذه الأصناف الثلاثة التي اختارت بنفسها أن تكون ضد الحركة الإسلامية، فالحركة الإسلامية هي كل عمل ينطلق من الإسلام ويعمل له.

تعاني الحركة الإسلامية الآن بجميع فصائلها موقفًا حرجًا، إذ إنَّ كل السبل المطروقة لتحقيق التمكين فشلت وتعثرت، بداية من السبل السلمية الديمقراطية الدبلوماسية وحتى المحاولات الجهادية القتالية العنيفة. والتجربة الوحيدة التي مثلت نجاحًا جزئيًّا للمحاولات الجهادية سرعان ما هُدِمت: تجربة طالبان. كذلك فإن التجربة الوحيدة التي مثلت نجاحًا للمحاولات السلمية لا تزال غير بعيدة عن التهديد، وأعني هنا: التجربة التركية. هذا مع أن تجربة الحكم مستمرة منذ ستة عشر عامًا، ولا تزل كثير من الممارسات لا يبتلعها الضمير الإسلامي إلا بتأويلات العجز والإكراه والضرورات.

Readonly

ثمة مشكلة إضافية ومفصلية في التجربة التركية، وهي أنه لم يعد مسموحًا بأن تتكرر، فالعدو الذي يهيمن على السياسة العالمية يقرأ التاريخ كما نقرؤه، فمن ناحيتهم فشلت تجربة السماح لحزب أسسه إسلاميون «سابقون، معتدلون» في إنتاج «الإسلام المعتدل» المتوافق مع الحضارة الغربية. ولم تعد هذه المحاولة ممكنة التكرار، وتعد التجربة المصرية دليلًا على هذا، كما تعد محاولات الانقلاب في تركيا ومحاولات اغتيال أردوغان دليلًا آخر على أن التجربة لم تعد مقبولة.

وهكذا يفرض علينا العدو نفسه خطًا كفاحيًّا مُقاوِمًا، لأنَّ الأمة بمجموعها لن تستسلم، وحتى لو اختار طيف إسلامي ما أن يستسلم ويركن بعد أن أصابه الإنهاك فالواقع أنه لن يسحب الأمة لتركن إلى جواره بل ستتجاوزه الأمة إلى غيره ممن يعبر عن المرحلة الجديدة ويكافح فيها.

وأما بقية التجارب السلمية فلم تحقق إصلاحًا لا منشودًا ولا بعض منشود، فالنتيجة النهائية أن الأنظمة الحاكمة احتوتها ضمن نظامها السياسي فتحولت لتكون جزءًا منه، فربما كان للحركة الإسلامية أعضاء في البرلمان أو في الوزارة بل ربما شكلوا الوزارة في ظروف استثنائية، لكن الصلاحيات الحقيقية لم تكن أبدًا بيدها، كذلك فالمسار العام للحكومات كان غير إسلامي بل كان ضد الأمة الإسلامية، هذا فضلًا عما اشتعل بين الحركات الإسلامية من معارك داخلية استفادت منها الأنظمة ومن ورائها الاحتلال الأجنبي، إذ وجب على الفصيل الموجود في البرلمان والوزارة أن يبدي أكبر قدر ممكن من الولاء للدولة والإيمان بها وإثبات وطنية كما يبدي أكبر قدر ممكن من رفض الاتجاهات الإسلامية الأخرى، وربما استعملت الأنظمة هذا الذراع الإسلامي الموجود شكليًا في البرلمان والحكومة لحرب بقية

Readonly

الإسلاميين، فكانت معارك هلكت فيها طاقات إسلامية هائلة لتصب في مصلحة أنظمة حاكمة ممثلة ومعبرة عن الهيمنة الأجنبية.

لكن المشكلة هنا في أن التجارب الكفاحية القتالية أيضًا لم تنجح، وأن أحدًا لا يريد أن يرى في بلاده مصائر أفغانستان والعراق وسوريا واليمن وليبيا، فلقد كانت التكلفة هائلة وباهظة دون أن تتحقق النتائج المرجوة، فاختيار الانتقال إلى الكفاح مغامرة في غاية الخطورة غير مضمونة النتائج. فإذا كان هذا الاختيار مطروحًا على حركات تكونت وتشكلت فكريًّا ونفسيًّا وتنظيميًّا على العمل السلمي الدبلوماسي، فإن الأمر يغدو أصعب كثيرًا، بل ربما كان مستحيلًا إذ هو كتكليف الأشياء ما هو ضد طباعها، وهكذا تعاني الحركة من الاختيار العملي بين الاستسلام والاستبدال! ومهما بُذِل من مجهودات تنظيرية لإثبات أن الاستسلام ليس استسلامًا وإنما هو حكمة، وأن البديل ليس الاستبدال بل هو الانتحار! مهما بُذِلت المجهودات في هذا فلن يغير هذا من حقيقة الواقع، أن الحركة الإسلامية إما أن تعيد تكيف نفسها لتغير المهمة في المرحلة التاريخية الراهنة، أو أنها ستتعرض لسنة الاستبدال التي تجعلها صفحة من التاريخ ليأتي بعدها من يرثها.

سؤال القضية المركزية

كيف نحدد القضية المركزية للحركة الإسلامية في المستقبل؟ تلك القضية التي ستمثل الخط العام الإستراتيجي الذي ستعمل كافة القوى والطاقات على خدمته ودعمه؟ ذلك أن تحديد هذه القضية هو الكفيل بتجنب سنة الاستبدال، ففهم المرحلة يعني فهم لأنه تعريف بالمرحلة وضروراتها والواجب فيها «واجب الوقت».

Readonly

تتميز الحركة الإسلامية بأن مرجعيتها «الإسلامية» توفر لها تصورًا شاملًا للكون والإنسان، وللصراع، وللرسالة المطلوبة منها، ولعدوها.. وهي إن افتقدت استلهام الإسلام في تصوراتها وسياساتها فقدت بالضرورة طبيعتها الإسلامية. هذه المرجعية تصور أن هذه الأرض ساحة للصراع بين الحق والباطل، وهي كذلك منذ نزل إليها آدم حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو صراع مغالبة لا منافسة ومشاركة، إذ لا يطيق الباطل وجود الحق ولا الحق وجود الباطل، فكل علوٍّ للحق يكون على حساب الباطل والعكس بالعكس.

فإن افترضنا أن ثمة غبش وتشوش ران على العقول والقلوب فعمَّى هذا الوضوح فإنه ينبغي أن تصل الحركة الإسلامية لذات الحقيقة من خلال الواقع الذي يسفر عن وحشية هائلة ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨]، بل من خلال كتابات مفكري وصناع قرار العدو، وهي كثيرة للغاية: فالإسلام «هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك، وقد فعل هذا مرتين على الأقل»[(١)]، والإسلام «ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات، إنه أعظم من ذلك كثيرًا، هو مدنية كاملة، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا: العالم المسيحي ولم نقل المسيحية، ولقلنا الصين بدل أن نقول ديانة كونفوشيوس»[(٢)] ولهذا فهو بديل حضاري لما تطرحه الحضارة الغربية، ومن ثم يمكن للغرب التعايش مع البوذية والهندوسية والكونفوشيوسية لأنها لا تمثل بديلًا حضاريًّا له على عكس الإسلام، ويوم كان العالم الإسلامي صفرًا في ميزان القوى وكانت المعركة محتدمة بين الغرب نفسه في الحرب العالمية الثانية قال وكيل وزارة

---

(١) صمويل هنتجتون، صدام الحضارات، ص٣٣٩.

(٢) جب: وجهة العالم الإسلامي ص٩.

Readonly

الخارجية الألماني للحاج أمين الحسيني إن الغرب لا يخشى من الشيوعية، ولكنه يخشى إن اتحد المغرب العربي مرة أخرى أن يعودوا إلى الأندلس[1]! وأي حديث غربي عن الإسلام بغير هذه المعاني هو إما نوع من الكذب والنفاق والخداع، أو هو على الأقل وفي أحسن الأحوال وجهة نظر أطراف هامشية غير مؤثرة في صناعة القرار، بينما واقعنا المعاصر وتاريخنا القريب والبعيد يصدق أقوال الأولين.

وهكذا فإن الحركة الإسلامية هي طليعة أمة تحمل مشروعًا مناقضًا للباطل ولحزب الشيطان الذي تمثله الحضارة الغربية في هذه اللحظة من عمر البشرية، وأول لوازم هذه الحقيقة أن تحمل الحركة الإسلامية هذه العقيدة حمل المؤمن بها إيمانًا لا يتزلزل ولا يهتز ولا يتردد، إيمان من يعرف أنه يخرج الناس من الظلمات إلى النور، إيمان من يشن حربًا شعواء على حزب الشيطان وهو موقن أنه في حزب الله. وليس ذلك إيمان المتعصب الأعمى العاطفي بل هو إيمان من يعرف حق المعرفة ما هو عليه من الحق وما فيه عدوه من الباطل، ويستطيع أن يخوض معركة اللسان والحجة والبيان بنفس القوة والتمكن التي يندفع فيها إلى معركة القوة والسنان.

إن مواجهة الحركة الإسلامية للهيمنة الغربية المادية العلمانية التي تستعبد الناس إنما هي صورة من معركة النبي ﷺ ضد عبادة الأصنام، وذلك أن النظام العالمي المهيمن على الناس الآن قد نصب أصنامًا وأوثانًا إلا أنه غير أسماءها، بها يستعبد الناس لمنظومته وفكرته وقانونه وشرعته، فثمة أصنام على مستوى الأفكار: الديمقراطية، حقوق الإنسان، الحريات، تحرير المرأة.. إلخ! وثمة أصنام على مستوى المؤسسات: مجلس الأمن، الأمم المتحدة، المحكمة الجنائية الدولية،

(١) مذكرات الحاج أمين الحسيني ص١٢٠.

Readonly

صندوق النقد الدولي، البنك الدولي.. إلخ! وثمة أصنام على مستوى الدول: الدولة، الدستور، الأمن القومي.. إلخ! وكافة هذه الأصنام إنما هي أدوات ترسيخ أفكار وسياسات النظام العالمي.

إنه من البائس المثير للشفقة أن ترى بعض رموز الحركة الإسلامية وطوائف من علمائها ودعاتها يبذلون غاية جهدهم لتسويق الإسلام على أنه لا يخالف كل هذه الأفكار بل هو يؤيدها وينشرها، هذا هو عين الهزيمة النفسية، وعين الاستلاب الحضاري والذوبان في الغالب. كذلك من البائس المثير للشفقة أن تعمل الحركة الإسلامية تحت سقف الدولة العلمانية الاستبدادية التي نشأت أساسًا برعاية الاستعمار والتي تقوم على مصلحة المحتل، فتُكَيِّف نفسها لتكون ملتزمة بالقوانين ومنضبطة بالمساحات التي تتيحها السلطة بل ربما شعرت تجاه من يقاومون السلطة بأنهم تهديد لها!

لئن كان الأمر إكراهات واقعية ظرفية اضطرارية في مرحلة ما فربما يكون هذا مقبولا بأحكام الاضطرار والإكراه والاستثناء، إنما المأساة أن يصدر هذا عن قناعة بأن النظام العالمي وما يطرحه من أفكار وقيم هو إنجاز بشري وصلت له الإنسانية وينقصه بعض إجراءات ليكون عادلا وشاملا ومتعايشا مع الجميع، أو أن تكون القناعة بأن الأنظمة المحلية أنظمة وطنية صادقة وأن الأزمة هي في سوء فهم بينها وبين الحركة الإسلامية أو في سوء تقدير للمصلحة الوطنية.

ما لم تعتنق الحركة الإسلامية أنها تمثل النقيض للنظام العالمي والنقيض للنظم المحلية الاستبدادية فإنها لن تبلغ أن تفهم ـ مجرد الفهم ـ لماذا تتعرض لهذه الوحشية العدائية من قبل الجميع! وستظل تبذل المجهود الضخم في تأويل الإسلام

Readonly

وتكييفه لترضي ممثليه حتى تجد نفسها في نهاية المطاف وقد تركت الإسلام على الجملة، ثم ستجد نفسها مهزومة كسيحة قد انصرف الناس من حولها وجرت عليها سنة الاستبدال!

القضية الأساسية المركزية للحركة الإسلامية أن تؤمن أنها الطليعة الممثلة للإسلام الذي يمثل نقيضًا لكل نظام أرضي جاهلي ظالم يرفض «لا إله إلا الله»، وأنها تخوض معركتها العالمية لإنقاذ الناس أجمعين وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

سؤال الأداة المركزية

إذا استقر في اليقين أن المعركة في نهاية الأمر معركة عقيدة، معركة هوية، معركة عالمية، ميدانها كل الأرض وموضوعها الإنسان وطرفاها: حزب الله وحزب الشيطان.. إذا استقر هذا في اليقين كان سؤال الأداة المركزية سؤالًا بديهيًّا، كما كانت إجابته إجابة سهلة واضحة: الجهاد.

الجهاد ماض إلى يوم القيامة، هكذا قال رسول الله ﷺ. والحقيقة التي يجب أن تفهمها الحركة الإسلامية جيدًا أن كل حركة لا تمارس الجهاد ستجري عليها سنة الاستبدال!

هذا الكلام يقال في حال الرخاء والعافية وفي حال قوة الأمة وتمكنها، فأما إن كانت الأمة كالفريسة المنهوشة فإن إجابة الجهاد هي الإجابة الوحيدة الصحيحة، وهي إجابة فطرية بديهية تلقائية، يفهمها العامي الأمي البسيط دون مجهود.

ومن محن الحركة الإسلام أنه إذا ذُكِر الجهاد أو ذكرت القوة سارع البعض لتمييع مفهوم الجهاد والقوة ليتسع فيشمل أنواعًا أخرى، فيقال: جهاد النفس وجهاد

Readonly

القلم وجهاد البيان، ويقال: القوة الإعلامية، القوة الاقتصادية، القوة السياسية، قوة الإيمان.. إلخ! وليست المشكلة في أن نراعي كل هذه الأنواع من الجهاد والقوة، بل المشكلة هي المسارعة بالانحراف عن المعنى الواضح المباشر للجهاد والقوة، المعنى الذي يعني القتال المسلح المباشر.. هذه المسارعة دليل محنة عنيفة، وهي أبلغ معاني قول النبي ﷺ «حب الدنيا وكراهية القتال»، الذي هو الوهن، الذي هو سبب الغثائية، التي هي سبب تكالب الأمة علينا.

نعم.. سنحتاج في مسار الجهاد إلى كل أنواع القوة بداية من قوة الإيمان ومرورًا بقوة التلاحم والأخوة، وسنحتاج إلى القوة الاقتصادية والعلمية والإعلامية والسياسية التي تمهد له وتضبطه وتنضجه وتحسن استعماله وتحصد آثاره.. سنحتاج كل هذا لا شك، لكن سنحتاجه ونحن نجاهد فعلًا، وبغير وجود مشروع الجهاد لن نتمكن من بناء أي شيء من تلك الأنواع من القوى، فالأمم الخاملة لم تتقدم في شيء من هذا، بينما الأمم التي تحارب هي التي تخطو الخطوات الواسعة في العلم والسياسة والاقتصاد والنفوذ. ولو كان القتال يُضعف لكانت أضعف البلاد أمريكا، ولو كان السلام يوفر الفرصة للنمو الاقتصادي والعلمي والسياسي لكانت السلطة الفلسطينية أقوى الإمبراطوريات! التاريخ ينطق بالعكس: الأمة التي تجاهد وتقاتل هي التي تتفجر طاقاتها العلمية والاقتصادية والسياسية والفكرية، فتعمل آلتها التشغيلية بكل قواها فإذا بالاقتصاد يقوي الحرب ويقوي العلم، والعلم يقوي الحرب والاقتصاد، والحرب تحرس الاقتصاد والعلم.. وهكذا في دائرة تتضافر وتزداد قوة ونفوذًا. بينما الضعف يأتي بالهزائم ويذهب بالمال وتتفلت منه الطاقات العلمية ويأتي بالأعداء الطامعين الذين يحرصون على زيادة الضعف والرهق واستمرار التسلط والتخلف ونهب الموارد الاقتصادية والبشرية على السواء.

Readonly

خلاصة القول أن الإسلام، كما قال ابن تيمية، كتاب يهدي وسيف ينصر. أو كما قال الشاعر:

قف دون رأيك في الحياة مجاهدًا إن الحياة عقيدة وجهاد

بعد الوصول إلى هذا اليقين من إجابة سؤال القضية المركزية: العقيدة المناقضة المضادة لواقع وعقيدة النظام العالمي المهيمن، ومن إجابة سؤال الأداة المركزية: الجهاد لمقاومة الاحتلال والاستبداد. عندها ستتضح معالم الخريطة الإسلامية في المرحلة القادمة، وعندها ستتدفق طاقة الحركة الإسلامية في الاتجاه الصحيح.

وبقدر ما اتضحت هذه الخريطة في عقول وقلوب أبناء الحركة الإسلامية بقدر ما كانت سائر مجهوداتهم متكاملة ومتضافرة، سواء منها المجهود العلمي والدعوي والتربوي والعسكري والفكري والاقتصادي والسياسي والأمني. إن انطلاقة الاقتصادي ـ مثلًا ـ بهذه الروح ستخالف تمامًا في قوتها وطريقة عملها وطبيعة إنتاجها انطلاقة اقتصادي يتصور أن النظام العالمي هو منتهى ما وصلت إليه البشرية ولا ينقصه إلا تعديلات جزئية هنا أو هناك، ومثلها انطلاقة عالم الشرع فشتان بين من ينطلق موقنًا أنه يخرج الناس من الظلمات إلى النور فيتفانى في بيان محاسن الإسلام عن علم ومعرفة ودراية بمساوئ ما يعاني منه الناس من هيمنة النظام المادي العلماني، وبين من يتفانى في إثبات أن الإسلام يتوافق مع هذا النظام العالمي فيكون أحسن أحواله أن يفتخر بسبق الإسلام لبعض الجوانب مع مجهود هائل في تأول وتكلف حشر الإسلام في قالب الثقافة الغالبة. وذات الكلام يقال عن سائر المجالات.

ربما قيل: لكن هذا السبيل سيكلفنا تكاليف هائلة، وسيعود على بلادنا بمصائر العراق وسوريا وأفغانستان وغيرها.

Readonly

والجواب: في الواقع نعم، هذا ما سيحصل، ولكنه لن يحصل لأننا اخترنا هذا الطريق.. بل هذا الطريق هو الوحيد الكفيل بتقليل الخسائر إلى أقصى مدى ممكن، وأما سائر الطرق غيره فهي التي ستودي بنا إلى هذا المصير. وبيان ذلك شيء بسيط:

١. سائر الأمم التي نهضت مرت بهذه المرحلة من مقاومة الاستبداد أو مقاومة الاحتلال أو حتى الحروب الأهلية بين طالبي الحرية ومناصري الاستبداد أو الاحتلال. إن التحرر مكلف لأن الاستقلال غالٍ، ولأنه أول طريق كل نهضة، وليس من أمة بلغت وسادت إلا وقد عانت هذا المخاض، بما فيها تلك الأمم التي علت في الأرض وهزمتنا وقهرتنا واحتلتنا.

٢. مصير أمتنا تحت الاستبداد المصنوع على عين الأجنبي ليس أحسن حالًا من مصيرها إن هي قاومت وكافحت، وأولئك الذين يضربون المثل بالعراق وسوريا يغفلون عن أن نفس هذا المثل هو رد عليهم. فالعراق هو تجربة استبداد أنهك البلد حتى أسلمه إلى الاحتلال فلم يثر شعب العراق على الطاغية إنما سلَّمهم الطاغية إلى الاحتلال. وأما شعب سوريا الذي ثار فقد جاءه الطاغية بالاحتلال ليحفظ له نظامه بعدما تهدد. فصار المصيران واحدًا رغم اختلاف المسلك: الاستبداد سيُسلمنا إلى الاحتلال وسيدمر بلادنا، فإما سبق الاحتلال الثورة أو سبقت الثورة الاحتلال!

٣. ما تدفعه الشعوب من ثمن لتحررها هو أقل مما تدفعه كثمن لخضوعها، فحين يترسخ استبداد لخمسين سنة أو ستين سنة فإنه يتسبب في ما لا يحصى من أصناف القتل والإذلال، بداية من الحروب العبثية مرورًا بالفساد والإهمال والتخلف التي تسفر عن قتلى بالأمراض وبحوادث الغرق والحرق والسيارات والقطارات وغيرها وحتى الظلم والتعذيب والقتل.. فتكون المحصلة ملايين القتلى لكنهم يذهبون

Readonly

بهدوء وعلى مدى زمني طويل، ثم في النهاية إما أن يُسلمهم إلى الاحتلال أو يجلب إليهم الاحتلال فيدفع الشعب ثمن الاستبداد عقودًا، ثم ثمن الثورة والاحتلال سنين أخرى. فلا تقارن نتائج الصمود حتى انتصار الثورة بنتائج هزيمة ثورة وتمكن استبداد من بلد ما!

عند هذه النقطة لا يتبقى إلا الكلام عن الاستفادة من التجارب السابقة للثورات والحركات الجهادية لكي تتمكن الحركة الإسلامية من إنتاج مقاومة ناضجة واعية راشدة تتجنب أخطاء ما فات، وهو ما لعل ورقة أخرى في هذا الكتاب تتناوله. أو لعلنا نتناوله في مقام آخر إن شاء الله تعالى.

* * *

Readonly



مستقبل مصر بين النفوذ الخارجي والاستبداد الداخلي

* ألقيت هذه الورقة في مؤتمر

«واقع الأمة بين الربيع العربي والمشروع الغربي»

والمنعقد في إسطنبول بتاريخ ٤ فبراير ٢٠١٧م

في مطلع القرن الرابع عشر كلفت البابوية في أوروبا المؤرخ الإيطالي مارينو سانودو تورسيللو كتابة تاريخ للحروب الصليبية استغرق منه عشرين سنة أو يزيد عبر فيها البحر خمس مرات إلى قبرص وأرمينية ورودوس والإسكندرية وأقام طويلًا فيها وفي عكا، ثم خرج كتابه في ثلاثة عشر مجلدًا، وضع في آخرها خلاصاته وتوصياته وإجابته على سؤال لماذا فشلت الحروب الصليبية، وماذا ينبغي أن تفعل الكنيسة لإعادة احتلال هذه الأراضي، فخلص إلى القول بأن أهم أسباب الفشل كان تركيز الحملات الصليبية على الشام وليس مصر، وذلك أن مصر هي أكبر خزان بشري ظلت قادرة على إمداد الشام بالجيوش طوال الوقت، ومن ثَمَّ قدَّم نصيحته في حال إعادة أوروبا للمحاولة أن تكون مصر هي الأولوية، ثم تنطلق منها الحملات للسيطرة على فلسطين واحتلال بيت المقدس[1].

---

(١) عباس مصطفى عمار، سيناء: **المدخل الشرقي لمصر**، ط٢ (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، يوليو ٢٠١٤م)، ص١٠ (مقدمة وليد نويهض). والجزء الأخير من كتاب المؤرخ الإيطالي ترجمه إلى العربية الأب سليم رزق الله بعنوان «كتاب الأسرار في استرجاع =

Readonly

وقد عملت أوروبا بهذه النصيحة في الموجة الثانية للحملات الصليبية[١]، فبدأ نابليون حملته على مصر ومنها انطلق إلى احتلال الشام، ثم جاء الإنجليز بعده بأقل من قرن فأتموا احتلال مصر أولًا، ثم صبروا ثلث قرن آخر حتى احتلوا فلسطين عسكريًا إبان الحرب العالمية الأولى ثم مهدوا فيها للاحتلال الصهيوني الذي يمثل ذروة نجاحهم المعاصر، فهم بزراعتهم لإسرائيل في المنطقة صنعوا قاعدة عسكرية وحضارية متقدمة في أرض المسلمين، ومزقوا قلب الدولة الإسلامية، وقطعوا الطريق على التمدد الروسي في الشرق، وتخلصوا من المشكلة اليهودية الداخلية في أوروبا.

تأسيس النفوذ الأجنبي في مصر

للنفوذ الأجنبي في مصر قصة طويلة حافلة بالتفاصيل المريرة..

يوجد الأجانب في مصر منذ القدم لموقع مصر الجغرافي والتجاري ومركزها العلمي، لا سيما حين صارت عاصمة الخلافة في عصر المماليك عند سقوط الخلافة من بغداد، وقد تحدث جوزيف بتس ـ الذي زار مصر في نهايات القرن السابع عشر ـ أن اللغات المستخدمة في مصر لا تقل عن اثنتين وسبعين لغة[٢]، وتحدث الجبرتي

= الأراضي المقدسة والحفاظ عليها»، وصدر في بيروت عن مؤسسة الريحاني عام ١٩٩١م.

(١) يقسم بعض الباحثين موجات الحملات الصليبية إلى ثلاث موجات كبرى؛ فالأولى هي التي بدأت باحتلال بيت المقدس وانتهت في عهد المماليك، والثانية هي الاستعمار الحديث الذي بدأ بالحملة الفرنسية على مصر وانتهى بتحرر الدول العربية من الاستعمار في منتصف القرن العشرين، والثالثة هي التي بدأت بالغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق ولا تزال مستمرة.

(٢) جوزيف بتس (الحاج يوسف)، **رحلة جوزيف بتس إلى مصر ومكة والمدينة المنورة**، ترجمة ودراسة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٥م)، ص٣٤.

Readonly

عن طلاب علم أوربيين يدرسون على علماء مصر قبيل الحملة الفرنسية[١]، إلا أن نفوذهم بدأ مع تولي محمد علي باشا سدة الحكم في مصر، فمنذ ذلك الوقت وحتى لحظة كتابة هذه السطور والأجانب هم سادة مصر وأصحاب الكلمة النافذة فيها.

لقد تولى محمد علي حكم مصر بمساعدة أجنبية حيث نشأت علاقة بينه وبين القنصل الفرنسي في مصر، ثم دعمها سفير فرنسا في إسطنبول بضغطه على الخليفة العثماني ليقبل بولاية محمد علي، وهنا بدأت دولة الأجانب، حيث استكثر محمد علي من اليهود والنصارى والأجانب في بلاطه وعليهم قام نظام دولته، وأسدى محمد علي للأجانب خدمات لا تقدر بثمن، ويعتبر هو واضع البذرة الأولى لدولة إسرائيل في سنوات حكمه العشرة للشام بما نفذه من انقلاب الموازين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية بين المسلمين وغيرهم وبين الرعايا والأجانب، فضلًا عن ضرباته القوية للدولة العثمانية، وإنشائه دولة على النمط الغربي في مصر والتمكين فيها للنفوذ الأجنبي[٢].

لم ينته عهد محمد علي إلا وللأجانب اليد العليا في مصر، ولم يبق خلفه إبراهيم باشا بعده إلا شهورًا، ثم جاء حفيده عباس الأول فكان يكره الأجانب وحاول موازاة النفوذ الفرنسي بشيء من النفوذ الإنجليزي فلم يلبث أن اغتيل بعد أقل من ست سنوات، وهو الاغتيال المشكوك في ضلوع الأجانب فيه لتمهيد الطريق لخلفه سعيد باشا الذي كان أول حاكم لمصر ينشأ تنشئة أجنبية في رعاية القنصل الفرنسي.

---

(١) الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، (بيروت: دار الجيل، بدون تاريخ)، ١/ ٤٦١.

(٢) انظر التفاصيل في: محمد إلهامي، **التأسيس للنفوذ الأجنبي في بيت المقدس في عهد محمد علي باشا الكبير**، ورقة بحثية في المؤتمر الأكاديمي السادس عشر «العثمانيون وبيت المقدس»، ديسمبر ٢٠١٦م.

Readonly

وفي عهد سعيد باشا أخذ النفوذ الأجنبي مساحات جديدة وواسعة وفُتِحت الأبواب أمام حركة التنصير ودعم المدارس والإرساليات التنصيرية في مصر من قبل السلطة[١]، وفي ذلك العهد حدثت الجريمتان الكبريان اللتان كان لهما أسوأ الأثر على التاريخ المصري فيما بعد: قناة السويس، والقروض الأجنبية. فلقد ظل كل حكام مصر حتى وهم في أوج قوتهم يرفضون الوصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر مباشرة لما لهذا من آثار كارثية على أمن الأمة الإسلامية، ورُفِض المشروع في عهد هارون الرشيد وسليمان القانوني وسليم الثاني وحتى في عهد محمد علي باشا رغم كل تمكينه للأجانب ثم وافق عليه سعيد باشا ومنح امتيازًا لفريدناند دي ليسبس الذي هو صديق الطفولة فقد كان أبوه هو القنصل الفرنسي الذي نشأ سعيد في رعايته[٢]، وقد وُصِف هذا الامتياز بأنه «أكبر عملية نهب فاقت كل شيء» ووُصِف صاحبه بأنه «والد كافة المحتالين الذين يسلبون الناس أموالهم بعد كسب ثقتهم»[٣]. وأما القروض الأجنبية فهي البدعة التي ابتدعها سعيد للإنفاق على القصور والزخارف رغم عدم احتياجه للاقتراض، فكان أول حاكم لمصر يقترض من الأجانب بالربا الفاحش. وفي عهد سعيد زار الرحالة الإنجليزي المشهور ريتشارد بيرتون مصر، وهو رحالة لا تخفى أغراضه التجسسية ولا حسُّه الاستخباري من كلامه ورحلاته، فكتب في رحلته: «أي دولة تضمن السيطرة على

---

(١) للمزيد، راجع: محمد إلهامي، **من سعيد باشا إلى عبد الفتاح السيسي**، مقال منشور بالمعهد المصري للدراسات السياسية والإستراتيجية، بتاريخ ٢٢ يناير ٢٠١٧م.

(٢) لتفصيل قصة قناة السويس، انظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ**، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٧م)، ١/ ٢٤٩ وما بعدها.

(٣) ريمون فلاور، **مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر**، ترجمة: سيد أحمد علي الناصري، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠م)، ص١٣٦.

Readonly

مصر تكون قد ربحت كنزًا، فمصر تحيطها البحار من الشمال والجنوب، وتحيطها الصحراء التي لا يمكن اجتيازها من الشرق والغرب، ومصر قادرة على تجهيز ١٨٠ ألف مقاتل، وقادرة على دفع ضرائب ثقيلة، ويمكن أن تقدم فائضًا كبيرًا، فلو وقعت مصر في أيدي الغرب سهلت السيطرة على الهند، ومَكَّنت من فتح إفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس»[١].

ولما مات سعيد بعد تسع سنوات خلفه إسماعيل الذي كان مثله في النشأة الأجنبية، فقد تعلم في فرنسا وتحدث الفرنسية كأهلها، وعزم على أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، وأسرف على نفسه في القروض الفاحشة الربا حتى انهارت الميزانية المصرية واضطر أن يقبل في وزارته اثنين من الأجانب: إنجليزي وفرنسي يتولى أحدهما المالية والآخر الأشغال فكانا في وزارتهما أعلى سلطة من الخديوي نفسه، كذلك فقد كانت المناصب العليا في دولة إسماعيل ـ حتى من قبل اختلال ميزانيتها ـ منصرفة للأجانب، كانت الحملات في السودان والصومال وأوغندا يقودها ضباط إنجليز، بل وتولى الرحالة الإنجليزي صمويل بيكر مسؤولية مديرية خط الاستواء (جنوب السودان الآن) ثم تولى خلفه اللواء غوردون مسؤولية المديرية ثم منصب حاكم عام السودان كله، وكان نوابهم وأركان حربهم من الإنجليز والأمريكان والطليان والألمان والنمساويين وتولى قيادة بعض الحملات فرنسيون ودنماركيون أيضًا. وكثيرًا ما كان مدراء المدارس الحربية من الفرنسيين، وقد تولى القنصل الفرنسي منزنجر باشا مديرية مصوع (إريتريا الآن) ثم وسَّع الخديوي صلاحياته حتى صار محافظًا لسواحل البحر الأحمر ومديرًا لشرقي السودان وقاد جيشًا من الجيوش المصرية على الحبشة.

---

(١) ريتشارد ف. بيرتون، **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤م)، ١/ ٩٨، ٩٩.

Readonly

وكانت تستطيع إنجلترا أن تعترض على حملة عسكرية تفتح بعض المناطق وتضمها إلى مصر فترجع الحملة من فورها ويذهب ما أنفق فيها هباءً منثورًا، ثم لما احتلت إنجلترا مصر لم تتكلف سوى إصدار الأمر لهذه الفرق الموجودة بالسودان والحبشة بالتخلي عن مواقعها والانسحاب منها فينسحبون دون اعتراض أو عصيان. فضلًا عن أن مساعدة الجيش المصري للإنجليز في حروبهم حاضرة بغير تردد كما جرى في حرب الإنجليز مع الحبشة (١٨٦٧ ـ ١٨٦٨م)[١].

وطوال أسرة محمد علي تطورت الأوضاع القانونية والاقتصادية لتصب في مصلحة الأجانب، فالمحاكم القنصلية ثم المحاكم المختلطة ـ وهو نظام شنيع لا يُعرف له مثيل في التاريخ ـ انتزعت كثيرًا من أموال مصر وثرواتها وأراضيها ومبانيها لتحكم بها لمصلحة الأجانب، كذلك فقد كان إسراف السلطة على نفسها بالربا والزخارف ينزع كثيرًا من الأموال من يد المصريين ليجعلها في صفقات تعقد مع الأجانب لبناء أو تزيين أو تأثيث تلك القصور والحفلات، مما جعل الشحاذ المتسول في أوروبا إن نزل إلى مصر اغتنى سريعًا وصار من الأثرياء الكبار، بينما ازداد المصريون فقرًا وقهرًا وذلًّا[٢].

ما إن بدت في الأفق نذر ثورة مصرية قادها أحمد عرابي واحتواها المجتمع المدني المصري ممثلًا في قياداته آنذاك كجمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم ومشايخ الأزهر وكبار التجار، إلا وكان الأجانب يسرعون لتنفيس هذه الثورة واحتوائها، فعزلوا إسماعيل عن منصبه، وأعطوا السلطة لتوفيق الذي حاول وأد

---

(١) انظر التفاصيل في: عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧)، ١/ ١١٣ وما بعدها.

(٢) انظر التفاصيل في: عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، مرجع سابق، ٢/ ٢٦٣ وما بعدها.

Readonly

الثورة، فازدادت حدة وارتفاعًا، وكادت تطيح بنظام محمد علي كله بدعم من السلطان عبد الحميد الثاني، فاتفقت الدول الأجنبية في مؤتمر الآستانة على التدخل العسكري في مصر إن لزم الأمر، وهو ما كان معناه إعطاء التفويض للإنجليز بالسيطرة على مصر، وذلك الذي كان، ونزلت القوات الأجنبية لتحفظ النظام الذي يبيض ذهبًا للأجانب.

اتحاد الاحتلال الخارجي بالاستبداد الداخلي

استمر الاحتلال الإنجليزي لمصر سبعين سنة، أعيد فيها قلب المجتمع المصري ليخرج من نظامه الإسلامي إلى نظام غربي محض، جرى ذلك عبر السيطرة على الاقتصاد، والمؤسسات الإدارية، والهيئات الاجتماعية، ونظام التعليم ومناهجه الدراسية، ونخبة الإعلام والصحافة، والهيمنة على الحالة السياسية، ويفتخر اللورد كرومر ـ المندوب السامي للإنجليز في مصر، والذي قضى ربع قرن ـ بإنجازه هذا التحويل في كتابه «مصر الحديثة»، لقد كانت سنوات الاحتلال الإنجليزي تغييرًا شاملًا في مصر ونظامها، وهي السنوات التي انخلعت فيها مصر تمامًا من النظام الإسلامي ودخلت بكليتها في النظام الغربي، وهنا نعني النظام لا الجماهير التي ظلت وفية لدينها وجذورها، وبدأ في تلك السنين السبعين التشوه الكبير لدى النخبة الممزقة ـ كما وصفها كرومر نفسه ـ بين أصولها وجذورها الشرقية وبين ما اعتنقته من الأفكار الغربية، بداية من القومية والإقليمية (في مقابل الانتماء الإسلامي) مرورًا بالأفكار الممثلة للانحيازات الحضارية، وانتهاءً بالملابس التي أزيحت فيها العمامة والحجاب لحساب البذلة الإفرنجية والطربوش والسفور.

وفي هذه السنين السبعين جرت الأهوال العظام، ومنها الحربان العالميتان،

Readonly

والتي أسفرت أولاهما عن سقوط الخلافة، وأسفرت ثانيتهما عن تبدل موازين الإمبراطوريات في الشرق والغرب، فغربت شمس الإنجليز والفرنسيين لتشرق شمس الأمريكان والروس، وكانت حركة الانقلابات العسكرية في الشرق من وسائل المستعمرين الجدد لطرد المستعمرين القدامى، وانتقلت مصر من حكم الإنجليز والملكية إلى حكم الأمريكان والعسكر. ومنذ تلك اللحظة بدأت مرحلة جديدة في اتحاد الاحتلال مع الاستبداد، فالمستبد هنا يعيش في حماية الاحتلال، والاحتلال هو من يحفظ نظام المستبد ويدعمه علانية.

لا يختلف المؤرخون الآن عن العلاقات الأمريكية المبكرة بعبد الناصر، وقد صارت وثائق تلك الفترة منشورة، وهي العلاقة التي شلت يد الإنجليز عن التحرك لمواجهة الانقلاب العسكري الذي قاده عبد الناصر والذي استهدف به استباق الثورة الشعبية التي تتوقعها وثائق المخابرات الأمريكية، ليكون هذا الانقلاب هو عملية الإجهاض للثورة الشعبية المرتقبة[1]، وأسس الأمريكان جهاز المخابرات المصرية وكان رجال المخابرات الأمريكان حاضرون دائمًا في ساحة اتخاذ القرارات وتوجيه السياسات على نحو ما يفعل أهل الأمر والنفوذ والحكم. وكانت الإدارة الأمريكية في ذلك الوقت تنقسم حول ما إن كان ينبغي أن تعول على إسرائيل أم على مصر للتحكم في الشرق الأوسط، ثم اتضح أن كفاءة الإسرائيليين كانت أعلى بكثير من العسكر المصريين، وحرصت إسرائيل على أن تحسم هذا الاختيار بانتصاراتها المتتالية على محيطها العربي وبالذات ضد مصر، فاضطربت العلاقات لفترة قصيرة بين نظام عبد الناصر والأمريكان دخل فيها الروس على خط

---

(١) انظر التفاصيل في: محمد جلال كشك، **ثورة يوليو الأمريكية**، ط٢ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨م)، ص٧٧ وما بعدها.

Readonly

السياسة المصرية، لكن هذه المرحلة لم تلبث أن انتهت بمجيء السادات الذي لم ير إشكالًا أن يكون أكثر صراحة ووضوحًا في توجهه ناحية الأمريكان ورهن السياسة المصرية لهم تمامًا، وهو ما تبدى واضحًا في اتفاقية كامب ديفيد ثم في معاهد السلام بين مصر وإسرائيل.

ثم لم يكن مبارك إلا موظفًا، فهو شخصية بلا زعامة ولا طموح ولا مشروع سياسي، فعمل كموظف برتبة رئيس في ظل منظومة ورثها، ثم لم يلبث الحال أن حُسِم نهائيًا في نهاية العقد الأول من حكمه بانهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد الأمريكان بقيادة العالم، فتعزز وترسخ النفوذ الأمريكي والإسرائيلي في مصر طوال سنواته الثلاثين التي كانت تشهد تدهورًا سريعًا لثقل مصر السياسي والاقتصادي والعلمي، حتى شهد آخره إعلان الحرب على غزة من القاهرة، فكان مبارك كما وصفته أصوات إسرائيلية بأنه «الكنز الإستراتيجي لإسرائيل».

وظيفة الجيش المصري

والآن يحكم مصر عبد الفتاح السيسي الذي هو الثمرة الكاملة لكامب ديفيد، فهو من جيل العسكريين الذين دخلوا إلى الجيش بعد هذه الاتفاقية، حيث السيطرة الأمريكية التامة على الجيش المصري وتسليحه وتدريبه، بل وعلى فكره وروحه وثقافته، ونستطيع أن نسوق على هذا الكثير من «الاعترافات» المصورة بهذه الحقيقة لقادة الجيوش المصري والأمريكي والإسرائيلي أيضًا، وإن متابعة بسيطة للتصريحات الإسرائيلية السياسية أو ما يتردد في الصحافة الإسرائيلية تقطع بأن إسرائيل تعيش مع نظام السيسي واقعًا لم تكن تحلم به، على كل حال سأكتفي هنا بأربعة تصريحات فقط كاشفة لدور ووظيفة الجيش المصري:

Readonly

١. تصريح آن باترسون بعد الانقلاب العسكري بأن هناك جيلًا من العسكر المصريين تشربوا الثقافة الأمريكية ولا ينبغي قطع المعونات عنهم كي لا يتكرر ما حدث عندما قطعت المعونات عن العسكر الباكستان فاضطروا للتعامل مع السوفيت فنشأ فيهم جيل أقرب إلى الروس من الأمريكان(١).

٢. تصريح رئيس الأركان الأمريكي الجنرال ديمبسي «تجربتي الشخصية تعود إلى وقت قيادتي للمنطقة المركزية الأمريكية في ٢٠٠٨ وأستطيع أن أقول لكم إن القوات المسلحة المصرية شريك قوي جدًّا لأمريكا، وأن مصر دولة رئيسية جدًّا فى المنطقة، ونحن نتمتع بمرور تفضيلي فى السويس وتحليق ديناميكي كذلك، وهم ملتزمون تجاه اتفاقيات كامب ديفيد، والجيش الإسرائيلي يعتبر الجيش المصري شريكًا قويًّا، فى تجربتي الشخصية التي استمرت ٥ سنوات: إنهم يستحقون الاستثمار بأموال المعونة الأمريكية»(٢).

٣. تصريح رعنان جيسين ـ مستشار شارون، والمتحدث الأسبق باسم الحكومة الإسرائيلية ـ وهو مندهش، يبدي ندمه على أنه حين كان يفاوض على الانسحاب من سيناء أصرَّ ألا يكون فيها قوات للجيش المصري، بل يبقى البدو والجِمال فقط.. هو الآن يقول: «يا إلهي، لو عادت بي الأيام لقلت: خذوا البدو والجمال واتركوا لنا الجيش المصري»(٣)!!

٤. تصريح اللواء محمد العصار، وهو الآن وزير التصنيع الحربي، الذي يفتخر

---

(١) جلسة استماع، الكونجرس الأمريكي، بتاريخ ١٩ سبتمبر ٢٠١٣م.

(٢) جلسة إعادة تنصيبه بمجلس الشيوخ الأمريكي، بتاريخ ١٨ يوليو ٢٠١٣.

(٣) لم أهتد إلى تاريخه بالضبط، وهذا هو رابط الفيديو

https://youtu.be/f8WC-B4PMJ0

Readonly

فيه بأن الجيش المصري جزء من الأمن القومي الأمريكي، يقول: «تعلمون أن علاقاتنا إستراتيجية وقوية جدًّا، وقد بدأت بتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام مع إسرائيل ١٩٧٩، وبالنسبة للعلاقات العسكرية بين الجيشين لدينا علاقة رائعة، ونحن نعتبرها عمود وحجر زاوية بين أمريكا ومصر.. ونحن أيضًا فخورون بأن نكون عنصرًا هامًّا للأمن القومي الأمريكي، ونحن فخورون بأهمية مساهماتنا للبعد الإستراتيجي لمصالح أمريكا»[١].

مستقبل مصر

لقد أثمرت الثورة الصناعية وما ألقت به من ثورات المواصلات والاتصالات على هذا التقارب الذي وصل إلى حد الاتحاد بين الاحتلال الخارجي والاستبداد الداخلي، وهو الأمر الذي تعاني منه الشعوب الإسلامية منذ بداية التاريخ الحديث الذي بدأ في مصر مع محمد علي.

منذ ذلك التاريخ فشلت الثورات المصرية الثلاثة لأسباب مختلفة، فثورة عرابي التي كادت تقضي على الاستبداد سبق إليها الاحتلال، وثورة ١٩١٩ احتواها الاحتلال الإنجليزي عبر تنصيب الزعامات الزائفة التي أدخلت بركان الثورة في ثلاجة القانون والمفاوضات حتى انتهت، ثم استبق الاحتلال ثورة شعبية في ١٩٥٢ بانقلاب عسكري مدعوم أمريكيًّا فذهبت أحلام الثورة وبدأ عصر أشد استبدادًا من كل العصور السابقة، وفي ثورة ٢٠١١ انقلب الاحتلال الخارجي عبر أذرعه الإقليمية الخليجية والمحلية العسكرية على الثورة، وبدأ في مصر عصر جديد من التوحش.

---

(١) حوار أمام معهد السلام الأمريكي بتاريخ ٢٥ يوليو ٢٠١١.

Readonly

لـم تنتـه الثورة المصرية بعـد، لكنها تعاني أزمـات خانقة، أكبرها هـو افتقادها للقيـادة، والاحتلال الفكري والنفسـي لقيـادات جماعة الإخوان المسـلمين الذين عمـل النافـذون فيهـم على إجهـاض حركـة المقاومة الطبيعيـة الفطريـة للانقلاب العسـكري فوفـروا لـه وللاحتـلال مـن الخـارج ما لـم يكن ممكنًـا لهـم أن يفعلوه وحدهـم بحـال. فالثـورة الآن تشـبه خـزان البنزين الـذي ينتظر من يشـعله ويفجره بعـد الأوضـاع القاسـية التي وُضِـع فيها المصريون إن على المسـتوى السياسـي أو الاقتصـادي أو الديني.

وتزخـر التقاريـر البحثية التـي أصدرتهـا مراكز الدراسـات الغربية في الشـهور الأخيـرة بالحديـث عـن عـدم الاسـتقرار السياسـي والاقتصـادي فـي مصـر نتيجـة السياسـات الاقتصاديـة القاسـية التـي يعتمدهـا النظـام المصـري والتحـولات التي تشـهدها المنطقـة ويترتـب عليهـا خسـارة النظـام لحلفـاء إقليميـين كالسـعودية، وبالرغـم مـن أن هـذا الخـلاف «لـم يصـل إلـى حـد الطـلاق»[1] ولا هو قـد يحمل السـعودية علـى دعـم الإسـلاميين فـي مصـر، إلا أنـه يؤثـر فـي علاقـات السيسـي الخليجيـة ويزيـد من أزمتـه الاقتصاديـة، بل ويثيـر قلقًا إسـرائيليًّا إذ تتمنى إسـرائيل بقاء معسـكر الاسـتقرار وتوحيد الجهـود ضد إيـران[2]، وكل هذا يزيـد في الأزمات

(1) Cinzia Bianco and Giorgio Cafiero, **Egypt and Saudi Arabia: Marriage on the Rocks?**, Lobelog Foreign Policy, December 2, 2016.

(2) Col. (res.) Dr. Eran Lerman, **Saudi - Egyptian Tensions: Rifts Within the "Camp of Stability" Serve Iran's Interests**, The Begin – Sadat Center for Strategic Studies, (BESA), December 4, 2016.

Readonly

ممـا يجعـل «نظـام السيسـي في وضـع خطيـر»[١] إذ «ليس مـن المرجح أن يتحسـن الوضع في المسـتقبل القريب.. وسـيكون مـن الصعب على وجـه الخصوص تنفيذ المزيـد مـن الإصـلاح الاقتصـادي.. والبيئة السياسـية سـتصبح أكثـر تقييـدًا. وكما أشـار أحـد المسـؤولين المصريين، هنـاك احتمـال دائم لقيـام اضطرابـات»[٢].

وثمة مؤشرات عديدة على أن النظام يتخوف من انفجار قادم، من أهمها:

١. إنشاء عاصمة جديدة تشير خرائطها الأولى وصورها المسربة إلى أنها مدينة أمنية عسكرية محصنة في الصحراء الشرقية، على نمط المنطقة الخضراء في البلاد المحتلة أو المستبدة، حيث تتركز السلطة وخدماتها في منطقة جغرافية صغيرة مؤمنة، ويكون لها السيطرة التامة على منابع الثروة، ثم تنهار كافة الخدمات وصور وجود الدولة في بقية المناطق.

٢. التقارب العسكري الروسي، فقد تكررت ـ خلال العام ٢٠١٦ ـ المناورات العسكرية المصرية الروسية، والتي تدور بين وحدات القوات الخاصة والمظليين وتركز على حرب المدن ومكافحة «الإرهاب»، وأشارت بعض تقارير بحثية إلى احتمالية مشاركة قوات مصرية في سوريا إلى جانب الأسد[٣]، كذلك فقد خرجت

---

(1) Wesam Hassanein, **Warning Update: Economic and Political Instability in Egypt**, ISW, November 10, 2016.

(2) Eric Trager, **Egypt's Economy: Not Out of the Woods Yet**, The Washington Institute, November 18, 2016.

(3) Abdulrahman Al - Masri, **Analysis: The Consequences of Egypt's Potential Military Engagement in Syria**, Atlantic Council, DECEMBER 5, 2016.

Readonly

أخبار من روسيا تفيد بأنها ستؤجر قاعدة عسكرية من مصر في منطقة سيدي براني غرب الإسكندرية[١]، وكان النفي المصري غير صريح في توضيح أبعاد الموضوع مما يحمل على الظن بأن الخبر صحيح. وبالنظر إلى موقع القاعدة العسكرية الروسية فسيكون لها آثار بعيدة أهمها زيادة النفوذ الروسي في الشرق وقضاياه: لا سيما مصر وليبيا، وقد يكون من بينه دعم وحماية وتسريع مشروع الدولة القبطية التي من المزمع إنشاؤها في هذه المنطقة من الصحراء الغربية جنوب البحر المتوسط لا سيما وأن العلاقات بين النظام المصري والكنيسة يزداد انهيارًا لصالح الكنيسة التي تواصل ابتلاع الأراضي والسيطرة عليها وتتمتع بنفوذ تام واستقلال مالي كامل ولا يخفي كثير من أقطابها نواياهم في الاستقلال بدولة قبطية.

إلا أن مؤشرات أخرى تدعم أن الأزمة المصرية ذاهبة إلى الانتهاء لصالح النظام العسكري، من أهمها:

١. صعود المتطرفين إلى سدة الحكم في الغرب، إذ يرى هؤلاء أن جماعة الإخوان المسلمين تمثل خطرًا ويصنفها بعضهم كجماعة إرهابية، وهو ما يؤدي إلى مزيد من دعم النظام العسكري في سحق الإسلاميين، وفي سحق كافة المكونات الثورية تحت ذات العنوان. وإن ذهبت بعض التحليلات[٢] إلى أن هذا الصعود يقوض تمامًا مسيرة «الجناح السياسي» داخل الإخوان لصالح الجناح الثوري.

---

(١) وكالة سبوتنك الروسية (النسخة العربية)، **قاعدة مصرية قد تتحول لقاعدة جوية روسية**، بتاريخ ١٠ أكتوبر ٢٠١٦م.

(2) **Targeting Egypt's Christians: Who? And Why?**, Middle East Briefing, December 15, 2016.

Readonly

٢. استمرار التشرذم والتفتت في جبهة القوى الثورية، وبالذات الإسلامية، إذ لا يزال الانشقاق القائم داخل جماعة الإخوان يُلقي بتأثيراته على قدرتها مواصلة الحراك الثوري في مصر، ومن ثم الحراك السياسي خارج مصر، وفي حين يبدو الانقسام واضحًا وقويًا فلا تزال جبهة القيادة التاريخية التقليدية المتنافرة مع أفكار الثورة وأدواتها تملك فيما يبدو القدرة الأكبر على التحكم بأعضاء الجماعة أو بالأحرى القدرة على تعطيل عمل أعضاء الجماعة في المسار الثوري.

وبعبارة شامتة خُتِم تقرير صدر حديثًا بالقول: «لم تهزم الحكومة المصرية وحدها جماعة الإخوان، بل هزمت الجماعة نفسها، وهبت رياح التغيير العالمية لتعصف بأحلامهم في العودة إلى الماضي المجيد»[1].

وهكذا، بقدر ما تبدو الأزمة المصرية ذاهبة إلى الاستقرار والتمكن لصالح السيسي بقدر ما تبدو ذاهبة نحو التفجر والاشتعال، وذلك هو حال الشرق الأوسط! وفي كلا الحالتين، فأمام الثورة تحديات عظيمة وتكاليف هائلة، وهو التحدي الذي لم تنجح الثورات السابقة في تجاوزه: تحدي اتحاد الاحتلال والاستبداد ضد الشعوب.

* * *

(1) **Will Sisi Really Reach a Deal with Egypt's Muslim Brotherhood?**, Middle East Briefing, December 1, 2016.

Readonly



إسهام الشيخ يوسف القرضاوي في باب التاريخ

*** أعد هذا البحث ليُنشر في الكتاب**

التكريمي لفضيلة الشيخ القرضاوي بمناسبة

بلوغه التسعين، أطال الله في الخير بقاءه،

وقد نُشِر بالمجلد الثالث من الكتاب

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، أما بعد:

فإن الشيخ العلامة يوسف القرضاوي، أمدَّ الله في عمره ونفع به، من أعلام العصر الكبار، وله فضل كبير على جيل الصحوة الإسلامية، وإني أتذكر الآن كيف كانت كتبه نقلة كبيرة لي، نقلتني من الاهتمام بالصغائر والقشور إلى القضايا الكبرى: قضايا الدولة الإسلامية والاقتصاد الإسلامي ومواجهة النظام العالمي وتأسيس الحياة الإسلامية، من بعد ما كانت طاقتي تذهب في أمور اللحية والنقاب والإسبال ونحوه، لقد كانت كتب الشيخ خير موجِّه ومُرَشِّد لطاقة الصحوة وخير مُوَضِّح لقضاياها الملحة والعاجلة. وبالرغم من أن سن المراهقة هو سن الأحلام العظيمة والخيالات الهائلة فلقد كانت كل قراءة لي في كتب الشيخ تحطم أحلامي أن أكون ذات يوم مثله، مثله في الموسوعية والغزارة العلمية، ومثله كذلك في تلك القدرة الفائقة على ضبط النفس واللغة الهادئة والنجاة من فخاخ الاستفزازات التي يثيرها المُفَرِّطون والمُفْرِطون على حد سواء.

Readonly

وإنها للحظة عزيزة غالية أن أكتب ورقة في كتاب عن شيخنا القرضاوي، فالله الموفق والمستعان!

ليس الشيخ مؤرخًا فلا زعم هو ذلك ولا زعمه له غيره، إلَّا أنَّ رجلًا في مثل موسوعيته وأثره الكبير لا بد وأن يكون قد ضرب بسهم في باب التاريخ، كيف لا والتاريخ أبو العلوم كما يحب أهله أن يُنْزِلوه؟! فكانت هذه الورقة إلقاء ضوء على رؤية الشيخ لمسألة التاريخ وموقعها من رؤيته وفكره، ومن هذا الباب فإنها ليست تقييمًا علميًّا لمؤرخ أو باحث بل نظرة في استعمال الداعية الفقيه لأداة التاريخ.

إنَّ القليل من كتب الشيخ من يمكن تصنيفه في باب التاريخ، فمن مؤلفاته الغزيرة لا نجد سوى:

ـ ثلاثة في باب التاريخ، هي:

الإخوان المسلمون: سبعون عامًا في الدعوة والتربية والجهاد، وتاريخنا المفترى عليه، بالإضافة إلى مذكراته الثرية التي بلغت أربع مجلدات وهي أوسع ما يؤخذ منه قول القرضاوي في باب التاريخ.

ـ وله كذلك بضعة كتب تندرج في باب التراجم أو تلامسه بوجه من الوجوه، ككتبه عن: عمر بن عبد العزيز، والإمام الغزالي، والإمام الشاطبي، والإمام حسن البنا، والإمام البشير الإبراهيمي، والسيد أبي الأعلى المودودي، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور محمد عمارة.

ـ ثم عمل واحد في باب الفن وهو مسرحية «عالم وطاغية».

ووراء كل ذلك نجد مادة تاريخية ثرية متناثرة في كتبه ضمن القضايا التي

Readonly

يعالجها، أو في مقدماته للكتب التي ألفها غيره، أو في مرثياته التي كتبها في أساتذته وأصحابه عند وفاتهم.

والحق أنه ليس بالإمكان تقديم مادة وافية عن إسهام الشيخ في المساحة المتاحة، ولكنها مجرد إشارة، والإشارة خيرٌ عند العجز من الإحاطة كما يقول العقاد: «أفضل من عجز المحيط طاقة المشير»[١].

مدرسة القرضاوي والتاريخ

أفضل تعريف للتاريخ عندي هو «التاريخ هو ما يحتاج الناس إلى تذكره»[٢]، وتحديد هذا الاحتياج لا يكون إلا بمعاناة الواقع وممارسة قضاياه ومعرفة أحواله، لذا لا يستطيع المنفصل عن الواقع أو من اختار العزلة أو من انكفأ على أمر جزئي أن يستبين هذا الاحتياج، لذلك لم تكن مدرسة الوسطية الإسلامية وسطًا بين طرفين، فذلك عمل المناطقة أو النخبويين، وإنما هي اتجاه ثالث، وهو اتجاه مستقل أصيل، اتجاه يأخذ من واقعه ما يحركه للبحث في تراثه، ويأخذ من تراثه ما يفيد ويعالج أمر واقعه، ولأنها حركة بصيرة ذات هم ورسالة، فهي تعرف ما القضايا التي ينبغي إثارتها وما القضايا التي لا تحتاج هذا فينشأ لديها فقه أولويات وفقه موازنات، ثم إنها بعد هذا موقف أخلاقي دعوي يميل إلى الجمع لا التفريق وإلى التقريب والتسديد لا الإبعاد والتشتيت، ويستعمل في هذا أهدأ الألفاظ وأقومها، ويعرف

---

(١) العقاد، **عبقرية محمد**، ضمن «موسوعة العقاد الإسلامية»، ط١ (بيروت: دار الكتاب العربي، مايو ١٩٧١م) ٢/ ٢٥.

(٢) ألبرت حوراني، **الفكر العربي في عصر النهضة**، ترجمة: كريم عزقول، (بيروت: دار النهار، بدون تاريخ) ص١٩.

Readonly

للناس أقدارهم وإن خالفهم، ويجنح إلى التيسير فيما يسع الناس فيه التيسير وإلى الشدة فيما لا سبيل فيه إلا الشدة، فهي مدرسة فكرية بأخلاق دعوية!

لذلك يندر أن يشتبك القرضاوي مع المدارس الإسلامية الأخرى اشتباكًا حادًا أو طويلًا، بينما تنصب معاركه في ساحات المواجهات الإسلامية الكبرى، وهو أميل إلى الجمع والتقريب ما كان هذا ممكنًا، فإن لم يمكن إلا خوض معركة خاضها، من ذلك: عمله في النصح والدعوة للحكام سنين طويلة فلما جاءت لحظة الثورات وهي لحظة فراق كان مع الشعوب ضد الحكام، ومن ذلك: اجتهاده في التقريب بين السنة والشيعة حتى كُشِف له مكرهم وخبثهم فلم يتردد أن يغير موقفه ويعلن تراجعه.

وذلك منهج الشيخ كذلك في تناوله للتاريخ الذي هو موضوع هذه الورقة، والذي يمكن إجماله في نقاط على هذا النحو:

١ ـ لا يتكلم إلا في قضايا يحتاجها الواقع.

٢ ـ يعالج مسألة الشخصيات التاريخية بأقصى ما يمكن من الإنصاف والموضوعية.

٣ ـ يستعمل أرفق ما يمكن من الألفاظ وأهدأ ما يمكن من العبارات.

٤ ـ فإن وقع الخلاف بينه وبين شيوخه أو أصحابه أو تلاميذه في مسألة أثبت ما عنده من الرأي ودافع عنه ودلَّل عليه، ثم لم يمض قبل أن يعتذر لهم بما يحفظ مكانتهم ويقيل عثرتهم.

٥ ـ وهو بعد هذا لا يدخل في سجالات مطولة تضخم من قدر القضايا المختلف فيها، ولا سجالات تخرج عن طور العلم إلى طور الجدل.

Readonly

ولهذا كثر محبو القرضاوي، حتى لهو أوسع العلماء شعبية، مع كثرة مخالفيه، وعُرِف له قدره كما عرف لغيره أقدارهم، وامتاز بعلاقات مع المخالفين لا أعلم أن أحدًا ممن لهم مثل آرائه حازها مع من خالفه فيها.

عصر القرضاوي وقضاياه

لا ينفك أحد عن عصره، وليس يمكن فهم شخصية على وجهها إلا بإدراك زمنها وموقعها منه وتفاعلها مع قضاياه، وإنتاج العالِم لا يمكن تقييمه بحق إلا بمعرفة التحديات التي مثَّل هذا الإنتاجُ الاستجابةَ لها.

كان نصف القرن الممتد من مطلع ستينات القرن العشرين حتى نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين هو عصر القرضاوي الذي خرجت فيه كتبه وشهد نشاطه العلمي الدعوي، فما قبل ذلك ليس شيئًا كثيرًا بالمقارنة به، وما بعد ذلك كذلك لعوامل أخرى منها تقدم الشيخ في السنّ وتغير الظروف والأحوال بما يجعل عصرًا جديدًا يبدأ بالثورات العربية!

ويمكن أن نجمل هذا العصر وقضاياه في ثلاثة معالم كبرى: ذبول الشيوعية، ازدهار الصحوة الإسلامية، هيمنة النموذج الغربي الرأسمالي المنتصر.

١. فأما ذبول الشيوعية وانهيار مشروع القومية العربية فطرح التحدي الفكري حول الحل الآخر والنموذج البديل، وكان على العلماء أن يزيدوا في إثبات فشل الشيوعية ومواجهة القومية المنافية للإسلام وطرح محاسن النموذج الإسلامي في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وكان استمرار هزائم المشروع يزيد كلامهم قوة ويلهمهم مزيدًا من الحجج والأدلة. وفي هذه الفترة كتب القرضاوي سلسلته «الحل الإسلامي».

Readonly

٢. وأما ازدهار الصحوة الإسلامية فقد طرح أمام العلماء التحدي الماثل بترشيدها ومعالجة ما فيها من أوجه الخلل والاختلاف والتفرق والغلو، والعلاقة بين الجماعات ببعضها، ونموذج المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية المنشودة، وتفاصيل ما يطرحه النموذج الإسلامي في قضايا السياسة والاقتصاد والاجتماع وكيف ينبغي أن تكون المؤسسات الإسلامية في العالم المعاصر، وأسباب فشل ونجاح التجارب الإسلامية في العديد من البلدان، وما ينبغي أن يكون في الفقه من أصالة وتجديد وما ينبغي أن تراعيه الفتوى من متغيرات. وهذه القضايا هي التي شغلت جلَّ إنتاج القرضاوي.

٣. وأما هيمنة النموذج الغربي الرأسمالي الليبرالي المنتصر فقد طرح تحديات العلمانية والدولة الحديثة وما تثيره من إشكاليات وقضايا: الديمقراطية والحرية والمواطنة وحقوق الأقليات، وكل هذه القضايا لها اشتباكات عميقة ومؤثرة مع النموذج الإسلامي، ثم إنَّ سيادة وهيمنة الاستبداد على العالم الإسلامي في مقابل الحرية المكفولة في الغرب أعطى للنموذج الغربي بريقًا وجاذبية أشد، وصار كثير من الإنتاج الإسلامي يريد أن ينفي التعارض بين الإسلام ونموذج الدولة الحديثة، ويهون من مناطق الخلاف بين النموذجين، وصارت قضية كفاح الاستبداد كأنها متطابقة مع قضية تحكيم الشريعة، ويكاد يغيب بالجملة عن الإنتاج الإسلامي التنبه لمشكلات الديمقراطية الفلسفية والعملية وتناقضاتها مع النموذج الإسلامي، وذلك لسطوة الثقافة والنموذج الغربي المهيمن الجذاب. وللقرضاوي إنتاج غزير في هذه القضايا كما تدل عليها عناوين كتبه.

وأما الثابت طوال هذا العصر فهو: هيمنة الاستبداد واستقرار أنظمة حكمه، وترويجها العلمانية وإفساحها مجالات الهجوم على الإسلام، وتوالي الهزائم

Readonly

والاحتلالات على العالم الإسلامي، وفشل التجارب الإسلامية الجهادية أو الإصلاحية معًا في تغيير الواقع السياسي.

التاريخ في مشروع القرضاوي

يختصر القرضاوي مشروعه في أنه «الوسطية الإسلامية» التي تجمع ولا تفرق وتبشر ولا تنفر وتيسر ولا تعسر، وهو المشروع الذي يلتقي على الأصول والكليات التي لا ينبغي الخلاف عليها مع التسامح فيما سوى ذلك[١]. وهذه العبارات ونحوها كثيرة التردد في كتبه وخطبه.

في ظل هذا المنهج، وفي ظل الظروف المحيطة بهذا العصر، استخدم القرضاوي أداة التاريخ في فقهه ودعوته على أربعة وجوه:

١. التاريخ بشيرًا:

ففي عصر توالي الهزائم ونمو الصحوة لا يسع الداعية إلا بث الأمل وضخ البشرى، والتأكيد على قدرة الأمة تكرار تجربة المجد[٢]، «لقد حار المؤرخون من الغربيين والمستغربين، في فهم السر العجيب الذي حول هذا الأمة من رعاة غنم إلى رعاة أمم، ومن قبائل بداوة إلى أمة حضارة، وهيأ لها سبيل النصر على كسرى وقيصر، وفتح لها باب السيادة على معظم الدنيا القديمة في عشرات من السنين

---

(١) انظر مثلاً: القرضاوي: **في فقه الأولويات**، ط٢ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٦م)، ص٢٢٦؛ القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م)، ص١٦٧ وما بعدها؛ القرضاوي، **الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي**، ط٧ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨م)، ص٣٥ وما بعدها، ١٦٣.

(٢) القرضاوي، **من أجل صحوة راشدة**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م)، ص١٣ وما بعدها، وانظر كتابه: **المبشرات بانتصار الإسلام**.

Readonly

لا عشرات من القرون. ولكن العارفين لا يدهشون ولا يحارون، فالسر معروف، والسبب معلوم. إن مرده هو «إكسير» الإيمان الذي صبه محمد عليه السلام في نفوس أصحابه، فنقلهم من حال إلى حال، من وثنية إلى توحيد، ومن جاهلية إلى إسلام»[١]. ومن ثمَّ يكثر في كلامه عن المبشرات بالنصر وربط انتصارات الماضي بالحاضر[٢]، كما يكثر حديثه عن التجديد والمجددين، «والمتتبع للمد والجزر في تاريخ الإسلام يجد المد والانتصار والقوة منوطة بالرجوع إلى هدى الإسلام **بتوجيه إمام أو تأثير زعيم أو قائد**، يجدد للأمة أمر دينها، كما يظهر ذلك واضحًا أيام عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين الأيوبي، وأمثالهما»[٣]، وهو يتوسع في معنى التجديد والمجدد فلا يقصره على شخص فحسب بل يجيز أن يكون المجدد أشخاصًا في مجالات عدة أو حركة إسلامية، وهو يطلب في ذلك كله أن يستثير الهمم للعمل لا أن يعلقها بانتظار الأمل[٤]. وفي نونيته يقول:

تـــالله مـــا الطغيـــان يهـــزم دعـــوة أبدًا، وفـــي التاريـــخ بـــرٌّ يمينـــي[٥]

٢. التاريخ مرشدًا وموجهًا:

فالتاريخ «ذاكرة البشرية، وسجل أحداثها، وديوان عبرها، والشاهد العدل لها

---

(١) القرضاوي، **الإيمان والحياة** (نسخة إلكترونية).

(٢) القرضاوي، **الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي**، ص١٣٤ وما بعدها.

(٣) القرضاوي، **من أجل صحوة راشدة**، ص١٢٠؛ القرضاوي، **أولويات الحركة الإسلامية** (نسخة إلكترونية).

(٤) القرضاوي، **من أجل صحوة راشدة**، ص١٩ وما بعدها.

(٥) ونحن نذكر هذا البيت للاستشهاد على منهج الشيخ وإن خالفناه في المعنى، فكم قهر الطغاة من دعوات وأخمدوها!

Readonly

أو عليها»[١]، وهو يرشد إلى ضرورة العودة إلى الإسلام، «فالذي يدرس تاريخ الإسلام ودوراته وتقلباته، وما فيه من انتصارات وهزائم، وانتعاشات ونكسات، وقوة وضعف، سيجد بوضوح أن الانتصار والازدهار والقوة والانتعاش تكون حيث يقترب المسلمون من الإسلام وقيمه وأحكامه»[٢]، وهو «أصدق شاهد على ما يدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم، فهو مرآة مصقولة تتجلى فيها عاقبة الإيمان والتقوى، ونهاية الكفر والفجور»[٣].

والتاريخ مرشد وموجه، أيضًا، بما وقع فيه من أخطاء، إذ «لا غرابة في وجود أخطاء في تاريخنا الثقافي والسياسي، وإنما الغرابة في التستر على هذه الأخطاء، أو الاستحماق في معالجتها، والتعفية على آثارها»[٤]، وهو يحدد الأخطاء الكبرى في التاريخ الإسلامي بأمرين: الانحراف السياسي، والجمود الفقهي، مع تأكيده أن هذه الأخطاء يُبالغ في عرضها وتُضخم فوق حجمها كثيرًا[٥].

٣. التاريخ دليلًا:

وخاصة سيرة النبي وعهد الخلافة الراشدة إذ هي أدلة في الفقه كونها من «السنة» وهي مصدر التشريع الثاني، وهو أمر لا غنى عنه للفقيه، أما ما جرى عليه

---

(١) القرضاوي، **ثقافة الداعية**، ط١٠ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٦م)، ص٨٨؛ القرضاوي، **الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته**، ط١ (دمشق: دار القلم، ٢٠٠١م)، ص٨٣.

(٢) القرضاوي، **من أولويات الحركة الإسلامية**، (نسخة إلكترونية).

(٣) القرضاوي، **ثقافة الداعية**، ص٨٨.

(٤) القرضاوي، **الإسلام والعلمانية**، ط٧ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٧م)، ص١٦٠، والكلمة في المتن مقتبسة من الشيخ الغزالي.

(٥) القرضاوي، **شريعة الإسلام صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان**، ط٢ (القاهرة: دار الصحوة، ١٩٩٣م)، ص٤٣ وما بعدها.

Readonly

العمل بعد ذلك في العهود الإسلامية فليس بحجة إلا في بعض مسائل ببعض شروط ويغلب عليها أن تكون على سبيل الاستئناس، ومن هذه الأمور التي احتج القرضاوي بالتاريخ فيها تفسيق تارك الصلاة لا تكفيره ـ متابعة لابن قدامة المقدسي[١] ـ الذي استدل بأن الأمة جرت على معاملة تارك الصلاة الميت معاملة موتى المسلمين[٢]، وفي حقوق الأقليات وغير المسلمين في المجتمع الإسلامي ومسائل إحداث الكنائس وتولي الوظائف العليا وشروط العهدة العمرية[٣]، وفي مسائل النساء كالمحاضرات المنفصلة أو محاضرة النساء من وراء حجاب[٤]. ولجأ الشيخ لأقوال المؤرخين في مسائل: كتحديد وزن العملة المؤثر في نصاب الزكاة ومقدارها[٥]، وفي استعمال بعض الصحابة والتابعين للعود[٦].

٤. التاريخ عُدَّة:

أي للداعية، وحدد القرضاوي أربعة أغراض تلزم الداعية أن تكون له ثقافة تاريخية:

(١) تتسع بها آفاقه ليبصر «كيف تعمل سنن الله في المجتمعات بلا محاباة ولا جور».

---

(١) ابن قدامة المقدسي، **المغني**، (القاهرة: مكتبة القاهرة، ١٩٦٨م)، ٢/ ٣٣٢.

(٢) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨م)، ٣/ ١٩١.

(٣) القرضاوي، **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، ط٣ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٣م)، ص٢١، ٢٤ وما بعدها، ٦٦ وما بعدها.

(٤) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١م)، ٤/ ٦١٩، ٦٢٠.

(٥) القرضاوي، **فقه الزكاة**، ط٢ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٧٣م)، ١/ ٢٤٩ وما بعدها.

(٦) القرضاوي، **فتاوى معاصرة**، ط١ (المنصورة: دار الوفاء، ١٩٩٣م)، ٢/ ٤٩٠.

Readonly

(٢) يتمكن بها من «أن يستشهد للمعاني التي يدعو إليها».

(٣) يفهم بها واقعه الماثل إن تشابهت ظروفه، ويفهم بها الجذور التاريخية بعيدة الأغوار للقضايا الحاضرة.

(٤) يفهم بها ما هو لصيق بقضاياه الفكرية كتاريخ الأديان والفرق والملل[١].

ووضع الشيخ **أربعة قواعد** يرى أنه ينبغي الانطلاق منها عند البحث في التاريخ الإسلامي، وهي:

(١) الإيمان بخيرية القرون الثلاثة الأولى.

(٢) التركيز على تاريخ الأمة وجماهيريها لا على تاريخ الحكام فحسب.

(٣) التأكيد على أن الإسلام ظلَّ المرجع الأعلى والموجه الأول في كل تاريخ الأمة لا عصور الراشدين فحسب.

(٤) تقييم الأحداث في إطارها الزمني وفق ضوابطه ومعاييره لا وفق زماننا[٢].

وقدم الشيخ **إطارًا نظريًّا** للداعية عند قراءته واستعماله للتاريخ في خمسة بنود:

(١) التركيز على الكليات ورؤوس العبر ومواضع العظمة وترك الجزئيات والتفاصيل.

(٢) التيقظ لما يخدم الداعية من شواهد ربما توجد في غير كتب التاريخ المتخصصة.

(٣) التركيز على التاريخ الحضاري لا السياسي والاهتمام بسير العلماء والأبطال قبل الملوك والحكام.

---

(١) القرضاوي، **ثقافة الداعية**، ص٨٨ وما بعدها.

(٢) القرضاوي، **المقدمات**، ط١ (القاهرة: دار المقاصد، ٢٠١٥م)، ص٣٧٣ وما بعدها.

Readonly

(٤) ربط حوادث التاريخ بأسبابها وعللها الأخلاقية.

(٥) أن يكون محور عرض التاريخ هو الإسلام نفسه ويكون ذلك بثلاثة أمور: إبراز مساوئ الجاهليات القديمة والحديثة، الاهتمام بحركات التجديد والإصلاح، وإظهار دور الإسلام في حركات المقاومة والكفاح ضد الاستعمار[١].

وحذر الشيخ من أمرين:

أولها: الأخذ عن مصادر التاريخ الإسلامي دون تحقيق إذ ليس كل ما فيها صحيح، وضرب المثال بالطبري ومنهجه في التأريخ وأقوال العلماء في رواياته ورجاله والآثار السيئة لمن أخذ عنه دون تبين.

وثانيها: التشويه في التفسير وهو الذي تولى كبره المستشرقون والعلمانيون بمناهجهم المختلفة[٢].

منهج القرضاوي في التعرض للتاريخ

يبرز في منهج القرضاوي إن كتب في التاريخ أربع سمات رئيسية:

١. البحث عن الكليات والخصائص العامة قبل الجزئيات والتفاصيل

وهو فرع من عقله الأصولي وتكوينه الفقهي، فحتى كتابه الوحيد الذي خصصه للتاريخ «تاريخنا المفترى عليه»، لم يناقش فيه تفاصيل أحداث، وإنما خصصه لغرضين كبيرين: الدفاع عن التاريخ الإسلامي، وبيان الخصائص العامة لهذا التاريخ.

---

(١) القرضاوي، **ثقافة الداعية**، ص٩٠ وما بعدها؛ وانظر: القرضاوي، **الندوي كما عرفته**، ص٨٣، ٨٤؛ القرضاوي، **ابن القرية والكتاب** ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦م)، ١/ ٢٢٩ وما بعدها، ١/ ٥٠٠.

(٢) القرضاوي، **ثقافة الداعية**، ص٩٣ وما بعدها.

Readonly

وفي إطار هذا البيان للخصائص العامة عرض لتاريخ الدولة الأموية والدولة العباسية انطلاقًا من الخصيصة الكبرى لكل منهما، فالأولى «دولة الفتوحات والتأسيس الحضاري»، والثانية «دولة العلم وازدهار الحضارة»، ثم جمع خصائص التاريخ الإسلامي في ستة هي:

(١) عمق الجانب الرباني.

(٢) وضوح المعاني الإنسانية.

(٣) رسوخ القيم الأخلاقية.

(٤) شيوع التسامح الديني.

(٥) قدرة الإسلام على الانتشار السلمي.

(٦) القدرة على تجاوز المحن الكبرى.

٢. الإنصاف والتقريب في تقويم الرجال

وله في هذا الباب توجيهات عجيبة وتوفيقات مدهشة، فطالما أن الرجل عمل للإسلام فهو يحاول أن يرى الحُسْن في أسلوبه ما استطاع وإن خالفه نهجه، فمن ذلك: أنه ومع شدة حبه وإجلاله للإمام الغزالي واعتذاره له عن بعض ما يمكن الاعتذار فيه لم يجد له عذرًا في أمور أخرى أهمها السكوت عن الهجوم الصليبي عن البلاد الإسلامية في وقته دون أن يكون له صوت مسموع فأقرَّ بوضوح بخطئه في هذه المسائل[1].

---

(١) القرضاوي، **الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه**، ط٤ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٤م)، ص١١٧ وما بعدها.

Readonly

ومن ذلك: اعتذاره عن مصطفى السباعي اختياره عنوان «اشتراكية الإسلام» بأنه فعل ذلك «حين فُتِن الناس بالاشتراكية، وزعم من زعم أنها هي المذهب الذي حد من طغيان الأغنياء، ورفع من مستوى الفقراء، ووقف في صف الكادحين أمام جشع الرأسماليين المستغلين، فأراد أن يقول لهم: إن الإسلام سبق بهذه المبادئ»[1]، وهذا من جميل وضع الأحداث التاريخية في سياقها وعدم الهجوم عليها بمعزل عن ظروفها.

ومن ذلك عباراته التوفيقية في القضايا السجالية كقوله في الجمع والتفريق بين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا: «الناظر في شخصيات المدرسة التجديدية الإحيائية الإسلامية التي بدأت بجمال الدين الأفغاني، يجد أن أولها وهو السيد جمال الدين كان أكثرها انطلاقًا، وأقلها انضباطًا بقيود الشرع وضوابط الكتاب والسنة، فقد كان أقلهم حظًا من التبحر في علوم الشريعة ومصادرها، ونجد تلميذه وصديقه الأستاذ الإمام محمد عبده أقرب إلى الالتزام والانضباط منه؛ لأنه أكثر علمًا بالشرع، وأكثر تبحرًا في معارفه بحكم تكوينه الأزهري الأصيل، ونجد تلميذ الأستاذ الإمام رشيد رضا أكثر التزامًا، وانضباطًا من شيخه، وشيخ شيخه من باب أولى، فقد أتيح له أن يطلع على آثار المدرسة السلفية التجديدية الكبرى المتمثلة في شيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه، ومن خلالها اطلع على التراث السلفي الضخم، واستطاع أن ينهل منه، وينتفع به في دعوته للإصلاح والتجديد. فالسيد جمال الدين أقرب إلى عقلية «الفلاسفة»، أعني فلاسفة المدرسة المشائية الإسلامية من أمثال الكندي والفارابي وابن سينا، وغيرهم. والإمام محمد عبده أقرب إلى عقلية المتكلمين من أمثال الباقلاني وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم. والسيد رشيد

---

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٢/ ٤٦٥، ٤٦٦.

Readonly

أقرب إلى عقلية «فقهاء المحدثين» الجامعين بين المعقول والمنقول، أمثال الإمام محمد بن إدريس الشافعي وابن دقيق العيد، وابن تيمية وابن القيم وابن الوزير وأمثالهم»[١].

ويبدو هذا الإنصاف والتقريب كأوضح ما يكون حين ذكر رموز الصحوة الإسلامية المعاصرة، فذكر واحدًا وثلاثين اسمًا، مع الثناء والتوقير وذِكْرٍ مختصرٍ للأثر الجميل، هم: محمد بن عبد الوهاب، ومحمد السنوسي، ومحمد أحمد المهدي، وجمال الدين الأفغاني، والكواكبي، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وبديع الزمان النورسي، وحسن البنا، والمودودي، وابن باديس، ومصطفى السباعي، وسيد قطب، وعبد القادر عودة، ومحمد فرغلي، وإبراهيم الطيب، ويوسف طلعت، وعبد الفتاح إسماعيل، ومحمد يوسف هواش، وحسن الهضيبي، وعبد القادر الجزائري، وعبد الكريم الخطابي، وعمر المختار، وعز الدين القسام، وأمين الحسيني، ومحمد إقبال، وشكيب أرسلان، ومصطفى صادق الرافعي، وعباس العقاد، ومالك بن نبي، ومحمد المبارك.

ثم أضاف إليهم من الأحياء ـ لحظة التأليف ـ سبع شخصيات أخرى هم: الغزالي، والشعراوي، وعلي الطنطاوي، ومحمد قطب، والندوي، وفتحي عثمان، وعبد الحميد كشك[٢]. ثم أضاف إليهم في كتاب آخر خمسة عشر شخصية أخرى، وهم: المراغي، ومحمد الخضر حسين، وشلتوت، وأبو زهرة، والزرقا، ودراز، ومحمد المدني، ومحمد البهي، والطاهر بن عاشور، وعلال الفاسي، والبهي الخولي، ومحمود شاكر، وعيسى عبده، ومحمد أبو السعود، وأحمد عبد العزيز

---

(١) القرضاوي، **فتاوى معاصرة**، ٢/ ٨٤، ٨٥.

(٢) القرضاوي، **الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي**، ص٢٨ وما بعدها.

Readonly

النجار[١]. ويبدو جليًّا أن جمع هذه الأسماء على اختلاف مشاربها ومجالاتها وآثارها، بل وعلى ما بين بعضهم من خلافات، أمرٌ لا يتسع له إلا صدر رحب منصف موضوعي في تقييم الرجال.

٣. الاستشهاد بالمخالف

أي من المؤرخين الغربين والمستشرقين والعلمانيين فيما دلالة شهادة غير المسلم فيه أقوى، كمسائل: ضرورة الإيمان في مواجهة الإلحاد[٢]، أو فساد الحضارة الغربية المعاصرة[٣]، أو سماحة الإسلام في انتشاره وتعامله مع الأقليات[٤]، أو الشهادة للشريعة الإسلامية[٥] أو لفضائل الحضارة الإسلامية[٦] أو الإقرار بالدور الأساسي للإسلام في النهضة[٧]، أو التبشير بعودة الإسلام مرة أخرى[٨].. أو نحو هذا من الموضوعات.

---

(١) القرضاوي، **أمتنا بين قرنين**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م)، ص١٠٤ وما بعدها.

(٢) القرضاوي، **الدين في عصر العلم**، ط١ (عمان: دار الفرقان، ١٩٩٦م)، ص٥٥ وما بعدها؛ القرضاوي، **بينات الحل الإسلامي**، ط٢ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٣م)، ص٦٢.

(٣) القرضاوي، **الإسلام حضارة الغد**، ط١ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٥م)، ص٩٦ وما بعدها.

(٤) القرضاوي، **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، ص٢٢ وما بعدها، ٣٧، ٤٤، ٥٦ وما بعدها؛ القرضاوي، **تاريخنا المفترى عليه**، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦م)، ص٢٠٣ وما بعدها.

(٥) القرضاوي، **شريعة الإسلام**، ص٦٢ وما بعدها.

(٦) القرضاوي، **تاريخنا المفترى عليه**، ص١١٣ وما بعدها؛ القرضاوي، **الإسلام والعلمانية** ص١٦١، ١٦٢.

(٧) القرضاوي، **الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي**، مرجع سابق، ص١٥٤.

(٨) القرضاوي، **من أجل صحوة راشدة**، ص١٢٤ وما بعدها.

Readonly

٤. لا بأس بالتكرار

ولا يرى الشيخ بأسًا من تكرار الكلام نفسه في أكثر من كتاب، وهو لا يتكلف أن يكتب ذات المعنى بصياغات جديدة، بل ينقل فقراته كما هي أو بتغيير بسيط يناسب المقام الجديد، فالتكرار من سمات الشيخ الملحوظة في التعرض للتاريخ.

دفاع القرضاوي عن التاريخ الإسلامي

دافع الشيخ القرضاوي عن التاريخ الإسلامي في وجه ثلاث غارات؛ الأولى من الغربيين وعلى رأسهم بطريرك الكاثوليك بنديكت السادس عشر، والثانية: من التغريبيين العلمانيين الذين سيطروا على منافذ الثقافة والإعلام، والثالثة: من بعض العلماء والدعاة الذين اشتطوا وقسوا في قراءة التاريخ الإسلام.

في وجه الغربيين

تتركز شبهات الغربيين على موضوعين كبيرين: العلاقة بين العقل والعلم وبين الدين ومسألة الجهاد وانتشار الإسلام بالسيف، وكان أبرز من تصدى له الشيخ حين طرح هذه الموضوعات بعنف بابا الفاتيكان بندكت السادس عشر الذي ألقى محاضرة في جامعة غوتسبيرغ في جنوب ألمانيا (١٢ يونيو ٢٠٠٦م)، فأصدر الشيخ كتابه «البابا والإسلام»، ودار دفاعه على استخراج الأدلة المناقضة لهذه الشبهات من التاريخ الإسلامي، فتركز دفاع الشيخ على سوق الأدلة من التاريخ الإسلامي على هذه الأمور وإثبات:

(١) تعانق الدين مع العلم في التاريخ الإسلامي مقابل الأزمة التاريخية بين الدين والعلم في الغرب وكيف خدم العلم الدينَ وكيف أثار الدين طاقة العلم في

Readonly

المسلمين، وكيف أن من أئمة المسلمين من بنى أصوله على أن العقل هو أساس النقل، وبه ثبتت النبوة.

(٢) سماحة الإسلام في انتشاره وسماحته في التعامل مع الأقليات التي كانت تحت سلطانه واستشهد في هذا بما أثبته المستشرقون والمؤرخون الغربيون كتوماس أرنولد وجوستاف لوبون وغيرهم.

ولا أعرف أن الشيخ تصدى مباشرة لمستشرق أو غربي في باب التاريخ سوى هذا البابا.

وعموما فكثيرًا ما يردد كلمة الندوي عن المستشرقين وتشبيهه لهم بجامعي القمامة الذين لا تقع عينهم إلا على القبيح[1].

في وجه العلمانيين والمتغربين

ولا يختلف الحال كثيرًا بين الغربيين والمتغربين، إذ أولئك الأصل وهؤلاء المسخ، أولئك المصدر وهؤلاء البوق، إلا أنهم الأعلى صوتًا في البيئة العربية بما أتاحته لهم السلطات من السيطرة على منافذ التعليم والإعلام والثقافة، فحظوا بالنصيب الأكبر من ردود الشيخ في العديد من كتبه، من أهمها: الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه، الدين والسياسة، تاريخنا المفترى عليه، بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين.. وغيرها.

إذن، فالقضايا المثارة هي ذاتها، لكن نستطيع أن نقول إن ردود الشيخ على الغربيين كانت في الأصول كقضايا العلم والدين وانتشاره بالعنف، بينما كانت ردوده على المتغربين في الأصول والفروع كموقف الإسلام من المخالف والمرأة

---

(١) القرضاوي، **الإسلام والعلمانية**، ص١٥٨؛ القرضاوي، **ابن القرية والكتاب** ٤/ ١٩٦.

Readonly

ونفوذ الملوك والسلاطين في النظام السياسي وتقييم الشخصيات التاريخية، وكان أبرز ما تكرر في كتب الشيخ ضد العلمانيين والتغريبيين:

(١) الدفع عن الشخصيات التاريخية ما يلحق بها من المظالم وسوء القراءة كمعاوية بن أبي سفيان وهارون الرشيد[١]، وأحيانًا يكون الدفع بتخليص هذه الشخصيات التاريخية الإسلامية من المحاولات العلمانية لسرقتها وإلباسها غير ثوبها كمعاوية بن أبي سفيان وابن رشد[٢] وغيرهم.

(٢) الدفع عن النظام السياسي الإسلامي، ويكون بعدة أمور:

أولها: إثبات هيمنة الدين وحسن أثره في النظام السياسي، إذ «من بدهيات التاريخ الإسلامي: أنه لم يعرف يومًا دولة بلا دين، ولا دينًا بلا دولة. ولم يدر هذا الخاطر في فكر أحد من أبنائه»، حتى إنه «لا أحد من الحكام في التاريخ الإسلامي استغنى ـ أو كان في إمكانه أن يستغني ـ عن إعلان التمسك بالدِّين، لأنه لا أحد منهم كان يستطيع أن يلتمس الشرعية لحكمه خارج شرعية الإعلان عن خدمة الدِّين، والرفع من شأنه»[٣].

وثانيها: نفي القداسة عن الحكام والسلاطين «لم نر أحدًا من الخلفاء في تاريخ الإسلام، أضفى على نفسه، أو أضفى عليه المسلمون: نوعًا من القداسة، بحيث لا ينقد ولا يُقَوَّم، ولا يؤمر ولا ينهى»[٤].

---

(١) القرضاوي، **الإسلام والعلمانية**، ص١٥٦، ١٥٧.

(٢) انظر: القرضاوي، **الدين والسياسة** (نسخة إلكترونية).

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

Readonly

وثالثها: تفنيد مزاعم أن العدل الإسلامي كان في عهد عمر فحسب وأن عمر فلتة تاريخية[١].

(٣) الهجوم على من يستدل بالتاريخ دون تثبت، «ولكننا كثيرًا ما نأخذ أخبار تاريخنا من مصادر غير موثقة، وروايات غير ثابتة، لو عمل فيها مبضع «الجرح والتعديل» لم تقم لها قائمة، فكيف وبعض مصادرنا كتب الأدب والأقاصيص، مثل «الأغاني» للأصفهاني، الذي سماه أحد إخواننا[٢] «النهر المسموم»؟![٣].

والشيخ في تصديه للغربيين والمتغربين لا يدافع من موقع المستضعف ولا يكتفي برد السهام، بل يهاجم ويطلق سهامه، فهو عندما يكتب في تسامح المسلمين مع الأقليات لا يمضي قبل أن يذكر ما وقع في التاريخ الغربي من حوادث التعصب والمذابح الدينية واضطهاد المخالفين[٤]، وقال عن حسين أحمد أمين أثناء رده طعونه في عمر بن عبد العزيز: «إما غبي لم يفهم ما هو في الوضوح كالشمس، وإما فاهم يحرف الكلم عن مواضعه لهوى في نفسه»، وأنه بدفاعه عن الحجاج «نَصَّب نفسه ممثل الاتهام لخصوم الحجاج ومعارضيه، وهو يذكرنا بممثلي الاتهام اليوم الذين شاهدنا الكثير منهم ينادون بقطع الرقاب، وتوقيع أقصى العقوبة لكل حركة أو جماعة تقول للحاكم: لم؟ أو: لا»[٥]. وهو يتهم أيضًا تبعيتهم، يقول: «أكثر الذين

---

(١) القرضاوي، **الإسلام والعلمانية**، ص١٥٤ وما بعدها.

(٢) هو الدكتور عبد العظيم الديب رحمه الله.

(٣) القرضاوي، **الإسلام والعلمانية**، ص١٥٦.

(٤) القرضاوي، **غير المسلمين في المجتمع الإسلامي**، ص٧٦ وما بعدها؛ وانظر: البابا والإسلام، نحن والغرب.

(٥) القرضاوي، **فتاوى معاصرة**، ٢/ ٧٢٤.

Readonly

يتحدثون عن تاريخنا، وينظرون إليه من وراء منظار أسود، إنما استقوا أفكارهم الأساسية من خارج حدودنا، من أساتذتهم المستشرقين، الذين ينظرون إلى تاريخنا وتراثنا كله من زاوية غربية، تزدري كل ما هو شرقي، ومن ورائها عصبية صليبية كامنة، تكره كل ما هو إسلامي، ومن خلال مصلحة استعمارية دافعة، تسخر العلم للأهواء والمنافع»[1].

في وجه شطط العلماء والدعاة

ودافع القرضاوي كذلك عن التاريخ الإسلامي في وجه شطط العلماء والدعاة الذين أرادوا أن يكون التاريخ الإسلامي خيرًا مما كان عليه، لكنهم اشتطوا في هذا وبالغوا، والغالب عليهم دخول الخلل من أربع جهات: اعتمادهم على غير الصحيح من الروايات، وغياب الكليات في حضور الجزئيات، وتضخيم أمور صغيرة، وافتقاد الفهم العميق لظروف العصر. ولسنا الآن بوارد نقاش هذا الأمر، وإنما نعرض دفاع القرضاوي عن التاريخ في وجه هذا الشطط.

إن من حسن التجرد والإخلاص أن اختار الشيخ ثلاثة من أقرب العلماء والدعاة إلى نفسه وممن أفاض في الثناء عليهم ومدحهم في كل موطن، فأخذ عليهم ما وجهوه من سهام للتاريخ الإسلامي، ذلك أن من مساوئ البيئة العلمية أن يفضل البعض اختيار خصوم لهم وأعداء ليطعنوا فيما يرددونه، ثم هم أنفسهم يسكتون عن هذا إن جاء من صديق أو حبيب أو من على ذات المذهب.

اختار القرضاوي الإمام المودودي والشيخ الغزالي والشهيد سيد قطب كنماذج لمن قسوا على التاريخ الإسلامي، وذكر «أن الإمام المودودي ـ غفر الله له

---

(١) القرضاوي، **الإسلام والعلمانية**، ص١٥٨؛ وانظر: **في فقه الأولويات** ص٢٢٤ وما بعدها.

Readonly

ـ كان أقسى المتحدثين عن تاريخنا عبارة، وأشدهم حرارة»[١]، فاستعرض أقوالهم وردَّ عليها، ثم إنه بعد هذا أنصفهم وبحث عن أصل الخلل ومن أين أُتوا، فاعتذر لهم بأنهم كانوا «ضحية مصادرنا التي نقلت إلينا صورة غير صادقة تمامًا عن تاريخنا الإسلامي، كما بينا مسؤولية المؤرخين المسلمين، ومسؤولية علماء الحديث، ومسؤولية مؤرخي الأدب: في تشويه هذه الصورة وإعطاء هذا الانطباع الزائف عن تاريخنا»[٢]. ثم نقل عن كل منهم كلامًا آخر في التاريخ الإسلامي لتعتدل به الصورة وتوضع بذلك كلماتهم القاسية في حجمها الحقيقي وسياقها الطبيعي[٣].

القرضاوي والتاريخ المعاصر

يمكن أن نقسم إسهام القرضاوي في التاريخ المعاصر إلى ثلاثة فروع؛ الأول: ما كتبه عن واقع الأمة، والثاني: ما كتبه في تاريخ الإخوان المسلمين، والثالث: ما كتبه في مذكراته الشخصية الحافلة.

واقع الأمة

في عشية العام ٢٠٠٠ أنهى الشيخ القرضاوي كتابه «أمتنا بين قرنين»، وغرض الكتاب أن يرسم صورة عامة للقرن العشرين في واقع الإنسانية وواقع الأمة، بذكر أهم الإنجازات وأهم الإخفاقات، ثم تعيين أهم التحديات التي تفرض نفسها في القرن الحادي والعشرين، وقد كتبه بروح ونهج «الشاهد على العصر».

---

(١) القرضاوي، **نظرات في فكر المودودي**، ط١ (القاهرة: دار المقاصد، ٢٠١٥م)، ص٩٤.

(٢) نفس المصدر ص٩٤.

(٣) القرضاوي، **تاريخنا المفترى عليه** ص٦٥ وما بعدها؛ القرضاوي: **نظرات في فكر المودودي** ص٩٤ وما بعدها؛ القرضاوي، **الإسلام والعلمانية**، ص١٦١.

Readonly

وقبل ثلاثين عامًا من تلك اللحظة أصدر الشيخ كتابه «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا»، ولكنه كتبه بروح ونهج الباحث، فحصل فيه تأريخ مهم وجيد وموثق بالمصادر لأوضاع الأمة التي ضعفت وتخلفت منذ حُكِمت بالعلمانية: الاشتراكية منها أو الليبرالية، وكان هذا الكتاب طليعة سلسلته «حتمية الحل الإسلامي» التي جعلها ردًّا على عبد الناصر لما رفع شعار «حتمية الحل الاشتراكي»[1].

وهذان الكتابان هما أوسع محاولات الشيخ في رسم ورصد الواقع المعاصر، وما سوى ذلك إما تمهيد لموضوع غيره كما في محاولته رسم صورة للحضارة الغربية المعاصرة في القسم الأول من كتابه «الإسلام حضارة الغد»، أو هو شديد الاختصار والعمومية مثل «قراءة في واقع الأمة في الفترة الأخيرة» و«المحنة في واقع الحركات الإسلامية المعاصرة».

وأهم ما حظي بالرصد في هذا الجانب أمران: حال الأمة، وحال الصحوة الإسلامية. والشيخ حين يتناول التاريخ المعاصر إنما يتناوله من زاوية الفقيه الداعية لا من زاوية المؤرخ أو الباحث، فهو نوع من تفاعل الفقيه الداعية مع تحديات عصره، وربما لا يوافق البعض على اعتبار هذا الفرع مما يندرج في أمر التاريخ، وهي وجهة نظر نُقِرُّ بأنها مقبولة وإن رجحنا ما ذهبنا إليه، وحجتنا في ذلك أن مجموع كتبه الكثيرة عن الصحوة الإسلامية وقضاياها يمثل مادة تاريخية قيمة عنها وصورة جيدة عن أطيافها واتجاهاتها وإنجازاتها وإخفاقاتها وأساليب الأنظمة في مواجتها وطرق العلماء في ترشيدها وإنضاجها.

---

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ط٢ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨م)، ٣/ ١٩٤ وما بعدها.

Readonly

تاريخ الإخوان المسلمين

لئن كان ما كتبه الشيخ عن واقع الأمة لا يدخل في باب التاريخ بمعناه التقليدي، فإن ما كتبه في تاريخ الإخوان المسلمين لا شك من صلب عمل التاريخ، فعند العام ١٩٩٨ كتب الشيخ كتابه «الإخوان المسلمون سبعون عامًا من الدعوة والتربية والجهاد»، ووافق هذا مرور خمسين سنة على استشهاد مؤسسها حسن البنا، وقد عرض فيه لتأسيس الإخوان ومناهجهم وأهدافهم ومسيرتهم ونقل شهادات من خصومهم فيهم.

وقبل هذا بعشرين سنة، أي: في الذكرى الثلاثين لاستشهاد البنا، ألف الشيخ القرضاوي كتابه «التربية والإسلامية ومدرسة حسن البنا»، وتحدث فيه تحديدًا عن جانب التربية لدى الإخوان المسلمين، لكنه أضاف إلى هذا جوانب فكرية ومواقف تاريخية أخرى. وحظُّ التاريخ قليلٌ في هذا الكتاب، وبالإمكان اعتباره حاشية شرعية على بعض تعاليم البنا وأقواله مع نقل مطول منها أحيانًا، وبالرغم من هذا فإن الكتاب من أوائل الكتب التي حاولت التأريخ للجماعة، وقد عاتب القرضاويُّ الإخوانَ في مقدمة الكتاب على أنه برغم مرور هذا الزمن لم يسعَ الإخوان لكتابة تاريخهم بشكل علمي موثق[١]، وهو العتاب الذي كرره مرة أخرى بعد عشرين سنة في كتابه «سبعون عامًا من الدعوة والتربية والجهاد»[٢]، إذ ما صدر في هذه العشرين

---

(١) القرضاوي، **التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا**، ط٣ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٢م) ص٤.

(٢) بدأت تظهر سلسلة «أوراق من تاريخ الإخوان» منذ مطلع الألفية الميلادية الثانية، والتي قام على إعدادها فريق من الإخوان في مركز «البصائر»، وخرجت الكتب باسم «جمعة أمين» رحمه الله، وكان عضوًا بمكتب الإرشاد ومسؤولًا عن المركز. إلا أن التقييم العلمي لهذا الكتاب ضعيف أو حتى ضعيف جدًّا، وهو تاريخ مناقبي أيضًا لا يتمتع بالنزاهة العلمية ولا التحليل الموضوعي =

Readonly

إما محاولات فردية أو مذكرات شخصية يغلب عليها الذاتية والمناقبية لا البحث التاريخي الرصين.

مذكرات القرضاوي

تشغل مذكرات القرضاوي الزمن الممتد منذ مطلع الثلاثينات من القرن العشرين وحتى منتصف التسعينيات منه، أي ما يزيد على ستين سنة، في أربعة مجلدات كبار، ولا أدري إن كان في نية الشيخ إصدار مجلد خامس يكمل فيه ملامح سيرته ومسيرته أم لا، وعلى كل حال فهي سجل تاريخي حافل إن في الرجال أو البلدان أو في القضايا والمواقف.

وقد أَثْرَت المذكرات ثلاثةُ أمور: طول عمر الشيخ، واتساع تجربته، وطول نفسه في كتابة المذكرات[1]؛ فقد وُلِد الشيخ ونشأ وبلغ الشباب في عصر الملكية، ثم شهد عصر الجمهورية العسكرية في مصر، وكلاهما حقبة علمانية، ثم عمل في قطر واستقر فيها، وشهد نهضتها من البداوة الكاملة إلى الانفتاح الكبير، وهي بعدئذ ـ ضمن سياق الجزيرة العربية ـ نظام ملكي لا جمهوري، فإذا أضفنا إلى هذا جولات الشيخ في كل العالم من أقصى شرقه إلى أقصى غربه علمنا أن الشيخ رأى آثار أنظمة الحكم جميعًا: الملكية والجمهورية، العسكرية والمدنية، البدوية والحضرية، المنغلقة والمنفتحة، ما انتسب إلى العلمانية وما انتسب إلى الدين. وكان له في كل هذا رأي وآراء إن لم يكن روابط وعلاقات.

= للحدث، فضلًا عن كثير من الاضطراب والاختلاط بين أجزائه بعضها البعض.

(١) وإن كان طول النفس تراجع تدريجيًّا مع التقدم في المذكرات حتى لم يعد يكتب في الجزء الرابع عن الأمور الكبيرة إلا ملاحظات سريعة، ولو أنه سار في الجزء الأخير على نحو المنهج الذي بدأ به، لكان يكون بين أيدينا واحد من أهم مصادر التاريخ المعاصر المجموعة في كتاب واحد!

Readonly

ورافق هذا كله جولات وسجالات فكرية متنوعة، منذ الليبرالية الأليفة في عصر الملكية المصري، ثم الشيوعية، ثم الرأسمالية، ثم مع أطياف الصحوة الإسلامية من الإصلاحية إلى العلمية إلى الجهادية إلى الصوفية، وما انطبع به كل طيف من تأثيرات المكان والبيئة الاجتماعية.

وقد عاش الشيخ جملة الأحداث الكبرى التي مرت بالأمة في هذا القرن، ورأى بنفسه كثيرًا منها مثل الإعداد لإنشاء الدولة اليهودية، ثم إعلانها، وحرب فلسطين، ومحنة الإخوان، وعصر العسكر، ونكبة ١٩٦٧، وحرب أكتوبر، والجهاد الأفغاني، والثورة الإيرانية، واحتلال الحرم «حادث جهيمان»، والمأساة الجزائرية، وانهيار الاتحاد السوفيتي، ولو أنه أكمل مذكراته من بعد العام ١٩٩٥ لتحدث عن انتفاضة الأقصى وأحداث سبتمبر واحتلال أفغانستان والعراق وثورات الربيع العربي ثم انتكاستها، مع ما رافق هذا كله من تجارب شخصية كالتقريب بين السنة والشيعة وإنشاء الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وتجارب توريث مدرسته بملتقى تلاميذ القرضاوي وغير هذا من التجارب.

ثم هي سيرة عالِم في نحو القرن من الزمن، بدأ في الكُتَّاب، ثم تعلم في الأزهر، ثم عمل وأسس ورأس العديد من المعاهد والروابط والاتحادات، فرأى التعليم منذ بساطته الأولى حتى تعقده وإدارته، ورأى مناهج الأزهر التقليدية، ثم مارس المناهج المعاصرة، وأسس ورأس وحاز عضوية الكثير من المؤسسات والروابط والهيئات العلمية حول العالم.

وهو إلى ذلك كله شاعر عذب، لكنه شُغِل عنه بالفقه، يحفظ كثيرًا منه ويستشهد به كثيرًا، وله علاقات بأهله ورأي فيهم، ثم هو لا يقصر في وصف الأوضاع الاجتماعية لا سيما للبيئات التي خبرها كالبيئة المصرية وبيئة الجزيرة العربية.

Readonly

لهذا حفلت بمذكراته بآراء في كل هذه الجوانب السياسية والدينية والتعليمية والأدبية والاجتماعية، وآراء في كثير من الرجال: من الحكام والعلماء والدعاة والأدباء، فهي بحق سجل حافل لتاريخ هذا القرن في جوانب شتى لا في جانب واحد، وتلك مزية لا تكاد تُرى إلا في النادر القليل من كتب المذكرات التي يغلب عليها الاقتصار على جانب واحد. ولذلك فإن قيمتها التاريخية قيمة كبيرة لا سيما في جوانب التاريخ الفكري والاجتماعي والتعليمي.

ومع ما في هذه التجربة من طول واتساع إلا أن صاحبها حين أراد تسجيلها اختار لنفسه وصف «ابن القرية والكُتَّاب» وكثيرًا ما كرر هذا الوصف في ثنايا مذكراته، مما يدل على عميق تأثره بنشأته الأولى أو ربما بعمق حنينه إليها!

القرضاوي وتراجم الرجال

تراجم القرضاوي

ترجم القرضاوي لعدد من الشخصيات، أقلها تاريخية وأكثرها معاصرة له من أئمة الفكر والدعوة في عصره وبعض أصحابه، وتُستقى تراجم القرضاوي للرجال من أربعة مصادر: الكتب، والمذكرات، والمقدمات، والمراثي.

فأما الكتب فقد ألَّف الشيخُ أحد عشر هي: «عمر بن عبد العزيز: الراشد المجدد»، و«الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه»، و«التربية عند الإمام الشاطبي»، و«التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا»، و«التربية السياسية عند الإمام حسن البنا»، و«مقومات الفكر الإصلاحي عند البشير الإبراهيمي»، و«الشيخ الغزالي كما عرفته»، و«أبو الحسن الندوي كما عرفته»، و«نظرات في فكر الإمام المودودي»، و«محمد عمارة: الحارس اليقظ المرابط على ثغور الإسلام»، و«نساء مؤمنات»

Readonly

تحدث فيه عن خديجة والزهراء وأسماء وأم سليم وأم عمارة رضي الله عنهن أجميعن.

وأما مذكراته فقد انتهج فيها أن يتحدث عن الشخصية عند لحظة قدومها إلى قطر أو عند لحظة وفاتها، وهذا بخلاف ما قد يكون ذكره عنها في ثنايا الكتاب من قبل لظرف أو آخر، وقد توقف عند ست وعشرين شخصية هم: مصطفى السباعي، وسيد قطب، وجمال عبد الناصر، وحسن الهضيبي، وعبد العظيم الديب، ومصباح محمد عبده، والبهي الخولي، وعلي السالوس، ومحمد الغزالي، وأنور السادات، ومحمد المبارك، وكامل الشريف، وعمر التلمساني، وعبد البديع صقر، وأحمد بهاء الدين، وزكي بدر، وعبد الله الأنصاري، وعبد الله عزام، وصلاح أبو إسماعيل، وعمر بهاء الدين الأميري، ومحمد إبراهيم كاظم، وعبد اللطيف زايد، وعلي جماز، وعبد الفتاح أبو غدة، وسعيد رمضان، وعبد الحليم أبو شقة[1]، ولو أنه أكمل مذكراته بعد العام ١٩٩٥ لحفلت بالكثير والكثير من الرجال الذين رافقوه وعرفهم ثم وافاهم الأجل في هذه الفترة، وهم الكثرة من بين من عرفهم وعاشرهم.

وأما المقدمات التي كتبها لمؤلفات غيره أو تحقيقاتهم فقد جُمعت مؤخرًا في

---

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٢/ ٤٦٢ وما بعدها؛ القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٣/ ٥١ وما بعدها، ٣/ ٢٠٢ وما بعدها، ٣/ ٢٩٤ وما بعدها، ٣/ ٣٣٨ وما بعدها؛ القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٤/ ٢٦ وما بعدها، ٤/ ٤٩ وما بعدها، ٤/ ١٨٠ وما بعدها، ٤/ ١٥٩ وما بعدها، ٤/ ١٧٨ وما بعدها، ٤/ ١٨٠ وما بعدها، ٤/ ٢٠٠ وما بعدها، ٤/ ٣٣٩ وما بعدها، ٤/ ٣٦٣، ٣٦٤، ٤/ ٣٨٩، ٣٩٠، ٤/ ٤٣٠ وما بعدها، ٤/ ٤٥٠ وما بعدها، ٤٦٠ وما بعدها، ٤/ ٤٩٥ وما بعدها، ٤/ ٥٥٧ وما بعدها، ٤/ ٥٦٦ وما بعدها، ٤/ ٥٦٩ وما بعدها، ٤/ ٥٨٤ وما بعدها، ٤/ ٥٨٧ وما بعدها، ٤/ ٦٧٩ وما بعدها، ٤/ ٦٨٧ وما بعدها.

Readonly

كتاب واحد بعنوان «المقدمات»[١] ـ إلا مقدمة أو اثنتين ـ وقدَّم فيها الشيخ لخمسين شخصية، بعضهم في طبقة شيوخه كحسن البنا، ومحمد عبد الله دراز، وعبد الله بن زيد آل محمود، ومحمد أبو زهرة، ومصطفى الزرقا، وبعضهم في طبقته كـأبي الحسن الندوي، ومحمد الغزالي، وعبد العظيم الديب، وعبد الحليم أبو شقة، وحسن المعايرجي، وعز الدين إبراهيم، ومالك بدري، وحسان حتحوت، وأحمد بن حجر آل بوطامي، وعلي القره داغي، وراشد الغنوشي، وعبد السلام البسيوني، وثابت عيد، وأحمد زكي حماد، وبعضهم في طبقة تلاميذه كمجد مكي، وعمر عبد الله كامل، ومحمد بن الحسين السليماني، وأخته عائشة، ومحمد أكرم الندوي، ومحمد المختار الشنقيطي، ووصفي أبو زيد، ومعتز الخطيب، وأكرم كساب، ووليد أبو النجا، وحسن فوزي الصعيدي، وسيف العصري، وعمرو عبد الكريم، ومحمد بن سالم السقطري، وغسان دوعر، ومحمد بن عبد الله الرشيد، وسليمان بن علي العلي، وعارف الشيخ. وطائفة من الشعراء قدَّم لهم دواوينهم: وليد الأعظمي، وأحمد محمد الصديق، ومحمد عبد الله الأنصاري، ومحمود خليل، وعلي أحمد العثمان، ومحمد قطبة.

وأما المراثي فلقد مدَّ الله في عمر الشيخ، وهذه البركة في العمر مع سعة التجربة مع ما أنعم الله به عليه من نعمة الوفاء لشيوخه وأصحابه، أثمر كل هذا عددًا وافرًا من المراثي التي عرَّف فيها الشيخ بهم، وقد جُمِع بعضها في كتاب «في وداع الأعلام»، منهم (بخلاف من تقدم ذكره): أنور الجندي، وعبد العزيز بن باز، ومحمد بن صالح العثيمين، وعلي الطنطاوي، وعادل حسين، والسيد سابق، وجاد الحق علي جاد الحق، وعلي عزت بيجوفيتش، وأحمد ياسين، ثم بقيت مراثي وكلمات أخرى

(١) صدرت طبعته الأول في (القاهرة: دار المقاصد، ٢٠١٥م).

Readonly

فيمن ماتوا بعد زمن صدور الكتاب أو لم يدرجوا فيه كعبد العظيم الديب، وزهير الشاويش، وأحمد العسال، ومحمد قطب، وعبد السلام الهراس، وحسن الترابي، وغيرهم.

ويغلب أنه إن تكررت الشخصية تكرر الكلام فيها إن في المذكرات أو المقدمة أو الرثاء، فكأن الشيخ يكتب في أول مرة كافة ما يريد قوله، فلا يبقى بعدئذ كثير جديد يُقال. وهكذا يكون الشيخ قد ترجم لنحو مئة شخصية!

منهج القرضاوي في الترجمة

وينهج القرضاوي في الترجمة منهجًا له سبعة ملامح كما استقرأناها هي:

١. أن ترجمته دعوية لا تأريخية، فهو لا يحفل بضبط التواريخ والتفاصيل قدر ما يحفل بأفكار الشخصية وقضاياها وجوانب تميزها، وهو في ذلك يسعى لإلقاء الضوء على ما ليس بمشتهر ولا مطروق، وقد صرَّح بأنه لا يقبل أن يكرر غيره في كتابه عن الغزالي[١]، وصرَّح أنه اختار موضوع «التربية عند الشاطبي» لأن غالبية البحوث ستتجه كما هو المتوقع نحو الجانب الأصولي والمقاصدي[٢]، ومؤلفاته عن الغزالي والندوي والمودودي وعمارة والبشير الإبراهيمي تدل على هذا المدخل: مدخل القضايا والأفكار قبل السرد والتاريخ.

٢. أن ترجمته شخصية عاطفية، فهو عند كل شخصية يذكر صلته بها ومواقف اجتماعهما وتعاونهما وأحيانًا ما وقع بينهما من خلافات، وإذا ذكر الخلاف ذكره بسرعة وفي ارتفاق، وأما إذا ذكر الفضل والمكانة فإنه يسهب ويطيل ويتوسع، وهو

---

(١) القرضاوي، **الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه**، ص٥، ٦.

(٢) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٤/ ٥٣٩، ٥٤٠.

Readonly

مع سخائه في وضع الألقاب إلا أنه دقيق فيها، ومن تابع أوصافه عرف دقته في استعمال ألفاظ الأديب والمحقق والداعية والفقيه والعالم والعلامة، وكلما كانت الشخصية أقرب كلما أسرف في وصف عاطفته وتأثره، ومن علامات وفائه أنه يزيد في تقدير من كانت له به صلة قرابة أو صحبة أو انتساب إلى بلد أو تلمذة على شيخ أو صحبة زنزانة، فينزل صاحب الترجمة بهذا منزلة كبرى في نفسه.

٣. ومن منهجه «الترجمة للأحياء»، وهو ينادي بأن من عيوب الإسلاميين أنهم «أقل الناس تكريمًا وتقديرًا بعضهم لبعض، فقلما يتحدث بعضهم عن بعض، وينوه بعضهم بقدر بعض، ويقتبس بعضهم من بعض»، وهو ينادي أن يفعلوا كالعلمانيين الذين يلمعون رموزهم حتى «يجعلون من الحبة قبة، ومن القط جملًا»، ثم إن من العيوب كذلك أنهم لا يمدحون رموزهم إلا بعد موتهم فكأنهم يثيرون حسرة الناس عليهم لا كأنهم يحثونهم على الانتقاع بهم[1]، ولذلك ألف عن الشيخ الغزالي وهو حي، وألف عن د. محمد عمارة وهو حي كذلك.

٤. ومن منهجه في التراجم معرفة أقدار الرجال وإنصافهم، بل ولربما ذكر من المواقف ما كان موقف غيره فيه أعلى من موقفه هو، فمن ذلك أنه قال (أي القرضاوي) في جلسة مع القذافي: العلماء مستعدون أن يكونوا خدمًا لمن يخدم الشريعة، فقال الشيخ محمد أبو زهرة: لسنا خدمًا لأحد كائنًا من كان، فقال: يا مولانا إننا خدم لمن يخدم الشريعة، فخدمتنا في الحقيقة إنما هي للشريعة. فقال: نحن سادة ولسنا خدمًا. ثم عقب القرضاوي على هذا يقوله: «وهكذا كان الشيخ

---

(١) القرضاوي، **الدكتور محمد عمارة**، ط١ (القاهرة: دار المقاصد، ٢٠١٥م)، ص٨.

Readonly

رحمه الله معتزًا بنفسه وبعلمه، ولا يفرط في كرامة العلم ولو بأدنى كلمة»[١]. وهذا من أعلى مراتب الإنصاف وتقدير الرجال!

٥. ويغلب عليه أنه إن رأى ما لا يعجبه أشار إليه إشارات لطيفة قد لا ينتبه لها ولدلالتها إلا القليل، ونعرض عن ذكر الأمثال في هذه النقطة إيثارا لما آثره الشيخ لنفسه.

٦. ومن منهجه كذلك إيثار الإصلاح، فهو أجنح إلى التقريب والتلطيف ونسيان الخلاف[٢]، وكافة تعليقاته على ما يقع بين الرموز من خلافات على وجه من هذه الأربعة:

(١) فإما أن يتجاهل ذكر الخلاف كتجاهله ما وقع بين الألباني وزهير الشاويش واكتفائه بقول «خلاف لم يكن علميًا ولا فكريًا»[٣].

(٢) أو يتناول الخلاف مترفقًا فيتحدث عنه مبينًا شأن الطرفين ومُهَوِّنًا من حجمه أو مفسرًا له، كتعليقه على الخلاف بين المودودي والندوي[٤]، وهذا هو شأنه الغالب.

---

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب** ٣/ ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) وإن كنا نلوم على الشيخ أن هذا الموقف جاوز الحد أحيانًا، حتى لقد كتب تبريرًا في صدر كتابة موقفه عن عبد الناصر كي لا يتأذى الناصريون، هذا وعبد الناصر معدود في أعداء الله وأعداء الأمة وكبار نكباتها، وأتباعه حتى اليوم لم يقفوا موقفًا فاصلًا مشرفًا بل هم فلاسفة وجنود الاستبداد أينما كان. انظر: القرضاوي، **ابن القرية والكتاب** ٣/ ٢١١ وما بعدها.

(٣) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب** ٣/ ١٨٥.

(٤) القرضاوي، **الندوي كما عرفته**، ص١٢٥، ١٢٦.

Readonly

(٣) ولربما عاتب من لم تُنْسِه السنون خلافًا كان أولى أن يُنْسى، كعتابه على مجلة الدعوة تجاهلها وفاة الشيخ البهي الخولي[١].

(٤) وإن وقع بينه وبين أحد ممن يتحدث عنهم خلاف في مسألة ذكر ذلك الموقف سريعًا ولم يتوقف عنده طويلًا، كاختلافه مع التلمساني في مسألة التخطيط للدعوة[٢] واختلافه مع الترابي في الاطمئنان للعسكر[٣].

ومن ذلك أن القرضاوي لا يكاد يكون له تعقيب على سجالٍ نشب بين عالميْن أو جماعتين من تلك التعقيبات التي تزيد المعركة ضرامًا، بل هو لا يخفي انزعاجه أحيانًا مما ينشب من مثل ذلك فيتضخم ويجاوز حد الجدال بالتي هي أحسن كما في سرده لما وقع بين الألباني وأبي غدة[٤].

٧. إلا أنه أحيانًا توقف عند بعض أخطاء العلماء، وكانت هذه الأخطاء مما عاد بالضرر على المصلحة العامة للأمة أو لشعب منها، فعتب على الشيخ (أبو زهرة) إخفاءه رأيًا فقهيًا ارتآه وكتمه لعشرين سنة؛ لكون الكتمان مضر بحركة الاجتهاد الفقهي[٥]، وعتب على الشيوخ الغزالي وعبد الله الأنصاري انخداعهم في صدام حسين[٦]، وعتب على الشيوخ عبد الفتاح أبي غدة ومحمود الطحان هيجانهم على

---

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب** ٤/ ٥٤.

(٢) نفس المصدر ٤/ ٣٤٢.

(٣) القرضاوي، **الدكتور حسن الترابي العالم الداعية المفكر المجاهد**، موقع الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، بتاريخ ١٠ مارس ٢٠١٦م.

(٤) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٣/ ١٨٥، ١٨٦.

(٥) نفس المصدر ٣/ ٢٥٣ وما بعدها.

(٦) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٤/ ٥١١، ٥١٢.

Readonly

وجود موسيقى في حفل قُصِد به تكريمهم بأوزبكستان الخارجة توًّا من الشيوعية فأفسد هذا مشروعًا دعويًّا في بلادهم[١]. وهؤلاء الشيوخ هم في الطبقة الأولى ممن أولاهم القرضاوي محبته وإجلاله وثناءه كثيرًا، ولم يمنعه هذا من نقدهم.

ما يؤخذ على الشيخ

وهنا نعود للقول بأن الشيخ ليس مؤرخًا ولا ينبغي تقييم عمله بمنهج المؤرخين، وإنما هو فقيه كان التاريخ من أدواته وأسلحته، وقد تعلمنا منه أن ننقده ولا نبالي مع حفظ المقام والمكانة، ثم نحن ننصفه ونعتذر عنه بما هو أهله إن شاء الله.

وخلاصة ما نأخذه على الشيخ في باب التاريخ ثلاثة أمور، وقد وقعت في مسائل جزئية إلا أن رأي الشيخ فيها يمس بالمنهج والكليات، هذا مع أن عموم منهجه يخالفها، حتى ليمكن لنا أن نقول: إنه خالف منهجه في هذه المسائل، وذلك أمر لا ينجو منه أحد.

١. أول هـذه الأمور هي اختياره أقوالًا ضعيفة لم يوافق بها إلا عددًا من المتأخرين، كميله إلى قول ابن عبد البر بأن خيرية الصحابة هي في مجموعهم على مجموع من بعدهم، وأنه يجوز أن يوجد من التابعين أو تابعيهم من هو خير من صحابي، وهو قولٌ متأخرٌ لابن عبد البر (من علماء القرن الخامس) إلا أن الشيخ مال إليه وردَّ أقوال الجماهير من المتقدمين[٢].

وقريبٌ من هذه المسألة ثناؤه على كتاب «الخلافات السياسية بين الصحابة» رغم ما فيه من إساءة لبعضهم لا سيما معاوية رضي الله عنه، وذلك في تقديمه

---

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٤/ ٥٩٧، ٥٩٨.

(٢) القرضاوي، **تاريخنا المفترى عليه**، ص٨٧.

Readonly

للكتاب دون أن يستدرك على مؤلفه شيئًا من هذه المسائل، بل لقد شاركه إدانةَ معاوية في تولية يزيد وهي المسألة التي أحييت في عصر «الديمقراطية» هذا حتى نسي أغلب الخائضين فيها أنهم يدينون أمرًا وافق عليه جمهور الصحابة وكبار التابعين إلا أربعة فحسب، واحد منهم مات قبل تمامه (ابن أبي بكر)، وثانٍ كان اعتراضه إجرائيًّا (ابن عمر)، وثالث اعترض ولم يخرج (ابن الزبير)، ورابع خرج ثم كاد أن يعود (الحسين) رضي الله عن الجميع، وهي مسألة لا يمكن أن تفهم إلا في سياقها وعصرها الذي لم يكن فيه حلٌّ إلا هذا، ولا يدان معاوية بأنه أخذ البيعة بالترغيب والترهيب إلا ويُدان معه جمهور هذا القرن بأنهم جبنوا أو طمعوا، وذلك أمر يتنافى مع الصحيح من الأحاديث والصحيح من وقائع التاريخ كذلك. ومع هذا فقد أشار الشيخ إشارة بالغة اللطف لا تكاد تظهر في ثنايا الثناء وهي قوله: «عليه أن يلتزم بصحاح الأحاديث في خيرية هذه القرون، وهي تشمل عصر الراشدين وعصر بني أمية بصفة عامة. وهذا مهم في تقويم عهد بني أمية عامة، وعهد مؤسسها خاصة»، وإقراره بأن المؤلف وقع في الحدة والشدة التي انتقدها على خصومه[1].

وأصل الخطأ في هذه المسائل أمران:

الأول: ضغط الهزيمة والاستبداد مع المشهد «الديمقراطي» الذي ابتلي به الدعاة والعلماء طوال القرن الماضي منذ حُمِلَ السلطان عبد الحميد الثاني على الإجراءات الديمقراطية، مرورًا بعصور الاستبداد الملكية والجمهورية في العالم الإسلامي، وذلك في مقابل النموذج الغربي الأخاذ في هذا الباب، فتوجهت كثير من السهام إلى معاوية باعتباره أول من «ابتكر» التوريث في تاريخنا، ووقع في هذا

(١) القرضاوي، **المقدمات**، ص٣٧٤، ٣٧٦.

Readonly

الفخ كبار أعلام كرشيد رضا والمودودي والندوي وسيد قطب والغزالي وعبد السلام ياسين وغيرهم، وكان أقلهم في هذا القرضاوي.

والثاني: أن هؤلاء الكبار لم يحصل لهم من العلم بعيوب وخفايا الديمقراطية وأنها مجرد ستار رأسمالي خادع، ولم يصل إلى أيديهم نقد الغربيين للديمقراطية المعاصرة وزيفها، كما لم يحصل لهم من المعرفة التاريخية العميقة بالأوضاع الاجتماعية في ذلك العصر والتي لو عرفوها لظننا أنهم يغيرون آراءهم، لذا فقد كان أمثال ابن خلدون قديمًا وجلال كشك حديثًا ـ وهما أقرب إلى السياسة والتاريخ والاجتماع منهما إلى الفقه ـ أحسن تفسيرًا لفعل معاوية رضي الله عنه[1].

والخلاصة: إننا نعتذر لهؤلاء الأعلام بظروف عصرهم وسياقه وتحدياته وضغط أفكاره، كما نأخذ عليهم أنهم حكموا على هذه المسألة من خارج سياق عصرها، وحاكموها بأحكام عصرهم. ونرى أنهم بهذا خالفوا منهجهم الذي علموه لنا في اعتبار الظروف والسياق عند الحكم على الوقائع.

٢. وثاني ما نأخذه على الشيخ هو **حكمه في مسائل تاريخية خطيرة دون تقصيها**، فمن ذلك: رفضه رأي جلال كشك في عبد الناصر وثورة يوليو واعتبار تلك الآراء أمورًا لا بينة عليها، ولا يستطيع من موقعه كعالِم مسلم أن يأخذ بها[2]، والحقيقة أن رأي الشيخ هذا يثبت أنه لم يقرأ كتاب جلال كشك فلا هو اتهمه بالعمالة لمجرد اتصاله بالأمريكان ولا هو فيما طرحه نطق عن غير بينة، بل بشهادات شهود

---

(١) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ) ١/ ٢١٠ وما بعدها؛ جلال كشك، **جهالات عصر التنوير**، ط١ (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٠م)، ص١٠٣ وما بعدها.

(٢) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٣/ ٢٢٦.

Readonly

العيان وبالوثائق التي كانت سرية ونُشِرت. وإنما يُعتذر للشيخ بما ظن أنه الموقف الوسطي المعتدل الذي لا غلو فيه ولا شطط وإن كان في ظالم ذي عداوة.

ومن ذلك قوله أن البنا لم يضغط عليه أحد لإصدار بيان «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين» ولا حتى طلب منه أحدٌ مجرد طلب إصداره، وأنه إنما فعل ذلك من واقع شعوره بالمسؤولية[١].

وهذا النفي الشديد الصريح هو نفيٌ متيقن، بينما الحقيقة على خلاف هذا بروايات من تعرضوا للحادثة، ومن الغريب أن يفوت هذا مع شهرته على مثل الشيخ، وهذا البيان تشوبه الشكوك حول صحة نسبته إلى البنا فضلًا عما فيه من مخالفة شرعية (نفي الإسلام عن القاتل) لا تصدر عن مثل البنا، فهو في حكم الضعيف سندًا ومتنًا[٢]. وقد تعلمنا من الشيخ أن المثبت مقدم على النافي وأن عدم العلم لا يساوي العدم، ونحن كذلك نعتذر له عن هذا الموقف بأنه أثر لما استقر عليه موقف الحركة الإسلامية منذ السبعينات وما بعدها من إثبات سلميتها وقد بالغت في النفي والتبرؤ من كل عمل ثوري أو عمل مقاومة موجه لعملاء الاحتلال، وكانت الدندنة شديدة حول هذا البيان والافتخار به والاستدلال به على سلمية الجماعة وموقفها من العنف، وهو موقف دفع إليه «الاجتهاد» السياسي لكن بولغ فيه جدًّا حتى خرق الأمانة التاريخية، وصارت مفاخر الجماعة ذنوبًا!

ومن ذلك قسوته الشديدة على النظام الخاص للإخوان المسلمين ولغة الإزراء

---

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ١/ ٣٣٨.

(٢) انظر في هذا: محمود عبد الحليم، **الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ**، ط٥ (الإسكندرية: دار الدعوة، ١٩٩٤م)، ٢/ ٧٥، ١٣١، ١٣٢، ١٣٦.

Readonly

ببعض شبابه[١]، لا سيما اتهامه باغتيال السيد فايز، وهو أمر لا ينبغي لمثل الشيخ أن يقطع فيه برأي ولا أن ينسب ذلك بقوله «هذه هي رواية الإخوان للحادثة والعهدة عليهم» ثم يأخذ في النكير والإدانة[٢]، وإنما هي رواية طرف بينه وبين النظام خصومة وعداوة، وفي كتب من أرخوا للنظام الخاص من قادته وغيرهم تفاصيل تطول[٣]، ما كان ينبغي القطع في مسألة خطيرة كهذه بغير استقصائها.

٣. ومما نأخذه على الشيخ **إدانة الفرع دون الأصل**، ومن ذلك تحميله وصفي التل مسؤولية مذبحة أيلول الأسود في عمان وتجنبه ذكر الملك[٤]، ولا ريب أن وصفي التل منفذ وإن أسرف في التنفيذ وأساء فيه، بينما صاحب الأمر كله هو الملك. وهنا نقول إن الشيخ خالف منهجه هو والذي سطره في غير موضع منها: حين حمَّل عبد الناصر مسؤولية ما يجري في السجن الحربي لكونه الراعي المسؤول الأول عن الرعية[٥]، ولكننا نقول: ربما فعل ذلك احتفاظًا بموازانات سياسية يراها أرجح في مصلحة الدعوة، والله أعلم، وإن كنا لا نرضى لمثله بهذا.

* * *

(١) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٢/ ١٣٦ وما بعدها.

(٢) نفس المصدر ٢/ ١٤٣.

(٣) انظر: محمود الصباغ، **التصويب الأمين لما نشره بعض القادة السابقين عن التنظيم الخاص للإخوان المسلمين**، ط١ (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٨م)، ص ١٣٠ وما بعدها، ٢٢٢ وما بعدها، ٢٣٩ وما بعدها.

(٤) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٣/ ٢٠١.

(٥) القرضاوي، **ابن القرية والكتاب**، ٢/ ١١٨ وما بعدها.

Readonly



قناة السويس كخط جيوسياسي إستراتيجي لإسرائيل

بعد أكثر من مئة وخمسين عامًا من إنشاء قناة السويس يبدو مستغربًا الحديث عنها باعتبارها مشكلة سياسية جغرافية إستراتيجية اقتصادية أيضًا، ولا يعرف الكثيرون أن التفكير في إنشاء قناة السويس تزامن مع التفكير في إنشاء دولة إسرائيل في الوقت المعاصر، رغم أن جذور الفكرتين تمتد لآلاف السنين، وفي تلك السنين رفضت جميع القوى المسيطرة على مصر والشام حفر القناة الواصلة بين البحرين كما رفضت تحقيق الحلم اليهودي.

يبدو الربط بين القضيتين غريبًا للوهلة الأولى، لكن الواقع أن قناة السويس مثلت إسنادًا في غاية الأهمية للدولة الإسرائيلية العازلة، ويعزو بعض السياسيين والمؤرخين أن إسرائيل نفسها كانت إسنادًا لقناة السويس كما في القول الشهير المنسوب لكامبل بضرورة وجود دولة عازلة قرب قناة السويس لحماية المصالح الغربية، وأيًا ما كان الأمر فالواقع أن كلا القضيتين دعم وجود الأخرى، فإسرائيل لم يكن لها أن تستطيع احتلال سيناء لولا وجود المانع المائي الذي وفر لها حماية جغرافية وخطًا أمنيًا متقدمًا منع تدفق المقاومة المصرية الشعبية إلى سيناء، وأعاق عبور الجيش المصري حتى صار الإنجاز العسكري في أكتوبر هو «عبور القناة».

ومنذ وقعت معاهدة السلام حرصت إسرائيل والسلطة المصرية على مضاعفة العازل المائي وتوسيعه وزيادة تفريعاته وهو ما يستحيل معه تحقيق عبور ثانٍ، فضلًا عن التفريغ السكاني المستمر لسيناء والحفاظ عليها كمنطقة عازلة خالية من السكان

Readonly

والقوات العسكرية، وهو ما يعطي إسرائيل عمقًا إستراتيجيًّا واسعًا كما يعطيها مساحة فارغة ألهمت الكثير من المخططين أن تكون هي الحل لتفريغ فلسطين.

ولا تزال قناة السويس تمثل أساسًا جغرافيًّا وخطًّا إستراتيجيًّا وعمقًا أمنيًّا للكيان الإسرائيلي، وهو جزء حساس من عقيدته الأمنية العسكرية. كما تمثل معضلة أمنية وسياسية كبرى أمام أي حكومة وطنية مصرية.

التشابه والارتباط بين قضيتي: إسرائيل وقناة السويس

ثمة ثلاثة تشابهات وارتباطات كبرى بين قضيتي إسرائيل وقناة السويس.

أولها: العمق التاريخي، فكلاهما مشروعان ضاربان في عمق التاريخ، فحلم الربط المباشر بين البحر الأحمر والأبيض يعود لعصر الفراعنة، وحلم إعادة إنشاء إسرائيل يمتد لثلاثة آلاف سنة!

وثانيها: الإرادة الاستعمارية الأجنبية التي عملت على إنشاء كليهما، فعندما استطاع الغرب احتلال الشرق على يد نابليون ظهر المشروعان معًا، فنداء نابليون لإنشاء إسرائيل[1] رافقته دراسة هندسية لحفر القناة بين البحرين.

وثالثها: أن كلا المشروعين نُفِّذا بالعقل والإرادة الأجنبية المهيمنة وبيد السلطات والحكومات المحلية التابعة للمحتل، والتي سخرت لكلا المشروعين الموارد المالية والبشرية للشعوب العربية الإسلامية، ولولا هذه الثنائية ما كان ممكنًا قيام واحد منهما.

وباعتبار أن قصة إسرائيل معروفة ومشتهرة، وكذلك باعتبار أنَّ قناة السويس

---

(١) انظر في نداء نابليون لليهود: إيلي ليفي أبو عسل، **يقظة العالم اليهودي**، ص١٠٦ وما بعدها؛ عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ٣/ ٥٦، ٥٧.

Readonly

هو موضوع الورقة الرئيسي، فإننا سنركز في معالجة تلك العناصر الثلاثة على مشروع قناة السويس.

١. العمق التاريخي

كانت فكرة ربط البحرين الأبيض والأحمر قديمة، إلا أنه لم يوافق عليها أحد ممن حكموا مصر طوال تاريخها، بينما كانت الفكرة البديلة المعتمدة منذ عصر الفراعنة هي ربطهما عبر النيل، بقناة تمتد من البحر الأحمر إلى النيل الذي يصب في البحر المتوسط. وقد تكرر طمر تلك القناة وتجديدها في عصور الفراعنة والبطالمة وبعيْد الفتح الإسلامي جدد عمرو بن العاص تلك القناة وسمَّاها «خليج أمير المؤمنين»[١].

وفي عصر هارون الرشيد، في ذروة التاريخ الإسلامي طُرحت فكرة الربط المباشر بين البحرين، إلا أن وزيره ومستشاره يحيى بن خالد البرمكي حذَّره من خطورتها، حيث ستسمح تلك القناة بدخول أسطول الروم من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، فتهدد الحجاز والحرمين، فأحجم عنها الرشيد[٢].

وتكشف هذه النصيحة بوضوح الفارق بين إنشاء قناة تربط بين البحرين مباشرة، وإنشاء قناة تربط بينهما عبر النيل، ذلك أن أي غزو عسكري يحاول الوصول

---

(١) انظر في تاريخ قناة السويس: أنجلو ساماركو، **قناة السويس تاريخها ومشكلاتها: وفقا للمصادر المصرية والأوروبية غير المنشورة**، ترجمة: ولاء عفيفي وآخران، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥م)، ص٣٥ وما بعدها؛ إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا**، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦)، ١/ ٣٢٥ وما بعدها؛ عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ط٤ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧م)، ١/ ٥٧ وما بعدها.

(٢) المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥ (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣م)، ٢/ ٢٦٤.

Readonly

إلى الحجاز سيكون مضطرًا إلى العبور في الدلتا من أحد فروع النيل حيث الكتلة البشرية الضخمة ذات القدرة الكبيرة على المقاومة، فضلًا عن تعدد التضاريس والمسالك، بينما الربط المباشر بين البحرين يمرّ من منطقة صحراوية مفتوحة قليلة السكان ضعيفة المقاومة. كما يكشف هذا النص أن الدولة الإسلامية في عصر تفوقها الدولي الكاسح امتنعت عن تنفيذ الفكرة لشعورها بالتهديد الإستراتيجي البعيد المدى.

وفي زمن الدولة العثمانية، وهي أعظم فترة سيطرة إسلامية على البحر المتوسط، في عهود: سليم الأول وسليمان القانوني وسليم الثاني، برزت فكرة شق قناة السويس لتسهيل عبور الأسطول العثماني إلى البحر الأحمر للقيام بواجب الجهاد في الخليج العربي وخليج عدن والمحيط الهندي ضد البرتغاليين والإسبان، وثمة وثيقة عثمانية يطلب فيها سليم الثاني (٩٣٠ ـ ٩٨٢هـ/ ١٥٢٤ ـ ١٥٧٤ م) دراسة وافية عن تكاليف المشروع وفوائده، إلا أن الفكرة لم تنفذ[1]، مما يحملنا على الشكّ بأن السبب هو نفسه ذلك التفكير الإستراتيجي، لأن البحريْن المتوسط الأحمر حينها كادا أن يكونا بحيرتان إسلاميتان تمامًا!

وقد حاول الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، في النصف الثاني للقرن السادس عشر، ثلاث مرات مع السلاطين العثمانيين لحفر قناة السويس، إلا أنه أخفق فيها

---

(١) انظر: يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، ترجمة: عادل محمود سليمان، (إسطنبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨م)، ٢/ ٤٤٣، ٤٤٤؛ د. عبد القادر أوزجان: **النظم العسكرية العثمانية**، ضمن: أكمل الدين إحسان أوغلو (إشراف)، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، ترجمة صالح سعداوي، (إسطنبول: ١٩٩٩م)، ١/ ٤١٧؛ مصطفى بيلج، **قناة السويس في الوثائق العثمانية**، ترجمة: عمرو الزواوي، مجلة ذاكرة مصر، (القاهرة: العدد ١٩، أكتوبر ٢٠١٤)، ص٧٦ وما بعدها.

Readonly

جميعًا، رغم أنه كان معتمدًا في مطلبه على فكرة مهندس تركي، أي أن الفكرة كانت معروضة في أروقة العثمانيين ولم ينفذوها ولا استجابوا لإلحاح حلفائهم في تلك الفترة بتنفيذها[١].

هذا الرفض المطرد تاريخيًّا قرين الرفض الدائم للمحاولات اليهودية المستمرة إنشاء كيان في فلسطين.

٢. الإرادة الاستعمارية

بدأت أول محاولة تنفيذ جادة مع أول تمكن أجنبي من احتلال مصر إبان الحملة الفرنسية، فقد سعى نابليون لتنفيذ المشروع إلا أن مهندسي الحملة الفرنسية قدَّروا أن البحر الأحمر مرتفع عن مستوى البحر المتوسط مما يعني أن شق القناة قد يؤدي لغرق مصر، فتوقف المشروع. إلا أن مهندسين فرنسيين آخرين ممن ملأوا مصر في عصر محمد علي أعادوا الدراسة وتوصلوا إلى أن البحريْن مستويان وأنه يمكن إنشاء القناة، لكن محمد علي رفض الفكرة متعللًا بالرفض البريطاني القاطع[٢]، وقد كان يعلم أن حفر تلك القناة يعني «بسفورًا ثانيًا يجعل مصر واستقلالها عرضة للخطر»[٣] ويزيد من المطامع

---

(١) كريستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ترجمة: فؤاد أندراوس، ط مكتبة الأسرة (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٨م)، ص ٢٠.

(٢) كانت بريطانيا تحتل الهند، وتسيطر بأسطولها البحري القوي على طريق رأس الرجاء الصالح الملتف حول إفريقيا، فكان حفر قناة السويس يجعل غريمتها فرنسا أقرب إلى الهند منها، لا سيما ومحمد علي من رجال فرنسا وحلفائها المقربين، وهو ما يغير موازين القوى الاستعمارية.

(٣) عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ٥٤.

Readonly

الاستعمارية فيها، لا سيما وقد صار الأجانب ملوك البحار، وتلك الفترة هي نفسها التي بدأ فيها العمل لتأسيس دولة يهودية في القدس[١].

ثم بلغ اليأس الفرنسي من تنفيذ المشروع غايته في عهد عباس الأول الذي كان يكره الفرنسيين، ورفض تمامًا شق قناة السويس، وأنفذ مشروعًا بديلًا يحفظ المصالح المصرية ويُرضي البريطانيين، وهو تمهيد الطريق بين القاهرة والسويس وإنشاء خط سكة حديد الإسكندرية القاهرة، وهو ما يسهل نقل البضائع والبريد والسياحة البريطانية إلى الهند، ويحفظ لمصر الاستفادة من الحركة التجارية العابرة فوق أراضيها. إلا أن عباسًا اغتيل ولم يكمل السنوات الثلاث في منصبه، وجاء سعيد باشا عاشق فرنسا والفرنسيين وربيب الرجل الخطير المشهور: فريدناند دي ليسبس[٢]!

كان فريدناند دي ليسبس ابنًا لماتييه ديليسبس القنصل الفرنسي الذي مهد لمحمد علي حكم مصر، وبعد سبع وعشرين سنة من ولاية محمد علي جاء فريدناند كنائب للقنصل الفرنسي في الإسكندرية فاستقبله محمد علي بحفاوة بالغة وأولاه رعاية سابغة وعهد إليه بتربية ابنه الصغير سعيد! ومن هنا نشأت علاقة متينة بينهما أثمرت فيما بعد أن يتولى عرش مصر أول حاكم غربي الروح والهوى والمزاج، فكانت لهذا آثار بعيدة على العالم الإسلامي كله[٣].

---

(١) راجع الورقة البحثية التي قدمها الباحث في المؤتمر الأكاديمي السادس عشر لدراسات بيت المقدس (إسطنبول: ٢٠١٦م)، بعنوان «تأسيس النفوذ الأجنبي في بيت المقدس في عهد محمد علي باشا الكبير»، ففيها تناول للمحاولات العملية التي شرعت في تأسيس الكيان اليهودي، وانظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ: الجزء الأول**، ط١ (القاهرة: دار التقوى، ٢٠١٦م)، ص١١٧ وما بعدها.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ١٨.

(٣) إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا**، ١/ ٣٢٨ وما بعدها.

Readonly

٣. التنفيذ الأجنبي عبر الحكومات التابعة

أثمرت العلاقة بين دي ليسبس وسعيد عن واحدة من أبشع قصص التاريخ: قصة قناة السويس، لقد استطاع الثعلب الفرنسي إقناع ربيبه الغر بالإقدام على ما رفضه كل من حكموا مصر من قبله، ومن فرط ثقة سعيد به تركه يكتب بنفسه عقد الامتياز الممنوح له لحفر القناة، فكتب عقدًا مدهشًا وفريدًا في تاريخ التعاقدات استلب به موارد مصر من الأرض والأموال والرجال مقابل ثمن ضئيل مؤجل، بل الواقع أنه عقد إنشاء دولة (شركة قناة السويس) داخل دولة (مصر)[١]، وقد وقعه سعيد دون أن ينظر فيه! ثم إن دي ليسبس فشل في جمع رأس المال اللازم فأكمله سعيد بالأموال المصرية (ويبلغ النصف تقريبًا)، ثم استرضى الإنجليز ـ المعارضين للمشروع ـ بمنحهم امتيازات كبرى في مصر سياسية واقتصادية، ثم مات بعد عشر سنوات من توليه العرش دون أن يرى مشروعه النور، وقيل إنه مات من الهم والغيظ والكمد بعدما صار يشهد بعض نتائج اتفاقه هذا[٢].

وهكذا كان أول حاكم رباه الغرب هو أول حاكم يوافق على حفر تلك القناة.

---

(١) يقول المؤرخ والناشر الإنجليزي إدوارد ديزي: «لم يحدث أبدا أن مُنِح امتياز يكفل مثل تلك المزايا للحاصل عليه، ويلقي مثل تلك الأعباء والتكاليف على عاتق من أصدره، مثل الامتياز الذي منحه سعيد باشا لشركة السويس». انظر: جالينا نيكيتينا، **قناة السويس ملكية وطنية للشعب المصري**، ترجمة: إبراهيم عامر، (القاهرة: مطبعة الدار المصرية، ١٩٥٧م)، ص١٨.

(٢) انظر موجزا لقصة قناة السويس في: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ: الجزء الأول**، ص٢٦١ وما بعدها.

Readonly

حاول خلفه إسماعيل باشا، وهو أيضًا فرنسي الروح والهوى والمزاج[١]، أن يعدل من شروط العقد فإذا به يلقى معارضة غاية في العنف والشراسة، لا من دي ليسبس وحده، بل من فرنسا نفسها التي شنت عليه حملة إعلامية، ثم حَكَم نابليون الثالث بحكم لا يكاد يوجد له مثيل في باب استنزاف الموارد المالية، خلاصته أن مصر دفعت ثمن القناة مرتين كتعويض للشركة عن موارد لم تخسرها ولم تنشئها وعن عمال لم تعد في حاجة إليهم، فضلًا عما دفعته من الدماء والخسائر في الموارد والبشر وما دفعته من الاستقلال والسيادة منذ تلك اللحظة حتى الآن[٢].

كان يستحيل إنشاء قناة السويس دون مجهود السلطات المحلية وتسخيرها

---

(١) مما يثير الشك في اليد الأجنبية في مصر أن تولي كل من سعيد وإسماعيل الحكم كان بعد عملية اغتيال أزاحت من قبلهما، فقد تولى سعيد بعد اغتيال غامض لعباس باشا في قصره، وتولى إسماعيل بعد حادث غامض غرق فيه الأمير أحمد رفعت الأكبر منه سنًّا والأولى بمنصب الولاية بحسب النظام المتبع في تلك الفترة.

(٢) للمزيد انظر: محمد إلهامي، **في أروقة التاريخ**، ص٢٤٩ وما بعدها؛ ؛ عبد العزيز الشناوي، **السخرة في حفر قناة السويس**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م)؛ إلياس الأيوبي، **تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل**، ١/ ٣٤١ وما بعدها؛ الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ٦٣ وما بعدها، ٩٣ وما بعدها؛ ألبرت فارمان، **مصر وكيف غُدر بها**، ترجمة: عبد الفتاح عنايت، ط١ (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٥)، ص٢١٧ وما بعدها؛ جورج يانج، **تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية عهد إسماعيل**، ترجمة: علي أحمد شكري، ط٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م)، ص١٩٦ وما بعدها؛ كارل بروكلمان، **تاريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م)، ص٥٧٥ وما بعدها؛ ريمون فلاور، **مصر من قدوم نابليون إلى رحيل عبد الناصر**، ترجمة: سيد أحمد علي الناصري، ط (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٠م)، ص١٣٧ وما بعدها.

Readonly

الموارد البشرية والمالية لحساب المشروع، وهو الأمر نفسه في حال إسرائيل التي كان يستحيل تأسيسها بدون مجهود السلطات في الدول المحيطة، والتي كانت جيوشها وسياستها تمهد لإسرائيل وتوفر لها أسباب الانتصار والاستمرار، وتكبح محاولات المقاومة.

آثار حفر قناة السويس على المنطقة قبل إنشاء إسرائيل

تحقق ما خشي منه كافة من رفضوا حفر القناة في العصور السالفة، وانفتحت المياه العربية الإسلامية للسفن والأساطيل الأجنبية دون توفر أدنى قدرة على مواجهة تهديداتها، واتصلت مستعمرات الغرب في الشرق والغرب عبر طريق أقصر من رأس الرجاء الصالح فاشتد ساعد الاستعمار بارتباط شبكة مواصلاته لا على المنطقة الإسلامية وحدها بل على سائر الشرق الأدنى والأقصى، وازدادت الأطماع الاستعمارية في المنطقة فوق ما كانت لأنها تحولت إلى مغنم ضخم وطريق مفتوح إلى مغانم أخرى.

لكن أخطر وأبرز ما عزَّزَتْه ورَسَّخَتْ له فكرةُ القناة في العقل الاستعماري هو ضرورة الحفاظ عليها بإنشاء دولة تابعة لهم على مقربة منها، كقاعدة عسكرية واستعمارية متقدمة، فقد تحدث بالمرستون في منتصف القرن التاسع عشر عن ضرورة هجرة اليهود إلى فلسطين «بقصد إيجاد حاجز بشري استعماري للحيلولة دون قيام دولة موحدة تجمع مصر والمشرق العربي»[1].

---

(١) عبد الوهاب الكيالي، **الموسوعة السياسية**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بدون تاريخ)، ٣/ ٦٥٩.

Readonly

وهكذا كانت القناة بحد ذاتها وسيلة استعمارية، ثم كانت الدولة العازلة وسيلة أخرى ودعمًا وحماية للوسيلة الاستعمارية الأولى، وهما نقطتان نلقي الضوء عليهما في هذا المبحث:

قناة السويس كمركز للشبكة الاستعمارية

تطور علم الجغرافيا حتى استطاع رسم خريطة دقيقة للقارات وسواحلها والطرق البحرية، وكانت القوتان العُظْمَيان في القرن الثامن عشر هما بريطانيا وفرنسا، وبقدر ما تكون القوة البحرية لدولة أوروبية تكون قدرتها على احتلال مناطق بعيدة وجمع ثروات أكبر. وإذا نُظِر للخريطة من وجهة نظر بحرية ستكون بريطانيا أفضل في الموقع الجيوسياسي من فرنسا بقربها من السواحل الأمريكية ومن طريق رأس الرجاء الصالح.

وفي ظل التنافس الاستعماري كان طبيعيًّا أن تنبثق فكرة قناة السويس ومشروعها في العقل الفرنسي الذي يبحث بكل وسيلة عن تحسين موقعه الجيوسياسي، إن «مصر تهيمن على الطرق البرية إلى بلاد العرب والهند، وقد لقي مشروع شق قناة من السويس إلى البحر المتوسط من اهتمام لويس الرابع عشر ما حمله على أن يقترحه على الباب العالي في ثلاث مناسبات دون الوصول إلى نتيجة في واحدة منها»[1]، وبعد قيام الثورة الفرنسية انطلق نابليون ذو الطموح الاستعماري ليعمل على تنفيذ المشروع قسرًا إبان الحملة الفرنسية، وهو ما تحركت بريطانيا ضده حتى أفشلت الحملة كلها، وسكن الأمر إلى حين.

وقبل حفر قناة السويس كان الرحالة الإنجليزي الشهير ريتشارد بيرتون في

---

(١) كريستوفر هيرولد، **بونابرت في مصر**، ص٢٠.

Readonly

مصر، وسجل في رحلته ـ الغامضة الأهداف ـ جملة استعمارية واضحة: «فلو وقعت مصر في أيدي الغرب سهلت السيطرة على الهند، ومَكَّنت من فتح إفريقيا الشرقية كلها بشق قناة للسفن تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عند السويس»[١].

بهذا صارت فكرة قناة السويس فكرة استعمارية مركزية، حيث باتت قناة السويس مركزًا للشبكة الاستعمارية الممتدة حول العالم، تصل بين الاستعماريين في الغرب والشعوب المستعمرة في الشرق، ومن سيسيطر عليها سيضاعف من قوته ونفوذه وفارق قوته عن المنافسين.

يقول المؤرخ البريطاني جورج يانج: «من الوجهة السياسية فربما كان يكون خيرًا لمصر لو أن سعيدًا أنفق تلك الأموال كلها في زخرفة حجرة الاستقبال. لأن امتياز قناة السويس قد ترتب عليه أن مصالح بريطانيا في مصر بعد أن كانت مجرد إحساس معنوي غامض بما يُحتمل أن يكون لمصر من الأهمية في نظر سياسة الإمبراطورية البريطانية، قد تحولت إلى اعتبارات مادية جدًّا لها ارتباط بالمسائل العسكرية والتجارية مما يؤثر أكبر تأثير في قوة بريطانيا البحرية وسيادة إنجلترا في الهند. ثم إنَّ بريطانيا كانت إلى هذه اللحظة قانعة بمنع الفرنسيين من أن تكون لهم السيطرة على القاهرة كما منعت من قبل سيطرة الروس على الآستانة. ولكن مصلحتها الحيوية صارت من الآن فصاعًدا تتطلب انفرادها بالسيطرة على القاهرة دون سائر الدول الأخرى»[٢]، وحين وقع الاحتلال الإنجليزي كانت القناة أعقد مسألة تمنع استقلال مصر أو خروج بريطانيا مهما بُذِل لها من ضمانات مصرية

---

(١) ريتشارد ف. بيرتون، **رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز**، ترجمة وتعليق: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤م)، ص٩٨، ٩٩.

(٢) جورج يانج، **مصر من نهاية عهد المماليك إلى عهد إسماعيل**، ص١٩٦ وما بعدها.

Readonly

بحرية الملاحة في القناة، وجورج يانج حتى وإن أظهر تعاطفه مع المصريين إلا أنه يؤيد بقاء الإنجليز إلى جوار القناة؛ لأنها مركز الشبكة الدولية، يقول: «غير خافٍ أن ما للقناة من الأهمية العظمى في سير العلاقات الدولية كان ولا يزال يعتبر إحدى الصعوبتين الرئيسيتين اللتين تحولان دون حصول مصر على سيادتها التامة. أمَّا الصعوبة الثانية فهي طبعًا ما للمصريين من مصالح إمبراطورية في السودان. فالقناة إذن أهم عامل في سبيل وضع مصر تحت الإدارة البريطانية مدة ربع قرن كامل. لذلك نرى من حق الإنجليز أن يعلنوا على رؤوس الأشهاد أنهم لم يلزموا مصر بحفرها»[١].

وهكذا بات على المنطقة عمومًا، وعلى مصر خصوصًا، أن تدفع الثمن الاستعماري كاملًا!

أخطار وأضرار قناة السويس على مصر

يرى عبد الرحمن الرافعي أنَّ حفر القناة نكبة استعمارية على مصر تساوي في ضررها الحملة الفرنسية، ويقرر «مصر لم تستفد شيئًا من فتح قناة السويس، بل كانت القناة شؤمًا عليها»، وأن مصر بعد حفر القناة صارت «ضحية قناة السويس، تلك حقيقة واقعة»، وأنها «أكبر غلطة» في تاريخ سعيد باشا قصير النظر المخدوع الذي توهم أنه سيدخل التاريخ بهذه الخدمة للإنسانية بينما الحقيقة الواقعة أن الأمم لا تضحي باستقلالها ومصالحها في سبيل «وهم» خدمة الإنسانية، الذي هو على الحقيقة خدمة للدول الاستعمارية فحسب[٢].

---

(١) جورج يانج، **مصر من نهاية عهد المماليك إلى عهد إسماعيل**، ص٢١٠ وما بعدها.

(٢) الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ٥٤، ٥٥.

Readonly

لقد تحملت مصر تكاليف إنشاء القناة، بشريًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وسياسيًّا:

١. فأما **بشريًّا**: فقد ساهم في حفر القناة مليون مصري سيقوا بالسخرة إلى الحفر في ظروف مأساوية مات منهم مئة وعشرون ألفًا من الجوع والعطش والمرض وسوء المعاملة في قصة مريرة ليس هنا محل بيانها.

٢. وأما **اقتصاديًّا** فقد «كان حفر قناة السويس ضربةً قاضيةً لتجارة الترنزيت في القاهرة»[١]، إذ «كانت لها تجارة برية واسعة فقدتها كلية، وتمر السفن محملة ببضائع وفيرة خلال القناة التي تشق الصحراء شرق أراضيها الزراعية، ولكنها لا تعود على مصر بالفائدة كما كانت تمر خلال البحر الأبيض المتوسط»[٢]، لقد تحول طريق التجارة بين أوروبا والشرق «من داخل مصر إلى القناة المائية التي أصبحت ملكا لشركة أوروبية. فخسرت مصر الأرباح التي كانت تعود عليها من مرور المتاجر في وسط الدلتا بطريق النيل أو السكك الحديدية المصرية. وانتقلت هذه الأرباح إلى شركة القناة (الأجنبية)»[٣]، وهذا هو الأثر الاقتصادي بعيد المدى، أما مجمل ما تكلفته مصر بأثر الخداع والتعويضات فيبلغ ١٦ مليون جنيهًا من ١٧,٣ مليون جنيه هو مجمل تكلفة القناة! بخلاف عشرات آلاف العمال الذين ماتوا جوعًا وعطشًا[٤].

٣. وأما **عسكريًّا** فمنذ اللحظة الأولى ولتوفير أعداد للحفر قضى الخديوي

---

(١) أولج فولكف، **القاهرة: مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة: أحمد صليحة، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٦م)، ص١٤٨.

(٢) ألبرت فارمان، **مصر وكيف غُدِر بها**، ص٢٣٦.

(٣) الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ٥٧.

(٤) عبد العزيز الشناوي، **ما تكلفته مصر في إنشاء قناة السويس**، المجلة التاريخية المصرية، ١٩٥٧م، ٦/ ١٣٥ وما بعدها.

Readonly

سعيد على الجيش فأنقص عدده من ستين ألفًا إلى ثمانية أو عشرة آلاف، وكانت القناة حاضرة في كل كارثة حربية نزلت بمصر، فهي السبب الأهم في هزيمة عرابي واحتلال الإنجليز لمصر (١٨٨٢م) الذي كاد يردم القناة لمنع نزول القوات الإنجليزية القادمة من البحر الأحمر لولا أنه خُدِع بتأكيد دي ليسبس أن القناة ممر محايد محمي بالقانون الدولي يُحْظَر استخدامه في الأمور الحربية[١]، وعلى يد تلك القوات هُزِم عرابي واستمر احتلال مصر لسبعين سنة فاصلة على كل المستويات، يقول الرافعي كلمة مريرة كتبها (١٩٣٢م) «لئن عادت القناة يومًا إلى مصر فلا يمكن أن ننسى أن مصر خسرت فيها ثمنًا باهظًا وتضحيات جسيمة.. ثم حرمت ما هو أعز من المال، وهو الاستقلال، وعندما تسترد مصر استقلالها تامًا فستكون قد حُرِمَتْ استقلالها بسبب القناة ردحًا طويلًا من الزمن»[٢]، واستمرت الخسائر العسكرية بعد الجلاء الإنجليزي (١٩٥٦م) بدخول إسرائيل على الخط، وهو ما نتناوله في المبحث القادم.

٤. وأما **سياسيًّا** فمنذ حُفِرَت القناة صار يُنظر إلى المسألة المصرية كأنها «هي مسألة قناة السويس، فكأنها اندمجت فيها، وتبدلت أوضاعها تبعًا لهذا الاندماج»[٣]، وكانت القناة عقبة رئيسية في كل مفاوضات جلاء، وفي آخر زمن الاحتلال تحول الإنجليز من قلب القاهرة وتمركزت قواتهم عند القناة، ومنذ تلك اللحظة ومصر

---

(١) انظر نص تليغراف عرابي لقادة جيشه في محضر التحقيق معه في: د. عبد المنعم الجميعي، **مذكرات الزعيم أحمد عرابي: كشف الستار عن سر الأسرار في النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية**، (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٥م)، ٢/ ٧٦٧.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ٢٠ وما بعدها، ١/ ٥٣ وما بعدها.

(٣) الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ٥٤.

Readonly

لم تزل فعليًّا تحت النفوذ الأجنبي، إذ يُعامل مجرى القناة باعتباره ممرًا دوليًّا تتكفل مصر بحمايته وضمان حرية الملاحة فيه، مهما كانت حمولة السفن العابرة أو وجهتها، وهي لا تتكفل بذلك بمعنى القيام به، بل بمعنى دفع تكاليف حمايته لشركات الحماية والأمن الأجنبية.

ولا يزال نزيف الخسائر مستمرًا على تلك المستويات الأربعة حتى لحظة كتابة هذه السطور، بل ولا تبدو آفاق لنهاية ذلك النزيف.

قناة السويس كخط جيو سياسي ـ إستراتيجي لإسرائيل

وجدت إسرائيل عند قيامها وضعًا أمنيًّا لم يتمتع به محتل نزل تلك المنطقة من قبل، لقد صنعت قناة السويس حاجزًا طبيعيًّا بين وادي النيل ذي الكثافة السكانية التي لطالما أمدت الشام بالجيوش التي حررتها من الصليبين وتصدت للمغول، وبين سيناء القليلة السكان، ثم إنَّ قناة السويس نفسها تتمتع بحماية القوى العظمى بما يجعل منها مسألة دولية. ومنذ نشأة إسرائيل وحتى الآن مثَّلت القناة دعمًا لا يقدر بثمن لإسرائيل وخسارة فادحة لا توازيها خسارة بالنسبة لمصر والمنطقة.

وليس من شك في أنَّ السياسة المصرية منذ نشأة إسرائيل وحتى الآن كانت في سياق الدعم للوجود الإسرائيلي، ومكافحة أية حركة مقاومة ضدها، إلا أننا في سياق بحثنا هنا لن نتعرض للمشكلة السياسية بقدر ما يهمنا إلقاء الضوء على الوضع الجديد الذي مثلته القناة جغرافيًّا وعسكريًّا. فحتى لو افترضنا وجود حكومات وطنية فستكون النتائج أفضل بكثير لكن مع صعوبة واضحة يفرضها وقع القناة، تلك الصعوبات هي ما سنركز عليها الحديث في هذا المبحث.

Readonly

حرب ١٩٥٦: قناة السويس كتهديد خلفي للقوات المصرية

لم يكن عبد الناصر يفكر في حرب إسرائيل بشهادة صديقه وأمين أوراقه هيكل[١]، وكان في أشد أوقات الهزيمة موافقًا على صناعة سلام لا مجرد إنهاء حالة الحرب رغم أنَّ ما يعلنه على خلاف ذلك[٢]. ولا يهمنا الآن البحث في دوافع قراره غير المدروس بتأميم القناة، فالمهم أنَّ قراره أثار عدوانية الدول الثلاث: إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، فأما إسرائيل فقد كانت تريد أن تنتزع حق الملاحة في خليج العقبة وتجهز لحربها قبل قرار التأميم، وأما بريطانيا وفرنسا فقد كانتا تتطلعان للعودة إلى منطقة الشرق من بعد ما طُردا منها بيد الأمريكان والروس باعتبارهما ورثة المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية.

تكشف مباحثات الدول الثلاثة أن إسرائيل لم تكن تريد أن تبدأ الحرب خوفًا من سلاح الجو المصري المتفوق ـ وقتها ـ على سلاح الجو الإسرائيلي، ولم تكن بريطانيا وفرنسا تريدان بدء الحرب تخوفًا من الموقف الأمريكي الداعم لعبد الناصر والرافض لعودتهما إلى المنطقة، فأرادتا أن تبدأ إسرائيل الحرب لتتوفر لهما الذريعة للتدخل، وانتهى الأمر على أن تخوض إسرائيل المغامرة وتبدأ الحرب قبلهما معتمدة على أن الجيش المصري لن يرد ولن يهاجم فتأتي قوات بريطانيا وفرنسا فتحطمان سلاح الجو المصري، وهو ما كان!

لا ريب أن القرار السياسي والعسكري كان مثالًا في السوء، لكن وضع قناة السويس ضاعف من صعوبة الموقف، فهي قد وفرت للدولتين نزولًا بحريًّا في

---

(١) محمد حسنين هيكل، **قصة السويس**، ط٢ (بيروت: شركة المطبوعات، ١٩٨٢م)، ص٢٢.

(٢) انظر: فلاديمير فينوجرادوف، **مصر من ناصر إلى حرب أكتوبر: من أرشيف سفير**، ترجمة: أنور محمد إبراهيم، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٦)، ص١٤، ١٥.

Readonly

بور سعيد ودخولًا إلى القناة فتكون جيوشهما تهديدا خلفيًا وحصارًا حربيًّا للقوات المصرية في سيناء والتي تواجه الاجتياح الإسرائيلي، فصنعت القناة ممرًّا بحريًّا عازلًا بين القوات في سيناء وما يمكن أن يدخل إليها من خطوط الإمداد ثم تحول هذا العازل إلى خط مواجهة خلفي.

خسرت مصر سيناء والقناة معًا في أيام، ولولا أن الموقف الدولي ـ والأمريكي بوجه خاص[1] ـ كان حاسمًا في الاحتفاظ بمصر ضمن النفوذ الأمريكي وقطع الأمل في عودة الاستعمار الإنجليزي والفرنسي لتجدد زمن الاحتلال مرة أخرى.

حرب ١٩٦٧: قناة السويس كحدود متقدمة لإسرائيل

بعد أحد عشر عامًا نفذت إسرائيل توسعها الجغرافي الأكبر، وكانت أول قوة احتلال تستطيع أن تدخل من جهة الشمال الشرقي لمصر دون أن تتكلف المغامرة بمواجهة القوة المصرية، فقد صنعت قناة السويس حاجزًا جغرافيًّا يُمكنها من الاحتفاظ بسيناء وإقامة خطوط دفاعية على طولها، كذلك إقامة ساتر ترابي يمنع محاولة عبورها، وصارت المهمة الإسرائيلية في الاحتفاظ بحدودها حتى القناة تتمثل في المراقبة الجيدة للقناة، وتفوق السلاح الجوي الذي يُمكنها من التعامل مع أي محاولة عبور لها.

لو أنه لم توجد قناة السويس لما خاطرت إسرائيل باحتلال مصر؛ فإما أنها ستكون مجبرة على التوغل في عمق الأراضي المصرية، (وهذا في وقته في حكم المستحيل عليها بشريًّا وماليًّا وعسكريًّا) وإما توقفت قبل الحدود المصرية لئلا تجر

---

(١) أنور السادات، **البحث عن الذات: قصة حياتي**، ط٣ (القاهرة: المكتب المصري الحديث، أكتوبر ١٩٧٩م)، ص١٥٩، ١٦٠.

Readonly

مصر إلى الحرب، أو في أسوأ الأحوال توقفت عند منطقة المضايق في سيناء التي توفر لها نوع حماية طبيعية ولكنها لا تُقارن على الإطلاق بالمزايا التي وفرتها قناة السويس كمانع مائي سهل أتاح لها إنشاء ساتر ترابي وخط دفاعي على حدوده، وهو ما لا يمكن حدوثه في منطقة المضايق.

وصارت القوات المصرية بدورها في وضع هو الأول من نوعه في التاريخ، إذ لم تعد سيناء ممرًّا بريًّا واصلًا بين آسيا وإفريقيا، بل تحولت بوجود قناة السويس إلى شبه جزيرة تحيطها المياه من ثلاث جهات وممرها البري الوحيد تحت السيادة الإسرائيلية الكاملة، وشريط القناة (أضعف جهاته البحرية) تحول إلى خط حربي متعدد الموانع، وصفه السادات بقوله «أكبر عائق مائي في تاريخ الحروب لأن شواطئ القناة مصنوعة من الحجر وهناك أيضًا الساتر الترابي الذي يبلغ ارتفاعه ١٧ مترًا»[١]، حتى إن موشي ديان بعد اطمئنانه لقوة الموانع قال «لكي تستطيع مصر عبور قناة السويس واقتحام خط بارليف فإنه يلزم تدعيمها بسلاحي المهندسين الروسي والأمريكي معًا»[٢].

حرب ١٩٧٣: قناة السويس كعائق منيع للقوات المصرية

كان التفكير العسكري المصري منصبًا وللمرة الأولى حول «كيفية عبور قناة السويس»، والسبق إلى تحطيم أو السيطرة على الوسائل الدفاعية الإسرائيلية الممتدة على طول القناة. فالعبور هو الجزء الأهم في كل المعركة، وهو مفتاح استرداد سيناء.

---

(١) أنور السادات، **البحث عن الذات**، ص٢٥٦.

(٢) سعد الدين الشاذلي، **مذكرات حرب أكتوبر**، (نسخة إلكترونية)، ص٨.

Readonly

هنا يبدو واضحًا كيف تحولت قناة السويس إلى مشكلة حربية عويصة، يسجل قائد حرب أكتوبر سعد الدين الشاذلي في مذكراته «كانت قناة السويس ـ بما أضافه العدو إليها من موانع صناعية كثيرة ـ تقف سدًّا منيعًا آخر بين قواتنا وقوات العدو»[١]، و«تعتبر عملية اقتحام مانع مائي مثل قناة السويس ضد عدو يتمركز في نقط قوية محصنة تحصينًا جيدًا على الجانب الآخر من أصعب العمليات الحربية وأكثرها تعقيدًا»[٢].

وهي مشكلة لم يواجهها جيش مصري من قبل، لقد قام عائق حربي في قلب الأرض المصرية يمنعها من تحريك الجيوش، بل وتتحصن خلفه القوات المعادية.

ومن هنا كان الإنجاز العسكري المصري في حرب أكتوبر هو «عبور القناة»، أو ما يسميه صحافي السلطة الأشهر محمد حسنين هيكل «اجتياز حائط الخوف» المتمثل في «عبور قناة السويس وفي اقتحام خط بارليف: القناة نفسها حاجز مائي من أصعب الحواجز، وخط بارليف على حافتها سلاسل متصلة من المواقع الحصينة»[٣].

ولو تصورنا عدم وجود القناة لكان المجهود العسكري والموارد الهائلة التي هلكت في تحقيق هذا الإنجاز قد أنفق في معركة حقيقية.

---

(١) سعد الدين الشاذلي، **مذكرات حرب أكتوبر**، ص٣.

(٢) جمال حماد، **المعارك الحربية على الجبهة المصرية: حرب أكتوبر ١٩٧٣**، ط١ (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢م)، ص٨٥.

(٣) محمد حسنين هيكل، **محاولة تصور الموقف**، صحيفة الأهرام القاهرية، ١٢ أكتوبر ١٩٧٣، والنقل هنا عن: محمد حسنين هيكل، **عند مفترق الطرق: حرب أكتوبر ماذا حدث فيها وماذا حدث بعدها**، ط٣ (بيروت: شركة المطبوعات، ١٩٨٣م)، ص٣٥، ٣٦.

Readonly

لقد كانت كل الخطة العسكرية هي تغيير خط المواجهة من خط القناة إلى خط آخر، والفكرة الأساسية التي اعتمد عليها سعد الدين الشاذلي هي أنَّ إسرائيل بطبيعتها لا تتحمل حربًا طويلة، فمجرد تغيير خط المواجهة إلى شرق القناة سيجعلها غير قادرة على الحياة في سيناء، ولا على تحمل حرب طويلة لارتفاع نسبة التعبئة من بين صفوفها، فالحرب الطويلة «ترهق اقتصادها القومي وتصيب خدماتها وجميع نشاطاتها الأخرى بالشلل الكامل»[1]، وهذا الجزء من الخطة تحقق بنجاح وهو ما غير الوضع في طبيعة سيناء.

اتفاقية السلام: قناة السويس كخط «سلام» فاصل

لكن السياسة التي يديرها العسكر لم تكن وفية للدماء، وإنما ساقت المشهد في إطار تحقيق السلام، وما يهمنا في الحديث هنا هو وضع قناة السويس التي كسبت إسرائيل حق الملاحة فيها، وهو الهدف القصير السهل، أما الأثر الإستراتيجي الطويل فهو الاتفاق على بقاء سيناء معزولة خالية من القوات العسكرية ومن المشاريع العمرانية، كمنطقة عازلة لضمان أمن إسرائيل. ومن ثمَّ عانى سكان سيناء من الإقصاء والتهميش والظلم لنحو نصف قرن (منذ ١٩٦٧). ولو لم توجد هذه القناة لما كان ممكنًا بقاء سيناء بهذه العزلة والانفصال عن الجسد المصري، ولما كان ممكنًا حرمانها من التعمير والتنمية والانتقال الطبيعي بين سكان سيناء وسكان وادي النيل.

الخطة الدائمة: زيادة التفريعات

رغم ما يبدو من الاختلاف الظاهري بين عهود الحقبة العسكرية: عبد الناصر،

---

(١) سعد الدين الشاذلي، **مذكرات حرب أكتوبر**، ص٦، ٧.

Readonly

السادات، مبارك، السيسي، إلا أنَّ مما اتفقوا فيه جميعًا هو مضاعفة وتوسيع قناة السويس! وهو في ذاته دليل على أن الرؤية السياسية والأمنية والإستراتيجية لم تتغير بين تلك الأنظمة، والفترة الوحيدة التي نُظِر فيها إلى محور قناة السويس برؤية أمنية وإستراتيجية مخالفة كانت هي الفترة القصيرة للرئيس محمد مرسي، وهو الرئيس الوحيد المنتخب من الشعب المصري بعد ثورة ٢٥ يناير.

زيدت سبعة تفريعات على قناة السويس:

١. في عصر الملك فاروق أضيفت تفريعة البلاح بطول عشرة كم عند منطقة البلاح شمال الإسماعيلية (١٩٥١م).

٢. في عصر عبد الناصر أضيفت تفريعتان: تفريعة البحيرات بطول ٨, ١١ كم (١٩٥٥م)، وتفريعة كبريت بطول ٧. ٠ كم (١٩٥٥م).

٣. في عصر السادات أضيفت ثلاث تفريعات: تفريعة بورسعيد بطول ١, ٤٠ كم (١٩٨٠م) وازداد طولها أكثر من مرة في عصر مبارك، تفريعة التمساح بطول ٣, ٤ كم (١٩٨٠م)، تفريعة الدفرسوار بطول ٤, ٨ كم (١٩٨٠م).

٤. وفي عصر السيسي حُشِدت حملة إعلامية هائلة لاجتذاب تبرعات شعبية واسعة لإنشاء أكبر تفريعة جديدة «قناة السويس الجديدة»، مع إغراءات ووعود هائلة، ونُفِّذ المشروع في سنة واحدة فقط، ليكون أطول مضاعفة لقناة السويس منذ نشأتها[1].

---

(١) البيانات عن موقع «هيئة قناة السويس» على الإنترنت، لكن الخطأ التاريخي الشائع أنهم يجعلون تفريعة البلاح ضمن ما حفر في عهد عبد الناصر، والصحيح أنه كان في عصر الملك فاروق، وهو خطأ صحافي شائع لم ينتبه له القائمون على موقع الهيئة.

Readonly

وهكذا تقوم الحكومة المصرية على زيادة توسيع وتعميق قناة السويس التي كانت المشروع المرفوض من كل من حكموا مصر قبل سعيد باشا، ومن بعد ما ظهر بجلاء عبر الحروب المتعددة الخطر الكبير الذي تمثله القناة أمنيًّا وعسكريًّا وإستراتيجيًّا. هذه المضاعفة في المانع المائي تجعل تكرار عبور القناة لمواجهة أي اجتياح إسرائيلي لسيناء في حكم المستحيل، أي أن السياسة المصرية ترسخ عمليًّا لعزلة سيناء وتقدمها كهدية لإسرائيل.

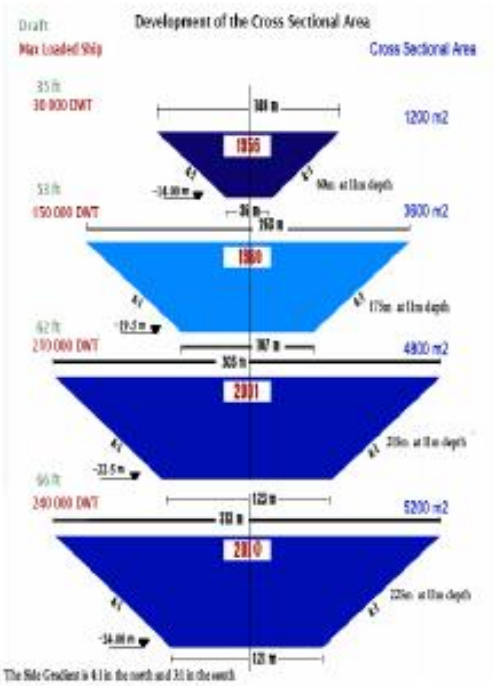
وبعد عامين من افتتاح المجرى الملاحي الجديد تبخرت الوعود المبذولة بالرخاء الاقتصادي، وصرح السيسي مؤخرًا بأنه كان مشروعًا لرفع الروح المعنوية[1]! وبهذا الاعتراف بإخفاق المشروع اقتصاديًّا لم يبق إلا آثاره الأمنية الخطيرة والتي تصب في صالح القوى الأجنبية، وبالذات في صالح إسرائيل.

البند	وحدة	1869	1956	1962	1980	1994	1996	2001	2010	2015
الطول الكلي	كم	164	175	175	189.80	189.80	189.80	191.80	193.30	193.30
المسارات المزدوجة	كم	—	27.7	27.7	77	77	77	79	80.5	113.3
العرض عند 11 م عمق	م	—	60	89	160/175	170/190	180/200	195/215	205/225	205/225
عمق القناة	م	8	14	15.5	19.5	20.5	21	22.5	24	24
أقصى غاطس للسفن	قدم	22	35	38	53	56	58	62	66	66
مساحة القطاع العرضي	م 2	304	1200	1800	3290/3600	3600/4000	3850/4300	4390/4800	4800/5200	4800/5200
أقصى حمولة ساعة	طن	5000	30000	60000	150000	170000	185000	210000	240000	240000

مراحل زيادة طول وعمق القناة ـ المصدر: موقع هيئة قناة السويس على الانترنت

(١) في لقاء مع التليفزيون المصري، بتاريخ ٣ يونيو ٢٠١٦م.

Readonly



مراحل زيادة طول وعمق القناة ـ المصدر: موقع هيئة قناة السويس على الإنترنت

الخاتمة: الحلول المطروحة لملف قناة السويس

قبل نحو ثلث القرن حاول رئيس بنما عمر توريخوس أن يستعيد سيادة بلاده على قناة بنما الواصلة بين المحيطين الأطلسي والهادي، والواقعة تحت السيادة الأمريكية، فخاض معارك سياسية مع الأمريكان وصل فيها أن هدد بتفجير سد جاتون الواقع على القناة ليوقف الملاحة فيها، ثم أفضت إلى اتفاق مع إدارة كارتر يقضي باستعادة القناة، إلا أن ريجان ـ الذي خلف كارتر ـ لم يَرُقْ له الاتفاق وأَصَرَّ على عودة الأمور كما كانت، وهو ما كان مستحيلًا لتوريخوس، ففجَّرت المخابرات الأمريكية طائرته (٣١/ ٧/ ١٩٨١م)، ونُصِّب العميل «نورويجا» الذي لم يستطع أيضًا تحقيق كل مطالب الأمريكان ولا النزول الكامل من السقف الذي وصل إليه توريخوس، فلم

Readonly

يتردد ريجان عن قصف بنما بالطائرات واختطاف نورويجا ومحاكمته في أمريكا في مشهد يكون به عبرة لكل من يفكر في الوقوف أمام الغول الأمريكي.

لم يجادل أحد في أن تهديد توريخوس بإيقاف الملاحة في قناة بنما عمل ثوري ووطني! فما من بلد وما من حركة تحرر إلا وهي تنظر لمواردها في ضوء انتفاعها بها، فإن اقتصر نفعها على عدوها لم تبال بتدميرها وهذه سنة مضطردة لا تتخلف لدى حركات التحرر، وقد مرَّت بنا سخرية عبد الرحمن الرافعي من نظرية أن الأمم تفرط في استقلالها ومصالحها خدمة للإنسانية! فكيف وحقيقة الأمر أنها خدمة للأجانب الأعداء وليس للإنسانية؟!

في ضوء أزمة قناة السويس نرى أن الحل يمر بثلاث مستويات:

١. التوعية

يجب إزالة التراكم التاريخي الزائف حول منافع قناة السويس لمصر، وإبراز الحقيقة التاريخية التي تنطق بها صفحات التاريخ وحقائق الواقع، وهو ما شهد به مؤرخون لا شك في وطنيتهم بل ومؤرخون أجانب؛ فالقناة تحرم البلاد **اقتصاديًّا** من مركزها كمقر للتبادل التجاري والخدمات والصناعات الوسيطة فضلًا عن كلفة حمايتها وتأمين الملاحة فيها. وتحرم البلاد **عسكريًّا** من اتصالها الجغرافي الذي سبب أضرارًا هائلة ونتجت عنه ثلاثة حروب على الأقل (١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣) حتى صار الإنجاز العسكري المصري الوحيد في تاريخ جيشها هو النجاح في «عبور القناة»، ويزيد هذا الخطر العسكري أضعافًا في ظل وجود إسرائيل وحاجتها لمنطقة عازلة وخط دفاعي وأمني متقدم. وتحرم البلاد **سياسيًّا** من استقلالها بزيادة حرج موقعها كمركز تنافس استعماري وهو ما عانت منه البلاد من اللحظة الأولى

Readonly

لولادة قناة السويس حتى الآن، إضافة إلى القيود السياسية التي تلزم بمرور السفن وإن كانت عسكرية في مهمات تهدد مصالح مصر أو عمقها العربي والإسلامي أو كانت تحمل مواد ضارة بالبيئة أو بالثروة المصرية.

لا يليق بحال أن تتشرب الصفوة المصرية خدعة فائدة القناة وأن تتمسك بها باعتبارها مقدسًا وطنيًا، بل يجب أن يكون الشعب وقادته على وعي بخطورة هذه القناة وأضرارها حتى وإن عجزوا عن الحل الشافي أو النهائي لمشكلة القناة. وأن ينتشر الوعي بين عموم الجماهير.

٢. التنمية

وذلك ما سعى إليه الدكتور محمد مرسي أثناء فترة رئاسته القصيرة، فلئن لم يكن ممكنًا إزالة القناة فلا بد من تعظيم وتكثيف الوجود البشري والعمراني والاقتصادي حولها، فهذا ما يقلل أضرارها كعازل ويعيد الاتصال بين الجغرافيا المصرية، وهو ما يلقى معارضة قوية من جهات كثيرة ليس أولها إسرائيل التي تستشعر في هذا التعمير والتكثيف تهديدًا أمنيًا لسيناء كمنطقة عازلة، وليس آخرها العسكر المصري الحالي المرتبط والخادم للمصالح الأمريكية والإسرائيلية[1].

بينما تتعاظم الخشية من مشروعات توسيع القناة أو زيادة تفريعاتها، فهذا

(١) حدثني عضو لجنة الأمن القومي بالبرلمان المنتخب (٢٠١٢م) أن العسكريين المصريين رفضوا صراحة أي تنمية لمحور قناة السويس وأي زيادة في الوجود العمراني والبشري في سيناء بزعم أن هذا يعيق حركتهم العسكرية إن كان ثمة احتلال إسرائيلي لسيناء، وهذا زعم كاذب أبله يغني إيراده عن رده، فإن أهم ما يعيق الاحتلال ويخدم القوة المدافعة هو الكثافة البشرية!

Readonly

يضاعف المانع المائي ويزيد الانفصال بين الأراضي المصرية، ويجعل إمكانية عبور القناة مستحيلًا في أي وقت قادم، وهو ما فعله عبد الفتاح السيسي، بل هو مشروعه الوحيد الذي اكتمل في وقته القياسي.

٣. إزالة القناة

وهذا حل تسوق إليه المعطيات التاريخية، وأول وآخر تفكير فيه كان لأحمد عرابي، آخر قائد عام وطني قوي للجيش المصري، فكل من تولى القيادة العامة بعده كان تحت النفوذ والسيطرة الأجنبية، وإزالة القناة لا تعني مجرد إزالة ممر مائي، بل هو:

١. على مستوى الدائرة الإقليمية، إزالة أهم الخطوط الجيو ـ إستراتيجية للدولة العازلة، وهي إزالة لنظرياته الأمنية والعسكرية، وإقامة وضع جديد يعيد اتصال الأرض المصرية والشعب المصري بما له من آثار واسعة تتجاوز الأمنية والعسكرية إلى الآثار الاقتصادية والاجتماعية.

٢. على مستوى الدائرة الدولية، هو إزالة لمركز الشبكة الاستعمارية التي نشأت في القرن التاسع عشر، والتي لا تزال قائمة حتى الآن، وهو ما يفرض أوضاعًا جديدة على كل المستويات العسكرية والأمنية والاقتصادية، ويزيح مركز الصراعات إلى حد ما من قلب العالم العربي إلى مواقع أخرى.

ولا شك أن هذه الحلول الثلاثة: التوعية، التعمير، الإزالة تتوقف على امتلاك الشعب المصري خصوصًا والمنطقة العربية عمومًا لقراره وإرادته، وهو أمر دونه ملاحم ومصاعب هائلة، فالثقل الاستعماري الراسخ منذ قرون لن يسمح بالتحرر ولن يعطيه إلا أن يُجبر عليه ويُنتزع منه.

Readonly

يقول الرافعي: «لو سلم عهد سعيد من القروض الأجنبية، ولم يمنح امتياز القناة. لكان محتملًا أن تتغير المصاير وتتبدل النتائج في تاريخنا القومي»[1]، هذا مع أن الرافعي لم ير ما سببته القناة بعد وفاته (١٩٦٦م)!

لو تخيلنا تاريخ مصر بدون القناة فلا شك في أن دماء غزيرة كانت ستُحقن، وأموالًا طائلة كانت ستُصان، ووضعًا سياسيًّا واقتصاديًّا آخر كان سيكون!

* * *

(١) عبد الرحمن الرافعي، **عصر إسماعيل**، ١/ ٧١.

Readonly

Readonly

الباب الثالث
في أروقة الأحداث (مقالات)

* في مسألة الليرة التركية: بعض أمور غائبة
* معركة ملاذ كرد
* جناية الأنظمة العلمانية على الأوقاف الإسلامية
* الفروسية الإسلامية
* صناعة مناعة المجتمع
* زينب زوجة الأمراء
* سنن الانتقال من الذل إلى المجد
* بعض ما فقهه هنتنجتون
* صناعة مجتمع الجسد الواحد
* دروس منسية من فتح دمشق
* في ذكرى وفاة جلال كشك
* موجز قصة النكبة الفلسطينية
* مات «هيكل»: نكبة الأمة العربية

Readonly

* ما الفارق بين الفتح الإسلامي والاحتلال الغربي

* من مغالطات التغريبيين في «الحرية بين الإسلام والغرب»

* * *

Readonly

في مسألة الليرة التركية، بعض أمور غائبة

* نشر بتاريخ ١١ أغسطس ٢٠١٨

١. بداية يجب عليَّ أن أعترف بأن أمر الاقتصاد هذا مما أشعر أنه لم يُيَسَّر لي رغم بذلي المجهود في فهمه واستيعابه، وإني أقرأ فيه منذ أكثر من عشرين سنة، ودرست فيه دبلومًا مهنيًّا مكثفًا ومطوَّلًا وتخرجت فيه بامتياز، ثم إني أدرس ماجستير الاقتصاد الإسلامي وحصلت في فصله الدراسي على المركز الأول.. كان يجب عليَّ قول هذا لكي يُعامل الكلام الآتي بعده في ضوء هذه المقدمة.

٢. من نافلة القول أنَّ الاقتصاد مرتبط بالسياسة، وأن الاقتصاد أداة من أدوات السياسة.. وعبر التاريخ كانت القوة السياسية تتحكم بالقوة الاقتصادية، وكانت القوة الاقتصادية تعرف أنها خادم للقوة السياسية.. حتى بدأ الحال يختلف مع عصر النهضة الأوروبية.

٣. باختصار شديد جدًّا، كان نمو القوة الأوروبية مع ضعف الممالك الإسلامية مع تقدم علم صناعة السفن وتقدم علم الخرائط قد أنتج وضعًا جديدًا خلاصته: يمكن أن نرسل سفينة محملة بالبضائع ومعها جنود أيضًا في رحلات بعيدة مع احتمال أن تعود سالمة ببضائع جديدة ومكاسب وفيرة.. هذه المكاسب الوفيرة مع قلة المخاطر بتقدم صناعة السفن وعلم الخرائط أغرت العقول التجارية والأموال.. فخاضوا المغامرة واستطاعوا تحقيق مكاسب هائلة.

Readonly

٤. أهم أسباب المكاسب الهائلة:

ـ أنهم استطاعوا الحصول على البضائع من بلادها الأصلية دون مرور بحركة التجارة الوسيطة.

ـ أن السفن حين كانت تجد البلاد ضعيفة فإنها كانت تحتلها وتغتصب مواردها بلا مقابل، أو بتعبير كريس براون «كانت السفن تجوب البحار للتجارة إن وجدت قوة وللقرصنة إن وجدت ضعفًا».

ـ أن كثيرًا من البلاد لم تكن تعلم أن لديها موارد مهمة لآخرين أو أن مواردها مهمة، كما هو الحال في الأمريكتين.

٥. أنتجت هذه المكاسب طبقة تجارية ذات رؤوس أموال، ومع النمو المستمر فيها، بدأت هذه الطبقة تسعى لموقع سياسي لها بين عناصر النظام القديم: الملكية والكنيسة والإقطاع.. ومن يعتنقون مدرسة التفسير المادي للتاريخ يرون كل التاريخ الأوروبي هو نتيجة صعود هذه الطبقة (البورجوازية) وصراعها مع النظام القديم (الثورات المتعددة).

٦. لا يهمنا من هذا الكلام كله إلا ما حصل في بلادنا منذ مئتي سنة فقط.. وهو دخول بلادنا وأمتنا ضمن «الاقتصاد العالمي».. لقد تطور التاريخ الأوروبي بما أنتج إمبراطوريات استعمارية تستعمل قوتها الحربية في احتلال البلاد البعيدة من إندونيسيا شرقًا وحتى القارتين الكبيرتين (الأمريكتين) غربًا.. وتمتص كل هذه الموارد لتتضخم ويزيد تضخمها وتدخله في منظومة تجعلها أقوى وأقدر على احتلال وضم المزيد من البلاد.

ومن يعتنقون مدرسة التفسير القومي للتاريخ يرون كل تاريخ السلام الأوروبي لم يكن ليوجد بينهم لولا أن أوروبا اكتشفت «أقوامًا» آخرين وبلادًا أخرى، فقرروا نقل

Readonly

صراعهم من بلادهم إلى بلاد الأقوام الآخرين.. أولئك الأقوام الآخرين هم الذين لما اكتشفتهم أوروبا اكتشفت أنها يمكن أن تكون «قومًا» ذات شخصية وهوية جديدة.

٧. كانت هذه البلاد الأخرى هي بلادنا في أغلب الأحوال، لأن أمتنا تمددت من إندونيسيا حتى الأندلس مع أعماق آسيوية وإفريقية وأوروبية تجعل أية حركة في العالم.. وفي رأي كثيرين فإن تغير الاحتلال الأوروبي من احتلال إفناء وإبادة واستئصال (كما في الأندلس والأمريكتين وعصر استعباد الأفارقة) إلى احتلال هيمنة وسيطرة وإقامة أنظمة تواليها في بلادنا، إنما يرجع هذا إلى هذه الضرورة الاقتصادية.

فالعداء الحضاري ـ في العقلية الأوروبية ـ يستلزم الإفناء والإبادة والإنهاء.. بينما لما دخل الدافع الاقتصادي على هذه العقلية جعلها تفكر في الشعوب الأخرى كعبيد وخدم وطبقة لا بد منها لتستمر النهضة الزراعية والصناعية.. فهنا كان الأمثل بالنسبة لهم أن يحتلوا بلادنا ويجعلوننا عبيدًا وخدمًا نستخرج لهم الموارد ونبيعها لهم ونعمل في مصانعهم ومزارعهم..

ثم في النهاية نشتري منهم منتجاتهم لتستمر النهضة التجارية فنكون بالنسبة لهم كأسواق تحافظ على بقاء نظامهم في بلادهم.. فلو أنهم أبادونا وأفنونا (وهم بميزان القوى العسكرية قادرون) فلن يجدوا عبيدًا، ولن يجدوا أسواقًا، وبالتالي ستشتعل الحروب بينهم هم أنفسهم.. فمن الخير لهم أن نبقى، وتبقى الأمم الأخرى.. تبقى كعبيد وكخدم وكأسواق تحافظ على استمرار دورة نهوضهم.

٨. هذه الحكومات التي أنشأها الاستعمار في بلادنا سواء بالاستعمار المباشر (كما فعل الفرنسيون والإنجليز وغيرهم)، أو غير المباشر. هذه الحكومات هي

Readonly

التي كسرت استقلال بلادنا الاقتصادي وأدخلتنا في منظومة «الاقتصاد العالمي».. فصارت بلادنا خدمًا لهذه المنظومة.

٩. سأضرب مثالًا مختصرًا للغاية بالحالة المصرية.. كان الفلاحون في مصر ينتجون ما يستطيعون بيعه في السوق المصرية، فيزرعون البقول والفاكهة والخضروات وغيرها.. وهناك من يزرعون المنتجات التي ستصدر للخارج بعد أن تكتفي منها السوق المصرية بطبيعة الحال!

لما جاء محمد علي باشا قرر أن يصنع «الدولة الحديثة» في مصر، أو بمعنى أوضح: أن يكون الزارع الوحيد والصانع الوحيد والتاجر الوحيد (وهو تعبير الشيخ محمد عبده الذي هو أوضح وأدق مليون مرة من تعبير الدولة الحديثة الغامض والمائع والموهم والمضلل).. فقرر أن تزرع البلاد القطن.. لماذا؟ لأن هذا سيحقق مكاسب وفيرة ببيعه للسوق العالمي..

عند هذه اللحظة ارتبط الاقتصاد المصري بالسوق العالمي، صارت البلد تزرع القطن لا لأن مصر تحتاجه، بل لأن هذه هي رغبة وحاجة السوق العالمي، وقد أتى هذا بالسلب على مساحات المزروعات الأخرى الأساسية كالبقول والخضروات والزيت ونحوه.. لكن السوق العالمي يرد على مثل هذه الحالة بأنه يمكنك استيرادها من دولة أخرى تنتج البقول والخضروات والزيت.

هنا حصل التحول، من أمة تكفي نفسها ثم تصدر الفائض عنها لغيرها، إلى دولة عضو في تجارة عالمية.. فأي أزمة تقع في مكان ما خلف البحار يمكن أن تؤثر فيها وتسبب لها أزمة عنيفة..

إذا أضفت إلى هذا الوضع الاستبداد والتغول الأوروبي فالوضع ينتج أن مزارعي مصر هم على الحقيقة عبيد وخدم للقوى العالمية.. أي أنه لم يعد عليهم

Readonly

أن يشبعوا طمع وجشع المستبدين المحليين (المماليك مثلًا) بل والمستبدين العالميين (أباطرة المال والأعمال في المنظومة العالمية).

١٠. هنا لم يعد الاقتصاد المحلي خادمًا للحاكم المحلي.. لقد صار الحاكم المحلي والاقتصاد المحلي جزءًا من صورة أكبر ومنظومة أكبر، هي المنظومة العالمية.. لذلك كان طبيعيًا للغاية أن ترى تجارًا أجانب لهم امتيازات هائلة في بلاد المسلمين، ولديهم القدرة على مضادة ومقاومة الحاكم المحلي حتى لو كان الخليفة العثماني نفسه.. لقد صار للاقتصاد العالمي ممثلون ومندوبون في البلاد التي لا تقع بالضرورة تحت حكمه العسكري.. ولهذا تكرر في تاريخنا الحديث ظاهرة وجود مستعمرة ولو لم يوجد الاستعمار (والتعبير للمؤرخ جوان كول).

١١. النظام العالمي ربوي.. ويقوم في أساسه على الربا، والربا ببساطة شديدة هو أن المال ينمو ويتكاثر بنفسه.. وهذا ضد النظام الإسلامي الذي يجعل الربا من أكبر الكبائر فالمال في النظام الإسلامي مجرد تعبير وتمثيل وصورة عن الإنتاج لأنه مجرد وسيط للتبادل.. فعلى قدر ما في البلد من إنتاج على قدر ما سيكون فيها من المال..

بينما النظام الاقتصادي الربوي يجعل المال نفسه بضاعة، أي أنه ينمو بنفسه، يمكن المتاجرة فيه.. فالذي يُقرض عشرة دراهم ليأخذها فيما بعد خمسة عشر فهو هنا قد تاجر في المال نفسه كأنه بضاعة نَمَتْ وتكاثرت.. في حين أنَّ الإنتاج لم يزدد في هذا البلد.

هذا النظام ينتج بطبيعته التضخم وارتفاع الأسعار المستمر، لأن نمو الأرقام مستمر بينما ليس بالضرورة أن ينمو معه الإنتاج.. وهذا النظام هو بطبيعته يؤول في النهاية لمصلحة أصحاب الأموال ضد الفقراء، ولمصلحة المغامرين والأذكياء ضد من لا يتمتعون بمواهب المغامرة والذكاء..

Readonly

ولو أتيح لي تلخيص الاقتصاد الإسلامي فهو أنه ضد أي معاملة ليس فيها نفس القدر من المخاطرة بين الطرفين، بمعنى أنه لا يكاد يجوز في فقه المعاملات معاملة تضمن الربح لطرف على حساب طرف.. بينما هذا الوضع هو أساس النظام الاقتصادي الربوي المعاصر.

١٢. حيث إنَّ المال نفسه منفصل عن الإنتاج وعن الثروة، ويمكن المتاجرة فيه.. وحيث إن الوضع السياسي والعسكري آل في النهاية إلى الرأسمالية التي تقودها أمريكا، فمن هاهنا كانت أمريكا هي راعية النظام الاقتصادي العالمي.. فهي تحكم به كما تحكم بالسلاح، وتستخدمه لتنمية مواردها لتزيد به أسلحتها لتستخدمها في جلب موارد جديدة.. دائرة كلما تضخمت في أمريكا كلما دهست مسحوقين في البلاد الأخرى.

ما قد يتفاجأ له كثيرون أن لهذا النظام العالمي مندوب في كل دولة، اسمه «رئيس البنك المركزي».. البنك المركزي الذي هو بنك البنوك في كل دولة.. رئيس البنك المركزي هذا شخصية مستقلة تمتع بنفوذ كبير مع أنه غير منتخب، والتقليد السائد أن الرئيس لا يعزل رئيس البنك المركزي الذي هو على رأس السياسة النقدية في البلد. ومن صلاحيات رئيس البنك المركزي أن يعمل ضد سياسة الرئيس والحكومة الاقتصادية..

لا يظهر هذا كثيرًا في العالم لظروف الانسجام بين السياسة والاقتصاد في الدول عادة.. لكنه يظهر في الدول التي تريد الخروج من الهيمنة.. ومن كان متابعًا للوضع في تركيا فهو لا شك يتسرب له منذ أعوام أنباء الخلاف العلني بين أردوغان ورئيس البنك المركزي.

Readonly

١٣. ما تراه في عالم السياسة من حروب دموية تترك القتلى والجرحى والمشوهين والمُقَطَّعين هو نفسه يجري في عالم الاقتصاد.. لكن الفضائيات لا تلتقطه ولا تتابعه، من أهم أسباب هذا أن النظام العالمي (الحضارة الغربية) استطاعت أن تجعل المنظومة الاقتصادية كأنها حقيقة كونية.. كأنها من طبائع الأشياء.. شيء مثل شروق الشمس وغروبها، أمر لا يُدان ولا تجدي مصادمته والتمرد عليه..

فمن الطبيعي أن تنشأ الشركات، وتنمو، وتتضخم، وتعمل وفق السوق، تسعى لتضخيم المكاسب، لإنقاص الخسائر، تستغل ثغرات القوانين، تخفض العمال، تزيد الآلات.. منطق الربح والخسارة نفسه هو منطق يبدو طبيعيًّا مهمًّا تخلى عن الإنسانية والرحمة ومصلحة الناس.. لا بأس إطلاقًا أن يكون بين الناس من ثروته ملايين أضعاف آخرين.. أن يكون في العالم ١٠٪ يمتلكون ٩٠٪ من ثروته..

تبدو هذه الأمور طبيعية ومفروغ منها.. لهذا لا تلتقط الفضائيات ملايين المسحوقين المدهوسين تحت عجلة المكسب والخسارة.. فلو أنهم أذكياء لصعدوا في سلم المكسب والخسارة.. وقانون العالم لا يرحم المغفلين والبلهاء والكسالى والخاملين.. بل تلك عقوبة خمولهم وكسلهم (هكذا يقولون.. لتبدو الأمور من طبائع الأشياء وحقائق الكون).

١٤. أحد الآثار المترتبة على ما سبق أن يخرج رئيس أمريكا يومًا ليقول: نحن سنطبع الدولار بلا غطاء، ولكن قيمته ستظل كما هي لأن أمريكا دولة قوية.. هذا ما يُعرف بـ «صدمة نيكسون».. والعالم كله يخضع لهذه الصدمة التي سرقت منهم ثرواتهم وستسرق منهم ثرواتهم ومواردهم ومجهوداتهم مقابل أوراق خضراء مطبوعة.

Readonly

وهكذا يصير الدولار مطلوبًا مرغوبًا مسنودًا بقوة السياسة والسلاح والصناعة ولو كان مجرد ورقة خضراء.. بينما يمكن ببساطة أن تنهار عملة أخرى فجأة رغم أن الإنتاج لا ينهار ولا يتراجع؛ لأنَّ المنظومة الاقتصادية العالمية تتعامل مع هذه «الأوراق المالية» في سوق ضخم يجعل لها قيمة في نفسها، وليست مجرد تعبير عن الإنتاج.

١٥. أمريكا تفرض النظام الرأسمالي على الجميع، وذلك لأنَّها تتحكم فيه، ولأنه يؤول إليها ويقويها.. وصنعت لأجل هذا منظمات عالمية تتحكم في رسم السياسات الاقتصادية للدول الأخرى، لكي تبقيها دائمًا ضمن سجن التحكم الكامل والامتصاص الكامل.. (ولا بأس أن نحيل هنا لكتاب: الاغتيال الاقتصادي للأمم للخبير الاقتصادي جون بركينز.. فهو يشرح طرفًا من هذا عن تجربته الشخصية).. وهذا فضلًا عن عدد من الاتفاقيات الدولية التي تجعل الدولة التي لا توقع عليها في حال عزلة اقتصادية على الحقيقة.

ومن هاهنا فإن كل سعي لتولي الحكم في دولة نامية يجب أن يقدم أهله للأمريكان ضمانات قاطعة بأنهم يعتنقون الرأسمالية الأمريكية وسيطبقونها.. هكذا فعل الجميع، بمن فيهم الإسلاميون.. وبمن فيهم أردوغان طبعًا.

١٦. أردوغان اتخذ طريق المناورة في ظرف عالمي يسمح بمثل هذا (وقد فصَّلت الكتابة فيه سابقا) ولم يزل منذ ١٦ عامًا في صراع مع أهم مراكز النفوذ: العسكرية والأمنية.. إلى هذه اللحظة يبدو ناجحًا، فيما تُوِّج بفشل الانقلاب الماضي في يوليو ٢٠١٦..

وهذه النجاحات التي حققها في الاقتصاد هي نجاحات ضمن منظومة

Readonly

الاقتصاد العالمي نفسه.. وسيظل اقتصادًا ناجحًا بالأرقام ما دامت المنظومة نفسها مستمرة، والتي من أهم ملامحها: توفير بيئة استثمارية قوية تجذب الأموال وتقيم الصناعات وتزيد التجارة الخارجية (وطبعًا فرص العمل الداخلية) وترفع الدخل وتستثمر الموارد الذاتية وتبحث عن الفرص.. إلخ!

لكن الزعيم الوطني ذا الهوى الإسلامي (والذي هو أصلًا اقتصادي، وخريج كلية الاقتصاد) يعرفُ في النهاية أن المستفيد الأكبر من هذا النجاح هو المنظومة العالمية وحيتانها الكبار.. وأن مضادة هذا النظام لا بد أن يبدأ من تخفيض الفائدة الربوية حتى إنهائها ليعتدل توزيع المال والثروة.

هذه هي النقطة الحساسة التي أثارت الحيتان الكبار من الطبقة الاقتصادية التركية المتغربة، ومن الطبقة الاقتصادية المرتبطة بالغرب.. وعندها لا بدَّ أن تبدأ الحرب ولو تعرضوا هم أنفسهم للخسائر.

تمامًا كما كان رجال الأعمال في مصر على استعداد للخسارة الكبرى الاقتصادية مقابل إسقاط مرسي.. لأن مرسي ـ ولو كان نظيفًا وفي منظومة اقتصادية رأسمالية لا يفكر في تهديدها، فإنه بمجرد غلق منافذ فساد فإنه يضربهم في مقتل ـ يهدد المنظومة نفسها.. وهكذا، لا بأس عند كثيرين من رجال الأعمال أن يخسروا كثيرًا مقابل بقاء المنظومة التي لو استمرت فستعيد لهم أموالهم أضعافًا مضاعفةً.. ولو من دماء المسحوقين.. فأكل أموال الناس أهون عندهم من إنشاء منظومة عادلة بطبيعة الحال.

١٧. أردوغان يدرك هذا كما يدركه أصغر طالب اقتصاد.. والصراع صراع عقول وخطوات ومحاولة تغيير هذه المنظومة بأقل قدر من الخسائر.. تركيا قويةٌ

Readonly

اقتصاديًّا لكن هذه القوة مرهونة في جانب منها للأجانب، خصوصًا في أمرين:

الأول: العملة النقدية التي تخضع لسوق الأوراق المالية في العرض والطلب.

الثاني: المستثمرون ذوو الهوى الغربي من الأتراك، أو الغربيون أنفسهم.

في الأمر الأول تجري المضاربة على العملة في هذه الأسواق لتفقد قيمتها.. أرجوك لا تنسى أن العملة في نفسها في ظل المنظومة الاقتصادية هي بذاتها بضاعة يُتاجر فيها.. فحين يركد سوقها ويقل عليها الطلب فإنها تنخفض قيمتها.. هذه العملية لا تمس الإنتاج لا بالزيادة ولا بالسلب ولكنها تضعف قيمة العملة. (في بعض الأحيان يمكن للدولة نفسها الاستفادة من نقصان قيمة عملتها لترويج بضائعها التي ستكون أرخص أو سياحتها التي ستكون أرخص.. إلخ).

وفي الأمر الثاني تهرب رؤوس الأموال وتحول ثرواتها إلى العملة الأجنبية فيزداد الطلب على العملة الأجنبية كما يقل الطلب على العملة المحلية.

وأرجوك تذكر أن هذه العملة الأجنبية التي يزداد الطلب عليها هي الدولار الذي هو بلا قيمة، مجرد ورقة مطبوعة كما يعرف العالم كله.. إلا أن قوته مستمدة من قوة السلاح والسياسة التي تجعله مخزنًا للقيمة والثروة وبه تشتري الموارد والمجهود.

أي أن انهيار الليرة لا يساوي بحال ضعف الإنتاج التركي.. كما أنَّ صعود الدولار لا يعني بحال زيادة الإنتاج الأمريكي.. إنما هي معركة قوة والاقتصاد جزء منها.

١٨. الحلول التي يطرحها الاقتصاديون المعاصرون هي في عمومها حلول من نفس بيئة المنظومة الاقتصادية الربوية.. فهي في أحسن أحوالها حلول تسكينية

Readonly

وهي في أغلب أحوالها حلول لإعادة البلاد إلى المنظومة الاقتصادية نفسها.. التي هي احتلال حقيقي.

وكنت ذكرت في منشور منذ فترة أن هناك ما أسميه «المثلث الحضاري» وهو: المال، العلم، السلاح.. وأن الأمم تبقى قوية ما كان كل ضلع منها يخدم الآخرَين، فإن اختل واحد منها بدأت الأمة في الانحلال والوقوع تحت الاحتلال.

والمقصود هنا أن الحلول الاقتصادية للأزمة التركية الحالية لا تكون بحال اقتصادية.. بل الواقع أنه بقدر ما يستطيع السلاح التركي الحفاظ على استقلال البلد بقدر ما تستطيع أن تنجو من هذه الأزمة ومما وراءها.. وبقدر ما سيستطيع العِلْم التركي اختراع أسلحة دفاعية وهجومية وإحسان استثمار الموارد وتنميتها بقدر ما تستطيع تركيا أن تنجو من هذه الأزمة.

محاولة المساس بالنظام الاقتصادي العالمي لا بد أن يسبب حربًا في نهاية المطاف.. لكن الطرف الأضعف سيحاول تأجيلها (تركيا) كما سيحاول الطرف الأقوى الاستباق بها (أمريكا) لإخماد هذه المحاولة.

١٩. وفي الحروب لا بد من استثارة الهوية والروح الدينية والقومية، وهو ما يفعله أردوغان الآن.. لأن الحقيقة أن نقطة ضعف هذا النظام الاقتصادي العالمي هو أنه في حاجة دائمة لأسواق ومستهلكين.. والاستقلال يبدأ من أمور بسيطة كالمقاطعة والزهد والاكتفاء بالضروري دون الكمالي والترفيهي والإقبال على المنتج المحلي.

وفي هذا الوضع لابد من أن يتأثر كثيرون سلبًا، أولئك الكثيرون هم الذين ارتبطوا بشكل ما بالمنتجات الغربية، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا جزءًا من معركة

Readonly

الاستقلال لو لم يضحوا بمصالحهم الآنية لصالح استقلالهم وروحهم الدينية والقومية والحضارية..

بقدر ما سيُجَيَّش الناس للحرب، وبقدر ما سيستعدون للتضحية، وبقدر ما سيبذلون من المجهود العلمي والنفسي للصمود في الحرب الحقيقة القادمة بقدر ما ينتصرون..

والأهم، بقدر ما ستحقق دولة ما اكتفاءها الذاتي بقدر ما تنخلع من منظومة الاقتصاد العالمية.. وهذا أمر لا يتحقق بغير مجهود هائل من الدعاية والإقناع واستثارة هذه المشاعر الحضارية ومعاني العزة والكرامة.

٢٠. ومن نافلة القول أيضًا أن هذه ليست معركة تركيا، بل هي معركة الأمة الإسلامية كلها.. وأنها أيضًا من المعارك التي تقسم الناس إلى فسطاطين: مع الأمة أو ضدها.. والمشهد واضح منذ ثورات الربيع العربي، الطرف الذي مع الأمة واضح، والطرف الذي ضدها واضح.

***

Readonly

معركة ملاذ كرد

* نشر بتاريخ ٢٦ أغسطس ٢٠١٨

تمر اليوم ذكرى معركة ملاذ كرد (٢٦ أغسطس ١٠٧١م)، وقد أقام لها أردوغان احتفالًا مشهودًا، وسارعت وسائل الإعلام تغطي ذكرى هذه المعركة.. فما أهمية هذه المعركة؟ ولماذا هي من بين آلاف المعارك التي خاضها السلاجقة والعثمانيون التي يجعلها أردوغان علامة تستحق الاحتفاء؟

سأحاول تقديم صورة عن هذا الموضوع بأوجز عبارة ممكنة إن شاء الله.

مقدمة

كانت الإمبراطورية البيزنطية هي أشد القوى السياسية عداءً للإسلام وصلابة في مواجهته طوال ثمانية قرون، وكانت عاصمتها القسطنطينية تحتوي على الكنيسة العظمى (أيا صوفيا) التي هي عاصمة المسيحية الأرثوذكسية في كل العالم. وكانت هذه الإمبراطورية هي القوة المسيحية العظمى.

للمسيحية تاريخيًّا عاصمتان كبريان: القسطنطينية وروما.. في الأولى أيا صوفيا، وفي الثانية: الفاتيكان.. وقد كانت بشرى النبي بفتح المسلمين لهما تساوى البشرى بانتصار الإسلام وسيادته على العالم.

تحققت البشرى الأولى بعد ثمانية قرون على يد السلطان محمد الفاتح، ولا زال المسلمون ينتظرون نصف الوعد بفتح روما.

Readonly

لكن الذي يهمنا الآن أن روما في وقت النبي كانت ضعيفة ومفككة، وكانت القوة المسيحية التي تصدت للإسلام وعرقلت انتشاره في أوروبا هي الدولة البيزنطية التي أخفق المسلمون فتح عاصمتها القسطنطينية رغم محاولاتهم الكثيرة المضنية منذ زمن الدولة الأموية وحتى الدولة العثمانية.

يمكن اختصار التاريخ الطويل المرير بين دولة الإسلام والدولة البيزنطية في ثلاث معارك فارقة: اليرموك، ملاذ كرد، فتح القسطنطينية.

١. معركة اليرموك أدت إلى زوال الوجود الرومي البيزنطي نهائيًّا من الشام ثم من مصر.

٢. معركة ملاذ كرد أدت إلى زوال الوجود الرومي البيزنطي من الأناضول، وصار بإمكان المسلمين أن يشاهدوا كنيسة أيا صوفيا من الطرف الآسيوي.. لذلك تسمى ملاذ كرد بـ «اليرموك الثانية».

٣. فتح القسطنطينية هي المعركة الأخيرة التي أزالت الإمبراطورية البيزنطية نفسها وفتحت الطريق أمام انتشار الإسلام في شرق أوروبا والذي وصل إلى فيينا.

بين كل معركة وأخرى أربعة قرون: اليرموك (١٥هـ) وملاذ كرد (٤٦٣هـ) وفتح القسطنطينية (٨٥٧هـ).

أي أن ملاذ كرد هي المحطة الثانية من ثلاث محطات في انتشار الإسلام وسقوط القوة المسيحية العظمى. ولهذا فهي واحدة من أعظم المعارك في تاريخ الإسلام.

معركة لا بد منها

وقعت المعركة في منتصف القرن الخامس الهجري، وكان هذا القرن من قرون الصحوة الإسلامية في المشرق والمغرب.

Readonly

لقد عاشت الأمة الإسلامية القرنَ الرابع الهجري في حال ضعف قوية، وسيطرة شيعية شاملة، فالبويهيون يسيطرون على فارس والعراق، والقرامطة على الجزيرة العربية والشام، والدولة العبيدية الفاطمية الإسماعيلية على مصر والشمال الإفريقي.. ولم ينجُ من هذا الوضع البائس إلا الأندلس والمغرب الأقصى التي كانت تعيش واحدة من أعظم ازدهارها تحت حكم عبد الرحمن الناصر ثم ابنه المستنصر ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر.

في القرن الخامس تغير الحال، دخلت الأندلس في عصر ملوك الطوائف وتضعضعت قوتها، بينما نبغ في الشرق الدولة الغزنوية التي فتحت الهند، ثم السلجوقية التي اكتسحت الدولة الشيعية، وفي المغرب نبغت دولة المرابطين التي منعت الأندلس من السقوط وتضعضعت الدولة العبيدية الفاطمية في مصر وزالت عن الشمال الإفريقي.

ما يهمنا الآن هم السلاجقة:

السلاجقة من الجنس التركي، وقد تكونت دولتهم في المشرق ثم قويت حتى استحالت عاصفة كبيرة حكمت خراسان ثم فارس ثم العراق وصارت على حدود الشام.. وأنقذت الخلافة العباسية من الدولة البويهية الشيعية التي سيطرت عليها مدة ١١٣ عامًا، وصار طغرل بك (زعيم الدولة) هو الرجل الأقوى في العالم الإسلامي.

في فترات الضعف السابقة كانت الدولة البيزنطية قد استطاعت احتلال الكثير من الأراضي التي فتحها المسلمون في آسيا الصغرى وإرمينية، وصارت تهاجم الشام، ومدنها الكبرى كحلب وأنطاكية وتنفذ مذابح كثيرة في منبج وفي شرق آسيا الصغرى.

Readonly

لما توفي طغرل بك آل السلطان من بعده إلى ابن أخيه ألب أرسلان (تعني بالتركية: الأسد الثائر)، فإذا نظرنا إلى الخريطة السياسية التي سيواجهها ألب أرسلان سيكون الوضع كالآتي:

١. البيزنطيون صاروا يهاجمون الشام ويستبيحون مدنه.. بينما الدولة العبيدية الفاطمية في مصر قد تضعضت ولا تستطيع الدفاع عن الشام الذي كان تابعًا لها، بل على العكس من ذلك يرى الطرفان (العبيديون والبيزنطيون) أن عدوهما القادم هو السلاجقة الذين يحكمون دولة شاسعة تمتد من خراسان حتى الشام ومن حدود أرمينية حتى المحيط الهندي.. وبالفعل كان بين الطرفين تحالف ضد هذا العدو السني القوي القادم.

٢. مناطق التنازع والاحتكاك بين هاتين القوتين: في مناطق إرمينية والجزيرة الفراتية.. وكليهما كانتا قبل الآن مناطق إسلامية، لكنَّ الضعف الإسلامي في القرون الماضية أدخلهما تحت سلطان أو تهديد البيزنطيين والعبيديين.

ولذلك شهدت هذه المناطق حركتان متوازيتان: ألب أرسلان يفتح مناطق في إرمينية وآسيا الصغرى، وإمبراطور الروم البيزنطيين يهاجم المناطق الجنوبية من آسيا الصغرى ويصل إلى الشام.

كان اللقاء حتميًّا..

ما قبل المعركة

جمع إمبراطور الروم حشدًا رهيبًا يقدر بمئتي ألف مقاتل، وخرج بـه إلى نواحي أرمينية، وفي خطته أن يكمل المسير إلى العراق ثم إلى فارس حتى يدمر عاصمة السلاجقة (الري)، ومن شديد ثقته بقوته أعطى كل أمير أرضه التي سيتولى عليها في طول هذه البلاد.

Readonly

وكان ألب أرسلان في الطريق بين ديار بكر وحلب فبلغه هذا الحشد الرهيب لإمبراطور الروم.. ولأسباب تختلف المصادر فيها كثيرًا لم يكن معه من الجيش في ذلك الوقت إلا خمسة عشر ألفًا من الجنود، لكنهم كانوا من نخبته المتميزة.

كان الجيش الرومي يتكون من سائر العناصر العرقية التي تحكمها الإمبراطورية البيزنطية: الروس والكرج واليونان والأرمن فضلًا عن الروم فضلًا عن أتراك من مجموعات لم تعتنق الإسلام.

لم يكن أمام ألب أرسلان في هذا الظرف العصيب الذي لم يستطع فيه حشد الجنود إلا أن يطلب الهدنة.. لكنه لو طلبها من موقع ضعف فلن يُستجاب له بحال، تلك هي قاعدة السياسة والقوة التي يفهمها الجميع.. فلذلك دبَّر أمره لكي يوقع بمقدمة الجيش البيزنطي التي تسبقه بمسافة ـ وكانت من الروس ـ ثم يرسل في طلب الهدنة.

وبالفعل، استطاع خوض معركة قوية سحق فيها المقدمة الروسية التي تتكون من عشرين ألف جندي، فحسَّن وضعه التفاوضي، وأرسل سفيره يطلب الهدنة.. لكن الإمبراطور ذا المئتي ألف لم يبال أن هلك له عشرون ألفًا، فقال ساخرًا: سأرد على هذا العرض حين أصل الري!

هنا لم يعد أمام ألب أرسلان إلا الانسحاب ومحاولة الإعداد.. أو الاندفاع في هذه المغامرة المجنونة والتي فيها احتمال هلاك نخبته المكونة من خمسة عشر ألف جندي مرة واحدة!

كان الانسحاب يعني خسارة نتائج الأعوام الماضية من الفتوح في أرمينية وشمال الشام، ويعني انهيار الروح المعنوية لدى الجنود المسلمين، كما يعني مئات

Readonly

آلاف القتلى والجرحى والسبايا في المدن المسلمة.. ويعني تعاظم الروح المعنوية لدى البيزنطيين وازدياد القوى العسكرية بمن سينضم إليهم من بلاد إرمينية والكرج وأذربيجان ونصارى شمال الشام.

قرر ألب أرسلان أن يخوض المعركة..

وشجعه على ذلك الفقيه الذي كان في الجيش نصر بن عبد الملك البخاري، قائلًا: إنك تقاتل عن دين قد وعد الله بنصره.

المعركة

كان ألب أرسلان في حاجة إلى أمرين معًا: أن يجعل جيشه في أقصى طاقته المعنوية والقتالية، وأن يضع خطة عسكرية تكسر التفوق العددي والعُدَدي الهائل بينه وبين الروم (١٥ ألفًا مقابل ٢٠٠ ألف).

فعلى مستوى الطاقة المعنوية أعلن أنه قد تخلى عن منصبه كسلطان، وقال: ليس هاهنا اليوم سلطان يأمر ولا جُنْد يُؤمر، فمن أراد البقاء للقتال بقي ومن أراد أن يرجع رجع.. وخلع ثوب السلطنة ولبس الثياب البيض (أي: الكفن) وقال: إن قتلت فمن حواصل النسور الغبر إلى حواصل الطير الخضر رمسي، وإن انتصرت فإني أُمْسِي ويومي خير من أمسي.

وعقد يده بذنب خيله (علامة على الثبات وعدم الفرار)، ونزل ومرغ وجهه في التراب وتضرع إلى الله.. وكانت وصية فقيهه أن يؤجل المعركة إلى ساعة الزوال من يوم الجمعة حتى تدركه دعوات المسلمين على المنابر.

وكان هو قبل ذلك قد أرسل إلى الخليفة في بغداد يخبره، فأمر الخليفة بعض الفقهاء بوضع دعاء موحد، وزعه على المساجد، وفيه الدعاء لألب أرسلان وجيشه.

Readonly

وكان من البشريات العاجلة أنهم اكتشفوا الجيش البيزنطي وقد حفر خندقًا حول معسكره، فعلموا أن هذا دليل على خوفهم وخشيتهم وأنهم لا يتمتعون بما أظهره الإمبراطور من ثقة كاملة في نصره.

وعلى مستوى الخطة العسكرية فإن مجموع ما وصلنا من الروايات التاريخية يؤدي بنا إلى القول بأنها كانت كالآتي:

ـ كان الهمّ الأول والأكبر لجيش ألب أرسلان منع التطويق، ومن ثم فقد وضع قطعة من جيشه في كمين خلف طريق الجيش البيزنطي ليثخن فيه من الخلف ويشاغله ويعرقله.

ـ عند لحظة انتشاب القتال سيتحول الجيش كله إلى ما يشبه السهم، ليتحرك حركة سريعة وخاطفة إلى قلب الجيش مباشرة حيث خيمة الإمبراطور نفسه، وبهذا تنقسم مهمة الجيش إلى من يصدون ويشاغلون ويفتحون الطريق، وإلى نخبة أخرى تخترق هذه الصفوف بأقصى ما تملك من سرعة لتصل إلى خيمة الإمبراطور فتقتله وتشيع خبره فينهار الجيش الكبير.

وهو ما كان فعلًا.. لم تلبث المعركة كثيرًا حتى كان بعض نخبة السلطان ألب أرسلان قد اخترق خيمة الإمبراطور فنزع عن رأسه التاج، ووضعه فوق رمح ونادى بأن الإمبراطور قتل، فيما كان جندي آخر قد جرده من ملابسه الإمبراطورية وسحبه أسيرًا.. وما إن انتبه الجيش إلى التاج المرفوع فوق رمح حتى انهار وتفتت وانسحب لا يلوي على شيء.

يضطرب كثير من المؤرخين في محاولة وصف أسباب الهزيمة مع وجود هذا الفارق العددي الكبير، ولذلك تتنوع اجتهاداتهم في تحليل ما حدث.

Readonly

البعض يرفع من عدد جيش المسلمين حتى يوصله إلى خمسين ألفًا أو مئة ألف، ويخفض من جيش الروم حتى يوصله إلى مئة ألف.. والبعض يعزو الهزيمة إلى اختلاف أجناس الجيش البيزنطي وعدم اتساقه وانسجامه.. والبعض يذكر خيانة وقعت من بعض القادة غير الروم للإمبراطور الرومي مما أدى لهذه الهزيمة.. والبعض يذكر أن المجموعات التركية التي كانت في جيش الروم تخلت عنه وانحازت لبني قومها الترك وإن لم تكن على دينهم.. والبعض يقول انقلب اتجاه الريح ليصير في وجه الجيش البيزنطي مما ساعد حركة الجيش الإسلامي.

لكن القدر المشترك المتفق عليه بين الروايات، ولا سيما الروايات الإسلامية، هو هذا الفارق الهائل في العدد والعدة، وفي أن المعركة لم تطل وكانت سريعة، وفي أمور تضرع السلطان وحماسة جنده وترتيبه أن تبدأ المعركة لحظة ارتقاء الخطباء المنابر.

نتائج المعركة

كانت هذه أعظم نتيجة يحققها جيش إسلامي على جيش بيزنطي، فلم يسبق من قبل أن استطاع الجيش المسلم أسر الإمبراطور، وغاية ما حصل قبل ذلك أن الإمبراطور أصيب كما في معركة ذات الصواري ـ زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ أو كان جيشه ينتصر في أوقات الضعف الإسلامية في منطقة شرق آسيا الصغرى وشمال الشام.

لهذا لم تكن الصدمة التي نزلت بالروم صدمة عسكرية فقط أدت إلى انهيار الجيش، بل كانت صدمة سياسية أيضًا، إذ ترتب عليها صراع في بلاط الحكم حول الإمبراطور القادم.

Readonly

كانت حالة أرمانوس ـ الإمبراطور الأسير ـ مريعة، وقد ظهر منه هذا إلى حد أن السلطان ألب أرسلان قرر أن يُطلقه.. فالذي تلقى صدمة الهزيمة أنفع للمسلمين وهو في الحكم من إمبراطور جديد قد يطلب الثأر.. فالقاعدة أن القيادات المنهزمة المنهارة أفضل لعدوها من القيادات الجديدة الناشئة.

رأى ألب أرسلان بفراسته أن أرمانوس هذا لن يفكر مرة أخرى في حرب المسلمين، فقرر إطلاقه، مقابل جزية سنوية (مليون ونصف المليون دينار) وإطلاق كل أسرى المسلمين لدى الروم، وهدنة خمسين سنة.. وقد وافق على هذا كله، ثم نظر ناحية بغداد ـ حيث الخليفة ـ وانحنى كعلامة على الخضوع والتعظيم.

ولما عاد إلى عاصمته كان منبوذًا من قومه، ولم يستطع أن يعود إلى ملكه، بل قُبِض عليه وسَمَلوا عينيه لكي لا يصلح للحكم ولكي ينتهي أمله.

فكانت ميتته بيد قومه بعد هزيمة ساحقة لم تلق الإمبراطورية البيزنطية مثلها من المسلمين من قبل.

لكن النتيجة الأهم التي جعلت لمعركة ملاذ كرد تأثيرها العظيم في التاريخ هو أن قوة الإمبراطورية البيزنطية انتهت تمامًا من كل أملاكها في الأناضول وبلاد أرمينية.. لقد صارت هذه الأنحاء ضمن نفوذ المسلمين، وتكاثر فيها المسلمون، ودخل كثير من أهاليها في الإسلام.. ولم يخرج الإسلام من تلك المناطق أبدًا فيما بعد إلا قبل مئة سنة مع الحرب العالمية الأولى التي انتزعت أرمينية وجورجيا وأذربيجان.

فكانت هذه المعركة هي بداية سكنى الأتراك منطقة الأناضول.. وهي المنطقة التي سيظلون بها أربعة قرون أخرى، حتى إذا انتهت الدولة السلجوقية

Readonly

مـن هنـاك كانـت الدولـة العثمانيـة قد ولـدت، وهـي التي ستسـتكمل مهمـة الفتح حتـى تفتـح القسـطنطينية ثـم شـرق أوروبا حتـى فيينا.

لهذا يحتفل الأتراك بهذه المعركة باعتبارها المعركة الفاصلة التي أسكنتهم هذه الأرض وجعلتها قلعة الإسلام قرونًا ثم قلعة الخلافة قرونًا.

ملاذ كرد في الذاكرة المعاصرة

استغربت حين سمعت كلمة دولت بهجلي ـ رئيس الحزب القومي التركي ـ كأنها كانت كلمة رئيس حزب إسلامي (إلا قليلًا).. وأشد ما لفت نظري في كلمته أنه قال: إن الروم الذين هزمناهم لم ينتهوا بعد، بل إنهم لا زالوا أحياء ولا زالوا يقاتلوننا ولا يزالون يبثون الفتن بين المسلمين.

نعم.. إن الغرب لا يزال يتخوف مـن الأتراك باعتبار أنهم كثيرًا ما قلبوا ميزان القوة لصالح المسلمين، ومعركة ملاذ كرد هـي واحـدة من أهم هذه اللحظات الكبرى الحاسمة!

لقد اتضح بعد هذه الهزيمة أن الدولة البيزنطية بدأت عصر الغروب، ورغم أنها استمرت أربعة قرون بعد هذه اللحظة إلا أن ملاذ كرد قد اضطربت لها الكنائس الغربية التي بدأت تشعر بالارتياع من الزحف الإسلامي إلى أوروبا. لا سيما وأنه لم تمض خمس عشرة سنة على هذه الهزيمة إلا وكان المرابطون يحققون نصرًا حاسمًا آخر في الزلاقة يطيلون به عمر الأندلس أربعة قرون أخرى.

إثر هاتين الهزيمتين استيقظت المسيحية الأوروبية وقررت أن تدافع عن المسيحية بنفسها بعد انهيار ثقتها بالحصن البيزنطي الذي يحمي المسيحية من الشرق، وهي الصحوة التي ولدت فيما بعد أشهر حدث في التاريخ: الحروب الصليبية.

Readonly

من المؤسف أن دولة السلاجقة (وإن بقيت في الأناضول أربعة قرون) إلَّا أنها دخلت في طور ضعف بعد وفاة السلطان ألب أرسلان ثم ابنه ملكشاه.. واستطاعت الجيوش الصليبية أن تخترق الأناضول وتهزم السلاجقة في منطقة الروم لتستقر في الشام قرنين من الزمان حتى يكون انكسارهم على يد صلاح الدين بعد نحو القرن ثم نهايتهم تمامًا على يد المماليك بعد نحو قرن آخر.. وتلك الحروب الصليبية كانت لها آثار واسعة ليس هذا مجال بيانها.

لكن المهم في سياقنا هذا الآن، أن الكتابات الغربية تنظر للأتراك المعاصرين وترى فيهم السلاجقة كما ترى فيهم العثمانيين، وتتخوف من نهضة معاصرة تجدد ملاذ كرد وفتح القسطنطينية مرة أخرى. والتراث الغربي تجاه العثمانيين حافل بما يجعل ذكراهم مرعبة ومثيرة للفزع.

هذا شعور الغرب نحو المسلمين جميعًا، لكن الخطر الذي يرونه الآن أقرب إليهم هو خطر الأتراك.. وهو الأمر الذي يعرفه أردوغان ويستدعيه ويجدد ذكراه ويثير حماسة الأتراك به، وهكذا تفعل الأمم الناهضة: تحيي تاريخها ولحظات مجدها.

لكن أسوأ ما يحدث هنا أن هذه الظروف تجعل من نصر ملاذ كرد يبدو وكأنه نصر تركي، بينما الحقيقة أنه نصر إسلامي لا شك في ذلك.. فما كان في الزمن القديم معنى القومية العرقية العنصرية التي زرعها فينا الاحتلال وعملاؤه من بعده..

ولذلك، فبقدر ما يحتفل المسلمون في كل مكان بهذا النصر بقدر ما يتحرر النصر من هذه الصبغة القومية الضيقة ليكون نصرًا من انتصارات المسلمين ويومًا من أيام الله.

Readonly

جناية الأنظمة العلمانية على الأوقاف الإسلامية

* نشر في مجلة البيان (السعودية)، يونيو ٢٠١٣م

لعله سيكون غريبًا إذ نقول بأن هذا الموضوع إنما هو فرع عن الصراع الكبير بين الشرق والغرب، بين النظام الإسلامي والنظام العلماني، فللوهلة الأولى لا يبدو الأمر كذلك لكن بقليل من التعمق والنبش وراء ظواهر الأحداث يتبدى وجه الحقيقة المخبوء.

وإجمال ذلك أن الدولة المركزية هي بنت الفكرة العلمانية والمسار التاريخي الغربي، بينما المجتمع الفعال ـ والأوقاف من أبرز سماته ـ هو ابن الفكرة الإسلامية والمسار التاريخي الإسلامي، وأما التفصيل فإليك بيان ما يسمح به المقام[1].

فكرة الأوقاف وآثارها

الأوقاف من الابتكارات الحضارية الإسلامية، فلم يكن موجودًا في العالم القديم إنفاق على أوجه الخير ـ اللهم إلا ما كان ينفق منه على المعابد وكهنتها، مما لا يمثل إلا جزءًا ضئيلًا من فكرة الأوقاف ـ حتى جاء الإسلام فأوقف رسول الله ﷺ، ثم أوقف صحابته جميعًا أوقافًا كثيرة، واستمر نمو مؤسسة الوقف في العالم الإسلامي لتشكل المصدر الذاتي الذي تمول الأمة به انطلاقتها الحضارية، فبما أوقف المسلمون من ممتلكاتهم توفرت أموال غزيرة أنفق بها على العلماء وطلبة

(١) نشر في مجلة البيان، العدد٣١٢ (شعبان ١٤٣٤هـ ـ يونيو ـ يوليو ٢٠١٣م).

Readonly

العلم وإنشاء المدارس وعلى الجهاد وبناء الثغور وتحرير الأسرى وعلى الفقراء والضعفاء والمحتاجين وعلى تنمية البلدان بشق الأنهار وتعبيد الطرق وإنشاء الجسور ورعاية الحيوانات، وسائر ما يُمكن أن يُتَخَّيل من وجوه الخير ضربت فيه الأمة بسهم عبر مؤسسة الأوقاف.

ومن بين الآثار الكثيرة للوقف يهمنا التركيز على أثر استقلال مسار الأمة عن مسار السلطة، فلم يكن انهيار السلطة أو ضعفها السياسي والعسكري منعسكًا على نمو الأمة الحضاري إلا قليلًا، بل قد تسقط البلدان عسكريًّا ثم تأسر الغازين حضاريًّا وثقافيًّا كما حدث مع الصليبيين في الشام والنورمان في صقلية والإسبان في الأندلس والمغول في الشرق الإسلامي.

ونقف بالمشهد الإسلامي هنا، لنلقي نظرة مهمة على المشهد الغربي وتطوره التاريخي.

التطور الغربي إلى الدولة المركزية

حين تخلصت أوروبا من الكنيسة ومن أباطرة العصور الوسطى ومن الإقطاعيين، استبدلت بهم نموذجًا آخر، ذلك هو «العلمانية» (بديلًا عن الكنيسة) و«نظام الدولة المركزية» (بديلًا عن نظام الإمبراطورية والإقطاع)، وكلا الأمرين ـ العلمانية ونظام الدولة المركزية ـ تابع للآخر، فلا بد لأي مجتمع من قيم حاكمة ومبادئ عليا، ثم لابد لهذه القيم والمبادئ من أناس يطبقونها ويحكمون بها، فكانت العلمانية هي المبدأ وكان نظام الدولة المركزية هو نموذج التطبيق.

فأين يكمن الضرر؟

يكمن في أن انتهاء وجود الإله من حياة البشر قد جعلهم عبيدًا لأنفسهم وشهواتهم وأهوائهم، لا يؤمنون إلا بما ينفع ويضر بشكل مباشر واضح، وبهذا

Readonly

انتفى مبدأ الأخلاق والقيم العليا والمُثُل العظيمة التي انزوت مع الدين في جنبات الكنائس وصارت اختيارًا شخصيًّا بحتًا، ولهذا أنتج الغرب كل البشائع الإنسانية التي جعلته «أكبر مجرم في التاريخ»[١]، «وحينما سئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك) عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلًا: هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري، فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتي تمثل شيئًا أعلى مرتبة منهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار، وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز، هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس وأُفُقًا لهم ولكنها فقدت الآن، وتكمن المفارقة في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية التي أصبحت تسير بدون تحكم من جانبنا، فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعْدَه الإنساني»[٢].

وهنا تحققت نبوءة توماس هوبز الذي «أعلن أنَّ حالة الطبيعة (أي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون) هي حالة من حرب الجميع ضد الجميع، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وسيتم التعاقد الاجتماعي بين البشر لا بسبب فطرة خَيِّرة فيهم وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء، فيُنَصِّبون الدولة التنين حاكمًا عليهم حتى يمكنهم أن يحققوا ولو قدرًا ضئيلًا من الطمأنينة»[٣].

---

(١) رجاء جارودي: وعود الإسلام، ترجمة: د. طوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م. ص١٩.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، فبراير ٢٠٠٩م. ص٢١٩.

(٣) السابق.

Readonly

وهنا صارت الدولة في مكان الإله، بل هي ـ كما يقول هيجل ـ «الحلول الإلهي على الأرض»، وسيادتها هي السلطة المطلقة، وعلى الأفراد أن يخضعوا لهذه السلطة التي تحدد من الداخل إرادة الأفراد[١].

وصارت كفاءة الدولة تقاس بمدى قدرتها على السيطرة التامة على كافة ما يحدث على أرضها من أنشطة، ولم يختلف هذا بين مذهب ومذهب في الفكر الغربي «فالسيطرة على السكان مهمة أساسية لأي سلطة حكومية تهيمن عليها جماعات المصلحة، وعلى الرغم من أنَّ القوتين الدوليتين في زمن الحرب الباردة (أمريكا والاتحاد السوفيتي) كانتا على طرفي نقيض.. فإنهما اشتركتا في قوة السلطة المحلية عند تعاملهما مع قضية السيطرة على شعبيهما»[٢].

وحين حلت الدولة محل الإله لم يكن لها لا علم الإله ولا رحمته ولا ارتفاعه عن النقائص، وحين حلَّ السياسيون والنخبة محل العلماء والمفتين لم يكن لهم لا تقوى العلماء ولا خشيتهم، بل دخل البشر في حكم البشر، فاستعبد البشرُ البشرَ فأذلهم وقهروهم، غير أن الأشكال تغيرت فصارت أكثر خداعًا وتلوينًا، وأشهر نمطين لهذا الخداع: الشيوعية والرأسمالية.

فأما الشيوعية فقد ادعت أنها سبيل العدالة الاجتماعية وضد الإقطاعيين

---

(١) جان بيار لوفيفر وبيار ماشيري: هيجل والمجتمع، ترجمة: منصور القاضي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م. ص٧٢، ٧٣. وفيما يبدو من باقي كلام هيجل فإنه لم يتوقع وجود استبداد جديد من قِبَل الدولة، فلقد كان من المفتونين بالثورة الفرنسية ويحسب أنها شيء مثل «نهاية التاريخ».

(٢) ناعوم تشومسكي: النظام العالمي، ترجمة: عاطف محمد عبد الحميد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م. ص٥.

Readonly

والملوك المستبدين ولمنع احتكار السلع، ثم كان تطبيقها أعنف استبدادًا من كل الملوك وأشرس من كل الإقطاعيين ولم يتحقق في ظلالها إلا العدالة في الفقر حيث صارت الشعوب فقيرة لا تجد الكفاف فيما تركزت الثروة في يد «الرفاق» الذين يحكمون باسم الشعب، ويقيمون المذابح والسجون باسم الشعب، ويتصرفون في مال الشعب بأهوائهم زاعمين أنه «إرادة الشعب»، وقد طُوِيت صفحة الشيوعية مخلفة وراءها سجلًا من المذابح والحروب والفقر العام والفساد الكبير.

وأما الرأسمالية فقد ادعت أنها ضد الاحتكار الاقتصادي وضد الاستبداد السياسي، لكنها أنتجت أكبر المحتكرين ورعت ودعمت أكابر المستبدين، وهي تسيطر على الشعب عبر الإعلام والأموال، يظن الناس أنهم يختارون رؤساءهم وأنهم يغيرونهم كل فترة فيما تظل الحقيقة أنهم يدورون في مسرح يتحكم فيه رجال الأعمال الذين يتحكمون في الإعلام وفي الاقتصاد، فبالإعلام يخدعون الجماهير ويسوقون رجالهم للحكم، وبه وبالاقتصاد يتحكمون في السياسيين والبرلمانيين وصناع القرار[1].

حين جاءت «العلمانية» و«الدولة المركزية» إلينا

هذه الأزمة القائمة في الغرب حين زُرِعت في بلادنا كانت أسوأ وأشد فتكًا وتدميرًا!

فالعلمانية كانت رغبة شعبية ونتيجة طبيعية لانحرافات الكنيسة ولم تكن كذلك في بلادنا، ولذا غُرِست بالقهر والعسف والاستبداد، وكان لابد من وجود

---

(١) طالع في تفصيل هذا كتاب «السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية» للألمانية نورينا هيرتس، من إصدارات عالم المعرفة، الكويت، يناير ٢٠٠٧م.

Readonly

حكومات عسكرية تذيق الشعوب الويلات كي تتمكن من ترسيخ أمرها، وهذا الترسيخ لا يتم إلا بنظام الدولة المركزية الذي ينزع عن الأمة فاعليتها وترابطها وتماسكها ومصادر قوتها.

أثمر نظام الدولة المركزية في بلادنا أسوأ الثمر، فقد سيطرت الدولة على الأوقاف الخيرية التي هي تمويل الأمة لنفسها وحضارتها، وضربت الدولة نظام القبائل والعصبيات لحساب النزعة الفردية التي تجعل العلاقة قائمة بين الدولة والفرد على نحو ما هي بين الإله والعبد، ولنضرب مثالًا على ذلك بمحمد علي الكبير أول من أدخل العلمانية والدولة المركزية في بلاد المسلمين.

لقد كسر محمد علي كافة ما يجعل المصريين أقوامًا ليكونوا بين يديه أفرادًا على نحو ما تطمح الدولة المركزية أن ترى الناس أفرادًا مواطنين لا تجمعات أو عائلات أو عشائر، ثم نزع منهم كل ما أمكنه من الأوقاف لتكون مصادر الأموال في يده فيمنح ويمنع فتذل له الرقاب جميعًا.

وحين يؤرخ الشيخ محمد عبده لآثار محمد علي نراه يقول: «أخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولًا وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدَع منها رأسًا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفُس بعض أفرادها، فلم يبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه. أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه على أصله

Readonly

الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يُبقِ في البلاد إلا آلات له يستعملهافي جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه، فمحقَ بذلك جميع عناصر الحياة الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده»، وفي جنايته على الأوقاف يقول الشيخ محمد عبده «نعم: أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى فائض رزنامه لا يساوي جزءًا من الألف من إيراده. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم (ربيع الأول ١٣٢٠ ـ يونيو ١٩٠٢) لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة»[١].

إنها المتلازمة الطبيعية بين العلمانية ونظام الدولة المركزية، حيث لا يُسمح أن تكون ثمة قوة في البلاد إلا قوة الدولة، ولقد كان الغرب آنئذ يبدو عملاقًا كبيرًا ساحرًا يغري بالاقتداء به كل غافل عن كوامن القوة والنهضة في النظام الإسلامي، فكيف برجل عسكري ألباني لم يتكلم العربية حتى مات، لقد كان أجهل من أن يقتبس اقتباسًا واعيًا، وإنما جرت عملية صبغ مصر ـ كما يقول أرنولد توينبي ـ بالصبغة الغربية «أكثر شمولًا من أي محاولة سعى إليها أو أنجزها السلاطين الأتراك»[٢].

لقد كانت البداية باستيلاء محمد علي على ست مئة ألف فدان من الأرض الموقوفة وهي تمثل ثلث الأرض المزروعة في مصر والبالغة في ذلك الوقت

---

(١) محمد عبده: آثار محمد علي في مصر، مجلة المنار ٥/ ١٧٥ وما بعدها، وانظر: الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م. ١/ ٨٥١.

(٢) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م. ٣/ ٣١٣.

مليونيـن مـن الفدادين[١]، ثـم تطور الأمر عبر الزمـان ـ بفعل الاسـتبداد ثم الاحتلال ثـم الاسـتبداد ـ إلـى أن «انقطع الوقف بشـطريه: الأهلي والخيـري، فالأهلي مقطوع بحكـم القانـون (الصـادر ١٩٥٣: أي فـي عهـد عبـد الناصـر)، والخيـري قُطـع لما لوحـظ مـن الانقطاع بين ذرية الواقـف والوقف، والتصرف المطلق لـوزارة الأوقاف فـي إدارتـه، بل لوحـظ أن الذين وقفـوا وكان لهم حـق الرجوع، رجع كثيـرون منهم عـن أوقافهم»[٢].

ووصل الحال بالأمة إلى أن تحكمت الدولة في المساجد ونظم التعليم ومنافذ الثقافة، وصار المواطن لا يستطيع أن يدرس أو يتعلم أو يقرأ أو يسمع إلا ما تريده الدولة أو تسمح به، وهو لا يستطيع أن يمارس نشاطًا ولو خيريًّا إلا إذا سمحت الدولة، وصار العلماء في يد الدولة إن نطقوا بما أرادت أعطتهم الرواتب والمناصب وإلا أعطتهم المعتقلات والمشانق، ولا يستطيع الخطيب أن يخطب في الناس ولا أن يدرسهم ولا أن يقرئهم القرآن إلا بعد تصريح من الدولة، وصار الفقراء رهنًا لدى الدولة إن كانت صالحة أسعفتهم وإن كانت فاسدة أهلكتهم، وصار طلاب العلم أسرى لدى الدولة إن كانت حريصة على العلم مهدت سبيله وخفضت تكاليفه وأنفقت عليه وإن كانت غير ذلك أفسدتهم.. وهكذا صارت وجوه الحياة جميعها. فإذا استحضرنا حقيقة أن الذي حكمنا في عصور ما بعد الاحتلال كان على مذهب الغرب عرفنا أي مصيبة نزلت ببلادنا على يد أناس من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتا.

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ٣/ ٣٤٤.

(٢) تابع تطور قوانين الوقف في: محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٩م. والاقتباس في المتن من ص٤٦.

Readonly

Readonly

الأوقاف تهديد للعلمانية والتبعية الغربية

لم يكن محمد علي أول من حاول السيطرة على الأوقاف، حاول ذلك بعض الحكام قبله مثل الظاهر بيبرس ـ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وقت حاجته للمزيد من النفقة لمواجهة المغول والصليبيين ـ فوقف له الإمام النووي ومعه جمع من العلماء حتى ردَّه عن ذلك، وحاولها بعدئذ الظاهر برقوق ـ في أواخر القرن التاسع الهجري، ليستعيد لبيت المال الخاوي ما احتال الأمراء على وقفه تحصينًا لأموالهم ـ فوقف له سراج الدين البلقيني وبرهان الدين بن جماعة وأكمل الدين وكان أقصى ما سمحوا له ما وُقِف على الأبناء ومنعوا عنه ما وُقِف للخير العام، وحاول ذلك والي مصر العثماني إبراهيم باشا القبودان ـ في القرن الثاني عشر الهجري، وبالتحديد (١١٢١هـ ـ ١٧٠٩م) ـ فتصدى له علماء المذاهب الأربعة، فبقيت الأوقاف على ما هي عليه، بل وعجز السلطان العثماني نفسه بعد ذلك بربع قرن (١١٤٨هـ ـ ١٧٣٥م) عن مثل ذلك، ولئن أفلح الأمراء في التحايل على الاستيلاء على أموال الوقف إلا أن ذلك من الفساد الإجرائي الذي كان يمكن إصلاحه في كل وقت[١].

لكن الذي فشل فيه السلاطين والأمراء الكبار المجاهدون نجح فيه فيما بعد شراذم العسكر الذين وصلوا للحكم عبر انقلابات ـ خططت لها ودعمتها مخابرات دول الاحتلال ـ ولم يحققوا لأمتهم شيئًا ذا بال، ذلك أن المظلة العلمانية ونظام الدولة المركزية نزعت من الأمة كل قوة لتضعها في يد الحاكم، ولم يعد ثمة علماء

---

(١) محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف ص٢٠ وما بعدها، د. محمد عمارة: هل الإسلام هو الحل، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م. ص١٢١، ١٢٢.

Readonly

يستطيعون المواجهة بعد أن صاروا أجزاء من آلة الدولة، كما لم تعد ثمة قوى اجتماعية بعد أن صفيت عشائر الدولة أو سكتت رغبًا أو رهبًا.

ومن هنا تحكمت القوى العالمية في الأمة الإسلامية عبر التحكم في أنظمة الحكم، واختفت «الأمة» من معادلة الصراع، فنزل بنا من النكبات ما هو معروف مشهور طوال القرنين الماضيين.

إن الصراع الإسلامي الغربي متوقف في أهم وجوهه على قدرة الأمة على استعادة فاعليتها مرة أخرى، ونظام الوقف واحد من أهم هذه الوسائل التي تعيد الأمة إلى ساحة الفعل، وتعيد تمكينها من ثرواتها وتمويل نهضتها الحضارية.

* * *

Readonly

الفروسية الإسلامية

*** نشر في «المركز العربي للدراسات والأبحاث»، بتاريخ ٢١ سبتمبر ٢٠١٢م**

بدايةُ فكرة هذا المقال طَرَأت منذ وقعت على كلمة هنري كيسينجر ـ وزير الخارجية الأمريكية، ومستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق ـ الذي وصف فيه العسكر بأنهم «مجرد حيوانات غبية تستعمل كعساكر الشطرنج في تنفيذ السياسات الخارجية»

military men as dumb, stupid animals to be used as pawns for foreign policy(1).

وهذا التصريح يعد من أهم ما قاله إلى الحد الذي سجله موقع «اقتباسات ويكي» كأول «اقتباس» لكيسينجر.

ذلك أن هذا القول يختصر العقلية الغربية في رؤيتها للجندي، الإنسان المسلح، فهي تعمل على تجريده من كل «قيمة» أو «شعور» أو «قدرة على التفكير» لكي يمكن استخدامه في تنفيذ السياسات المتوحشة التي لا تتردد في إقامة المذابح الهائلة تنفيذًا للأهداف التي يقررها الساسة مهما كانت لا أخلاقية.

وهذا الأمر ليس غريبًا على التراث الغربي عامة من قديم، ففي عهد الإمبراطور الروماني فسبسيان، حاصر الرومان اليهود لخمسة أشهر حتى سقطت المدينة، فأمر الرومانُ اليهودَ أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم بأيديهم، ثم أخذوا يضربون القرعة بين

(1) http//:en.wikiquote.org/wiki/Henry_Kissinger

Readonly

كل يهوديين فمن فاز منهما قتل الآخر حتى أبادوا اليهود[١].

لم يكن الفرسان الغربيون يعرفون شيئًا عن «أخلاق الفرسان» أو «الفروسية» حتى تأثروا بها في احتكاكهم بالمسلمين سواء في الأندلس أو صقلية (التي ظلت تحت الحكم الإسلامي لقرنين من الزمن) أو حملاتهم الصليبية على الشرق، عندئذ رأوا من أخلاق الجندي المسلم الفارس ما جعلهم يستلهمونها، وهذه حقائق تاريخية يشهد بها حتى الباحثون والمؤرخون الغربيون.

وفي هذه المقالة وددت أن أجمع للجندي المسلم ما يملؤه فخرًا وعزة بانتمائه إلى الإسلام، ذلك الدين الذي يجعل الولاء للفكرة والقيم والإنسانية، ولا يسمح للجندي أن يكون مجرد أداة يستخدمها القائد السياسي أو العسكري في ارتكاب ما يأباه الشرف والدين والخلق القويم.. فانظر أيها الجندي، تلك شهادة قوم على غير دينك لأجدادك المحاربين المسلمين.

لقد استطاعت الفروسية الإسلامية، وسلوك الفاتحين أن يفعلا ما عجزت الإمبراطوريات الكبيرة عن فعله في مصر مثلًا، إذ منذ انتهت الحضارة الفرعونية لم يستطع الفرس ولا الإغريق ولا البطالمة إقامة حضارة في مصر، هذا ما يقوله الفيلسوف الفرنسي المعروف جوستاف لوبون:

«وما جَهِله المؤرخون من حِلْم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم، وفي سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم، التي رَسَخَت وقاومت جميع الغارات، وبَقِيَتْ قائمةً حتى بعد تواري سلطان العرب عن مسرح العالم، ونَعُدُّ من الواضح خاصةً أمرَ مصر التي لم يُوَفَّق فاتحوها من الفرس

---

(١) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين ٩/ ٦٨ ـ ٧٠. نقلاً عن: د. راغب السرجاني: أخلاق الحروب، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ ـ ٢٠١٠م. ص٥٠.

Readonly

والإغريق والرومان أن يقلبوا الحضارةَ الفرعونية القديمة فيها وأن يُقيموا حضارتهم مقامها.. وكان يمكن أن تُعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقترفوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة، ويُسِيئُوا معاملة المغلوبين، ويُكْرِهُوهم على اعتناق دينهم، الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم.. فالحقُّ أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم»[١].

ولقد أثرت هذه الأخلاق في العدو المحارب، وكان الاحتكاك الكبير بين المسلمين والغربيين في ثلاثة مناطق كبرى: الشام ومصر حيث دارت الحروب الصليبية، وجزيرة صقلية ومناطق جنوب إيطاليا حيث حكمها المسلمون ثم هُزموا أمام النورمان، والأندلس!

ترصد المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه ما طرأ على حال النورمان، وقد كانوا قبائل متوحشة، حين استولوا على صقلية فتقول: «ولأوّل مرّة في تاريخ العالم المسيحي أظهر النورمان تسامحاً مع المخالفين لهم في العقيدة، متمثّلين بالعرب في شهامتهم ورجولتهم. فكان ذلك المسلك بالتأكيد، هو سرّ ما أصاب دولتهم من ازدهار، إذا قورنت بنظيراتهم في الغرب»[٢].

وتكرر هذا المشهد في الأندلس، إذ ظهرت الفروسية العربية في أوروبا فكان «عرب إسبانيا يتَّصفون بالفروسية المثالية خلال تسامحهم العظيم، وكانوا يرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين، ويقفون عند شروطهم، وما إلى هذه الخِلال»[٣]،

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م. ص٦٠٥.

(٢) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، دار صادر، الطبعة العاشرة ـ بيروت، ٢٠٠٢م. ص٤١٢.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٢٧٨.

Readonly

حتى شهد المستشرق الإنجليزي الكبير توماس أرنولد أنه قد «بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحوَّلوا إليه من مسيحيِّي إسبانيا مبلغًا عظيمًا، حتى سحرهم بهذه المدنيَّة الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنِّه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا الفروسية العربية الرفيعة مجالاً فسيحًا لإظهار بأسهم، وما تَكَشَّفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخُلق كريم»[١].

وأما في الحروب الصليبية في الشام ومصر فقد بهرت الفروسية الإسلامية نفوس الصليبيين حتى دخلت في الإسلام أعداد غفيرة منهم رغم أنهم قدموا أول الأمر لحرب المسلمين، لقد وقعوا في الأسر فاستقبلتهم فروسية المحاربين المسلمين بما أمرهم الله به من معاملة الأسرى، يقول توماس أرنولد: «في الصراع مع السلاجقة تخلَّى الإغريق الصليبيون عن إخوانهم في الدين، وكتب المؤرخ القديم: لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (يقصد المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربوا على ثلاثة آلاف قد انضمُّوا بعد أن تقهقروا، إلى صفوف الأتراك، آه! إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أنه من المؤكد أنهم لم يُكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قَدَّمُوا لهم من خدمات»[٢].

ولا يقتصر الأمر على الأسرى فحسب، بل حتى الحجاج الصليبيون الذين قدموا من أوروبا لزيارة القدس كانوا عرضة للوقوع في أسر الإسلام، يضيف أرنولد: «وكان خطر الدخول في الإسلام ـ وهو ما كان (يتعرَّض) له حجاج الأراضي المقدسة ـ قد

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م. ص١٦٤.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٠٨، ١٠٩.

Readonly

شاع أمره في ذلك العصر بصورة واضحة، حتى إن أموري دي لاروش (Amaury de la Roche) رئيس فرسان المعبد التمس من البابا ونوابه في فرنسا وصقلية، في مذكرة دونها حوالي سنة ١٢٦٦م، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين؛ لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يَتَعَرَّضون إما للقتل أو الأسر، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم»[١].

وعلى أن الحروب الصليبية استمرت أكثر من قرنين من الزمان إلا أن المؤلفات الغربية تكاد لا تذكر شيئًا من هذا التاريخ وتركز على شخصية صلاح الدين الأيوبي الذي يعد الشخصية العربية الأولى في المؤلفات الغربية، فهذا المؤرخ الأمريكي ول ديورانت صاحب موسوعة «قصة الحضارة» يشهد باجتماع العسكرية الإسلامية في القسوة على المحاربين حال الحرب وفي الرفق بهم إن صاروا أسرى أو مسالمين، يقول ول ديورانت «كان صلاح الدين مستمسكًا بدينه إلى أبعد حدٍّ، وأجاز لنفسه أن يقسو أشد القسوة على فرسان المعبد والمستشفى[٢]؛ ولكنه كان في العادة شفيقًا على الضعفاء، رحيمًا بالمغلوبين، يسمو على أعدائه في وفائه بوعده سموًّا جعل المؤرخين المسيحيين يعجبون كيف يخلق الدين الإسلامي ـ «الخاطئ» في ظنِّهم ـ رجلاً يصل في العظمة إلى هذا الحدِّ»[٣].

لقد كان تميز صلاح الدين في أخلاقه عن ملوك الصليبيين واضحًا وناصعًا، هذا ما يؤكده المستشرق الفرنسي الشهير مكسيم رودنسون: «أثار العدو الأكبر صلاح

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١١٢.

(٢) فرسان المعبد (الداوية Knights Templar)، وفرسان المستشفى (الإسبتارية HOSPITALLERS): كتائب عسكرية صليبية لكنها تخضع للكنيسة والبابا لا للملك والنظام الإداري للدولة.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة ٢٠٠١م. ١٥/ ٤٤، ٤٥.

Readonly

الدين إعجابًا واسع الانتشار بين الغربيين؛ فقد شنَّ الحرب بإنسانية وفروسية، برغم قِلَّة مَنْ بادلوه هذه المواقف، وأهمهم ريتشارد قلب الأسد»[١].

بدا هذا الفارق أكثر ما بدا ـ كما تذكر الألمانية زيجريد هونكه ـ حين «تمكَّن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (٥٨٣ هـ ـ ١١٨٧ م) ـ التي كان الصليبيون قد انتزعوها من قبل (٤٩٢ هـ ـ ١٠٩٩ م) بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تُدَانيها مذبحةٌ وحشيةً وقسوةً ـ فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقامًا لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جُودِه ورحمته، ضاربًا المثل في التخلُّق بروح الفروسية العالية، وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خُلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى»[٢].

لقد دفع هذا الصليبيين إلى التزوير في تاريخ صلاح الدين والادعاء بأن أمه كانت صليبية فورث منها هذه الفروسية! لقد التقط الأمريكي مايكل هاملتون مورجان هذه الطرفة وأشار إلى أنها إعجاب بالفروسية وحدها، فصلاح الدين لم يكن من العلماء كالمأمون، ولا زعيمًا لدولة مستقرة زاهرة حضاريًا، يقول: «قائد مسلم، وهو رجل شديد التدين لن يتمتع بفكر مثل هارون الرشيد والمأمون، ولا الحَاكم في القاهرة، أو عبد الرحمن الثالث في قرطبة، إلا أنه سيجسد نوعًا من شرف الفروسية الإسلامية سيكون مثار انبهار الأوربيين، بل وسيدفعهم نبله هذا

---

(١) مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام)، بإشراف شاخت، وكليفورد بوزوروث، سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت، ١٩٧٨م. ص٤١.

(٢) زيجريد هونكه: الله ليس كذلك، ترجمة د. غريب محمد غريب، دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م. ص٣٤.

Readonly

إلى العديد من المواقف المحرجة، فما كان منهم إلا التماس أن السبب وراء أخلاقه الرفيعة والكريمة ما هو إلا لأن لديه دماء أوربية تجري في عروقه، هذا الرجل هو صلاح الدين»[١].

وكانت النتيجة ـ كما يقول توماس أرنولد ـ أن «أخلاق صلاح الدين الأيوبي وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًّا خاصًّا، حتى إن نفرًا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضمُّوا إلى المسلمين»[٢].

أيها الجندي المسلم..

هكذا فروسيتك، يشهد بها الخصوم، ويزهو بها التاريخ!

وأنت ـ بإذن الله ـ خير خلف لخير سلف..

* * *

(١) مايكل هاملتون مورجان: تاريخ ضائع، نهضة مصر، الطبعة الثالثة ـ القاهرة ٢٠٠٨م. ص٢٦٨.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١١١.

Readonly

صناعة مناعة المجتمع

*** نشر في «المركز العربي للدراسات والأبحاث»، بتاريخ ٤ سبتمبر ٢٠١٢م**

جاء حيي بن أخطب اليهودي إلى بني قريظة في إطار خطته المحكمة للقضاء على النبي ﷺ بتحريض الأحزاب، إلا أن بني قريظة كانوا في موقف حرج: فلئن فشلت الغزوة فسينفرد بهم المسلمون ولن ينجيهم أحد، وهنا وعدهم حيي بن أخطب بأنه لو حدث ذلك فسيدخل معهم في حصنهم لينزل به ما نزل بهم، وقد كان، وقُتِل معهم وهو رابط الجأش!

وقبل هذه الواقعة بأعوام كلَّف النبي ﷺ فريقًا من الصحابة بقتل اليهودي كعب بن الأشرف الذي نقض عهده مع المسلمين وكان يهجو النبي ويحرض عليه ويرثي قتلى المشركين، فذهب هذا الفريق ـ وهو المكون من محمد بن مسلمة وأبو نائلة وآخرَين ـ إلى كعب بن الأشرف، وبعد تحضير وتدبير نادوا عليه، فخافت زوجته وحاولت منعه من النزول قائلة: «أسمع صوتًا يقطر منه الدم» فكان من ضمن ما قاله لها «إن الكريم إذا دُعِي إلى طعنة بليل أجاب»، وقد كان في هذا مقتله.

هذان مثالان من يهود عاشوا بين العرب فاكتسبوا منهم صفات العرب التي تخالف طبائعهم الأصلية ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ.. يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، هذا مع أن اليهود هم أقل الناس تأثرًا بالآخرين بما عاقبهم الله من تقطيعهم في الأرض ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠] فكانوا منعزلين، وبما يعتقدون في أنفسهم من علو يجعل منهم شعب الله المختار!

Readonly

والمراد من هذين المثال تبيين أثر المجتمعات في تشكيل طبائع الأفراد وإن خالفت طبائعهم وصفاتهم الأولى.. ثم هاهو مثال يهودي ثالث فيه أيضًا عبرة!

حين قطعهم الله أسباطًا أممًا جعل اليهود في حاراتهم ومناطقهم يحيون مجتمعهم القديم، فحافظوا بذلك على وجودهم من الذوبان، وكانت هذه المجتمعات هي نواة تجددهم وإعادة انبعاثهم في دولة، فحتى «الحديث اليومي بين اليهود في المجتمع لم يكن يتمُّ بلغة البلاد، وإنما برطانة يهودية خاصة تُسَمَّى باليديش، وحين كان يهودي الجيتو يتعلَّم لغة جديدة، فإنه كان يتعلَّم «لشون هاقدوش»؛ أي: اللسان المقدس أو اللغة العبرية، لأن مجرَّد النظر إلى أبجدية الأغيار كان يُعَدُّ كفرًا ما بعده كفر، يستحقُّ اليهودي عليه حرق عينيه»[1].

حاصل هذه الوقائع التاريخية الثلاثة يؤدي بنا إلى قيمة «مناعة المجتمع».. حيث لكل مجتمع منظومة فكرية قيمية حاكمة لسلوكيات أفراده، وبقدر تأصل هذه المنظومة بقدر احتفاظ المجتمعات بقوتها وخصوصيتها، وكلما ضعفت كلما انهار المجتمع وكان عرضة للذوبان في غيره أو ليكون ساحة صراع بين المجتمعات المتماسكة!

في النظام الإسلامي يكون الإسلام ـ عقيدة وشريعة ـ هو هذه المنظومة الفكرية والقيمية الحاكمة، وجعل الإسلام حماية هذه المنظومة عملًا تقوم به الأمة ولا تنفرد به السلطة لضمان أن يدافع المجتمع عن نفسه بأقوى وأفعل وسائل الدفاع.. فالكل جنود لهذه المنظومة! فلئن قامت السلطة بدورها في «**حراسة الدين** وسياسة الدنيا» فبها ونعمت، ولئن قصرت فلن يكون ضعفها أو انهيارها هو انهيار المجتمع بل على العكس.. يستطيع المجتمع أن يعيد تقويم السلطة؛ لأن «الدين النصيحة.. لأئمة المسلمين وعامتهم»، ولأن «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».. فإن

---

(١) عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية ١/ ٣١، ٣٢.

Readonly

لم تقم الأمة بدورها فهذا هو الانهيار الكبير «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تُوُدِّع منهم»!

ومن الإعجاز الإلهي في إخراج الأمة المسلمة أنه جعل أمر «تغيير المنكر» من صميم الإيمان، فالمسلم يسمع قول النبي ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه **وذلك أضعف الإيمان**»، وفي رواية أخرى «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».. فذلك يجعل المسلم مدفوعًا إلى تغيير المنكر دفاعًا عن إيمانه! فإن لم يفعل ذلك دفاعًا عن إيمانه فهو يفعله دفاعًا عن وجوده ومصالحه.. ذلك أنه يسمع من النبي حديث السفينة، حيث لو ترك الصالحون المفسدين ليفعلوا ما أرادوا «هلكوا وهلكوا جميعًا، ولو أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»!

ولكي يتعلم المسلمون من التجربة التاريخية لغيرهم قص الله عليهم قصة انهيار بني إسرائيل الذين لعنهم الله لأنهم «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه».. وحذرهم النبي من ذات المصير: «إنه من كان قبلكم من بني إسرائيل إذا عمل العامل الخطيئة نهاه الناهي منهم تعذيرًا حتى إذا كان من الغد وآنسه وواكله وشاربه كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله ـ عز وجل ـ ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء ولتأطرنه على الحق أطراً أو ليضربن الله ـ عز وجل ـ قلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم».

لهذا كانت الأمة خير أمة أخرجت للناس، لأن الحفاظ على قيمها وثوابتها عمل شعبي عام يقوم به كل الناس دفاعًا عن إيمانهم وعن وجودهم ومصالحهم، ولهذا تظل الأمة هي الأقوى تماسكًا بين الأمم جميعًا، وكان ضعف السلطة فيها لا

Readonly

يعني انهيارها الحضاري، بل لقد تفوق علينا الصليبيون والمغول عسكريًّا ثم وقعوا جميعًا أسرى ثقافتنا وحضارتنا في الشام وصقلية والأندلس ووسط آسيا، وربما اختفى الإسلام من الأندلس وصقلية سياسيًّا وعسكريًّا ولكن إشعاعه الحضاري ظل طوال قرون يؤثر في تلك الأنحاء.

يمكننا أن نرى في ظهور «الدولة المركزية» نقطة نكبة في تاريخ الأمة، فمنذ تلك اللحظة حاولت السلطة السيطرة على حركة الأمة ومنعها من الفعل إلا بإذن من السلطة، وفي مصر على سبيل المثال انزعجت السلطة من بلاغات ضد ترويج الكفر في المؤلفات، فأصدرت قانونًا يمنع أحدًا من رفع قضية في مثل هذه الأمور العامة[1] بل غاية ما يفعله أن يقدم بلاغًا للنائب العام الذي تحول إلى كهف لمثل هذه البلاغات يقبرها جميعًا، فينتشر الكفر ـ باسم الحرية ـ وتُمنع مقاومته ـ باسم القانون ـ ليزيد المجتمع انهيارًا فتزيد السلطة فيه تحكمًا واستبدادًا!

وهذا التطور الأخير هو حلقة في سلسلة بدأت قديماً بتجريد الأمة من أموالها ـ الأوقاف الخيرية ـ ومن مجهودها الطوعي ـ الجمعيات الأهلية والخيرية ـ بل حتى من وسائل إعلامها الخاصة ـ المساجد والزوايا ـ ومن مدارسها المحلية ـ الكتاتيب والتكايا ـ فصار كل هذا في يد السلطة تحركه أو تمنعه أو تحتكره!

لهذا كله نزلت النكبات بالأمة تترى منذ مئتي عام، منذ ظهور «الدولة المركزية» حيث صارت الأمة كالأسير عند السلطة، هذه السلطة التي سلمتها للاحتلال الأجنبي العسكري والثقافي، احتلال الأذواق والقيم والأفكار، مما جعل الانهيارات أسرع وأكبر وأوسع من جميع ما تم فيما قبل هذا التاريخ!

---

(١) وذلك في أوائل التسعينات في قضية نصر حامد أبو زيد.

Readonly

ولا علاج لكل هذه الانهيارات إلا أن تعود الأمة إلى ساحة الفعل، وأن تكون الأمة أقوى من السلطة، ولا يمكن تحقق هذا إلا بنشر ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبها وحدها يشعر المسلم ضرورة القيام بها دفاعًا عن إيمانه وعن وجوده.

لقد انهارت أمم وممالك وحضارات كثيرة بالظلم والطغيان منذ قوم نوح الذين كانوا ﴿أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] وحتى عصرنا الحاضر، وإلى يوم القيامة، بينما سيظل الروم أكثر الناس بنص حديث النبي ﷺ «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»، وهو ما فسره الخبير بهم عمرو بن العاص رضي الله عنه فذكر أن لهم خمس خصال جميلة: «إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف (الأمر بالمعروف)، وأمنعهم من ظُلْم الملوك (النهي عن المنكر)»!

وهذه كلها صفات يقوم بها الناس، العامة، الشعب، الرعية.. لا الملوك والحكام، ولهذا ـ وبهذا ـ تخلد الأمم!

* * *

Readonly

زينب زوجة الأمراء

*نشر في مجلة الوعي الإسلامي، ديسمبر ٢٠١٣م

اختزنت صفحات التاريخ الإسلامي كثيرًا من المواقف الماجدة والمتألقة لإسهام النساء في الحضارة الإسلامية، حتى إن للمرأة في تاريخ الإسلام ما ليس مثله لا قبله ولا بعده، دليل ذلك أنه حين «انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد وانخرطت في رعية الدولة الوليدة ١٢٤,٠٠٠ من المسلمين والمسلمات. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي تربّت في مدرسة النبوة وتميز عطاؤها في مختلف ميادين العطاء، رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة، فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء. أي إن التحرير الإسلامي للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة إبان التحرير الإسلامي في أقل من ربع قرن من الزمان، وهي أعلى نسبة للريادات النسائية في أي ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات»[١].

ومنذ نشأت دولة الإسلام في المدينة اكتسبت المرأة منزلة جديدة، فبعدما تفاجأ عمر رضي الله عنه من أن زوجته تراجعه في الكلام، اندهش حين أخبرته بأن نساء النبي يراجِعْنَه أيضًا وقد تغاصبه الواحدة منهن اليوم كله، فكان مما قال «كنا

(١) د. محمد عمارة: التحرير الإسلامي للمرأة ص٢٠.

Readonly

معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار»[1].

ثم لم يُقبض رسول الله إلا وكانت المرأة تشير في السياسة وتقاتل في الحرب وتُعَلِّم الدين، ومنذ أخذ النبي ﷺ بقول أم سلمة يوم الحديبية لم يعد مستغربًا أن نرى للمرأة مكانًا في تاريخ الملوك والخلفاء، بل لم يعد يُستَنْكَر أن يقال على الرجل العظيم «غلبت عليه امرأته» ولم تكن هذه سبة في حقه إلا أن يكون من المخذولين أمام العدو أو ممن يرهق الرعية أو ممن يقدم رضاها على مصلحة الأمة.

لذلك اشتهرت كثير من نساء الخلفاء، مثل الخيزران جارية المهدي، وزبيدة زوجة الرشيد، وصبح البشكنسية جارية الحكم المستنصر الأموي، وتركان خاتون زوجة ملكشاه السلجوقي، وعصمت الدين خاتون زوجة نور الدين زنكي ثم صلاح الدين الأيوبي، والزرقاء زوجة عبد المؤمن بن علي الموحدي، وشجر الدر زوجة نجم الدين أيوب، والرميكية زوجة المعتمد بن عباد.. وهذا الأخير هو الذي كثر الطعن فيه لأجل حبه لزوجته، وما ذلك إلا لما جناه في ملكه على الأمة من ضعف وذلة أمام العدو واستبداد واستكبار على الرعية وعلى المسلمين، فكان الطعن فيه طعن في ضعفه وسوء تدبيره على الحقيقة لا طعن في حبه.

وقد اخترنا من بين تلك الطبقة من النساء امرأة غير مشتهرة، لا سيما بين المشارقة، تلك هي زينب النفزاوية: زوجة الأمراء والملوك، وزوجة الرجليْن العظيميْن: أبي بكر بن عمر اللمتوني، ويوسف بن تاشفين، والتي لُقِّبت بـ«الساحرة» لشدة ذكائها وحسن رأيها وتدبيرها ومشورتها.

---

(١) البخاري (٢٣٣٦)، ومسلم (١٤٧٩).

Readonly

في القرن الخامس الهجري كانت مناطق جنوب المغرب الأقصى تعيش جهالة كبرى كأنما لم يصلها الإسلام قط، حتى ظهر فيهم متنبئون وضعوا لهم أديانًا وتعاليم غريبة، وتوزعوا طوائف متفرقة متناحرة، وكان الرجل يتزوج النساء بلا عدد، وكانوا لا ينكرون زنا المحارم ولا ينكرون الزنا بالمتزوجة، حتى خرج رجل منهم إلى الحجّ فمرّ في طريقه بفقيه مغربي فأدرك ما عليه قومه من الجهالة، فعاد إلى قومه بطالب علم شاب اسمه: عبد الله بن ياسين.

لكن عبد الله بن ياسين لم يفلح في دعوة القوم الذين تحزبوا ضده حتى آذوه وطردوه ورفضوا ما جاء به، فسار جنوبًا حتى نزل جزيرة يرجح أنها بالقرب من تنبكتو (في مالي) مع نفر قليل ممن استجاب له، وما زالوا يكثرون ويقومون بالدعوة حتى كانوا نواة الدولة المغربية العظيمة.. دولة المرابطين.

نمت دولة المرابطين وبدأت رحلة توحيد بلاد المغرب تحت سلطانها، فكان من ضمن البلاد التي حاربتهم «تادلا» التي كان يحكمها لقوط بن يوسف المغراوي فقُتِل في معاركه مع المرابطين، وكانت زينب النفزاوية هي زوجته.. وقد صارت الآن أرملته!

قبل زواجها بلقوط كانت زينب متزوجة من شيخ قبيلة «وريكة» لكن قومها هُزِموا في المعارك القبلية أمام جيش لقوط، وبعد مقتل لقوط تزوجها أمير المرابطين: أبو بكر بن عمر اللمتوني، غير أن زواجها لم يدم إلا ثلاثة أشهر فقط؛ إذ جاءت الأخبار إلى أبي بكر بأن اضطرابات تجتاح الدولة في الجنوب حيث الصحراء ـ وأَصْل الدولة ـ فاضطر أبو بكر أن يخرج إلى هناك بنفسه دون أن يستكمل توحيد المغرب، وقال لزوجته «يا زينب إني ذاهب إلى الصحراء وأنت امرأة جميلة بضة لا طاقة لك على حرارتها وإني مطلقك، فاذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف ابن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب»، وهو ما كان.

Readonly

ولما تولى يوسف بن تاشفين بلاد المغرب أظهر من السياسة والقوة والحكمة ما جعله المؤسس الثاني والشخصية الأهم في دولة المرابطين، فاتسع ملكه واشتدت دولته، وتوحدت المغرب تحت سلطانه، بل ولجأت إليه الأندلس ـ التي كانت تئن تحت حكم ملوك الطوائف ـ بعدما سقطت طليطلة (أحصن مدن الأندلس) وتهددت إشبيلية (أكبر وأقوى مملكة أندلسية آنذاك) فخرج بجيشه وخاض المعركة الخالدة «الزلاقة» التي أنقذ بها الإسلام في الأندلس لمئة عام على الأقل، ثم حين عاد ملوك الطوائف للتقاتل والتحالف مع الصليبيين ضد بعضهم، خاض معركته معهم، فتوحدت تحت سلطانه المغرب والأندلس معًا، واستعاد المسلمون بذلك عزة غابت عنهم لنحو قرن من الزمان.

كانت زينب النفزاوية حاضرة طوال هذه المسيرة المجيدة، ويشهد المؤرخون بأنها «حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور»، بل ينسبون مجد يوسف بن تاشفين وتوحيده بلاد المغرب إليها فيقول ابن الأثير: «كانت من أحسن النساء ولها الحكم في بلاده» حتى كان العاقل ليتمنى الزواج بها، ويقول ابن خلدون: «كان لها رياسة أمره وسلطانه»، ويقول السلاوي: «كانت عنوان سعده، والقائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه ـ بحسن سياستها ـ لأكثر بلاد المغرب»[(١)]، وقد بالغ بعض أهل الأدب والتظرف فذكروا عنها ما لا يُصَدَّق[(٢)].

وقد لا يعجب المرء من الخبرة السياسية لزينب وهي التي تنقلت بين أربعة أزواج بفعل أعاصير السياسة والحروب. ولذلك فقد استطاعت إنقاذ الدولة في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٩٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/ ٦٢، والسلاوي: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ٢/ ٢٠، ٢٣.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٢٤/ ٢٦٥، ٢٦٦.

Readonly

لحظة عصيبة بمشورتها، كان ذلك حين رجع عمر بن أبي بكر إلى المغرب بعد أن استقر له أمر الصحراء، وكان ابن تاشفين قد أثمر إنجازات كبرى ما كان لابن عمه أن يفعلها، وكان من البديهي أن عودة أبا بكر تعني عودته أميرًا وحاكمًا للدولة، وهو ما يهدد بزوال الثمرة التي أوشكت على الاكتمال، وكان يوسف ابن تاشفين يجد حرجًا إذ إن تمسكه ببقاءه حاكمًا يوحي بانقلابه وغدره ونكثه لعهده مع ابن عمه مع احتمال نشوب حرب ـ أو انقسام شديد على الأقل ـ إن تمسك أبو بكر بحقه كأمير للدولة، بينما تنازله لابن عمه يهدد اكتمال إنجاز يوشك على التمام.

لكن زينب التي لم تعش مع أبي بكر سوى ثلاثة أشهر أشارت عليه بأن يتمسك ببقائه أميرًا، ورغم أنها لم تعش مع أبي بكر إلا ثلاثة أشهر إلا أنها عرفت من طباعه الورع وحب الوحدة وخشية سفك الدماء، وأشارت عليه بأن يستقبل أبا بكر خارج المغرب لتجنب أي انشقاقات داخلية، وبأن يكلمه من موقع الندِّ لا التابع، وأن يكون خروجه في جيش كبير، ومعه الهدايا الكثيرة التي يهديها لابن عمه «ليستعين بها على أمر الصحراء»، وقد كان ما أشارت به، وفهم أبو بكر المراد، وكان يستطيع أن يرجع بهدوء لكنه ـ من شدة ورعه ـ كتب ليوسف بن تاشفين عهد تجديد واستمرار ولايته على المغرب، واستكمل هو طريق الدعوة وإكمال بناء الفرع الثاني من الدولة في الصحراء.

ولقد صحت رؤية زينب، فما أنجزه أبو بكر في الجنوب لا يكاد يُذكر بجانب الإنجاز الضخم ليوسف بن تاشفين في المغرب والأندلس، بل لم تعش دولة أبي بكر كثيرًا بينما ازدهرت دولة المرابطين وأنقذت الأندلس ووحدتها مع المغرب وأنزلت بالصليبيين هزيمة خالدة.. كما صحت رؤيتها في الطريقة التي اتبعتها

Readonly

لتوصيل الرسالة وإنهاء الأمر في هدوء، وبعيدًا عن أعين الناس الذين قد يتسبب ظهور أبي بكر في انقسام بينهم يهدد وحدة الدولة، وصحت رؤيتها في فهم طباع أبي بكر وفي التعامل معه ومع رجاله بالرغبة (الهدايا) والرهبة (الجيش الكبير).

روى ابن الأثير أن ثلاثة اجتمعوا فتمنى الأول ألف دينار، وتمنى الثاني عملًا يتولاه للمسلمين، وتمنى الثالث زوجة ابن تاشفين، فوصل خبرهم إلى ابن تاشفين فأعطى الأول ألف دينار والثاني بعض الأعمال، وأما الثالث فقال له: يا جاهل، ما حملك على تمني ما لا تصل إليه؟ ثم أرسله محبوسًا، فأوصت زينب بأن يُطعم كل يوم من طعام واحد لثلاثة أيام، ثم أحضرته وقالت له: ما أكلت هذه الأيام؟ قال: طعاما واحدًا، فقالت: فكل النساء شيء واحد، وأمرت له بمال وكسوة وأطلقته.

وهنا نرى امرأة ذات تواضع، وذات حكمة..

* * *

Readonly

سنن الانتقال من الذل إلى المجد

* نشر بتاريخ ١٧ يناير ٢٠١٥م

كان من خلق الله قوم فيهم نبي وليس فيهم قائد، فلم يكن كل الأنبياء قادة، وقد سلَّط الله عليهم قومًا آخرين هزموهم وأذلوهم وانتزعوا منهم مقدساتهم!

أولئك قوم من بني إسرائيل من بعد موسى، الذين قصَّ الله علينا قصتهم في كتابه الكريم!

وهذه القصة فيها من فوائد غزيرة وعجيبة يجدر أن نتأملها:

١. إن الله سلط قومًا كافرين على قوم مؤمنين فأذلوهم وانتزعوا منهم مقدساتهم، ولم ينفعهم «مجرد» الإيمان «وحده» لما لم يأخذوا بسنن الكون.

٢. لقد كانت أبرز مشكلاتهم افتقادهم لقائد، فقياداتهم أعجز من أن تخوض صراعًا يعيد لهم عزتهم وكرامتهم ومقدساتهم.. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، سنكتشف بعد قليل أن القائد كان موجودًا بينهم، لكن قناعاتهم وأسلوب تفكيرهم ومقاييس حكمهم على الأمور جعلتهم يغفلون عنه ولا يفكرون فيه.

٣. المدهش هنا أن النبي ـ وهو أتقاهم لله وأخشاهم لله وأرفعهم مكانة عند الله ـ لم يكن يصلح قائدًا، إن مجرد الورع والتقوى والخشية والقرب من الله لا تصنع قائدًا يخوض معارك الدنيا، إذ لا بد أن يجتمع مع هذا أمور أخرى.. بل سنكتشف

Readonly

بعد قليل أنَّ القائد المنتظر لم يكن الأخشى ولا الأتقى ولا الأكثر علمًا.. بل كان الأكثر قدرة وتأهلًا، مع وفور حد من التقوى والخشية بلا شك.

٤. المدهش كذلك أن عدم صلاحية هذا النبي للقيادة كان أمرًا معترفًا به لدى الجميع، الملأ والنبي نفسه، ولم نجد ـ مثلًا وفرضًا وتخيلًا ـ من يقول: وهل يصلح لها إلا هذا النبي وهو من هو؟ وكيف تتوقعون أن ينصركم الله وأنتم تطلبون قائدًا غير نبيكم؟ ولم يقل هو ـ وحاشاه، عليه السلام ـ فمن أولى مني بالقيادة وأنا أعلمكم وأتقاكم وأفضلكم؟!.. كان الجميع معترفًا بالمشكلة ساعيًا في إيجاد حل لها.

٥. مما يثير الاحترام هنا أنهم عرفوا مكانة النبي وفضله فتوجهوا إليه أن يختار لهم بعلمه وفضله وقربه من الله أنسب قائد لهم، وهنا نلمح مشهدًا من التجرد، إذ هم ألزموا أنفسهم أن يتبعوا هذا القائد ولن ينازعوه قيادته.

٦. كذلك فإننا نجد شعورًا قويًا بالأزمة والمذلة، ولم يتصوروا أنهم يمكن أن يتخلفوا عن المعركة إذا جاءت، حتى لو بفعل الضرورة وألم الذل ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

٧. لكنهم، ما إن كُتِب عليهم القتال، حتى تخلخلت الصفوف، والتمس كل منهم لنفسه عذرًا وأعذارًا، وجبنوا عن خوض المعركة المنتظرة ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].. وهنا ينبغي أن يخشى كل امرئ على نفسه أن يكون صاحب دعوى فارغة، وأن يكون في نفسه من الظلم والفساد ما يحرمه من أجر الطاعة التي تشوق لها لما جاء وقتها!

٨. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] لقد

Readonly

اتضح أن من بينهم من يصلح للقيادة لكنهم صُدِموا وصاحوا: ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فانظر إلى مقاييس القيادة التي كانت راسخة في قلوبهم وأذهانهم! كانوا يرجون أن يكون القائد من ذوي المال! وهذا بحد ذاته يشرح لك لماذا هُزِموا ولماذا عقموا عن أن يكتشفوا المؤهلين للقيادة من بينهم.. كان مقياسهم فاسدًا!

وهنا أزمة الأفكار التي تضيع بسببها البلاد والعباد والمقدسات، ويأتي بسببها الذل والعار والهزيمة.. فساد الأفكار في أنها لم تكن منضبطة على أوامر الله بل هي أفكار «وضعية» جاءت من عالم الدنيا ومقاييس الأرض.

٩. ولقد كانت من مهمة النبي ـ عليه السلام ـ خوض معركة الوعي، معركة الفكر، معركة الفهم هذه، ليقول لهم ﴿إن الله اصطفاه عليكم، وزاده بسطة في العلم والجسم﴾.. وبديهي أنَّ العلم هنا لم يكن علم الشرع فالنبي أعلم منه بالشرع، ولكنه كان علم الحرب، وكذلك الجسم.. فتلك هي مقاييس القيادة في الحروب!

١٠. لكن فساد الأفكار والقناعات بلغ حدًّا بعيدًا من العمق والرسوخ والقوة حتى إنهم احتاجوا إلى معجزة ربانية كي يصدِّقوا أن هذا الرجل يصلح أن يكون قائدًا عليهم.. فلم يكفهم قول النبي الذي هو صدق لا كذب فيه، والذي يعرفون اتصاله بالله وصدقه فيما يبلغ عن الله ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٨]..

وهذا يعلمنا أن فساد الأفكار لا يكون مجرد فساد فكرة، بل هو يؤثر في النفسية والذهنية والعاطفة، حتى لا يعود ممكنا تصحيحه بمجرد التوضيح والبيان فحسب، بل بمجهود عاطفي ونفسي وتربوي.. وهو يعلمنا أن نتعلم رحمة الله ورفقه إذ بعث

Readonly

لهم معجزة تعالج ما رسخ في نفوسهم من فساد، فينبغي أن نكون أرفق في التوضيح والبيان بمن طال عليهم الأمد وتحول فساد أفكارهم إلى فساد شامل.

١١. انتظم الجيش خلف قائده جالوت بعد أن تخلف عنه من تخلف، وهنا يصف القرآن الكريم لأول مرة هؤلاء القوم بأنهم «جنود»، مما نفهم منه أنهم كانوا قبل ذلك فوضى لا سراة لهم، لا يجتمعون على أمر ولو كانوا في الذل والعار والهزيمة، ولو كان بينهم نبي، ولو كان لهم ملأ.. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]!

١٢. ثم جاء الاختبار المهول، والذي يزداد المرء رعبًا كلما تصوره، إن القوم ساروا في الصحراء حتى عطشوا ثم ابتلاهم الله بنهر، لكن قائدهم طالوت لم يسمح بالشرب منه إلا غرفة واحدة فقط!

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

مبلغ الهول في هذا الاختبار أن الشرب حاجة إنسانية فطرية وغريزية، ليست علامة فساد، وليست دليل انحراف، وليس مطلبًا ترفيهيًّا أو ترفًا.. إنه حاجة غريزية، ولكن لوازم الجهاد تتطلب من المجاهد أن ينتصر على نفسه حتى في حاجاته الفطرية الغريزية، وأن يملكها ويحكمها ويسيطر عليها مهما تاقت إلى شيء هو من صميم حاجاتها الأساسية.. وهذا أمر ما أحسب أن أحدًا يستطيع أن يحكم على نفسه فيه، فهي أمور لا تظهر إلا في الشدائد والابتلاءات والمواقف الهائلة.. نسأل الله أن يثبتنا وأن ينصرنا على أنفسنا.

ولقد سقط في الاختبار أكثر الذين كانوا مع طالوت ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

Readonly

١٣. ثم جاء اختبار هو الأكبر والأصعب! لقد وجد القوم أنفسهم صاروا قلة مع من تساقط منهم في المراحل السابقة.. وهم مقبلون على مواجهة جيش ضخم يمثل بالنسبة لهم «قوة عالمية» بألفاظ زماننا هذا! فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إنه من المدهش حقًّا أن هؤلاء القوم الذين اجتازوا اختبارات فساد الفكر وغرور النفس واختبار الغريزة نفسه.. أصيبوا في لحظة من اللحظات باليأس! واستحضروا المقاييس المادية رغم رصيدهم الكبير من الإيمان!

فيا الله! كيف يمكن للمرء أن يعبر كل هذه الاختبارات ثم لا يضمن نفسه أيضًا! إن من انتصر على غرائز الجسد قد هزمته قلة قوته المعنوية.. إن القلب الذي استطاع أن يقهر العطش لم يستطع أن يقهر الخوف أو أن يواجه اليأس!

وهنا نتعلم أن السيف لا بد له من قلب، وأن المرء لا بسيفه وإنما بقلبه أولًا، بإيمانه وصلابته ورسوخ اليقين في نفسه!

١٤. هذا الصنف هو من كان عنده الحل ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وهنا نرى كيف يفعل الإيمان مع انهيار العوامل المادية، وكيف يظل اليقين ثابتًا مهما جاءت الحوادث بعكسه!

هذا يعلمنا أن الناجين قلة.. والهالكين كثرة! فلا ينبغي أن نتعلق بالعدد والعدة.

ويعلمنا كذلك أن المعركة الكبرى تدور في القلب، في ساحة الإيمان واليقين! فلا ينبغي أن ننفق الطاقات في استرضاء أو استجلاب من لا دين لهم ولا إيمان يحركهم.

Readonly

ويعلمنا كذلك أن القلة القليلة هي القادرة على تثبيت الكثرة.. فلا يستقل أحدنا أي عمل، وكم نقرأ في السير والقصص والمذكرات أن أبطالًا كثيرين ثبتهم موقف من طفل أو امرأة أو عجوز أو جندي عادي.. ولذا فلا بد من أن نتجلد ونصبر ونظهر القوة مهما بلغ الحال، فلعل هذا الثبات والتجلد يثبت من كان في موضع القرار أو في من يملك إنفاق أموال وتحريك طاقات!

إن الفرد الواحد، والقلة القليلة، هي التي تغير مسار التاريخ وتصنع الأحداث.. وما الكثرة إلا أتباع!

١٥. وهنا ينزل نصر الله.. وانتصر جيش القلة المؤمنة على جيش الكثرة الكافرة.. بقائد يفهم علم الحرب ومؤهل لها وبجنود ثبتوا بعد الزلازل.. بل لقد أسفرت الحرب عن مفاجأة أخرى! عن الفتى الصغير الذي استطاع قتل قائد الكافرين جالوت.. هذا الفتى الصغير هو الذي سيؤسس أعظم دولة لبني إسرائيل بل سيبلغ ابنه من الملك ما لم يبغه ملك في كل تاريخ البشر.. ذلك هو نبي الله داود الذي سيرثه ابنه نبي الله سليمان والذي سيؤتيه الله ما لم يؤته أحدًا من العالمين.. ليجتمع في شخصيهما: النبوة والقيادة معًا.

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

١٦. ثم تختم الآية بختام عجيب مبهر ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

إنها قيمة تغفل عنها الأمم المهزومة، الأمم التي ارتضت بالذل وبالدنيا، الأمم التي هانت على الله وعلى أعدائها فذلت!

Readonly

إن الله يقول بأن «الاستبداد هو فساد الأرض» وبأن «الحروب هي وسيلة إنقاذها»!

وهي قيمة إنسانية عامة، إن كل الأمم ـ بما فيها حتى اليهود وهم أحرص الناس على حياة وأبخلهم بما في أيديهم ـ تقدم التضحية بالأبناء للنجاة من الذل والقهر والوصول إلى العز والمجد! ومن المثير للتأمل أن الأمم تقدس محاربيها أكثر من تقديسها لمهندسيها ومعمارييها وفنانيها!

إن فساد الأرض هو في سيادة الاستبداد.. ونجاة الأرض هو في المقاومة والدفع والجهاد.. وإن بدا لأصحاب المقاييس المادية أن العكس هو الصحيح، وأن الأمن خير من الحرية وأن الملك الغشوم خير من فتنة تدوم، ولو تأملوا لعلموا أن من ضحى بالحرية لم يحصل الأمن وأن الفتنة الحقيقية التي تدوم هي دوام الملك الغشوم.

***

Readonly

بعض ما فقهه هنتنجتون

*** نشر على جزئين بموقع «الحملة العالمية لمقاومة العدوان»، بتاريخ ١٥ أغسطس ٢٠١٣ و١٥ سبتمبر ٢٠١٣م**

كثير من المتعة كامنٌ في قراءة إنتاج المفكرين الغربيين منذ أن تحول الاستشراق إلى بحث علمي وتخلى عن مرحلة الخرافة وحتى هذه اللحظة، ذلك أن إنتاج المجتمعات وهي تشعر بالرسوخ والاستقرار يتميز عامة بالهدوء النفسي ويعبر عن حالة من التفكير الناضج حيث لا يظللها خطر داهم يدفعها نحو التفكير والإنتاج الانفعالي!

ولهذا تنتج الأمم فلسفاتها ـ عامة ـ في أوقات رخائها واستقرارها، ويكون خير ما تكتب الأمم ـ حتى عن أعدائها ـ في المرحلة التي لا تشعر فيها بالتهديد حيالهم، والمتابع لتطور الإنتاج الاستشراقي يعلم كم هو الفارق الشاسع الرهيب بين أوائل هذا الإنتاج (وقت التهديد الإسلامي) مثل «تاريخ شارلمان» وبين وصوله إلى الاحتراف والنضوج العلمي في عصور الاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية.

ولئن كان من فضيلة للشعور الغربي بالتفوق، حتى وهو يعترف بإمكانية التهديد الإسلامي الماثل في الأفق، فهو أن كتاباتهم تتميز بصراحة ووضوح، وقد بلغ الأمر مبلغه لدى فوكوياما حين كتب «نهاية التاريخ»، ففي هذا الكتاب رأى فوكوياما أن الدنيا كلها ستنتهي إلى الليبرالية الغربية، وساق من جميع أنحاء العالم

Readonly

ما يدلل على رأيه، ثم اصطدم الواقع الإسلامي بنظريته تمامًا فلم يجد إلا التضحية بالمنهج العلمي وسلك سبيل التلفيق الاحترافي والعبارات الخجولة الملتفة التي تريد أن تقول بأن الإسلام ما زال حجر عثرة ولكن.. هناك أمل! انظر ماذا يقول:

«بالرغم من القوَّة التي أبداها الإسلام في صحوته الحالية، فبالإمكان القول: إن هذا الدين لا يكاد تكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية الحضارة (!) [هنا ينسى عمدًا أن الإسلام أوسع الأديان انتشارًا في أوروبا وأمريكا].. ورغم أن نحو بليون نسمة يدينون بدين الإسلام؛ أي خمس تعداد سكان العالم، فليس بوسعهم تحدِّي الديمقراطية الليبرالية على المستوى الفكري، بل إنه قد يبدو أن العالم الإسلامي أشدَّ عرضة للتأثُّر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أن يحدث العكس؛ حيث إن مثل هذه الليبرالية قد اجتذبت إلى نفسها أنصارًا عديدين وأقوياء لها من بين المسلمين على مدى القرن ونصف القرن الأخيرين، والواقع أن أحد أسباب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوَّة الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلامية التقليدية»[1].

وعلى كل حال، فأكثر من عشرين سنة بين كتابة هذا الكلام والواقع الحالي يثبت فشله بوضوح!

لكن صمويل هنتنجتون كان أبصر بالواقع من فوكوياما، فلم يغره ما غرّ فوكوياما من انهيار الاتحاد السوفيتي، ولم يأمل في أن يدخل المسلمون يومًا في الفلك الغربي، بل قال بأنهم لن يتغربوا أبدًا!

فعلى عكس فوكوياما الذي امتلأ كتابه بالتمنيات المصبوغة بقشرة من أبحاث

---

(١) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٥٦، ٥٧.

Readonly

ودراسات، جاء كتاب صمويل هنتنجتون راسخًا على معطيات علمية وإحصائيات، وإن كان منطلقًا من منهجية غربية لا تريد لا أن تلتقي أو تتفاهم أو حتى تحترم الآخر.. ولذلك كان الرجل بشير القوم بمنهجية «صدام الحضارات»!

وما كتبه هنتجتون منذ نحو عشرين سنة أحرى أن يفهمه كثير من المسلمين، لا سيما تلك النخبة التي ما تزال تدافع عن أفكار كفر بها الغربيون أنفسهم منذ زمن، فلقد اعترف هنتنجتون بأن الديمقراطية في دول الحضارات والشعوب غير الغربية لن تصل بهم أبدًا إلى التغريب، ورصد بأن المسلمين منذ خمسينات القرن العشرين لم يعودوا يرون أنهم محتاجين إلى القيم الغربية بل يحتاجون إلى ما لدى الغرب من تقنيات فقط مع إيمانهم بأن استمساكهم بما لديهم من قيم خاصة وموروثة هو سر نجاحهم! وهذا ما شاع في أوروبا نفسها!

ويعتبر كتاب «صدام الحضارات» واحدًا من أهم ما ينبغي أن يقرأه المسلمون من الإنتاج الغربي، ففيه الكثير من الرصد لظواهر مهمة، تريد النخبة المتغربة في بلادنا أن تُغفلها، أو لربما كانت تجهلها أصلًا، ذلك أن النخب الغربية قد تجاوزت منذ زمن ما تردده النخب التغريبية في بلادنا، وفيه ـ بعد رصد الظواهر ـ توصيات بكيفية المواجهة وخوض المعركة.

ولئن كانت الدراسات الكثيرة التي كُتِبَت عن هنتنجتون قد اهتمت بتحليل ودراسة والتعليق على توصياته «الصدامية» في المواجهة، فنحسب أننا في حاجة لأن نعيد ذكر بعضٍ من أهم ما رصده من ظواهر عالمية وواقع جديد، ونحسب أن فهم هذه الأمور سيكون فارقًا في إدراك طبيعة ومستقبل المعركة التي تخوضها الأمة الإسلامية.

Readonly

فشل وانحسار العلمانية ظاهرة عالمية

يقول: «في النصف الأول من القرن العشرين كان المثقَّفُون يعتقدون أن التحديث الاقتصادي والاجتماعي سيُؤَدِّي إلى ذبول الدين، وكانت ثمة مخاوف وانزعاجات في المقابل من انتهاء الدين، ودخول البشر في فوضى شاملة، لكن النصف الثاني من القرن العشرين أثبت أنَّ آمال المثقفين، ومخاوف المنزعجين لا أساس لها، فالتحديث الاقتصادي والاجتماعي تعاظم، وصار كونيًّا من ناحية الحجم، وفي الوقت نفسه حدثت صحوة دينية كبرى، انتشرت في كل قارة وكل حضارة وكل دولة، وبدلًا من أن تظهر توجهات دينية تحاول التكيف مع العلمانية، ظهرت التوجهات التي تُريد استعادة الأساس المقدَّس لتنظيم المجتمع، بل وتغيير المجتمع، فلم تَعُد القضية قضية تحديث، وإنما «أنجلة[1] ثانية لأوربا»، ولم يَعُد الهدف تحديث الإسلام، وإنما «أسلمة الحداثة»، لقد اتسعت رقعة الأديان وكسبت أرضًا جديدة ومعتنقين جدد، وعاد أناس كثيرون إلى قيم مجتمعاتهم الدينية، وظهرت في كل الأديان والحضارات حركات أصولية ملتزمة بتنقية للعادات والتقاليد الدينية، وإعادة تشكيل السلوك الشخصي والاجتماعي العام بما يتَّفق مع العقائد الدينية»[2].

«الصحوة الدينية في أرجاء العالم هي ردُّ فعل ضدَّ العلمانية، والنسبية الأخلاقية، والانغماس الذاتي، وإعادة تأكيد لقيم النظام والانضباط، والعمل والعون المتبادل والتضامن الإنساني. الجماعاتُ الإنسانية تُلَبِّي الاحتياجات

---

(١) أنجلة: كأسلمة ولكن عن «الإنجيل».

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٥٨.

Readonly

الاجتماعية التي أهملتها بيروقراطيات الدولة (الأجهزة الإدارية)، وهي تتضمَّن توفير الخدمات الطبية والعلاجية، ودور الحضانة والمدارس، ورعاية المسنين، والإغاثة السريعة بعد الكوارث الطبيعية.. وغيرها، والمساعدة الاجتماعية أثناء فترات الحرمان الاقتصادي. انهيار النظام والمجتمع المدني يُحدث فراغًا تملؤه الجماعات الدينية والأصولية غالبًا»[١].

وبعد استعراض العديد من ظواهر عودة الدين للتأثير في الحياة في البلاد المختلفة، حتى في أرض الاتحاد السوفيتي «عدو الأديان».. يستشهد بقول جورج ويجل: «نزع العلمنة عن العالم هو إحدى الحقائق السائدة في أواخر القرن العشرين»[٢].

فرض التغريب على مجتمعات لا تقبله يصنع «البلدان الممزقة»

من أهم ما فقهه هنتنجتون أن المجتمعات لا تقبل التغريب، وأن الحضارة الغربية ليست عالمية ليصح تطبيقها في أي مجتمع، بل كان مجددًا حين قرر بأن فرض التغريب في مجتمعات لا تقبله إنما يحولها إلى حالة من التوتر والارتباك، أو بتعبيره هو يجعلها من «البلدان الممزقة».

استعرض هنتنجتون تجربة روسيا التي فرض عليها بطرس الأكبر التغريب لانتشالها من تخلفها، وقد اهتم بحلق اللحى وتقليد الثياب الغربية تمامًا كما اهتم بإنشاء المدارس وإصلاح الزراعة والتصنيع والتسليح.. ولكن المحاولة فشلت ودخل المجتمع أيام بطرس وبعده في تنازع، فهذا متغرب يؤيد التغرب أكثر فأكثر،

---

(١) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٦٢.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٥٩.

Readonly

وهذا قد ضاق ذرعًا واشتعل تنديدًا بمحاولات «الأَوْرَبَة» وإلباس روسيا نظارة أوروبية.. ثم جاءت الشيوعية بنظرية جديدة مفادها «لن نحاول اللحاق بأوروبا، هي من ستلحق بنا (حين تعم الشيوعية العالم)»، ولهذا كان الترحيب الروسي بالشيوعية أكثر من ترحيبهم بتغريب بطرس الأكبر بل كانت فرحتهم طاغية بعودة العاصمة موسكو بعد أن كانت بطرسبرج عاصمة بطرس الأكبر، ثم حين فشلت الشيوعية وانهار الاتحاد السوفيتي لم تزدد الفجوة بين الروس والأوربيين إلا اتساعًا، وما يزال سؤال الهوية يثير انقسامًا بين الروس والنخبة المتغربة، وما يزال الروس يراودهم حلم الإمبراطورية الروسية القومية السلافية!

وأما تركيا، فقد بذل فيها أتاتورك مجهودًا عنيفًا لانتزاعها من تاريخها العثماني الإسلامي وإدخالها في الجسد الأوروبي، وكانت أوروبا تحتاج تركيا كواجهة تقف أمام التوسع الروسي الشيوعي في البحر المتوسط، فلما سقط الاتحاد السوفيتي لم تعد تركيا تمثل أهمية كبرى للغرب، وفشلت تركيا حتى الآن في عضوية الاتحاد الأوروبي لسبب جوهري: الأوروبيون يرون أن الأتراك ليسوا منهم وأنهم مسلمين، والأتراك لا يغيب عنهم أن هذا هو السبب، وأن ما يقال علنًا هو مراوغة وتلفيق!

وفي أثناء كل هذا كان سؤال الهوية يعود ليسيطر على حياة الأتراك، صار الأتراك يُعرفون أنفسهم كمسلمين، وشهدت تركيا صحوة إسلامية واسعة أجبرت الجميع على تقديم التنازلات بما فيهم الأحزاب العلمانية بل والعسكر «حصن العلمانية» أنفسهم، وتغيرت سياسة تركيا لتصبح أكثر إسلامية، ويفوز فيها الإسلاميون، وليس أفضل تعبير عن التمزق الذي تعانيه تركيا ما بين الشعب والنخبة المتغربة المتنفذة

Readonly

أكثر من تصريح المسؤولين الأتراك (العلمانيين) بأنهم «جسر بين الثقافات» أو «تركيا ديمقراطية غربية ولكنها جزء من الشرق الأوسط».. وبهذا يعترفون أنها «دولة ممزقة»!

ضرورة العودة إلى الهوية والمحلية لصناعة إنجاز

رُصِدت ظاهرة أطلق عليها رونالد دور اسم «الجيل الثاني لظاهرة التأصيل» وهي تعني أن الجيل الأول الذي ذهب إلى الغرب وتعلم في جامعاته ثم عادوا إلى أوطانهم فدرسوا في الجامعات، لم يستطيعوا أن ينشئوا جيلًا أكثر تمسكًا بالغرب، بل على العكس؛ جاء الجيل الثاني ـ وهو الأكبر حجمًا ـ ليكون أكثر استيعابًا لما عند الغرب وفي ذات الوقت أكثر تمسكًا بهويته وثقافته المحلية، وأكثر نقدًا للغرب وقيمه، وأقل احتكاكًا به وبلغته وآدابه.

لم يوافق هنتنجتون على هذا الكلام بل لقد طرح أن ذات الجيل الأول نفسه وإن تعلم في الغرب ما إن يعود إلى بلاده ويريد إنشاء نهضة فيها ـ مستفيدًا من الغرب ـ إلا ويقترب من هويته وثقافته ويتحول إلى زعيم محلي، وضرب مثلًا على ذلك بالزعيم الباكستاني محمد علي جناح الذي عاد من أكسفورد ليصير «زعيمًا مسلمًا»، وهاري لي السنغافوري أصبح الزعيم السنغافوري «لي كوان يو»، وكذلك باندرانايكا التي تحولت من المسيحية إلى البوذية واستعانت بالقومية السنهالية لتكون رئيسة وزراء سريلانكا! لم يعد الغرب قادرًا على مساعدة الزعماء في الدول المحلية، ومن ثم ليس أمام من يريد الزعامة إلا أن يلجأ إلى قومه وأن يجد فيهم وبهم أسباب زعامته[1]!

---

(١) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٥٤، ١٥٥.

Readonly

يرصد جيل كيبل[١] حدوث الصحوة الدينية الكونية ويسميها «ثأر الله» باعتبار أن الأديان تأخذ ثأرها من الفترة العلمانية، وهذه الصحوة «انتشرت في كل قارة وكل حضارة وكل دولة في الواقع»، وخلاصتها أن «التوجه نحو العلمنة ونحو تكييف الدين مع العلمانية أخذ وجهة معاكسة، ظهر توجه ديني جديد لم يعد يهدف إلى التكيف مع القيم العلمانية، وإنما إلى استعادة أساس مقدس لتنظيم المجتمع، وعن طريق تغييره إذا لزم الأمر»[٢].

وأطال في رصد رجوع الناس إلى هوياتهم في العالم الإسلامي والهند والصين وكوريا وروسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي ورصد ارتفاع نسب التدين والإقبال على دور العبادة في دول أمريكا اللاتينية وأمريكا الجنوبية، بل وداخل أمريكا نفسها، ثم انتهى إلى القول بأنه «حينما يوجد صراع فإنَّ «ثأر الله» يلعب الورقة الرابحة؛ ورقة العودة إلى الأصول»[٣].

ويبدو المرء المسلم متحسرًا حقيقة حين يقرأ لهنتنجتون كلامًا دقيقًا لا تستوعبه النخب المتغربة في البلاد الإسلامية، خذ هذه الفقرة على سبيل المثال، يقول: «التحركات من أجل الإحياء الديني معادية للعلمانية، ومعادية للعالمية، ومعادية للحضارة الغربية أيضًا فيما عدا تجلياتها المسيحية، كما أنها معارضة للنسبية وللأنانية وللاستهلاكية المرتبطة بما يُطْلِق عليه بروس ب. لورانس[٤] «الحداثة» التي تختلف عن «العصرية»، وبشكل عام فإنهم لا يرفضون التمدين ولا التصنيع

(١) باحث ومفكر فرنسي متخصص في الشأن الإسلامي.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٥٨.

(٣) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٦٥.

(٤) أستاذ العلوم الإنسانية في جامعة ديوك، وهو خريج جامعة برنستون عش الاستشراق الأمريكي.

Readonly

ولا التنمية ولا الرأسمالية[١] ولا العلم ولا التكنولوجيا ولا ما يعنيه أي من ذلك بالنسبة للمجتمع، وبهذا المعنى فهم ليسوا ضد الجديد، وهم يقبلون «التحديث».. ولكنهم لا يتقبلون فكرة أن يتغربوا.. هذه الصحوة ليست رفضًا للحداثة بل هي رفض للغرب والثقافة العلمانية النسبية المتفسخة المرتبطة به، إنها رفض لما يُطلق عليه «التسمم بالغرب» الذي يصيب المجتمعات غير الغربية، وهي إعلان استقلال ثقافي عن الغرب، إعلان كله كبرياء يقول: سنكون حديثين، ولكننا لن نكون أنتم»[٢].

ويبقى في توضيح وتأصيل هذا الدرس أمران:

الأول: هو ما قاله كريستوفر داوسن[٣] من أن «الأديان الكبرى هي الأسس التي تعتمد عليها الحضارات الكبرى»، مما يعني أن الدين لم يكن في أي مكان مجرد طقوس وشعائر لا علاقة لها بالواقع، بل هو أساس نظرة كونية شاملة لها أثرها الفعال في الحياة.

الأمر الثاني: أن أمريكا ذاتها حين أرادت أن تكون قوة عالمية وأن تتمثل لها دورًا ورسالة لم تقبل بأن تبدأ من تلقاء نفسها، بل مدت جذورها لتتصل بالغرب وبفلسفته وتاريخه وثقافته، هذا على الرغم من أن نشأة أمريكا ذاتها كان هروبًا من مساوئ أوروبا.. وهذا هنتنجتون الأمريكي يلتمس السبيل لكي يجعل هذا طبيعيًا وحتميًا وضروريًا، ويتجاهل أي خلاف يمكن أن يمثل عائقًا أمام هذا التصور، يقول:

---

(١) سياق العبارة هنا يؤكد أن الرأسمالية هنا باعتبارها نظامًا اقتصاديًا ماليًا وليست مذهبًا شاملاً أو رؤية كلية.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٦٦، ١٦٨.

(٣) مؤرخ بريطاني شهير، ومن أهم من كتب في التاريخ الكاثوليكي.

Readonly

«كان الأمريكيون يُعَرِّفون مجتمعهم في مقابل أوروبا.. أمريكا كانت هي أرض الحرية والمساواة والفرصة والمستقبل، أوروبا كانت تمثل الظلم والصراع الطبقي والكهنوت والتخلف، بل كانت هناك محاجة أن أمريكا تمثل حضارة مائزة.

هذا الافتراض بوجود تعارض بين أمريكا وأوروبا، كان بقدر كبير نتيجة لحقيقة قائمة، وهي أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن لأمريكا سوى علاقات محدودة بالحضارات غير الغربية، وبمجرد أن خرجت الولايات المتحدة إلى المشهد العالمي، ظهر الإحساس بالتطابق الأوسع مع أوروبا.

وبينما كانت أمريكا القرن التاسع عشر تُعَرِّف نفسها بأنها مختلفة عن أوروبا ومضادة لها، فإن أمريكا القرن العشرين تعرف نفسها كجزء، والحقيقة كقائد، لكيان أوسع وهو الغرب.. الذي يضم أوروبا.

واصطلاح (الغرب) يستخدم الآن بشكل عام للإشارة إلى ما كان يسمى عادة بـ (العالم المسيحي الغربي)، وهكذا فإن الغرب هو الحضارة الوحيدة التي تحدد باتجاه بوصلة، وليس باسم شعب أو دين أو مساحة جغرافية بعينها. هذا التحديد يرفع الحضارة من سياقها التاريخي والجغرافي والثقافي.

ومن الناحية التاريخية فإن الحضارة الغربية حضارة أوروبية، وفي العصر الحديث الحضارة الغربية هي حضارة أوروبية أمريكية أو شمال أطلنطية. يمكن أن نجد أوروبا وأمريكا والشمال الأطلنطي على الخريطة بينما لا يمكن أن نجد الغرب»[1].

---

(١) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص٧٧، ٧٨.

Readonly

وهنا نرى كيف أن هنتنجتون نفسه ـ وهو أمريكي ـ يتجاوز خلاف المذهب البروتستانتي/ الكاثوليكي، والخلاف التاريخي، والحاجز الجغرافي، والحاجز اللغوي ليسبك المتخالفين في حضارة واحدة.. ورغم أنه يشعر بضعف هذه التركيبة ويعترف بها أحيانًا على استحياء ويناور لإخفائها بما استطاع من مهارة، إلا أن الشاهد منها في حديثنا هذا هو أن الأمم التي تتطلع إلى موقع لها على خريطة العالم كلها تستند وتنبعث من تاريخ وجذور تحرص أن يكون عريقًا ورائعًا وفريدًا! فإن الغربيين ـ وإن نقدوا تاريخهم الوسيط ـ فإنما يتعلقون ويبعثون تاريخهم القديم!

التحول الديمقراطي يتصادم مع التغريب

لقد صار رفض الغرب ظاهرة عالمية ـ يقول هنتنجتون ـ فالبلاد الإسلامية صار همها «الأسلمة» والهنود صار همهم «التهنيد» والآسيويون صار همهم «الآسينة»! و«تَبَنِّي المجتمعات غير الغربية للتقاليد الديمقراطية الغربية يشجع ويفتح الطريق نحو السلطة أمام الحركات السياسية القومية والمعادية للغرب»[(١)].

«التحول إلى الديمقراطية يتصادم مع التغريب، والديمقراطية في صميمها عملية محدودة وليست كوزموبوليتانية (عالمية)، والسياسيون في المجتمعات غير الغربية لا يفوزون في الانتخابات عن طريق إظهارهم مدى تغربهم أو تعلقهم بالغرب، بل إن المنافسة الانتخابية تغريهم ـ بدلًا من ذلك ـ بتقديم ما يتصورون أنه يرضي المطالب الشعبية، والتي عادة ما تكون عرقية ودينية في طبيعتها»[(٢)].

يتجول هنتنجتون بين الجزائر والهند وسريلانكا وجنوب إفريقيا، ليوضح أن

---

(١) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٥٥.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٥٥، ١٥٦.

Readonly

التجارب تثبت هذا! ثم يقتبس كلمة إيزوك سكاكيبارا[١] المعبرة والتي تقول بأننا نشهد «نهاية الحقبة التقدمية» التي كانت تسودها الأيديولوجيات الغربية، ونتحرك نحو حقبة تتفاعل فيها حضارات متعددة ومتنوعة، وتتنافس وتتعايش وتتكيف مع بعضها البعض.

ذلك بعض ما فقهه هنتنجتون، أردنا أن نلقي الضوء عليه عسى أن يكون مراجعة لمن يحب أن يقرأ للقوم منبهرًا بهم، ويكون إرشادًا لمن يقرأ للقوم ليتعرف عليهم ويحذر منهم.. ونسأل الله تعالى التوفيق!

* * *

(١) في مقال بمجلة الشؤون الخارجية (خريف ١٩٩٥م) بعنوان: «نهاية التقدمية؛ البحث عن غايات جديدة»

Eisuke Sakakibara "The End of Proressivism; A Search for New Goals" Foerign Affairs, 74 (Sep/Oct. 1995), 8 - 14.

Readonly

صناعة مجتمع الجسد الواحد

*** نشر على جزئين في «الحملة العالمية لمقاومة العدوان»، بتاريخ ١٥ ديسمبر ٢٠١٢، ٧ إبريل ٢٠١٣م**

كتب مايكل هارت عن أعظم مئة في التاريخ فوضع نبينا محمدًا ﷺ في مقدمتهم؛ لأنه ما من أحد نجح دينيًّا ودنيويًّا مثلما كان محمد ﷺ، فالعرب الذين تشتتوا في صحرائهم وتنازعوا على مواطن الكلأ حتى عجزوا أن يُكَوِّنوا حكومة بدائية تجمعهم ظهروا على مسرح التاريخ في ذات لحظة تحت قيادة محمد وأتباعه، ليسوا وحدة واحدة فحسب، بل غيروا وجه التاريخ وأزالوا إمبراطوريتي فارس والروم معًا في أقل من نصف قرن، ولهذا يقول توماس أرنولد: «إن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرَّد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلابًا كاملاً لِمُثُل الحياة التي كانت من قبل»[(١)].

وما كان للنبي أن يخوض صراعه مع قوى العدوان العالمية إلا بإنشاء الكيان المتماسك، أو بتعبيره هو ﷺ: «الجسد الواحد» الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.. فكيف صنع النبي من المجتمع المتشتت المتنازع أقوى مجتمع متماسك عرفه التاريخ؟! مجتمع ما زال بعد خمسة عشر قرنًا، وبعد

---

(١) مايكل هارت: الخالدون مئة أعظمهم محمد ص١٣ (ط٦ المكتب المصري الحديث)، وتوماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٦١ (ط مكتبة النهضة المصرية).

Readonly

كل ما نزل به، يحتفظ ببذور عودته أمة واحدة من جديد، ويكاد يفعلها مرة أخرى؟.. ذلك حديث السطور القادمة.

حين دخل النبي ﷺ إلى المدينة كان المجتمع فيها زاخرًا بمشكلات كثيرة هذه خلاصتها:

على المستوى الديني ثمة ثلاث طوائف: المسلمون، واليهود، والمشركون ممن لم يؤمنوا، ثم ظهرت طائفة جديدة هي المنافقون، فصار لدينا أربع طوائف منها ثلاث طوائف معادية لهذا الوافد الجديد وراغبة في فشله وانهيار بنائه؛ فاليهود قد حددوا موقفهم مبكرًا من عداوة النبي ودينه وما لديهم من علم الكتاب جعلهم أكثر قدرة وقوة في الطعن على الدين، والمشركون قوم يجمعون بين رفض الدين ورفض حُكْمَ الغريب الطارئ عليهم من خارج بلدهم وقبائلهم كلها، والمنافقون تكمن خطورتهم في أنهم مجهولين يمارسون الطعن في الظهر ويثيرون الإشاعات والبلبلات تحت غطاء إسلامهم، وفي المسلمين سماعون لهم[1].

وعلى المستوى الاقتصادي تبرز ثلاث مشكلات: اقتصاد المدينة يحتكره اليهود، وتعاملهم بالربا يستنزف أموال أهلها، والمدينة ذاتها فقيرة الموارد تعتمد على الاستيراد، ثم هذا الفائض البشري الذي جاء مع الهجرة بما صنع ضغطًا إضافيًا، لا سيما وأهل مكة ـ وهم غالب المهاجرين ـ أهل تجارة لا زراعة بينما المدينة أرض زراعية لا تجارية[2].

---

(١) (النساء: ٥١)، البخاري (١٢٥ ـ ترقيم البغا)، ومسلم (٢٧٩٤ ـ ترقيم فؤاد عبد الباقي)، (التوبة: ٤٧)، (الأحزاب: ٦٠)، (المنافقون: ٤).

(٢) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢/ ٢٧٠، ٤/ ١٠٦، ٧/ ١٣٢ (ط ٤ دار الساقي)، د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٢٩، ٢٤١، ٢٤٢ (ط ٦ مكتبة العلوم =

Readonly

وعلى المستوى الاجتماعي: ينقسم المسلمون إلى مهاجرين وأنصار وهم غرباء على بعضهم في الطباع والعادات وأسلوب الحياة، والمهاجرون أنفسهم هم مجموعات من آمنوا من كافة قبائل العرب كما أن الأنصار أيضًا حديثو عهد بالنزاع الطويل بين الأوس والخزرج، كما ينقسم اليهود إلى قبائل تسري بينهم العداوة والبغضاء ويستعلي بعضهم على بعض، ثم بين أهل المدينة وبين اليهود اضطرابات ونزاعات لما لليهود من ديون ربوية ولاحتكارهم اقتصاد المدينة وسعي اليهود في إيقاع الحروب بين العرب، وهذا العداء نتج عنه إيقاع باليهود ولهذا كانوا يتوعدون العرب بنبي قد أطل زمانه ينتقمون به منهم[١].

ثم أظهرت الهجرة مشكلات أخرى؛ سياسية وهي انهيار العلاقة بين المدينة ومكة حتى لقد منع القرشيون زعماء المدينة من الحج والعمرة كما في موقف سعد بن معاذ وكذلك الاضطراب المكتوم بين المدينة وما حولها من قبائل العرب التي تنظر بتوجس لهذه التغيرات القريبة، وأمنية كتتبع قريش للنبي ومحاولتهم اغتياله وهو ما جعل النبي في حراسة مسلحة دائمة أوائل فترة المدينة، وصحية حيث أصابت الحمى المهاجرين الذين لم يعتادوا على أجواء المدينة، ونفسية إذ أصاب المهاجرين الشوق إلى مكة وأوديتها ومواطن الحنين فيها[٢].

باختصار: كان النظر إلى مجتمع المدينة آنذاك يستخلص استحالة تحوله إلى مجتمع متماسك!

= والحكم، المدينة المنورة).

(١) (المائدة: ٤٥) وتفسيرها، مثلاً: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٢١ (ط٢ دار طيبة)، ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥١٦ وما بعدها (ط١ دار الكتب العلمية، بيروت)، د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ١٢٩، ١٣٠، ٩/ ٢٥١، ١٠/ ١٥٥.

(٢) البخاري (٣٧٣٤)، (٦٨٠٤)، (١٧٩٠)، ومسلم (٢٤١٠)، (١٣٧٦).

Readonly

إن تتبع القرارات الأولى التي اتخذها النبي ﷺ أول قدومه المدينة تفيد منهجه في بناء المجتمع الذي رأينا كيف كانت أحواله، سيبدو مذهلًا أن أربعة قرارات استطاعت صناعة المعجزة، تلك هي: بناء المسجد، الإخاء بين المهاجرين والأنصار، إصدار وثيقة المدينة، إقامة سوق المسلمين.

وتتبع السر في نجاح المعجزة بهذه السرعة يعود إلى عنصر وحيد، أنها لم تكن مجرد قرارات إدارية بل دينٌ!

القرار الأول: بناء المسجد

قبل أن تطأ قدم النبي أرض المهجر أمر ببناء المسجد في قباء ـ قبل المدينة ـ ولم ينزل في المدينة قبل أن حدد موضع المسجد، لقد كان المسجد هو المؤسسة الأولى والمركزية في الدولة الإسلامية، لم يكن فقط دار عبادة، بل هو مدرسة تعليم الدين، ووسيلة الإعلام، وهو قصر الرئاسة الذي يستقبل فيه الوفود وتتخذ فيه القرارات، وهو بعد ذلك مأوى من لا مأوى له من المسلمين الفقراء، وقد تكون أحد جوانبه مستشفى لعلاج الجروح، أو سجنًا للأسرى[1]!

وكان الإسلام يدفع المسلمين للالتقاء في هذا المسجد خمس مرات يوميًّا على الأقل، ويرغبهم في كثرة الترداد عليه وإقامة مجالس الذكر فيه فهي من أسباب رفع الدرجات وغفران السيئات ومن أسباب نزول الملائكة والرحمة والسكينة، ومن موجبات النور التام في ظلمات يوم القيامة، حتى الخطوة إلى المسجد لها أجر، وبلغ اندفاع المسلمين في هذا حتى كان «ما يتخلف عن الصلاة إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»[2].

---

(١) د. علي الصلابي: السيرة النبوية ص٣٠٦ وما بعدها (ط٧ دار المعرفة، بيروت).

(٢) الاقتباس قول ابن مسعود، رواه مسلم (٦٥٤)، والنصوص في فضل المسجد كثيرة ومشهورة.

Readonly

ولهذا تم التلاحم بين القيادة (النبي) والأتباع، وبين الأتباع بعضهم بعضًا بأسرع وقت ممكن، لقد عرف الجميع بعضهم بعضًا واختلطوا ببعضهم، فعرفوا أخبارهم وأحوالهم وفقراءهم وأغنياءهم، فمن كان لديه فضل مال أو طعام ذهب به إلى الفقراء في المسجد، فعم التكافل هذا المجتمع الصغير وصاروا بعد الاغتراب والانقسام كتلة واحدة.

ولا نكاد نعرف عبر التاريخ وسيلة أسرع في اندماج المجتمعات من التقائهم يوميًا خمس مرات على الأقل!

القرار الثاني: الإخاء بين المهاجرين والأنصار

فقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار بحيث صار أخو الإسلام مقدمًا على أخي النسب، وظهرت في هذا الإخاء عجائب لا سوابق أو لواحق لها، فلقد استقبل الأنصار إخوانهم بكل ترحاب، فأحبوهم وأنفقوا عليهم من أموالهم وإن كانوا في حاجة، وآثروهم على أنفسهم، واقتسموا معهم أملاكهم، وتسابقوا على استضافتهم حتى ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة، ومثلما ظهرت عجائب الأنصار في الإيثار ظهرت عجائب المهاجرين في النبل والتعفف، وبادلهم المهاجرون الحب والاعتراف بالفضل حتى كانت خشيتهم أن يذهب أجرهم في الجهاد والتضحية أمام عظمة الأنصار وقالوا للنبي ﷺ: «ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل وأحسن بذلًا في كثير، لقد كفونا المؤونة، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله»[1].

---

(١) د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٤١ وما بعدها، د. إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية ص١٣٨، ١٣٩. (ط١ دار النفائس، الأردن).

Readonly

وهذه المؤاخاة كانت مؤاخاة خاصة، بعد إقرار المؤاخاة العامة بين المؤمنين جميعًا ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وأنه «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، و«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»، وأن «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه» وأنه يكفي المرء شرًّا أن يحقر أخاه المسلم[1].

فكانت هاتان الأخوتان ـ العامة والخاصة ـ مزيد تشديد لأواصر العلاقات بين فصائل المجتمع الوليد، فزادته ارتباطًا وتماسكًا وقوةً، وبهما انتهت مشكلة اغتراب المجتمع وانقسامه إلى فئات، وظهر هذا أكثر ما ظهر في اجتماع الأحزاب لاجتياح المدينة بعد خمس سنوات فحسب من بداية هذا البناء، ونتوقع أن من نتائج هذا الإخاء تصفية معسكر المشركين في المدينة خلال عامين إذ «أسلم أكثر مشركي المدينة بعد بدر»[2].

ولا نستطيع أن نفهم جوهر الإخاء وآثاره الهائلة على حقيقتها إلا حين نقارن اليوم مشكلات اللاجئين في العالم، وكيف يمثلون مأساة إنسانية دائمة.

ويزداد الفهم ـ ومعه الحسرة والأسى ـ حين نرى أوضاع اللاجئين المسلمين اليوم وكيف لا يجدون من إخوانهم المسلمين سندًا ولا نصرة، بل إن قضية اللاجئين الفلسطينيين تحت الحكومات «العربية» تعد وحدها مأساة إنسانية بالغة المرارة، حتى صار الدم الفلسطيني شركة بين بني صهيون وبين أذيالهم من أهل العروبة!

القرار الثالث: إصدار وثيقة المدينة

وهي الوثيقة القانونية التي حددت دولة المدينة وواجبات مواطنيها وحقوقهم

---

(١) (الحجرات: ١٠)، والبخاري (١٣)، (٥٧١٨)، ومسلم (٤٥)، (٢٥٦٤)، (٢٥٥٨).

(٢) محمود شيت خطاب: الرسول القائد ص١٦٣ (ط٦ دار الفكر، بيروت).

Readonly

وسبيل الفصل في التنازعات بينهم، «على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصيحة والبر دون الإثم.. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله.. وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم».

وبهذا قطعت الطريق أمام أي خلافات قبلية أو دينية أو تاريخية ليصير الفصل في المنازعات قائمًا على أساس قانوني، فالجميع أمام القانون سواسية، «.. وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على ما أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره».

وبهذه الوثيقة أُقِرّ العدل على الجميع، وتعامل المسلمون مع خيانات اليهود والمنافقين على أساس قانوني لا على أساس ديني أو قبلي مما كان له أكبر الأثر على إسكات خلافات الماضي وتحالفات قبائل اليهود مع الأوس أو الخزرج، بل كان سعد بن معاذ ـ حليف بني قريظة ـ هو من وَقَّع عليهم عقوبة الخيانة[1].

وبهذا مَثَّلَتْ الوثيقة الحصن القانوني الحافظ لتماسك المجتمع ووحدته وكفلت مقاومة محاولات ضربه.

القرار الرابع: إنشاء السوق

وكان الهدف كسر احتكار اليهود، ورفع اقتصاد المدينة المعتمد على الزراعة وحدها بإنشاء ما يصلح أن نسميه «منطقة تجارية» على ملتقى الطرق خارج المدينة،

---

(١) البخاري (٣٨٩٥)، ومسلم (١٧٦٨).

Readonly

وإيجاد فرص العمل للمهاجرين ممن لم يخبروا العمل في الزراعة.

وقد تمتع سوق المسلمين بما جعله خيرًا من سوق اليهود، فلا غش ولا تدليس، ولا احتكار ولا ربا، ولا ضرائب على المبيعات والمشتريات، وهو خاضع للقيم والتنظيمات الإسلامية (مثل التراحم والتكافل، وعدم بيع ما لا يُملك، وعدم التسعير.. إلخ) التي جعلته مرادفًا لنهضة المجتمع واكتفائه الذاتي لا لتصارع طبقاته الاجتماعية، فكانت النتيجة في صالح المجتمع اقتصادًا وأخلاقًا وسياسةً، ونزع فتيل الأزمات مع اليهود، وفتيل أزمة البطالة، مما كان له أبلغ الأثر في الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه.

كما وفر السوق الاستقلال الاقتصادي الذي وفَّر إمكانية اتخاذ القرار السياسي بإجلاء بني قينقاع ـ وهم أصحاب السوق بالمدينة ـ حين صاروا خطرًا على هذا المجتمع.

هذه القرارات الأربعة لم تكن نهاية المطاف، بل لقد وضع الإسلام تشريعاته بحيث جعل «الأمة فوق السلطة»، وأبرز هذه التشريعات ثلاثة أمور:

١. **الشورى**: وهو الأمر الكفيل بعدم استبداد السلطة، أو ادعاء أحد بأنه الأحق بالحكم، أو ادعاؤه أنه قادر وحده على القيادة بغير مشورة، بل كان قول عمر رضي الله عنه صريحًا حين أعلن: «من بايع رجلًا من غير مشورة المسلمين فلا يُتَابع هو ولا الذي بايعه»[(١)]، ومثله قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أيها الناس، إن هذا الأمر (الحُكْم) ليس لأحد فيه حق إلا من أمَّرْتُم»[(٢)].

---

(١) البخاري (٦٤٤٢).

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٧٠٠ (ط١ دار الكتب العلمية، بيروت).

Readonly

وقد اضطرد في عهد النبي وسنة الخلفاء الراشدين مشاورة الأمة والنزول على رأيها، حتى حكم العلماء بأن «من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب»[١]، ومعروف بأن الاستبداد هو أخطر ما يمزق تماسك الأمة، فالمستبد لا يحكم مجتمعًا متوحدًا بل يجعل ﴿أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾[٢]، ثم يشمل الاستضعاف جميعهم حتى ما يبق إلا أهل المستبد وحاشيته وحدهم غير مستضعفين.

٢. **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وقد جعله الإسلام من الإيمان، وأقله تغيير المنكر بالقلب حال العجز التام وأبلغه الثورة على السلطان الجائر ولو كان الثمن هو القتل دون النجاح، بل تلك هي منزلة «سيد الشهداء»، ولكل مسلم أن يغير المنكر ما استطاع إلى ذلك سبيلًا بشرط ألا يؤدي إلى منكر أكبر منه وأن تكون البداية بالنصح والموعظة الحسنة، وقد أبدع الإسلام نظام الحسبة والتي تجعل المجتمع مقاومًا للانحراف من تلقاء نفسه[٣].

وقد تطورت مؤسسة الحسبة عبر التاريخ الإسلامي حتى بلغت شأنًا عظيمًا، ويكفي العبور على مؤلفات الحسبة ـ مثل «نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة» لعبد الرحمن بن نصر الشيزري أو «معالم القربة في طلب الحسبة» لابن الإخوة ـ لندرك كيف بلغت العناية والحرص في استقامة المؤسسات والفئات والشرائح المختلفة من المهن في المجتمع الإسلامي.

---

(١) ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤ (ط١ دار الكتب العلمية، بيروت).

(٢) (القصص: ٤)، وانظر: عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ص٦٦ (المطبعة العصرية، حلب).

(٣) للمستشرق الأمريكي مايكل كوك في مزايا هذا النظام كتاب كبير مهم سماه «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي».

Readonly

٣. **نظام الوقف**: حيث يتطوع المسلم بتخصيص جزء من ماله تحت إشراف جهة مستقلة لوجه معين من وجوه الخير، ولا يملك أحد أن يعتدي على هذه الأموال أو أن يصرفها في غير وجهها أو يصادرها.

وهو ما يوفر الاستقلال المالي للأمة بعيدًا عن السلطة، بما يجعل عمل الخير ناميًا ومستمرًا مهما انتاب السلطة ضعفٌ سياسيٌّ أو عسكريٌّ، وهذا ما جعل الأمة تغزو أعداءها حضاريًا وإن انهزمت أمامهم عسكريًّا، كذا فعلنا مع الصليبيين في الشام والأندلس وصقلية، ومع التتار الذين صاروا مسلمين آخر الأمر، والوقف هو ما وفر استقلال العلماء في وجه السلطان ووفر استمرار الجهاد ولو ضعفت الدولة، وتفرغ طلبة العلم، وعددًا لا حصر له من المشروعات الخيرية مثل المستشفيات، الجسور، القناطر، الكتاتيب، المكتبات، المدارس، الخانات، الخانقات، الحدائق والمتنزهات، أهل العشوائيات، رعاية حالات المصائب (الأيتام، زواج اليتيمات، الأسرى، المُهَجَّرون، من عجز عن الحج..) حتى رعاية القطط والكلاب والحيوانات المريضة وغيرها كانت لها أوقاف[1].

وهذا ما جعل الثورات الاقتصادية أقل أنواع الثورات في التاريخ الإسلامي، وجعل الأمة متحررة من سيطرة الحكام على أموالها، بل ووَفَّر للحكام تمويلًا دائمًا لمشاريع التنمية والنهضة والبحث العلمي وغيرها.

وظل الوقف يؤدي عمله حتى ظهرت «الدولة الحديثة» التي تجعل الشعوب أسرى عند الحكام والتي مثلت نكبة فاصلة في مسيرة الأمة الحضارية، لا سيما

---

(١) د. محمد بن أحمد الصالح: الوقف في الشريعة ص١٦٣ وما بعدها (ط١)، وانظر بحوث مؤتمر الوقف الأول (جامعة أم القرى، السعودية، ١٤٢٢هـ).

Readonly

والذين تسلطوا على الأمة منذ ظهورها كانوا فاسدين مستبدين تعمدوا سجن الأمة ونزع مقومات المقاومة والاستقلال عن السلطة.

وبهذا «تمكَّن المجتمع الإسلامي ـ الذي قام على الدين ـ من الصمود في وجه التفكيك السياسي»[1].

إن المزية الكبرى أن بذور صناعة المجتمع كامنة في الدين نفسه، في المسجد والإخاء، في الشريعة الإسلامية وقوانينها ونظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بما يجعل هذه البذور موجودة وخالدة وغير قابلة للفناء، فكل المؤمنين يرون أنفسهم مطالبين بالجهاد في سبيل تطبيق الشريعة وتحقيق الإسلام كاملا غير منقوص.

وحيث إن المسجد جزء من سلوك المسلم اليومي، فسيظل المسجد قادرًا دائمًا على إعادة إنتاج وصناعة المجتمع المسلم المتماسك والقائم على التعاون والتناصر والتناصح.

* * *

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ص٧٣، ٧٤ (ط دار الآداب، بيروت).

Readonly

دروس منسية من فتح دمشق

* نشر بتاريخ ٤ إبريل ٢٠١٨م

في مثل هذا اليوم قبل خمسة عشر قرنًا وربع القرن (الأحد: ١٥ رجب ١٤ هـ ـ ٣ سبتمبر ٦٣٥م) كانت نقطة فاصلة في تاريخ الأمة الإسلامية، وتاريخ العالم كله: فتح دمشق!

لن يحاول هذا المقال التغني ببطولة الفاتحين، مع أنهم فخر الإنسانية في الفتوح: قوة وجسارة، وعدالة ورحمة. كما لن يحاول اجترار الأمجاد، وما على المرء من بأس إن افتخر بأسلافه.. وإنما سيلقي الضوء على ثلاث دروس مستفادة منه.

١. موجز قصة الفتح

ما إن انتهت حروب المرتدين حتى بدأت الفتوحات، بدأت في جبهة الفرس أولًا لأنهم كانوا قد ساعدوا المرتدين في شرق الجزيرة العربية، فبعث أبو بكر جيشان: أحدهما بقيادة خالد بن الوليد والآخر بقيادة عياض بن غنم الفهري، واستطاع خالد بن الوليد أن يكتسح جيوش الفرس بسرعة مدهشة حتى أنه أزال الفرس عن كل مناطق غرب نهر الفرات، وفتح الحيرة ـ أول عواصم الفرس ـ بعد أربعين يومًا فحسب من انطلاقته. فكانت نتائج فتح فارس أفضل من المتوقع!

بعدها بقليل أخرج أبو بكر خمسة جيوش لفتح الشام، وكانت خطته أن خمسة

Readonly

جيوش ستجعل هرقل يقسم جيشه الكبير إلى خمسة جيوش، ومع أنَّ كل جيش من الخمسة سيكون أعظم بكثير عددًا وعدة من الجيش المسلم إلا أن هذا الحال أفضل من توحد الجيوش الخمسة الإسلامية لتقابل جيش هرقل الكبير مرة واحدة، إذ الفارق هنا مهول للغاية. لكن هرقل ـ وهو من أشهر المحاربين في التاريخ ـ فهم مراد أبي بكر، فلم يقسم جيشه، وعمل على أن يكون جيشه موحدًا وكبيرًا ويهاجم الجيوش الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، فكان هذا يجبر الجيوش الإسلامية كلما فتحت بعض المناطق على أن تنسحب منها لأن جيش هرقل يحاول الالتفاف حول كل منهما.. وهكذا تعثر وتباطأ مسار فتح الشام رغم أن فيه خمسة جيوش!

إزاء هذا الوضع قرر أبو بكر أن يقسم جيش الفتح في فارس، وأن يبعث بنصفه مع خالد بن الوليد ليدعم جيوش الشام، وقد كان.. وبسرعة، ومن طريق وعر خفي سار خالد من العراق إلى الشام فوصل إلى دمشق والمسلمون في حصارها.

تكرر هذا المشهد ثلاث مرات: الجيش الإسلامي ـ الذي صار واحدًا تحت قيادة خالد ـ يريد دمشق، لأنها عاصمة الروم في الشام، لكن دمشق محصنة بأسوار منيعة، فيحاصرها، وقبل أن يفتحها يكون هرقل قد أرسل جيشًا يتوغل جنوبًا ليحيط بالمسلمين، فيضطر الجيش للانسحاب جنوبًا، وخوض معركة كبيرة، ينتصر فيها ثم يعود إلى دمشق، فيحاصرها، وبينما هو كذلك يأتي جيش آخر.. وهكذا!

حتى كانت المرة الثالثة، إذ استطاع الجيش الإسلامي أن يفتح دمشق بعد حصار أربعة أشهر، وبعد معركتين كبيرتين هُزِم فيهما جيش الروم هما: أجنادين، وفحل بيسان.. ثم أرسل هرقل آخر ما في جعبته، فكانت معركة اليرموك الخالدة والتي كانت الهزيمة فيها هي نهاية وجود الروم في الشام إلى الأبد!

Readonly

٢. السلطة والدين: صراع الدنيا والآخرة

لا يعرف الكثيرون أن إمبراطور الروم هرقل الذي دافع عن الشام بكل استماتة كان يعرف من اللحظة الأولى أنه مهزوم وأنه مطرود من الشام! نعم، كان يؤمن بهذا ورغم ذلك فقد أهلك مئات الآلاف من جيشه، وما لا يُحصى من الأموال والعتاد.. كيف ذلك؟

قصة هذا تعود إلى ما قبل الفتح بثمانية أعوام، حين تلقى رسالة من النبي ـ ﷺ ـ يدعوه فيها إلى الإسلام، كان هرقل سياسيًّا عظيمًا وكان صاحب علم كذلك، فما إن رأى الرسالة حتى قبض على أبي سفيان ـ الذي كان في تجارة بالشام ـ وسأله أحد عشر سؤالًا بالضبط، أسئلة واضحة ومحددة وتدل على علم وفهم وخبرة قوية، أحد عشر سؤالًا عن النبي:

كيف نسبه فيكم؟ هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ هل كان من آبائه من ملك؟ أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ أيزيدون أم ينقصون؟ هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ هل يغدر؟ هل قاتلتموه؟ كيف كان قتالكم إياه؟ ماذا يأمركم؟

وبعد أن سمع الإجابة قال: إن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدمي هاتين!

حاول هرقل أن يجس نبض حاشيته والقساوسة في مسألة الإسلام واتباع النبي، فلقد عرف أنه الرسول الذي بشر به المسيح ابن مريم، إلا أنه وجد منهم صدودًا وخشي أن ينقلبوا عليه، فاصطنع أنه إنما كان يختبرهم.. ومنذ هذه اللحظة فضَّل هرقل سلطة الدنيا على جنة الآخرة، وقاد نفسه وأمته وهو يدري ويعرف ويقصد إلى الهزيمة في الدنيا وإلى النار في الآخرة!

Readonly

نعم.. تلك حقيقة من أصلب حقائق الدنيا، شهوة السلطة قد تحمل المرء على أن يختار النار والهزيمة معًا! وهو يخضع لتلك الشهوة ويستجيب لها ولو كان الثمن ملايين الأرواح، ومليارات الأموال، وضياع البلاد، وذنوب تتراكم بلا نهاية في ميزان السيئات. ولقد تظل شهوة الحكم مستعرة ملتهبة مهما بدا أنه إلى ضياع وزوال.. وهذا بشار الأسد ومحمود عباس وغيرهما كأمثلة: هم على استعداد لبيع كل شيء، كل شيء.. وتدمير كل شيء، واستجلاب الأجانب ليحكموا البلاد ويبيدوا العباد، مقابل سلطة صارت شكلية ومقابل لقب فارغ المضمون!

٣. العواصم السياسية قبل الدينية

العاصمة ميزان البلد، والمسيطر عليها لا يزال هو المنتصر في معادلة الصراع، يظل الاحتلال محاولة حتى يسيطر على العاصمة فيصير واقعًا، وتظل الثورة محاولة حتى تفتح العاصمة فتنتصر، ويدافع الحاكم عن عاصمته حتى النهاية فإن سقطت سقط حكمه وتحول إلى مقاوم أو لاجئ أو سابق! ويمكن للثورة أن تظل محاولة لعشر سنين أو حتى عشرين سنة قبل أن تموت من تلقاء نفسها أو تقضي عليها السلطة المركزية في العاصمة.. العاصمة هي حلم كل حاكم، وكل محتل، وكل ثورة. ولقد كانت مكة عاصمة العرب، بعث فيها النبي ولما هاجر منها بعد جحود زعمائها بشره الله أنه سيعود إليها، وكل السيرة هي رحلة العودة إلى مكة، فلما فُتِحت مكة، فتحت جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله أفواجا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١ ـ ٢].

هذا الكلام من البديهيات الذي يكون من السفه ترديده لولا أننا في عصر عجيب غريب، يحتاج دائمًا لتأكيد المؤكد وتثبيت الثوابت وتوضيح الواضح.. وفي

Readonly

قصة فتح الشام نرى أن الصراع دائر حول دمشق، ودمشق هي العاصمة السياسية للإمبراطورية البيزنطية في الشام، ولم يدر الصراع حول بيت المقدس رغم أنها العاصمة الروحية الدينية المقدسة لدى المسلمين والنصارى على السواء، وبقيت مدينة بيت المقدس لم تفتح إلا بعد انكسار القوة العسكرية الرومية تمامًا، ثم فتحها عمرو بن العاص بعدها بسنتين في عام ١٦هـ.

كان الصحابة رجال سياسة وحكم، ولم يكونوا دراويش بالمعنى المفهوم للكلمة في عصرنا هذا.. وأكاد أقسم أنَّ الحركات الإسلامية الآن لو خُيِّرت بين فتح دمشق أو فتح القاهرة وبين فتح القدس أولًا، لاختارت جميعها فتح القدس.. بعضها تظن أن القاهرة ودمشق لا تحتاج إلى فتح أصلًا! وبعضها ربما إن فتح القدس سلَّمها لشبيه محمود عباس وبشار الأسد وعبد الفتاح السيسي تحت دعاوى المصالحة الوطنية والتوافق والزهد في الدنيا، لتصير القدس محتلة عبر الوكلاء بعدما تحررت من أسيادهم!

٤. المخابرات والفتح

كيف فتحت دمشق؟

مع كل البسالة والبطولة والجسارة، كان العامل الأهم في فتح دمشق لقوة المخابرات الإسلامية.. لقد عملت الأسوار والتحصينات على منع المسلمين من اقتحام دمشق مع بقائهم حولها شهورًا، كانت دمشق يحيط بها سور كبير، ومن ورائه خندق يملؤونه بالمياه إن وقع الحصار، فيكون أمام المهاجم مانع مائي ثم مانع حجري، مع وجود فرق الدفاع التي تحمي السور.

مع سائر ما استخدمه المسلمون من وسائل الرمي والمجانيق لم يتحقق الفتح،

Readonly

لكن خالد بن الوليد استطاع أن يصطنع العيون والأتباع الذين ينقلون إليه خبر ما يحدث بالداخل، فنُقِل إليه خبرٌ صغير يقول بأن بطريرك الروم قد وُلِد له مولود، وأنه سيقيم له احتفالًا هذه الليلة.

من فوره وضع خالد بن الوليد خطة تقضي باقتحام السور عند منتصف الليل عندما تلعب الخمر بالرؤوس، وجهز فرقة اقتحام تربط الحبال بالخطاطيف لتتعلق بالسور، وتحمل معها السلالم والحبال، وقصد أوسع نقطة للخندق المائي مع فرقة عبور تحمل القِرَب المنفوخة.. وعند لحظة الصفر كان اثنان قد تعلقوا بالأسوار وتسللوا إليها، وألقوا بآلات الصعود إلى المحاربين، وخاضوا معركة مع الحارسين اللذين يحرسان الباب بعد منتصف الليل، ثم كبروا وفتحوا الباب الشرقي.. وهنا انهارت معنويات الروم فسارعوا إلى الصلح والاستسلام.

الحصول على معلومة واحدة قد يعني النصر، لو أنها وقعت في يد من يستفيد منها حق الاستفادة.. إن الحركة الإسلامية تملك من الشباب والطاقات فيضانات من البطولة والشجاعة، ولكنه فيضان أعمى، يضرب في كل اتجاه، ويخبط في كل طريق، يسير بلا هدف.. يحاربه العدو، والعدو يعرف عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه! فلا تخلو قصة هزيمته من عجب واندهاش وحسرة أيضًا!

* * *

Readonly

في ذكرى وفاة جلال كشك

* نشر في «الخليج أون لاين»، بتاريخ ٢٨ ديسمبر ٢٠١٥م

كنت قد اكتشفت جلال كشك في صيف (٢٠٠٢م) مصادفة، صديق لي اشترى كتبًا ظنها للشيخ عبد الحميد كشك، فلما اكتشف أنها لشخص آخر أعطانيها، وقال: ستنفعك أنت ولن تنفعني، كتب عن الفكر والسياسة. وليس يعرف فرحة الشاب الفقير ـ حينها ـ المحب للقراءة بمن يهديه كتابًا إلا من ذاق حاله، وفي أيام التهمت الكتابين ثم شغفت بالرجل فبحثت عن كتاب ثالث فوجدت أمامي كتابه «ثورة يوليو الأمريكية» فالتهمته، لكنه سبب لي صدمة معرفية كبرى، فالشاب ذي التسعة عشر عامًا وإن كان يبغض عبد الناصر بشدة لم يكن يتوقع إطلاقًا أن ثورة يوليو تدبير أمريكي! ولا أن هيكل مزور تاريخ مفضوح وكذاب إلى هذا الحد!

كنت ساعتها في إجازة الصيف وعزمت أني حين أسافر للجامعة سأبحث عن المؤلف في القاهرة وألتقيه. لم تمرَّ أيام حتى كنت اقرأ حوارًا صحفيًا مع الناصري عبد الحليم قنديل بمناسبة ذكرى يوليو، فسأله الصحفي: ماذا تقول في الوثائق التي نشرها جلال كشك؟ فقال عبد الحليم: جلال كشك رحمه الله..

طاحت رأسي وغامت الدنيا أمام عيني حين قرأت «رحمه الله»، وصرت أحدق في العبارة أريدها أن تكون خيالًا أو توهمًا مني فإذا بها ترقد أمامي واضحة صارخة تعذبني وتقطع أملي وتهدم أحلام تتلمذي عليه!

Readonly

مضى على وفاة جلال كشك نحو ثلاثة عقود من الزمن (توفي ٥ ديسمبر ١٩٩٣م، بأزمة قلبية أثناء مناظرة له مع نصر حامد أبو زيد)، وما زال تراثه يحتاج لمن يجمعه وينهض به ويحلله ويفيد منه. كان عملاقًا عظيمًا، كما كانت له أخطاء وزلات قاسية، وجلَّ من لا يخطئ، إلا أنه يظل أحد الأقلام السامقة في تاريخ القرن العشرين بل في كل التاريخ الحديث.

في هذه السطور أنقل بعضًا من كلماته التي حفرت نفسها في قلبي، تذكيرًا به وإشارة له.

(١)

«الإسلام هو دين التوحيد المطلق، الدين الذي اعترف بالألوهية المطلقة الكاملة لله سبحانه تعالى، فليس في مفهوم الله، عند المسلم، شبهة نقص ولا شبهة مماثلة للكون أو المادية أو الكائنات الفانية أو المتحولة.. وليس في الفقه الإسلامي، أو التصور الإسلامي، تلك الملامح البشرية للإله، كما في أساطير اليونان حيث الرب يعشق ويسرق ويتآمر ويغدر ويخضع لقانون عام بل وتنزل به العقوبات! ولا كما في الأساطير المنسوبة للتوراة، حيث يصارع الرب الإنسان.. كما رفض الإسلام رفضًا قاطعًا صريحًا أية مجاملة لمحاولة خلق صلة عضوية بين الله والإنسان كما في العقيدة المسيحية عن «الابن» وما صاحبها عن «الطبيعة الواحدة» و«الطبيعتين». نفى الإسلام ذلك واعتبر أن مجرد ترديده كفيل بتدمير الكون. والخلاف الذي دار حول خلق القرآن، ينطلق من هذا التأكيد على التوحيد والتنزيه. فالذين قالوا بخلق القرآن رفضوا مقولة «في البدء كانت الكلمة» إذ ليس في الإسلام بداية ولا بدء إلا بالله سبحانه وتعالى وحده، والذين رفضوا القول بخلق القرآن نزَّهوا «كلامَ الله» أن

Readonly

يكون مخلوقًا باعتباره صفة منسوبة لله سبحانه وتعالى، والله لا «تلحق» به صفة، ولا «تتأخر» عنه صفه، فهو منذ الأزل وإلى الأبد»[١].

(٢)

«التوحيد هو قاعدة الفكر الإسلامي، ومن ثَمَّ القوة المُحَرِّكة والمُوَجِّهَة لفلسفة ونظام المجتمع الإسلامي، فنقطة الانطلاق هي تحرير الإنسان من عبودية الإنسان، وعبودية الأوهام، وعبودية الكائنات والطبيعة، فهو حرٌّ مطلق، منذ لحظة تسليمه بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى، أو بقبوله شرح معنى «لا إله إلا الله.. نفي وإثبات» وطرح هذا الفهم وقبوله، يقود إلى رفض الاستكانة لاستبداد السلطة، أي يطرح تلقائيًا قضية السلطة وهي أهم القضايا السياسية، أو القضية الرئيسية في كل ثورة كما قيل»[٢].

(٣)

«الجاسوس مهما تكن مهارته، يحتاج إلى مناخ خاص لكي ينجح في إنزال ضربات حاسمة، يحتاج إلى مناخ مجتمع متفسخ لكي يستطيع أن ينفذ فيه. ولا شك أن الخمر والنساء لا يمكن أن تكونا أسلحة مثمرة في مجتمع قيادته متدينة. كما أن المال لا يُجدي في مجتمع يحاسب قياداته ويسألها «من أين لك هذا؟». وأهم من ذلك كله، هو إرادة القتال، ففي مجتمع يعيش حقيقة الصراع المصيري ضد

---

(١) خواطر في الجهاد والأقليات والأناجيل ص١١، ١٢.

(٢) السعوديون والحل الإسلامي ص٨٩، ٩٠.

Readonly

عدو قومي متربص عند حدوده، يصبح كل مواطن جهاز أمن، وتصبح كل قراراته وسلوكه في خدمة المعركة المنتظرة»[١].

(٤)

«كل كنائس العالم العربي لم تظهر في مواجهة الإسلام ـ كما يهمس اليوم في آذانها المفسدون ـ ولا احتمت بالصحراء أو الجبل خوفًا من المسلمين، بالعكس لقد ظهرت كانشقاق عن كنيسة الغرب، كعصيان في وجه السلطة الأجنبية، سلطة المسيحية الغربية وليس ضد الإسلام. وما من دارس للتاريخ ينكر أنه لولا الفتح الإسلامي، لولا سيوف المسلمين، لاختفت هذه الكنائس في ظل الهيمنة الرومانية أو البيزنطية فالأوروبية، ولسيطرت كنيسة واحدة واختفت تمامًا الأقليات والكنائس المنشقة، كما حدث في أوروبا قبل عصر النهضة، أو ظهور القوميات. وهذه حقائق يعرفها المخلصون من أبناء وقادة هذه الكنائس مع المسلمين لا يحدث إلا في فترات النفوذ الأجنبي في البلاد العربية»[٢].

(٥)

«المخابرات لا تصنع الثورات، إنما الثورات تتجمع لعوامل تاريخية واجتماعية واقتصادية، ولعبة المخابرات (الأجنبية) المفضلة هي مسايرة التاريخ لتبديدها وتفجيرها سلميًّا.. وليست معارضتها.. فعندما يدرك خبراؤها أن سقوط النظام القائم حتمي، يبدأ التخطيط لما بعد سقوطه.. ومن هنا بدأ التخطيط للسيطرة

---

(١) النابالم الفكري ص٦١، ٦٢.

(٢) رسالة التوحيد ١/ ٧، ٨.

Readonly

على الثورة، لإجهاضها وحرفها، بل واستغلالها في تدمير ذات الأهداف التي قامت الثورة من أجلها»[١].

(٦)

«لا أحد يجادل في أن الحل الإسلامي يحتل المرتبة الأولى في تفكير الجماهير وقطاع عريض من قياداتها الوطنية، ودعنا من الطفح [يقصد النخبة العلمانية] الذي يشوه وجه المجتمع بفعل إصابته بمرض الإفرنجي.

الجماهير وطليعتها الوطنية المخلصة تطرح الحل الإسلامي باعتباره الحل الأجدر بالتجربة ومن ثم جاءت شركات توظيف الأموال في إطار هذا الاقتناع أو إن شئت لاستثمار هذا الاقتناع.. وكما قلنا أكثر من مرة ليست الفتوى الشرعية هي أهم ما في دعوى وقف التعامل بالربا، ومن ثم لا يجوز أن يشغلنا حوار الفقهاء والمتفقهين عن الاهتمام بنتائج هذه الدعوة.. أو على الأقل هكذا ينظر إليها خصومها.. فهي تشكل تحديًا خطيرًا للنظام المالي العالمي؛ لأنها برفض الفائدة وطرح فكرة المشاركة في التمويل والمسؤولية والعائد فإن أول نتائجها هو حرمان النظام المالي من مدخرات وودائع المسلمين، مما يشكل نقصًا كبيرًا في مواردها، ومن الطبيعي أن تتصدى هذه البنوك لمثل هذه الدعوة بكل وسائل المقاومة ومنها شراء الكُتَّاب والخبراء وبعض رجال الدين المتحررين للفتوى ضد صيغة شركات توظيف الأموال.. وكلها محاولات لإخفاء جوهر القضية وهو إخراج أموال المسلمين من قبضة البنوك الأجنبية، من قبضة الرأسمالية العالمية.. أما الشعارات

---

(١) القومية والغزو الفكري ص٢١٧، ٢١٨.

Readonly

فهي مجرد وسائل.. فالحرام هو إعانة عدونا بمالنا، والحلال هو الاستقلال بمواردنا ومدخراتنا، وكل فتوى تتعارض مع هذا الهدف فهي الكفر البواح»[١].

(٧)

«وبعدُ، فما حيلتي.. وقد حُرمت من فرصة تغيير التاريخ بالوسيلة الحاسمة والفعالة ـ أي السيف ـ، ما حيلتي إلا أن أُعين أولئك الذين فضَّلهم الله على القاعدين، الذين يقفون اليوم أو غدًا للذود عن حرية الوطن، وسيادته واستقلاله. ما حيلتي إلا أن أعين هؤلاء الذين يصنعون مستقبلنا المشرق، وينسجون من حلكة الواقع فجر الغد المنتصر.. أقول ما حيلتي أنا العاجز عن القتال، إلا أن أعينهم على فهم التاريخ، أُجاهد معهم بقلمي، أُعرِّفهم بأن أجدادهم قاتلوا وانتصروا؛ لأنهم آمنوا، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. اللهم فاغفر لي ضعفي وعجزي، ويسِّر لي من القراء مَن إذا انتفع عمِل، ومَن إذا وجد خطأ نبّه إليه.. واغفر لي ما أكون قد نسيت أو تأولت فأخطأت»[٢].

رحم الله محمد جلال كشك، وعوضنا خيرًا منه.

* * *

(١) الناصريون قادمون ص١٥٥.

(٢) ودخلت الخيل الأزهر ص٢٩، ٣٠.

Readonly

موجز قصة النكبة الفلسطينية

*** نشر على جزئين بموقع المعهد المصري للدراسات، بتاريخ ١٤ مايو ٢٠١٦، ٢١ مايو ٢٠١٦م**

تعد قصة إنشاء إسرائيل من أهم القصص التي يجب أن تدرسها الحركات الإسلامية وكافة الساعين إلى التغيير، كما ينبغي أن يتعلمها أبناء المدارس وأبناء جيل الصحوة، ذلك أنها نموذج لنجاح باهر في تأسيس دولة من العدم، ثم إنها ليست أي دولة بل هي الدولة التي ينعقد على وجودها وفنائها مصير العالم، إنها جوهر الصراع الحضاري العالمي، كما يقول د. جمال حمدان في «إستراتيجية الاستعمار والتحرير».

تبدأ القصة حين نشر هرتزل كتابه «الدولة اليهودية» (١٨٩٦م)، وكان في التاسعة والثلاثين من عمره، وقد تمتع بصبر وعزيمة وذكاء يثير الإعجاب وإن كرهنا، واستطاع أن يسوِّق للغرب حلًّا للمشكلة اليهودية المزمنة بأن يجعلوا منهم قاعدة استعمارية غربية متقدمة في الشرق. في العالم التالي كان هرتزل يحول كتابه إلى برنامج عمل في اجتماع بازل السويسرية (١٨٩٧م)، ويناقش مسائل السياسة والأموال والكوادر البشرية.

لم يتوقف رغم فشله مع الدولة العثمانية والألمان، ولم يتوقف عمله رغم موته المبكر (١٩٠٤) وهو في الرابعة والأربعين من عمره، فقد ورثه من لا يقل عنه كفاءة

Readonly

ودأبًا وذكاءً: حاييم وايزمان، عالم الكيمياء سابقًا، وزعيم الصهيونية الثاني والأهم على الإطلاق.

صرح رئيس الوزراء البريطاني كامبل (١٩٠٧م) بضرورة إنشاء كيان غريب في منطقة شرق المتوسط وعلى مقربة من قناة السويس يكون مواليًا للغرب، في تلك اللحظة التي اقتنع فيها ساسة بريطانيا بمشروع الدولة اليهودية كان وايزمان في فلسطين يبحث عن أراضٍ يمكن شراؤها، ويؤسس شركة «تطوير أراضي فلسطين».

لم يمض عامان على هذه اللحظة إلا وتأسست بذرة الجيش الصهيوني (١٩٠٩م) كحرس لحماية المستوطنات اليهودية، بعدها بعامين آخرين (١٩١١م) رفع اليهود مطلب الاعتراف باللغة العبرية لغة رسمية.

وصل الاختراق الصهيوني إلى درجة وزير في الحكومة البريطانية، ذلك هو هربرت صموئيل المؤسس الحقيقي لإسرائيل، وكان من الذكاء والفهم بحيث رفع مذكرة للحكومة (١٩١٥م) يقول فيها بأن الوقت غير مناسب لإنشاء وطن يهودي في فلسطين، ولا بد من احتلال بريطاني يمهد الأوضاع ويهيئ الأرض لهذا المشروع!

وبالفعل، انتهت الحرب العالمية الأولى، واحتلت بريطانيا فلسطين (١٩١٧م)، ودخل الجيش البريطاني القدس وضمن صفوفه أول ميليشيا يهودية مدربة على يد الإنجليز، وساعتها زار حاييم وايزمان القدس، لا باعتباره مستثمرًا كما في أول مرة، بل باعتباره زعيم المشروع الذي يجري تأسيسه.

لم يكن المشروع ليتم لولا غفلة العرب وسذاجة وخيانة حكامهم، فقد أغرى الإنجليز فيصل بن الشريف حسين ليوافق على قيام دولة يهودية في فلسطين، وقد وافق «الثائر» الذي كان يرجو مساعدة بريطانيا في حركة استقلال العرب عن العثمانيين وتنصيب أبيه خليفة (١٩١٩م)!

Readonly

منذ نزلت الحركة الصهونية إلى فلسطين في ظل الاحتلال البريطاني أنشأت نواة جهازها الاستخباري (١٩١٩م) ليجمع المعلومات المفصلة ويرسم خريطة واضحة عن: مدى القبول الشعبي بالمشروع الصهيوني، خريطة الأراضي الفارغة، خريطة السكان، الأراضي التي يسهل شراؤها، السكان الذين يُتوقع منهم المقاومة. فصار لها الآن: جهاز أمني، وجهاز عسكري.. وبقي الجهاز السياسي!

حينئذ نصبت بريطانيا الصهيوني هربرت صموئيل حاكمًا بريطانيًّا على فلسطين (١٩٢٠م) لينفذ بنفسه ما كان قد اقترحه قبل خمس سنوات من تهيئة الأرض عبر البريطانيين لإنشاء الدولة اليهودية، وقد فعل هربرت صموئيل ما يجعله مؤسس إسرائيل الحقيقي؛ ذلك أنه بخلاف تدفق الهجرة اليهودية: سَمَحَ لليهود بالتسلح وبناء جيش منفصل، وسمح لهم بنظام تعليمي منفصل، وأقرَّ العبرية كلغة رسمية، واستولى لنفسه على كل الأراضي المشاع وما يؤول إلى الحاكم ثم منحه اليهود بخلاف مئة قانون أصدرها تسهل تسريب الأراضي لليهود.

وبينما هربرت صموئيل يقيم الدولة اليهودية في فلسطين، يعمل حاييم وايزمان على مستوى السياسة، مستعينًا بآل روتشيلد على مستوى الاقتصاد والتمويل، وهكذا جرى توزيع الأدوار والتغطي بالقوة البريطانية العظمى في وقتها.

بعد خمس سنوات (١٩٢٥م) تضاعف عدد اليهود، ومستوطناتهم، وبدأت تظهر مؤسساتهم وأجهزتهم الإدارية المنفصلة: استقلال ذاتي لتل أبيب، نقابة عمال بزعامة بن جوريون، احتفال مهيب بإنشاء الجامعة العبرية حضره: لويد جورج (رئيس الوزراء البريطاني) وألنبي (الحاكم العسكري البريطاني) وبلفور، وتشرشل، وحاييم وايزمان، وهربرت صموئيل.

Readonly

تجدر الإشارة إلى أن اليهود استعملوا النداء الديني والخطاب التوراتي بشكل أساسي، بما في ذلك العلماني منهم، وقد بُذِلت مجهودات عظيمة في إعادة بعث واستعمال اللغة العبرية الميتة لتكون لغة الدولة الجديدة، وبهذا حافظ اليهود على مدد دائم وألهبوا طاقات كامنة وخاطبوا جماهير اليهود حول العالم بما يستثير إمكاناتهم.

في كل انتفاضة شعبية كان السلاح البريطاني يتحرك بعنف لإخماد كل مقاومة، واستعملت أسلحة القتل والاغتيال والاعتقالات والنفي والمحاكمات، مع ما يساند هذا من عمل استخباري، وما يغطي هذا كله من عمل سياسي يثير الفرقة بين الزعامات الفلسطينية ويرصد تدابيرها لإجهاضها.

عند العام (١٩٣٥م) كانت مصانع الصهيونية تصدر الألماس والأقطان إلى خارج فلسطين، وهو ذات العام الذي استشار فيه عز الدين القسام القيادات الفلسطينية في إشعال ثورة على الإنجليز فكان ردهم أن الشعب لم يتهيأ بعد والوقت غير مناسب وما يزال الأمل قائمًا في الوصول إلى الحقوق من خلال المحاورة والمفاوضة مع الإنجليز. إلا أنَّ القسام أشعل ثورة وكان هو من شهدائها، وشهدت فلسطين عام (١٩٣٦) أطول إضراب في تاريخها إذ استمر لستة أشهر ثم انتهى بعد تدخل «الحكام العرب» بالنصيحة والتوصية بوقف الإضراب مع الوعد بالتفاهم مع الإنجليز.

في ذلك الوقت كان الوجود الصهيوني قد صار مستقلًّا عمليًّا عن الإنجليز ويملك قراره المستقل، وكان الجهاز الأمني الإسرائيلي قد تطور ليصير له جهاز تنصت في مكتب الحاج أمين الحسيني، وهو بمثابة القائد السياسي للثورة

Readonly

الفلسطينية، فكانت تحركات المقاومة الفلسطينية مكشوفة للصهاينة، وقوبلت الثورة الفلسطينية المشتعلة بكافة أنواع القمع الإنجليزي، وكانت الطريقة المتبعة هي: قتل القادة الميدانيين، فصل القادة السياسيين عما يجري بالأرض من خلال النفي أو تسهيل الهروب من فلسطين، وتجريد الناس من كل أنواع السلاح، فمن وجد في بيته ولو بقية رصاصة فارغة نسفوا بيته. وألقت بريطانيا بثقلها لإنهاء الثورة التي استمرت لثلاث سنوات فدفعت بعشرين ألفًا من قواتها تحت قيادة أربعة جنرالات كبار ممن شاركوا في الحرب العالمية الأولى.

في المقابل كان اليهود يزيدون عددًا بالهجرة، وعتادًا بالإمداد الإنجليزي، وخبرة بالتدريب العسكري، وبلغوا من الفعالية حدَّ أن أسسوا لمنظمات «إسلامية» و«وطنية» تشاغب على المنظمات الإسلامية الوطنية الحقيقية وتثير الفرقة والأزمة، وكان الجهاز الأمني قد تكونت لديه صورة واضحة عن أفراد المنظمات الإسلامية في فلسطين، من منهم يسهل التعامل معه، ومن الذي يمكن شراؤه بالمال، ومن الذي لا حل إلا بالتخلص منه.

في أثناء الثورة شكلت بريطانيا لجنة لدراسة الوضع، كعادتها في تشكيل اللجان بُغية تبريد المقاومة ومطّ فترة المفاوضة لشراء الوقت وقمع الثائرين، وبالرغم من كل ما صنعه اليهود من هجرة وتواجد إلا أنَّ مساحة ما يملكون من الأرض فعليًّا لم تزد على خمسة بالمئة، تتركز في شمال فلسطين، لكن اللجنة انتهت إلى اقتراح تقسيم الأرض بين العرب واليهود، ومنحت اليهود ثلث فلسطين الشمالي، ومنحت العرب ثلثي فلسطين الجنوبي، وجعلت المنطقة الواصلة بين القدس وحيفا مستعمرة بريطانية! فكان ذلك مكسبًا جديدًا لليهود أخذوه بقوة السياسة البريطانية

Readonly

إلا أنهم ـ وكعادتهم ـ لم يتوقفوا عنده.

أسفرت سنوات الثورة الثلاث (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) عن استشهاد خمسة آلاف فلسطيني، وجرح أربعة عشر ألفًا، بخلاف من اعتقلوا أو من طُردوا أو من اضطروا للهرب، وبهذا تمت تصفية الجيل الذي يمكنه التصدي للعصابات الصهيونية بعد عشر سنوات. أي أنَّ الواقع العملي هو أن النكبة وقعت بإخماد الثورة الفلسطينية في نهاية الثلاثينيات.

وفي نهاية الثلاثينات وقعت أحداث درامية، فباشتعال الحرب العالمية الثانية انضم خمسة عشر ألف يهودي إلى صفوف الحلفاء، فتحصل لهم من الخبرة والتدريب واستعمال السلاح ومعرفة العلوم العسكرية ما لم يكن متحصلًا للفلسطينيين بحال، عندئذ تحولت «الهاجانا» إلى جيش حقيقي، يملك مجموعة من الطائرات. وفي تلك الفترة وبالتوازي مع هذا المجهود العسكري كان المجهود الأمني الاستخباري يعمل على إتمام ملف «القرى» التي يستكمل فيها معلومات واضحة وتفصيلية عن كل قرية فلسطينية من حيث: نوعية الأرض، الحالة الاقتصادية للسكان، الميول السياسية، مدى سهولة أو صعوبة احتلال هذه القرية.

عند نهاية الحرب العالمية الثانية كانت الصورة في فلسطين بائسة على كل المستويات:

ـ فعلى المستوى الدولي: انتصر الحلفاء على دول المحور الذين تعلقت بهم الآمال العربية والفلسطينية، مما جعل مشروع الدولة الصهيونية سائرًا بلا أي عرقلة سياسية، وقد قرأت الصهيونية الموقف سريعًا فنقلت ثقل نشاطها واعتمادها من بريطانيا إلى أمريكا (١٩٤٢م).

Readonly

ـ وعلى المستوى الداخلي كانت الصهيونية ترسخ وجودها على الأرض بمستوى متصاعد، فقد تحولت عصابات الهاجاناه إلى جيش حقيقي بما تحصل لها من خبرة وعلوم عسكرية وأسلحة وعتاد من مشاركتها في الحرب العالمية الثانية إلى جوار بريطانيا، وكان الجهاز الأمني الصهيوني يتمّ خطته التفصيلية عن القرى الفلسطينية فيجمع عن كل قرية: نوعية الأرض والسكان والحالة الاقتصادية والاتجاهات السياسية ومدى سهولة أو صعوبة احتلال القرية، ويستزيد من صناعة العملاء ومراقبة المجتمع الفلسطيني وما بقي من مراكز تأثيره، وقد صارت له مؤسسات «إسلامية وطنية» لتشاغب على المؤسسات الحقيقية وتثير أزمات الفرقة بينها وصرف الناس عنها.

ـ وأما على المستوى الفلسطيني فقد كانت الحالة سيئة، فلم يزل المجتمع الفلسطيني يعاني من ضرب جيل المقاومة الذي استمرت ثورته بين (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩م)، والتي أسفرت عن قتل خمسة آلاف فلسطينية وجرح أربعة عشر ألفًا، وما صحب ذلك كله من تجريد السلاح وهدم البيوت، ومقتل القادة، ووجود القيادات السياسية بالخارج منقطعين عن أوضاع الداخل، مع التمزق العربي ووقوع بلدانه تحت الاحتلال.

كررت الصهيوينة الخطة القديمة، وضعت نفسها في خدمة القوة الدولية لتبلغ أهدافها، لكنها نقلت نشاطها من بريطانيا إلى أمريكا مع تغير موازين القوى فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت أمريكا حينئذ ترث الوجود الإنجليزي والفرنسي في الشرق، فكانت الصهيونية هي ذراعها لإخراج الإنجليز من فلسطين، فانقلب الصهاينة على الإنجليز، وطالب مؤتمر الحركة الصهيونية الذي عقد في أطلنطا بأمريكا (١٩٤٤م) بضرورة خروج الإنجليز من فلسطين وتوفير حماية دولية

Readonly

لليهود، ثم أشعل الصهاينة حرب عصابات ضد الجيش البريطاني نفسه، وقاموا بعدة عمليات تفجير واغتيال وخطف مؤثرة، حتى بلغ القتلى في صفوف البريطانيين ١٦٩ بين عامي (١٩٤٦، ١٩٤٧)، وعند نهاية سنوات الانتداب كانت العصابات الصهيونية قد نفذت خمس مئة عملية ضد الإنجليز، وكم كان مثيرًا مشهد تشرشل ـ الذي كان أول من درب العصابات اليهودية قديمًا ـ وهو يعلن مرارته ويحذر وينذر في الأمم المتحدة، ولكنه التحذير الذي يعرف الجميع أنه أجوف!

وبرغم كل هذا تكاد بريطانيا أن تكون التزمت الصمت ولم ترد بشيء على الصهاينة، فقد صارت الصهيونية في الحماية الأمريكية، كما أن كثيرًا من عناصر الشرطة والجيش الإنجليزي في فلسطين هم من اليهود والصهاينة أنفسهم. وذلك في نفس التوقيت الذي كانت تعتقل فيه الفلسطينيين لمجرد حيازة السلاح، حتى بلغ عدد المعتقلين (٣٠٠) في النصف الأول من عام (١٩٤٦م).

وعلى الجانب السياسي العالمي كانت الصهيونية تمول حملة الرئيس الأمريكي ترومان والذي كافأهم بعد فوزه بالموافقة على هجرة مئة ألف يهودي إلى فلسطين. كما كانت الصهيونية في أمريكا تجمع من اليهود تمويلًا لإنشاء صناعات عسكرية في إسرائيل، وبهذا صارت عصابات الهاجاناه تصنع بعض أسلحتها بنفسها مما قوى مركزها الفعلي حتى ضد البريطانيين الذين اضطروا لإعلان مغادرتهم فلسطين بعد سنتين أي في عام (١٩٤٨م).

بدأت عملية وراثة فلسطين من الإنجليز، اشترى اليهود من أسلحة الإنجليز بالمال ما لم يأخذوه بغير طريق الدعم، فكانت لديهم ٢٤ طائرة اشتروها بخمسة ملايين جنيه، وعند بداية ١٩٤٨ كانت الوكالة اليهودية تسيطر فعليًا إداريًا وعسكريًّا،

Readonly

ولديها جيش مقاتل يتكون من: عصابات الهاجاناه (٣٥ ألفا) وعشرة آلاف مقاتل من الوحدات الخاصة، وتنظيمات عصابات الإرجون واشتيرن. وعملت هذه العصابات على تنفيذ خطة التهجير للفلسطينيين، فتنوعت عملياتهم بين الهجوم العسكري على القرى وتهجيرها، أو تفجير الأسواق والمحال، أو نصب الكمائن على الطرقات وقتل الفلسطينيين، أو تنفيذ عمليات خاصة قامت بها وحدات المستعربين التي ظهرت في تلك الفترة.

في اجتماع بتاريخ (١٠ مارس ١٩٤٨م) لقيادة الهاجاناه، أي قبل نهاية الانتداب البريطاني بشهرين، أتموا الخطة التفصيلية للتعامل مع كل قرية فلسطينية يراد تهجيرها، وكانت الخطة تعتمد على الرعب أكثر من اعتمادها على التفوق العسكري، فلا بد من مذبحة أو ضربة هائلة تسفر عن خروج السكان من هولها قبل أن ينخرطوا في اشتباك أو مقاومة، وإذا وقع بعضهم في الأسر كانوا يقتلون بعضهم قبل نقلهم إلى معتقلات مركزية لتحقيق هدف الرعب وشل محاولة المقاومة، وإذا حوصرت القرية فهي تُحاصر من ثلاث جهات وتُقصف بغزارة ليهرب أهلها من الجهة الرابعة. وكانت خطة التهجير تبدأ من ساحل المتوسط وتمتد شرقًا لكي يظل اتصال الدولة اللقيطة بالبحر، فكان أول المهجرين أهالي القرى والمدن الشمالية والغربية من فلسطين، ويقدر عدد المهجرين بثلاث مئة وخمسين ألف فلسطيني!

لقد أبدى الفلسطينيون مقاومة باسلة، لكنها مقاومة متبعثرة ومشتتة، تعاني من الفارق الضخم في القوة والتسلح، وتعاني من ضعف الكوادر الناتج عن سحق جيل الثورة قبل عشر سنوات، وتعاني من التواطأ العالمي لا سيما البريطاني، وتعاني

Readonly

من الخيانة العربية التي يحكم عواصمها عملاء يساعدون في قتلهم وإبادتهم، ولا تزال رسالة عبد القادر الحسيني إلى جامعة الدول العربية تختصر هذا المشهد «إني أحملكم المسؤولية بعد أن تركتم جنودي في أوج انتصاراتهم بدون عون أو سلاح»، واستشهد بعد رسالته بثلاثة أيام (٩ إبريل ١٩٤٨م)، وبينما يشيع الناس جنازته، كانت قرية دير ياسين تتعرض للمذبحة.

عند يوم ١٤ مايو ١٩٤٨م، غادر الحاكم البريطاني فلسطين، ونزلها بن جوريون، وأعلن «استقلال» دولة إسرائيل، وخلفه كانت تنتصب صورة كبيرة للمنظر المؤسس: تيودور هرتزل، الذي بذر البذرة ومات بعد ثمان سنوات، ثم تحقق حلمه بعد موته بأربعين سنة!

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ فلسطين والعرب والمسلمين بل والعالم!

عندئذ سمحت بريطانيا بدخول القوات العربية الهزيلة عددًا وسلاحًا إلى فلسطين، كانت الجيوش السبعة لا تزيد عن ٢٤ ألفًا، وهم أقل من ثلث القوة العسكرية الصهيونية، إضافة إلى فارق التسلح والخبرة والتدريب، دخلت الجيوش العربية بشعار «تحرير فلسطين» ليرتسم بدخولها الجانب الآخر من المهزلة، فبالإضافة إلى هزالها عددًا وعدة وخبرة فإنها تخضع لتوجيه أنظمة تخضع للاحتلال، وبقيادة إنجليزية (جلوب باشا قائد الجيش الأردني، ومساعدوه إنجليز)، فإما أنها جيوش لم تحارب، وإما أنها كانت تدخل إلى القرى لتجردها من السلاح ثم تنسحب في المعركة أمام القوة الصهيونية فتغدو القرية بلا سلاح، ثم يأتي الصهاينة فينفذون مذبحة جديدة تثير الرعب والفزع وتنتج موجة جديدة من الهجرة، وقد نفذ الصهاينة

Readonly

مذابح في اللد والرملة في ظل وجود الجيوش العربية ولم يحرك أحد منهم ساكنًا، وفوق ذلك فإن سائر ما استطاع أن ينجزه المجاهدون المتطوعون تدخلت الأنظمة العربية نفسها لإيقافه وإنهائه إما بإصدار أوامر انسحاب أو بتعديلات الخطة أو بإيقاف التقدم أو حتى بسجن المجاهدين!

وهكذا سقطت فلسطين! ولم يكن نصيب العملاء في سقوطها بأقل من نصيب الصهاينة أو المحتلين!

لئن كان هرتزل هو صاحب الفكرة والبذرة الأولى، فيجب ألا ينسينا هذا جهود من تلاه، لا سيما هذا الثلاثي الخطير: حاييم وايزمان، هربرت صموئيل، بن جوريون!

لقد عمل هؤلاء الثلاثة على تطويع كافة الظروف الدولية والداخلية لخدمة خلق الدولة الصهيونية، وعملوا في نفس الوقت على ألا تكون إسرائيل مرتبطة ارتباطًا كاملًا بالمزاج السياسي الغربي، بل أسسوا للاستقلال اليهودي العسكري والاقتصادي والأمني، فتكون قوتهم الذاتية طرفًا في معادلة السياسة، وبرغم ما يبثه هؤلاء من تحريض شعبي وديني لليهود فإنهم عملوا على خلق الظروف المواتية للدولة قبل نشوئها أو إعلانها، فلما جاءت لحظة الإعلان كانت إسرائيل أمرًا واقعًا!

ولئن كان هؤلاء يستحقون أن توضع أسماؤهم في سجل شرف الصهاينة، فيجب ألا ننسى أبدًا أن آخرين يستحقون أن توضع أسماؤهم في سجل العار من دفتر العرب!

***

Readonly

مات «هيكل»: نكبة الأمة العربية

* نشر بتاريخ ٢١ فبراير ٢٠١٦م

«إن كنتم قد هزمتم جيلنا بالمدفع والدبابة، فقد هزمناكم بالكلمة، وغدًا يأتي جيل يبصق على قبوركم وصحافتكم ودبابات أتت بكم وأضاعت الوطن».

محمد جلال كشك مخاطبًا محمد حسنين هيكل.

(١)

ماذا بوسع المرء أن يكتب عن هيكل؟!

إن الأمر ثقيل كبير، وواسع ممتد، فلم يكن هيكل مجرد فيلسوف منافق، ولا صحفي أفاق، ولا كاهن في معبد الاستبداد، ولا هو مجرد خائن لأمته ومُضِلٌّ لقرائه.. هيكل هو كل هذا معًا، هيكل هو أشهر وأكبر مزور للتاريخ في القرن العشرين، هيكل لم يكن كاتبًا للتاريخ فحسب بل صانعًا له، ولقد مات هيكل ولم ينكشف كل سره، ولا ينكشف سر هيكل إلا بسقوط دولة العسكر كلها، حينئذ تظهر الروايات الخفية التي يمنع انتشارها قوة السلطة أو الخوف منها، فهيكل عمود من أعمدة الدولة العسكرية البغيضة التي ابتليت بها مصر منذ انقلاب ١٩٥٢، وهو العهد الذي ذاقت فيه مصر أظلم عصورها على الإطلاق، فلا يقاس بحقبة العسكر شيء: لا حقبة الاحتلال الإنجليزي ولا حقبة محمد علي ولا حقبة العثمانيين ولا حقبة المماليك، كل هذه الأحقاب هي جنة وارفة إذا قورنت بحقبة العسكر، ولكن

Readonly

ليس يعلم هذه الحقيقة من يجهل التاريخ، فالتاريخ هو مصباح الضوء الوحيد الذي يكشف حقيقة الحاضر في ميزان الماضي.

فماذا بوسع المرء أن يكتب عن هيكل، وهو عمود من أعمدة هذه الحقبة؟!

إن المرء حيث ولى وجهه يلتمس الكتابة ارتد إليه القلم خاسئًا وهو حسير، لسان حاله مقالة الشاعر:

من أين تبدأ هذا البـــوح يا قلـــم أم كيـــف تصبر والأحداث تزدحم

هـــذا النزيف على جنبيـــك منبثـق وفـــي فؤادك من فرط الأســـى ألم

(٢)

وحيث كان لا بد من الاختيار فقد آثرت أن أكتب فيما هو أبعد شيء عن التصديق لمن لا يعرف هيكل..

هل تعرف أن هيكل كان ببساطة: توفيق عكاشة عصره؟!

شئ لا يصدق!

نعم! صحيح أن هيكل لديه من الثقافة الموسوعية ورشاقة القلم وموهبة الصحافة والإعلام ما لا يجوز مقارنته بتوفيق عكاشة، إلا أن هذا هو ما يظهر لأهل زماننا هذا.. إذ لو استمر حكم العسكر لصار الجيل الذي سيأتي بعد ستين سنة يتعامل مع توفيق عكاشة بذات الإعجاب والانبهار الذي يتعامل به الجيل الحالي مع هيكل.

وهذا الفارق نفسه بين هيكل وبين توفيق عكاشة ما هو إلا حصاد حكم

Readonly

العسكر، لقد كان صحافي السلطان في عصر عبد الناصر نتاجًا للثقافة والتعليم في عصر الملكية والاحتلال الإنجليزي، لذا كان المستوى الموجود على قدر مصطفى أمين وعلي أمين وهيكل، أما بعد استقرار حكم العسكر لستين سنة وإنتاجهم أجيالًا جديدة لم تجد السلطة إعلاميًا يعبر عنها إلا أن يكون في مستوى توفيق عكاشة وعمرو أديب والإبراشي والجلاد ممن لا يستطيع أحدهم تأليف كتاب أو حتى الحديث لخمس دقائق بلغة عربية سلمية!

لكن الشبه بين هيكل وتوفيق عكاشة لا ينحصر في كون كل منهما لسان السلطة المجرمة، بل في تلك القدرة المثيرة للدهشة ـ والاحتقار معًا ـ على تزوير التاريخ والواقع، ولقد كان عكاشة سيئ الحظ في عصر اليوتيوب والبواحث الإلكترونية التي تأتيه بتقلباته وتلونه، بينما كان هيكل محتاجًا إلى مثقف يتتبع إنتاجه ليرصد تزويره للتاريخ بل وتعديله للرواية الواحدة في الكتاب الجديد، بل واختلاف ما يكتبه في الطبعة الإنجليزية عما يكتبه في الطبعة العربية، فيقول بعض الحقيقة لقرائه الأجانب بينما يمارس التهريج على قرائه العرب! وسنأتي لتفصيل هذا بعد قليل.

وهما يتشابهان كذلك في تلك القدرة المثيرة للدهشة وللاحتقار أيضًا على تزييف الواقع وتسمية الأمور لا بغير مسمياتها وإنما بضد مسمياتها، فمثلما اعتبر عكاشة نفسه «مفجر ثورة ٣٠ يونيو»، كان هيكل قبله بعقود يسوق لقرائه أن حرب ١٩٥٦ هي «أكمل نصر عربي في العصر الحديث»! ولك أن تضع من علامات التعجب والذهول ما تشاء لتسأل بعدئذ عن معنى كلمة النصر ومعنى كلمة الهزيمة في قاموس هيكل!

هيكل بشَّر قراءه عند نكبة ٦٧ بأنهم قرروا تلقي الضربة الأولى! هذا بعد أن

Readonly

كانت كل الأحداث تثبت أن مصر هي التي تسير إلى الحرب وتطلب من الأمم المتحدة سحب البوليس الدولي! ثم إنهم بعد أن قرروا تلقي الضربة الأولى لم ينتصروا كما هو متوقع ممن «قرر تلقي ضربة»، بل اكتسحتهم إسرائيل اكتساحًا تاريخيًّا غير مسبوق، فإذا به يبشر قراءه للمرة الثانية بأنهم لو كانوا بدؤوا بالهجوم لم يكونوا لينتصروا كذلك.. إذن ماذا كنتم تفعلون؟! ولماذا سرتم إلى الحرب هذا السير الحثيث؟!

نعم، كانوا يقضون وقتهم في التفتيش عن مصطلح مخنث، ولذلك كان إنجاز هيكل في هذا الحرب هو ابتكاره لفظ «نكسة» ليعبر بها عن هذا الاكتساح التاريخي في تاريخ الحروب، ثم ليتحول هذا بعدئذ إلى نصر! أي والله «نصر»! لماذا؟ لأن إسرائيل لم تنجح في إسقاط الزعيم!

هل تذكر ما فعله عكاشة في حرب غزة؟! هل تذكر كيف كان حقده يسيل على المقاومة والغزاويين؟! مثل هذا كان يفعله هيكل: فهو مع تيتو الزعيم الشيوعي اليوغوسلافي مهما كانت مجازره ضد المسلمين، وهو مع غاندي ونهرو والهندوس ضد باكستان والمسلمين في الهند، وهو مع هيلاسيلاسي سفاح الحبشة ضد المسلمين هناك، ويصاغ كل هذا بعبارات السياسة والقومية والمصالح الوطنية ولا يدري القارئ المسكين ما خلف الصورة!

هذا بعض من بعض من بعض ما فعله هيكل.. لم يكن إلا توفيق عكاشة عصره! إلا أن عكاشة عصرنا كان سيئ الحظ إذ نشأ في مدارس العسكر ودرج في إعلام العسكر فجاء أحمق أخرق سفيهًا سخيفًا عيي اللسان والعقل، وجاء في عصر اليوتيوب والفضائيات حيث يستطيع الناس سماع غيره، أما هيكل فلقد

Readonly

كان سعيد الحظ إذ نشأ في تعليم وثقافة عصر الملكية والاحتلال فكان موهوبًا وفصيحًا، ثم كان في عصر الصوت الواحد حيث لا يستطيع أحد أن يسمع شيئًا لا يريده هيكل ولا زعيمه!

أمر ثالث كان عكاشة سيئ الحظ فيه، وهو أنه عمل في خدمة المخابرات الحربية، بينما كان أستاذه هيكل أعلى قدرًا بمواهبه ولظروف التاريخ الانتقالية التي حتمت قدوم الأمريكان عند غروب الإنجليز، لقد كان أستاذه عميلًا للأمريكان مباشرة!

(٣)

هل تعلم أن هيكل كان عميلًا للمخابرات الأمريكية؟!

شيء لا يصدق أيضًا!

لا تتعجل، اسمع هذه القصة..

ذات يوم مكفهر عام ١٩٦٥، انقلبت الأيام على مصطفى أمين، مؤسس دار أخبار اليوم، ووجد الرجل نفسه في السجن من بعد ما عاش حياة رغيدة على عرش الصحافة المصرية منذ ١٩٤٤، لم يُعرف بدقة أسباب هذا الانقلاب من عبد الناصر عليه، إلا أن التهمة التي وجهت له كانت: التجسس لحساب الأمريكان!

في السجن حاول مصطفى أمين استعطاف عبد الناصر، فكتب رسالة سجل فيها اعترافاته، وذكر فيها لقاءاته مع رجال المخابرات الأمريكية منذ منتصف الأربعينات، وسرد فيها بالأسماء تواصله معهم ولقاءاته بهم وأماكنها وماذا حصل عليه من المعلومات منهم، وماذا أعطى لهم، وكيف سهلوا له لقاءً بمدير المخابرات

Readonly

الأمريكية «آلان دالاس»، وكيف كان هو الخط الخلفي لدولة عبد الناصر في التواصل مع الأمريكان وكيف كان مخلصًا له في كل هذه الاتصالات وأنه قام من خلالها بأشياء عظيمة لمصلحة الوطن ومصلحة عبد الناصر، وذكر له كل هذا في صيغة استعطاف تذكره بالأيام الخوالي وكيف وقف معه ضد محمد نجيب، وكيف أعطاه معلومات مهمة من السفارة الأمريكية.. إلخ!

قيمة رسالة مصطفى أمين هذه أنها وثيقة تثبت صناعة انقلاب يوليو على أيدي رجال المخابرات الأمريكية، لكن المهم في سياقنا الآن أن مصطفى أمين وهو يقول هذا كله، ظل يؤكد على عبارة يكررها كثيرًا إثباتًا لصدقه، وهو أن كل هذه اللقاءات كانت بحضور محمد حسنين هيكل!

في ذلك الوقت كان هيكل تلميذ مصطفى أمين، والرجل الثالث في دار أخبار اليوم، ومديرًا لعدد من إصداراتها، وكانت أخبار اليوم منذ نشأتها صوت الاستبداد والاحتلال، الصوت المضاد للحركة الوطنية ضد الملك والإنجليز، ثم ظهر بوضوح أنها تابعة للأمريكان منذ نوى الأمريكان في مطلع الخمسينات انتزاع مصر من التركة البريطانية فتحولت للهجوم على الملك والإنجليز، ثم بعيد الانقلاب شنت حملة كبرى على محمد نجيب.

[انظر الرسالة وتعليق هيكل عليها في كتاب هيكل «بين الصحافة والسياسة» ص١٥٥ وما بعدها. ط٦ شركة المطبوعات ١٩٨٥م، وانظر تعليق محمد جلال كشك على الرسالة وعلى تعليق هيكل في كتابه «ثورة يوليو الأمريكية» ص٢٧٣ وما بعدها. ط٢ دار الزهراء للإعلام العربي ١٩٨٨م].

وما يهمنا في كل ذلك أن هيكل الذي سن قلمه عندئذ للهجوم على مصطفى

Readonly

أمين وأخيه علي أمين وإثبات تهمة التجسس على أستاذه القديم، لم يكن إلا الطرف الثالث الحاضر في أغلب اجتماعات مصطفى أمين برجال المخابرات الأمريكية، وأحيانًا كانت الاجتماعات تجري في مكتب هيكل نفسه.

لم يستطع هيكل أن يدفع عن نفسه هذه التهمة إلا بحيلة بهلوانية، فقال بأن مصطفى أمين لديه حالة نفسية وأنه يتوهم أشياء لم تحدث ويرويها وهو مقتنع بصدقها، فهو ليس كذابًا ولا يستدعي الأمر تحليلًا، وإنما يستدعي الأمر طبيبًا نفسيًّا! (انظر ص٢٤٩ من كتابه «بين الصحافة والسياسة»).

لم ينف هيكل إلا واقعتين من بين سائر الوقائع التي سردها مصطفى أمين، بالأسماء والأماكن وأحيانًا بالتواريخ، وهو ما يجعلنا نثق أكثر برسالة مصطفى أمين لأنَّها موثقة، ولأنها في مقام الاعتراف والتوسل، ولأن هيكل صاحب مصلحة في نفي هذه التهمة بطبيعة الحال!

لكن أقوى ما يجعلنا نثق في رسالة مصطفى أمين هو أن تهمة العمالة للمخابرات الأمريكية ترد في مذكرات رجال المخابرات الأمريكية الذين عملوا في مصر في هذه الفترة، فالذين تعرضوا لعلاقة المخابرات الأمريكية بالصحافة المصرية ذكروا أن المخابرات استطاعت تجنيد: مصطفى أمين وعلي أمين ومحمد حسنين هيكل.

هذا الكلام قاله مايلز كوبلاند صاحب الكتاب الأشهر «لعبة الأمم»، وقاله ـ بأوضح عبارة ـ ولبر كراين إيفيلاند صاحب كتاب «حبال الرمال»، فصرح بأنه «في مطلع الخمسينات جندت المخابرات الأمريكية ثلاثة من الصحفيين المصريين هم: محمد حسنين هيكل والأخوين مصطفى وعلي أمين».

Readonly

وحين نشر هذا الكتاب الأخير، استفز الأمر جلال كشك رحمه الله، فنشر القضية في مطبوعة «رسالة التوحيد» التي كان يحررها وحده (العدد الثاني، ديسمبر ١٩٨٥م)، وفيها مارس جلال كشك أقسى ما يستطيع كاتب أن يمارسه من الاستفزاز ليدفع هيكل للرد على هذا الاتهام. فقال:

«والمطلوب الآن إن كان ما قاله كذبًا ـ وهو لا يزال على قيد الحياة بالمناسبة ـ المطلوب هو أن يرفع هيكل ومصطفى أمين قضية على الكاتب الأمريكي، ويطلب كل منهما تعويضًا مئة مليون دولار.. فما من إساءة أو إضرار بمكن أن يصيب مؤرخ الناصرية مثل اتهامه بالعمالة للمخابرات الأمريكية.. إذا جرؤ هيكل على مجرد رفع القضية أمام القضاء الأمريكي فإن الشك سيزعزع الاتهام، وإذا استمر في القضية وحكم له القضاء فقد سقط الاتهام إلى الأبد، وحق له أن يجلس على منصة القضاء يتهم أساتذته [يقصد مصطفى أمين] وله علينا، وهذا عهد أمام الله والناس أن نطوف سبعة عشر مرة حفاة عراة إلا مما يحتمه القانون حول قبر الزعيم الخالد تائبين نادمين، نحثو التراب على رؤوسنا! أما إذا لم يفعل ولن يفعل.. فلماذا لا تطالبه نقابة الصحفيين بتوضيح موقفه من هذا الاتهام الذي يمس بصورة أو أخرى سمعة الصحافة المصرية كلها.. فهذا اتهام معيب فاضح مشين منشور في كتاب طبع وبيع منه ما يقرب من مئة ألف نسخة، فلماذا يسكت وفي أمريكا قضاء؟! وإذا كان يشكو التكاليف فمن الممكن أن تتضامن معه النقابة، فهي قضية تمس شرف عميد الصحفيين الناصريين، بل إننا هنا في «رسالة التوحيد» على استعداد للتضامن معه بكل ما نطيق، فقط إذا استجمع شجاعته ولجأ إلى القضاء يدافع عن شرفه، وشرف من ائتمنه على تاريخه».



وقد صحَّ ظن جلال كشك وخاب استفزازه، وظل هيكل حيًّا لنحو ثلث قرن بعد هذا الكلام ولم يثأر لشرفه، رغم أنه اطلع عليه، واستشهد بهذا الكتاب نفسه في روايات أخرى وافقت رأيه.

(٤)

طال المقال أيضًا رغمًا عني، وكنت أنوي أن أضرب بعض الأمثلة عن تزويره للتاريخ، كما كنت أود أن أثير بعض الأسئلة عن موقع حسنين هيكل من خريطة السياسة العالمية، ولعل ذلك يكون في مقالات قادمة إن شاء الله تعالى.

لكن ما لا يجب بحال أن يفوت في هذا المقام هو لفت النظر إلى أستاذنا العملاق الراحل الأستاذ محمد جلال كشك رحمه الله، والذي تصدى لهيكل تصديًّا عنيفًا، وتحداه كثيرًا تحديًّا مهينًا، وتعقب تزويره للتاريخ في كتبه، وكان من الطاقة والقوة بحيث يقرأ كتاباته بالعربية والإنجليزية ويستخرج الفوارق بينهما، بل لقد بلغ به الأمر مرة أن كتب في أخبار اليوم مقالًا بعنوان «ما لن ينشره هيكل من الطبعة العربية في كتابه عن حرب الخليج»، وكان جلال كشك قد قرأ كتابه عن

Readonly

حرب الخليج في النسخة الإنجليزية وفيه ما يفضح ملك الأردن، فتحداه بهذا المقال الخطير، ثم خرج كتاب هيكل بالعربية «حرب الخليج أوهام القوة والنصر» خاليًا مما تحداه به جلال كشك، وأصدر جلال كشك كتابًا صغيرًا عن هذا أسماه «الفضيحة: هيكل يزور التاريخ لحساب الملك حسين».

ولم يفكر هيكل مرة في الرد على جلال كشك في حياته ولا بعد موته فيما أعلم، إلا أنه ظل متحفزًا بكل طاقته لضرب جلال كشك، وأتذكر أني كنت أتتبع تراث جلال كشك على الإنترنت فوقعت على مقال صحفي مصري يعيش في السويد دخل في نزاع قضائي مع جلال كشك فلم يجد إلا أن يراسل هيكل، ومن فوره تحرك هيكل ليجعل المحامي عن هذا الصحفي هو يحيى الجمل شخصيًا!

ويعد كتاب جلال كشك «ثورة يوليو الأمريكية» هو أقيم وأفضل ما يمكن قراءته في بيان تزوير هيكل للتاريخ، وفي إثبات ارتباط انقلاب يوليو بالمخابرات الأمريكية.

(٥)

يستطيع جلال كشك الآن أن يقرَّ عينًا في قبره، فقد مات هيكل وقد رأى بنفسه الجيل الذي بصق عليه وعلى قبره وعلى صحافته، وإن لم يستطع الجيل أن يحطم المدفع والدبابة بعد. لقد مات هيكل ولا يكاد في الشباب أحد يثني عليه أو يترحم عليه، ولا يكاد فيهم أحد يحترم مؤسساته التي عمل بها أو أنشأها: لا الأهرام ولا الأخبار ولا حتى مؤسسات تلاميذه التي لا زالت عاهرة تنام على فراش الحاكم العسكري، لقد صارت حقبة العسكر مبغوضة ملعونة، وصار هيكل وأقران هيكل وتلاميذ هيكل لعنة عند جيل الشباب الجديد.

Readonly

وفي غد غير بعيد، يأتي جيل الدبابة والمدفع ليدك حصون العسكر ويطوي صفحتهم السوداء الملعونة التي ألقت بثقلها ودنسها على هذا البلد الكريم في تلك الأمة الخالدة.

* * *

Readonly

ما الفارق بين الفتح الإسلامي والاحتلال الغربي

* نشر في «الخليج أون لاين» بتاريخ ٤ يناير ٢٠١٦م

ما الذي يفرق الفتوحات الإسلامية عن أن تكون احتلالًا كسائر الغزوات التوسعية لغيرها الأمم؟!

الجواب يطول ويتشعب، لكن خلاصته ومختصره هو النظر إلى طبيعة «الحروب» في كل من التصور الإسلامي والتصور الغربي.

في التصور الإسلامي تقوم الحياة على التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل، وهذا التدافع بدأ منذ اللحظة الأولى لخلق البشرية، حين أبى إبليس السجود لآدم فاستعلنت العداوة بين الطرفين إذ تعهد إبليس أن يبذل ما استطاع لإضلال بني آدم ليستكثر منهم في أهل النار، ثم كانت أول الوقائع الكبرى في التاريخ الإنساني هي إخراج آدم وزوجه من الجنة، وهو الذي كان بداية الامتحان الكبير للبشرية، والذي سُجِّلت خلاصته في الآية الكريمة ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]. والقرآن من أوله إلى آخره هو تسجيل لمراحل هذا الصراع بين الأنبياء وخصومهم، وهذه الأمة التي هي آخر الأمم تحمل رسالة الهداية للعالمين والتي عرَّفها ربعي بن عامر بقوله الموجز البليغ «ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

Readonly

فالخلاصة أن المسلمين ينظرون إلى هذه الحياة من منظار التدافع بين الحق والباطل، مُهتهم فيها إخراج الناس من الظلمات إلى النور، بمعنى إدخالهم في الدين ورفع المظالم عن المستضعفين.. ومن ثَمَّ فهي رؤية رسالية تمامًا، تتعلق بالأفكار والعقائد والقناعات والتصورات.

بينما الرؤية الغربية كما تعرض نفسها تحوم حول «الرخاء والرفاهية»، أي أنها رؤية مادية في طبيعتها، وتختلف حول هذا الهدف النظريات والفلسفات، فيختلفون حول تحقق هذا الهدف من خلال السيطرة على الأسواق بنظام مركزي أم من خلال ترك الحرية للأسواق لتنظيم نفسها أم ببعض الخلط بين الطريقتين. وبغير دخول في تفاصيل تاريخية وفلسفية فإنَّ المسار العام للحضارة الغربية تاريخيًّا انتهى إلى العلمانية المادية والتفسير الوضعي للعلوم الإنسانية، وسيادة «القوة» كمعيار وحيد يُقاس عليه وإليه. ولهذا أخرجت هذه الفلسفة تفسيرًا صراعيًّا للحياة، يجعل الصراع من قوانين الحياة وطبائعها ليهلك فيه الضعيف لصالح الأقوى، وليس في هذا أي ضرر أخلاقي، لأن الأخلاق نفسها صارت من العلوم الوضعية لا المعيارية، بمعنى: أن علم الأخلاق هو «دراسة الأخلاق كما تظهر في الواقع كطبائع وقوانين» لا «دراستها كمطلق ينبغي أن يُتطلع إليه».

ولهذا فيمكن بسهولة أن تنشأ في سياق الحضارة الغربية فلسفات ترى أن التخلص من الضعفاء والفقراء عمل جليل وواجب، بينما يمتنع تمامًا أن تظهر مثل هذه الآراء في سياق الحضارة الإسلامية لتناقضها الكامل مع أصول التصور الإسلامي ونصوصه الصريحة.

في ظلال الفلسفة الغربية يتأسس علم الاقتصاد ـ كمثال ـ على قاعدة أن الموارد

Readonly

محدودة بينما احتياجات البشر غير محدودة، فيكون التعريف البسيط للاقتصاد هو: إدارة الموارد المحدودة لتلبية الاحتياجات غير المحدودة، بينما يمتنع هذا التصور كله في التصور الإسلامي الذي يؤمن أن الله خلق الكون بحكمة وتدبير وميزان، وأن احتياجات البشر تكفيها الموارد المخلوقة لهم في الأرض، إذ الأرض كلها مسخرة لهم، وكل ما فيها قد خُلِق بتقدير ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ١٩ ـ ٢١].

وإذن، فالإشكال في الحضارة الغربية إشكال في طبيعة الكون نفسه، ذلك الذي يحتوي على موارد محدودة لا تكفي البشر، ومن ثم يكون منطقيًّا أن تظهر حلول تقوم على التخلص من البشر في كل مراحل تاريخ الغرب وفي كل مذاهبهم، وهو ما كان: فإن الملك ليكورجوس (الوثني) حاكم إسبرطة كان يقتل الأطفال الضعفاء والمشوهين؛ لأنهم لن ينفعوا المجتمع ولا الدولة، وهو ما نادى به بعد قرون طويلة نيتشه (الملحد) الموغل في الفردية والساعي إلى إيجاد الإنسان السوبر مان، وبينهما القس (المسيحي) الشهير مالتوس صاحب نظرية أن الفقر والمرض والزلازل أشياء إيجابية، وهي نوع من تكفير الطبيعة عن خطاياها في الإتيان ببشر أكثر من مواردها.

وهنا نعود إلى موضوعنا عن الجهاد والاحتلال:

إن انطلاقة المسلمين إلى الجهاد وفتح الأراضي لم يكن يحمل أية قيمة مادية تهتم بجباية الأموال واستخلاصها من البلدان المفتوحة، بل بنشر الدين ودعوة الناس إليه، ولهذا فإن هذه الحركة سعت في تعمير البلدان المفتوحة لا

Readonly

فـي إفقارها واسـتخلاص أموالهـا لصالـح العاصمة الإسـلامية، بل وكثيـرًا ما تكرر فـي التاريـخ أن تنهـض عاصمة فـي أقصى المشـرق أو أقصـى المغـرب بينما تكون العاصمـة الإسـلامية أقـل منها حالًا فـي الحضـارة والعمـران، بينما لم يكـن ممكنًا أن يحـدث هـذا فـي حقبة الاحتـلال الغربـي الـذي كان منهجـه اسـتخلاص موارد البـلاد لحسـاب تحقيق رفاهيـة بلاده.

ليس يوجد في تاريخ عصور الهيمنة الغربي عاصمة تحت الاحتلال استطاعت أن تفوق باريس أو لندن أو واشنطن أو موسكو، بينما نستطيع أن نعدد مناطق على وجه هذه الأرض لم تكن شيئًا مذكورًا في التاريخ إلا في فترة الحكم الإسلامي مثل إسبانيا وصقلية وعواصم آسيا الوسطى، فلقد دخل الإسلام هذه المناطق ولم تكن قبله شيئًا، ثم أُخْرج منها فعادت بعده لا شيء في مسرح التاريخ، ولم تكن فيها عواصم الخلافة الإسلامية، بل كلها كان بعيدًا عن عاصمة الخلافة.

وليـس يوجـد فـي التاريخ قـوم دخلوا في ديـن المحتـل أفواجًـا دون أن ترصد واقعـة واحـدة فيهـا إكـراه على اعتنـاق هذا الديـن، بل قـوم يجاهدون مـع الفاتحين لفتـح المناطـق التـي تليهـم (مثـلًا: طـارق بـن زيـاد فاتـح الأندلـس مغربـي وليس عربيًـا)، بينما لسـت تجـد في عصر المحتليـن الغربيين جنـودًا من الأقـوام الواقعين تحـت الاحتـلال فـي الجيـوش إلا بطريقـة الإكـراه والإجبـار، وهـذا كلـه فضـلًا عـن الأخـوة الحقيقيـة التـي يتعامـل بها المسـلمون مـع من دخـل في دينهـم مقابل العنصريـة والطبقيـة القبيحـة التي يتعامـل بها المحتلـون الغربيون مع الجنـود الذين أجبروهـم على الحـرب فـي صفوفهم.

ونسـتطيع أن نعـدد مع ذلـك كله أخلاق المسـلمين فـي الحـروب مقارنة مع

Readonly

أخلاق غيرهم في الاحتلال، وهذا حديث يطول ويطول، ونستطيع أن نكتب فيه كتابًا كاملًا لا يقل عن ألف صفحة نعتمد فيه فقط على أقوال المؤرخين الغربيين دون سواهم. فإن شهرة هذا تُعجز عن كتمانه أو إخفائه.

إن مجرد الانطلاق من رؤية رسالية قيمية ترى واجبها في نشر دين ورفع مظالم عن المظلومين يختلف اختلافًا هائلًا في طبائعه وسياساته عن الانطلاق من رؤية مادية نفعية غايتها تحقيق «القوة»، وقد صدق من قال:

حكمنا فكان العدل منا سجية ... فلما حكمتم سال بالدم أبطح

وأحللتم قتل الأسارى وقد ... كنا نمر على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

***

Readonly

من مغالطات التغريبيين في «الحرية بين الإسلام والغرب»

* نشر في مجلة الوعي الإسلامي، إبريل ٢٠١٤م

يقدم الغرب نفسه على أنه أرض الحرية (في داخله) وراعيها وحامل لوائها والمدافع عنها (في كل العالم)، وكذلك يراه التغريبيون من بني قومنا، فلئن صحَّ أنَّ الغربَ يرى نفسه كذلك عن حق أو عن باطل فهل يصح أن يراه قوم مسلمون كذلك؟!

لقد اضطر التغريبيون في بلادنا إلى اعتماد مغالطات منهجية عديدة في سبيل نشر هذه الفكرة، هذه السطور عرض لأهمها[1]:

(١) التعميم والتخصيص

إذا أُطلقت كلمة «الحرية» شملت أربع معانٍ: حرية النفس، حرية الفكر والاعتقاد، حرية الأخلاق، الحرية السياسية.

الأولى لم تعد موضع نقاش في عصرنا هذا إذ لم يعد ثمة عبيد بمعنى امتلاك بشر لبشر آخرين، الثانية ليس فيها موضع نزاع بيننا وبينهم إلا في موضوع حرية الكفر والارتداد ونشر قيم تناقض الإسلام، الثالثة موضع النزاع فيها كبير والتناقض فيها ظاهر إذ ليست تقبل مجتمعاتنا الإسلامية الانفلات الأخلاقي والإباحية التي وصل إليها الغرب ولا حتى واحدًا على الألف منها، والرابعة هي التي يمثل فيها الغرب

(١) نشر هذا المقال في مجلة «الوعي الإسلامي» الكويتية، جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ، إبريل ٢٠١٤م.

Readonly

نموذجًا مغريًا إذ إن كل نفس شريفة تتوق إلى التخلص من الاستبداد والطغيان وتحب أن يكون لها الحق في اختيار من يحكمها ومراقبته وعزله إن لزم الأمر.

ومن هنا تأتي المغالطة الكبرى: تمييع المساحات بين هذه المعاني الأربع، وتقديم الحرية ـ بمعناها السياسي المضاد للاستبداد ـ كرأس حربة لتسويق كل المعاني الأخرى: حرية الكفر والارتداد ونشر ما يناقض الإسلام من أفكار وسلوك وانفلات أخلاقي، وكانوا من انعدام الحياء بحيث كرروا أنه لن نصل إلى التقدم الغربي في العلم وفي السياسة إلا إن اعتنقنا وأنفذنا في عالمنا حرية الكفر والارتداد والإباحية وسائر ما يناقض ديننا الذي تحول ـ في كلامهم ـ إلى «تراث ينبغي التخلص منه ونبذه»، وهذا المعنى مما يتفقون عليه في الجملة وإن صاغه كل واحد منهم بحسب جرأته والبيئة من حوله.

وأعظم دليل على هذا أن كافة النخب المتغربة في بلادنا الإسلامية إنما نشأت تحت رعاية الاستبداد في بلادنا، ولم تقف يومًا مع حرية الشعوب بل كانت في ركاب المستبد على طول الخط، وقد مكَّنها المستبدون من منافذ الثقافة والتوجيه والنشر حتى صاروا مع الاستبداد كيانًا واحدًا أو على الأقل حلفًا واحدًا.

ومع ذلك فما زالوا يتغزلون في الغرب ويتحدثون عن الحرية!

(٢) اللحظة والتاريخ

فإذا قصرنا الحديث عن المعاني المحمودة التي يتفق عليها الناس من كلمة «الحرية»، فنحن بإزاء مغالطة أخرى، إذ التغريبيون في بلادنا يعتمدون مقارنة عجيبة بين اللحظة الغربية الحاضرة وبين التاريخ الإسلامي الطويل، فلا هي مقارنة اللحظة الحاضرة في الغربي وبلاد المسلمين ولا هي مقارنة التاريخ الإسلامي بالتاريخ الغربي.

Readonly

وكيف يفعلون؟! ولو فعلوا لكانت فضيحة! إذ من الثابت المعروف أن تاريخ الغرب في باب الحريات من أسوأ التواريخ، في ذات اللحظة التي ضرب فيها المسلمون نموذجًا فذًّا تعلم منه الغربيون، تقول كارين أرمسترونج: «كان المسلمون يسمحون للمسيحيين، مثلما يسمحون لليهود، بالحرية الدينية الكاملة في أرجاء الإمبراطورية الإسلامية، وكان معظم أهل إسبانيا يعتزون بانتمائهم إلى تلك الثقافة الرفيعة، فقد كانت تسبق سائر أوربا سبقًا يقاس بالسنين الضوئية»[١].

ولم يكن من ملجأ يومئذ للمضطهدين في الغرب إلا في بلاد المسلمين، لا سيما الدولة العثمانية التي احتضنت الفارين من الاضطهاد والحروب الدينية الأوروبية، بل كان التيار الجارف بين الشعوب الأوروبية هو تفضيل الحكم العثماني المسلم على الأوروبي، يقول توماس أرنولد بأن «أصحاب كالفن Calvin في المجر وترانسلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالما آثروا الخضوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة، ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيا بعيون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي، وحدث أن هرب اليهود الإسبانيون المضطهدون في جموع هائلة، فلم يلجؤوا إلا إلى تركيا في نهاية القرن الخامس عشر، كذلك نرى القوزاق الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء ـ الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية ـ قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية»[٢].

---

(١) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ص٣٢.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٨١، ١٨٢.

Readonly

إذا قارنَّا التاريخ بالتاريخ فالنتيجة محسومة، إذ الحرية في الغرب عمرها قصير، ثم هي بعد ذلك مقصورة على مواطنيهم أو بعض مواطنيهم، بينما الوجه الغربي البشع بادٍ في كل مكان احتله الغربيون أو ما زالوا يحتلونه ويهيمنون عليه.

بل إنه حتى لو قارنَّا اللحظة الحاضرة بين الغرب وبلاد الإسلام فلن يكون الغرب بريئًا مما صارت إليه أحوال المسلمين، فالغرب كانَ وما يزال صاحب مرحلة الاحتلال البغيضة التي تخلفت فيها الأمة، ثم لم يخرج بجسده حتى كان قد مهّد ومكن في بلادنا لعملائه المستبدين الذين ما يزال يرعاهم ويحوطهم، ثم هو المتآمر على الثورات الشعبية العامل على إفسادها، فلئن كانت ثمة مقارنة ستميل إلى صالح الغرب فهي في أحد وجوهها مقارنة بين الوجهين الغربيين: الوجه البشع في بلادنا والوجه المتزين في بلادهم.

(٣) النظرية والواقع

القارئ لليبراليين العرب يجد فيضًا من أسماء الفلاسفة الغربيين حتى ليبدو كل منهم حريصًا على استعراض مهارته في سرد أكبر عدد ممكن من الأسماء التي يوحي بأنه هضم أفكارهم وفلسفاتهم، وهذا المشهد يمثل تكرارًا للشيوعين في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، ويتفق المشهدان في الغزل المستمر لهذه الأفكار.

لكنهم لا يخرجون من مقارنة هذه النظريات لمقارنتها بـ«النظريات» الإسلامية الواردة في نصوص الكتاب والسنة والتراث الفقهي والأصولي الإسلامي، بل يهرعون إلى مقارنة ذلك بـ«الواقع» الإسلامي، سواء من التاريخ أو الحاضر، فيتحدثون عن الخليفة الذي كان همه السيف والخليفة الذي كان همه النساء والخليفة الذي كان يعذب أعداءه ويقطعهم.. إلخ، ودعك الآن من أن كثيرًا من الوقائع التي يتحدثون عنها

Readonly

غير ثابتة تاريخيًّا أو يأخذونها من كتب الأدب والأقاصيص والأهازيج، إنما المهم الذي نناقشة الآن هو هذه المنهجية في مقارنة «النظريات» بـ«الوقائع»، فلا هي مقارنة نظريات بنظريات ولا مقارنة وقائع بوقائع.

ولأن الغرض مرض فهم لا يتوقفون كثيرًا أمام نظريات غربية ترسخ العبودية وتجعلها حتمية إنسانية، رغم أنها نظريات قال بها «الآباء المؤسسون الكبار» للثقافة الغربية مثل أفلاطون وتوماس مور (وهما أشهر اسمين في نظريات «المدينة الفاضلة») بينما يتوقفون طويلًا ويستنكرون طويلًا «سماح» الإسلام بوجود عبيد، وهو فارق دقيق وضخم لم يفهمه التغريبيون في بلادنا بينما فهمه بعض الغربيين مثل الخبير والقانوني الإيطالي دافيد دي سانتيلانا الذي يقرر أن القاعدة في الشريعة هي الحرية، وأنه قد ترتب على هذا أمور كثيرة منها أن اللقيط المجهول أصله ترجح حريته على عبوديته، وأن المشكوك في حريته لا يجبر على إثبات حريته حتى تنهض القرائن والدلائل القضائية على عكس ما يزعم، وأن حالة الحرية ترجح عند وجود الشك، وأنه لا يجوز لمن كان حرًّا أن يبيع حريته أو يساوم عليها، والحر الذي يرغب في العبودية لا يُقَرّ على هذا، ثم قال: «وقد بشر الإسلام بهذه المساواة في وقت لم يعرف عنها العالم المسيحي شيئًا»، وفي نهاية بحثه شهد شهادة منصف فقال: «المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور»[1].

---

(١) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في كتاب (تراث الإسلام) بإشراف توماس أرنولد، ص٤١٧، ٤٣٢، ٤٣٩.

Readonly

إنه لابد من مساحة بين النظرية والتطبيق، تلك حقيقة يفرضها مثالية التفكير وبشرية التطبيق، فالمقارنة تصح بين نظرية وأخرى أو بين تطبيق وآخر، وحتى لو شئنا أن نقارن بين «مستوى النجاح في تطبيق النظرية» فسنجد أنفسنا إزاء حقيقة صادمة لهم، ذلك أن الإسلام اشتمل على عصور ذهبية كانت فيه النظرية أقرب شيء إلى الواقع كعهد النبي ﷺ والخلافة الراشدة وعديد من الخلفاء الصالحين، بينما لم ينجح تصور واحد من تصورات المدينة الفاضلة في الغرب كما تقرر الباحثة الإيطالية ماري لويزا برنيري بعد دراسة مطولة ومهمة في كتابها «المدينة الفاضلة عبر التاريخ».

* * *

Readonly



خاتمة

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان، وقد أبى الله أن يتم كتابًا إلا كتابه.

وأسأل الله تعالى ألا تكون خاتمة اللقاء بالقراء الكرام، وأن يوفقنا لما فيه رضاه، وأسأله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ولا يجعل لأحد سواه فيها نصيبًا.

وأستقبل ملاحظاتكم وتعقيباتكم وإضافاتكم على بريدي:

moha.elhamy@gmail.com

* * *